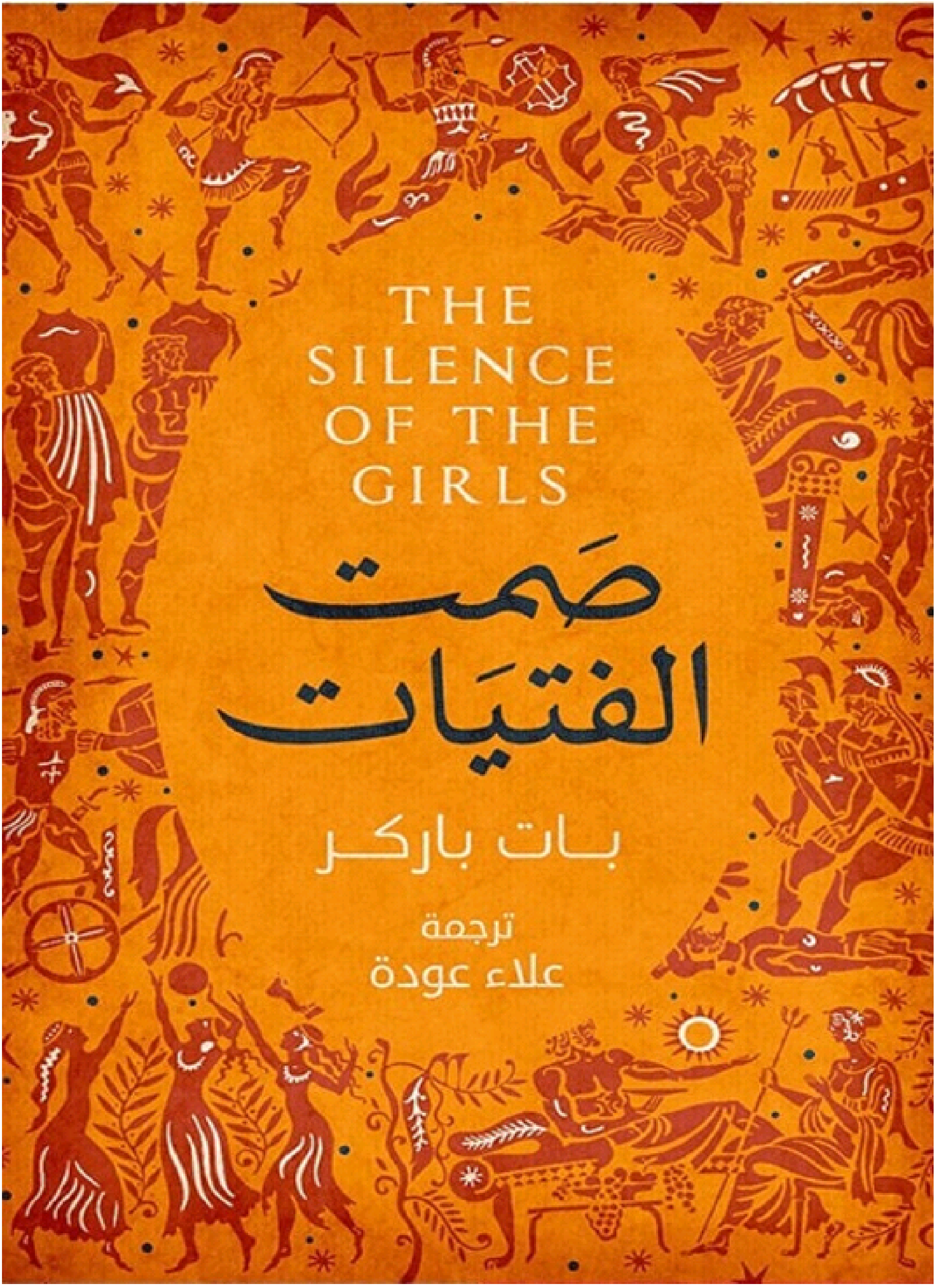

THE SILENCE OF THE GIRLS

صَمت الفتيَات

بات باركر

ترجمة
علاء عودة

صَمْتُ الفتيات

رواية

بات باركر

ترجمة

علاء عودة

عصير الكتب
للنشر والتوزيع

اهداء

إلى ولدَيَّ: جون وآنا.

وكالعادة، وفاءً لذكرى ديفيد.

«أتعرفون كيف بدأ الأدب الأوروبي؟» طَرَحَ سؤاله بعد أخذِ التفقد في أول انعقادٍ للصف الدراسي، «بنزاع الأدب الأوروبي انبثق بمجمله من قتال»، ثم التقطَ نسختَه من الإلياذة وراح يتلُو السطور الاستهلالية على الحضور، «يا آلهة الإلهام(1)، أنشِدي عن غضبة أَخِيل الماحقة، ابدئي من حيث اشتبكا لأول مرة؛ أجَامِمْنون مَلِك الرجال، وأخيل العظيم، وعلامَ عساه يكون نزاع هاتين الروحين العنيفتين القديرتين؟ الأمر بديهي كما في شجارات الحانات، إنهما يتنازعان على امرأة، بل فتاة بالأحرى؛ فتاة سُلِبَت من أبيها، فتاة اختُطِفَت في حرب.»

الوصمة البشرية: فيليب روث

(1) آلهة الإلهام أو الميوزات Muses: بحسب الميثولوجيا الإغريقية القديمة، هُنَّ آلهات أخوات (أو حوريات أو مخلوقات ألوهية)، عُرِفْن كمصادر إلهام أثناء التأليف الموسيقي، وفي أوقات لاحقة، بملهمات جميع أنواع الفنون والشعر والعلوم، حيث اعتُبِرْنَ في بعض الأحيان تجسيدات لها، كان الإغريقيون القدامى يدعون إليهن طلبًا للإلهام، ولإبراز أعمالهم بشكل مميز. (المترجم)

الجزء الأول

-١-

أَخِيلُ العظيم، أخيل المتقد، أخيل اللامع، أخيل الإلهي.

عجبًا كيف تتراكم الألقاب؟! لم ننعته يومًا بأي من هذه الأسماء، كنا نسميه «الجزار».

أخيل خفيفُ الساق، هذا بالذات لقبٌ مثير للاهتمام، كانت سُرعته هي ما يمُيزه أكثر من اتقاد الذكاء والعظمة، وتروي إحدى القصص أنه ذات مرة طارد الإله أبولو عبر سهول طروادة، ويُفترض أن أبولو قال حين حُشِرَ في الزاوية أخيراً: «لا يمكنك قتلي؛ فأنا خالد.» فأجابه أخيل: «هذا صحيح، لكن كلينا نعلم أنك لو لم تكن خالدًا لكنتَ الآن في عداد الموتى.»

ما كان يُقيِّض لأحدٍ أن يحظى بالكلمة الأخيرة، حتى لو كان إلهًا سمعتُه قبل أن أراه: أسوار ليرنيسوس كانت ترجِّعُ أصداءَ صيحته للمعركة.

كان قد طُلِبَ منا نحن النساء - وكذلك الأطفال بالطبع - أن نذهب إلى القلعة مع بدلٍ من الملبس ومقدار ما نستطيع حمله من الطعام والشراب، وكدأب النسوة المتزوجات حسنات السمعة، نادرًا ما كنت أغادر منزلي رغم أن المنزل في حالتي كان قصرًا بلا ريب؛ ولذا بدا لي المسير في الشارع في وضح النهار أقرب إلى عيد ديني، وتحت الضحك والهتافات البهيجة والمزاح الصاخب، أظن أننا كنا خائفات جميعًا؛ أوقن أنني كنت خائفة عن نفسي، جميعنا كنا نعلم أن الرجال يُدْحَرُون، فالقتال الذي كان يدور على الشاطئ وفي أرجاء المرفأ انتقل الآن إلى أعتاب البوابة تمامًا، كان بوسعنا سماع الصرخات والصيحات وصليل السيوف والدروع، كما كنا نعي ما ينتظرنا إذا سقطت المدينة، ومع ذلك لم نكن نشعر بكون الخطر حقيقيًّا، على الأقل ليس بالنسبة إليَّ، وأشك أن النساء الأخريات كُنَّ أقرب مني إلى إدراكه، كيف يمكن لتلك الأسوار العالية التي حمَتنا

طيلة حياتنا أن تسقط؟!

عبر أزقة المدينة الضيقة، أخذت جماعات صغيرة من النساء اللاتي يحمِلن الرُّضَّع أو يمسكن بأيدي الأطفال تتجه نحو الميدان الرئيسي، ضوء الشمس حاد والرياح جارفة، وظِل القلعة الأسود يتمدَّد ليحتضننا.

تعثرتُ إذ بُهِرَت عيناي للحظاتٍ وأنا أنتقِل من الضوء الساطع إلى الظلام، كانت نسوَة العوام والإماء يُسَقْنَ معًا إلى القبو، بينما احتلت نساء العائلات الملكية والأرستقراطية الطابق العلوي، صعدنا الدرج الملتوِي بأكمله، وإحدانا بالكاد تجد موطئ قدم على الدرجات الضيقة، رُحنا نلتفُّ في انعطافٍ تلو الآخر حتى دلفنا في نهاية المطاف وعلى نحوٍ مفاجئ إلى غرفة كبيرة جرداء.

سِهام الضوء النافذ من الكوى الضيقة تنبسط متباعدة على الأرضية، تاركةً زوايا الغرفة في الظل، أخذنا نُجيل أنظارنا في الأنحاء ببطء، كلٌّ تنتقي لها مكانًا للجلوس وفردِ أغراضها كي نشرعَ بتكييف ما يشبه منزلًا.

في بادئ الأمر بَدَا جو الغُرفة معتدِل البرودة، لكنه مع ارتفاع الشمس صار حارًّا ومزكومًا وشحيح الهواء، وخلال ساعات، أصبحت روائحُ الأجساد المتعرقة والحليب وخراء الأطفال ودماء الحيض تكاد لا تُحتمل، وبدأ الكدر ينتاب الرُّضَّع والصغار في الحر.

مددت الأمهاتُ أصغرَ أطفالهن على الملْاء، وأخذنَ يهوينَ لهم بينما يركض إخوتهم وأخواتهم الأكبر في المكان تستخفهم الحماسَة المفرِطة دون أن يفهموا ما كان يحدُث حقًّا، واعتلى بضعَة صبيان في العاشرة أو الحادية عشرة من أعمارهم - أصغر من أن يُستنفروا للحرب - الدرجات العُليا متظاهرين بردع الغزاة، في حين أخذت النساء تنظُر واحدتهن إلى الأخرى بأفواهٍ جافة دون كثير كلام، بينما في الخارج تتعالى الصيحات والصرخات، والبوابات تُدَكُّ مدوية!

كانت أصداء صياح المعركة تتردد مرارًا وتكرارًا أقربَ إلى عويل ذئب منها إلى صوت بشري، ولأول مرة تحسد أمهاتُ البنين أمهاتِ البنات، إذ كان يُسمح

للفتيات أن يعشنَ، بينما يُساق الصبيَة - حالما يقاربون سن القتال - إلى الذبح بشكل روتيني، حتى النساء الحبالى كُنَّ يُقتَلن أحيانًا، وتخترق الأسنَّة بطونهن درءًا لاحتمال أن يكون الجنين ولدًا.

انتبهتُ إلى «إسمين» - التي كانت حُبلى في شهرها الرابع بطفلِ زوجي - وهي تضغَط يديها بشدة على معدتها محاولةً إقناع نفسها أن الحمل ليس ظاهرًا. في الأيام القليلة الماضية، كنتُ غالبًا ما أراها تنظر إليَّ - «إسمين» التي كانت فيما مضى تُحاذِر أن تلتقي عيناها عينيَّ - وكان تعبير وجهها يقول بما هو أفصح من أية كلمات: حان دوركِ الآن، فلنرَ إن كان سيعجبك ذلك.

مؤلمة تلك التحدِيقة الوقحَة التي لا ترمش، أنا أتحدَّر من عائلة كانت تحنُو على عبيدها، وحين سلَّمني أبي زوجةً للملكماينز، تابعتُ التقلِيد المتُبع بين أهلي، كنتُ أحنُو على «إسمين» أو هذا ما ظننتُه، غير أن أي شكل من الحنو لم يكن ممكنًا بين المالك والعبد، وما هو إلا تفاوت في درجات الوحشية.

نظرتُ عبر الغرفة نحو «إسمين» وأنا أقول في قرارتي: أجل، أنتِ مُحقة، لقد حان دوري الآن. لم يتحدث أحد عن الهزيمة، رغم أننا توقعناها جميعًا، عدا عجوز واحدة؛ إنها خالة زوجي الكبيرة، التي كانت تُصر على أن التقهقُر نحو البوابة لا يعدُو كونَه حيلة تكتيكية، كانت تقول: إن «ماينز» يتلاعب بهم ليس إلا، ويسُوقهم معصوبي الأعين نحو فخ نصبَه، وإننا سننتصر، ونطارد الإغريق في البحر، وربما صدقتها بعض النساء حديثات السن كما أظن، لكن سرعان ما عادت صيحة الحرب تلك مرارًا وتكرارًا، وبدت أقرب في كل مرة، وجميعنا كنا نعرف من يكون صاحبها رغم أن أحدًا لم يقُل اسمه.

كانت معرفتنا المسبقة لما سيتعينّ علينا مواجهته تُثقِلُ الهواء، الأمهات يطوِّقن بأذرعهن الفتياتِ اللاتي كُنَّ يكبرن بسرعة لكنهن لم ينضجنَ للزواج بعدُ؛ لم تكن الفتيات الصغيرات بعمر التاسعة والعاشرة ليُستَثنَيْن.

مالت «ريتسا» نحوي: «حسنًا، على الأقل لسنا عذراوين.» كانت تبتسِم وهي تقُول ذلك، كاشفةً عن فراغات بين أسنانها سببتها سنوات طوال من الإنجاب لم

تخرج منها ولو بطفل حي، أومأتُ حاملةً نفسي على الابتسام دون أن أقول شيئًا.

كنتُ أشعُر بقلقٍ على حماتي التي فضَّلَت أن تتخلَّف عنا في القصر عوضًا عن أن تُحْمَلَ إلى القلعة على مِحفة، أنا الآن قلقة وساخطة على قلقي؛ فلو أن إحدانا كانت مكان الأخرى لما اكترثَتْ هي بي دون شك، كانت تعاني منذ عام مرضًا ورَّم بطنها وجرَّد عظامها من اللحم.

في نهاية المطاف قررتُ أن عليَّ الذهاب إليها، على الأقل كي أتوثق من امتلاكها ما يكفي من الماء والطعام، أرادت «ريتسا» أن تُرافقني - وكانت قد نهضَت على قدميها بالفعل - لكنني هززتُ رأسي قائلةً: لن أتغيب أكثر من لحظات.

في الخارج، أخذتُ نَفَسًا عميقًا حتى في تلك اللحظة بينما كان العالم على وشك أن ينفجر ويتداعى فوق رأسي، شعرتُ بالفرَج لدى تنفسي هواءً غير فاسد، وكان الهواء مغبراً وحارًا يجرح سقف حَلقي، لكن رائحته بَدَتْ لي مُنعِشة رغم ذلك إذا ما قُورنت بجو الغرفة العلوية النتنِ.

أقصر الطرق إلى القصر يقع على الطرف المقابل من الميدان الرئيسي، لكنني رأيت سهامًا مبعثرة في الغبار، بل وشاهدت أحدها يحلِّق فوق الأسوار لينغرس مرتعشًا في كومَة من التراب، لا، من الأفضل ألا أُخاطِر.

اجتزتُ راكضةً شارعًا جانبيًا كان من الضِّيق بحيث إن المنازل السامقة حولي بالكاد تفسح المجال لنفاذ شيء من الضوء، ولدى وصولي إلى أسوار القصر، دلفتُ من بوابةٍ جانبية لا بُد أنها تُرِكَتْ دون أن توصد حين فر الخدم، وبينما يتناهى صهيل الخيول من الإسطبلات عن يميني، عبرتُ الفناء وركضتُ بسرعة مجتازةً ممرًا يقود إلى الردهة الرئيسية.

بَدَت لي الغرفة الضخمة المهيبَة التي ينتصب عرش «ماينز» في طرفها القصي غريبة، كنت قد دخلتُها للمرة الأولى يوم زفافي، محمولةً على محفَّة من منزل أبي بعد الظلام، ومحاطةً برجال يحملون مشاعلَ متوهجة، وكان «ماينز» وإلى جانبه والدته الملكة ماير؛ ينتظراني ليرحبا بي.

توفيَّ والده قبل ذلك بعام، ولم يكن لديه إخوة، فكان من الطبيعي أن يكون الوريث الوحيد، وبذلك تزوج في سن أصغر بكثير من المعتاد لزواج الرجال، رغم أنه كان قد شق طريقه دون شك بين نساء القصر، إضافة إلى استمتاعه ببضعةٍ من صِبية الإسطبلات أثناء ذلك.

وكم أظنني كنتُ مخيبة للأمل حين ترجَّلتُ أخيراً من المحفة ووقفتُ مرتعشةً بينما تنضو الخادمات عني عباءتي وأخمِرتي؛ كائن صغير نحيل، لا يُرى منه سوى شعر وعينين وبالكاد شيء من الانحناءات، يا لماينز المسكين! فِكرته عن الجمال الأنثوي كانت تتجسَد في امرأة سمينة إلى درجة أنه إذا صفعَها على كَفَلِها في الصباح تظل ترجرَج حتى يعود إلى منزله على العشاء! لكنه بذل قصارى جهده كل ليلة طوال شهور، كادحًا بين فخذَيَّ اللذين لا يرقيان إلى الشهوانية عن طيبِ خاطرٍ خليقٍ بحصان يرزح بين دعامتَي عربة، غير أن الضجر سرعان ما انتابه حين لم يتأتَّ حملٌ عن كل ذلك، فركنَ عائدًا إلى حبه الأول؛ امرأة كانت تعمَل في المطابخ، تلقفته في سريرها بمزيج الإماء الرقيق من الحنان والعدوانية وهو لمَّا يبلغ الثانية عشرة.

منذ ذلك اليوم الأول، تيقنتُ ما إن نظرتُ إلى الملكة «ماير» أن أمامي معركة، غير أنها لم تكن مُجرد معركة، بل حربًا دامية كاملة، وببلوغي عامي الثامن عشر كنت قد لعبتُ دور المحارب المخضرم في الكثير من الحملات الطويلة المريرة.

بَدَا «ماينز» غير واعٍ البتة بذلك التوتُر، لكنني كنتُ أعرف من خِبرتي أن بصر الرجال أعمى عن العدوانية لدى النساء بشكل يدعُو للاستغراب، هم وحدهم المحاربون، بخوذهم ودروعهم وسيوفهم ورماحهم، ويبدو أنهم لا يرون معاركنا -أو يفضلون ألا يروَها- ربما لو أدركوا أننا لسنا تلك المخلوقات الرقيقة التي يتخيلونها لتَعكَّرَ سلامهم الذهني!

لو أنني رُزِقت بطفلٍ لتغير كل شيء، لكنني بعد عامٍ كنتُ ما أزال أضيِّق إزاري على خصري بتحدٍّ إلى أن أشارت «ماير» نحو خصري الناحل - واليأس يأخذ منها كل مأخَذ من توقها إلى حفيد - ساخرةً مني دون تحفُّظ.

لا أعرف ما كان سيحدث لو لم يطرحها المرض، كانت قد اختارت بالفعل محظيةً من إحدى العائلات الحاكمة؛ فتاة تكون - رغم غياب الزواج القانوني - ملكةً في كل شيء عدا اللقب، لكن حينذاك بدأ بطن ماير يتورم، وكانت سنُّها ما تزال ملائمة لتثير موجات فضيحة.

جنينُ مَن هذا؟ تردَّد السؤال على ألسِنة الجميع، مع أنها لم تكن تغادر القصر أبدًا إلا كي تصلي أمام ضريح زوجها، لكن سرعان ما بدأت سحنتها تصفرُّ وأخذت تفقدِ وزنها وتعتزل في غُرفتها معظم الوقت، وفي غياب إشرافها، تلعثمتْ المفاوضاتُ على المحظية ابنة السادسة عشرة حتى ذَوَتْ تمامًا، وتلك كانت فُرصَتي، أول فُرصة سنحَت لي واغتنمتُها، ثم سرعان ما بدأ جميع مستخدَمي القصر الذين كانوا مُخلصين لها يستجيبون لي، ولم تتراجع إدارة القصر عما كان الحال عليه حين كانت هي في موضع السلطة، بل ازدادت كفاءةً بالأحرى.

وقفتُ وسط الردهَة أستعيِد هذه الذكريات، وكان القصر - الذي عهدتُّه مفعمًا بالضجة: الأصوات وصلصلة الأواني ووقْع الأقدام الراكضة - يمتد مُتراميًا حولي بسكونٍ يليق بالأضرحَة، كنتُ ما أزال أسمع احتدام المعركة خارج أسوار المدينة، لكن الصوت الذي كان أقرب إلى طنين مُتقطِّع لنحلة في مساء صيفي لم يزد على أن كثَّف الصمت.

كنتُ لأفضِّل أن أبقى هناك في الردهة، أو حتى إن أخرج إلى الفناء الداخلي لأجلس تحت شجرتي المفضلة، لكنني أدركتُ أن «ريتسا» كانت ستقلَق عليَّ؛ لذا صعدتُ الدرج على مَهل وعبرتُ الممر الرئيسي نحو غرفة حماتي.

أصدر الباب صريراً حين فتحتُه، ووجدتُ الغرفة في ظلامٍ جزئي، كانت «ماير» تُبْقِي الستائر مُسدلة، ولم أستطِع الجزم إذا ما كان ذلك لأن الضوء يؤلم عينيها أم لأنها ترغب في إخفاء مظهرها المتغيرِ عن العالم، لقد كانت فيما مضى امرأة في غاية الجمال، وكنتُ قد لاحظتُ قبل أسابيع اختفاءَ المرآة البرونزية الثمينة التي تُشكِّل جزءًا من بائنة زواجِها.

حركةً على السرير، ووجه شاحِب يلتفِت نحوي في الظلام.

- «مَن؟»

- «بريزيس».

أشاح الوجهُ على الفور، لم يكُن هذا هو الاسم الذي تمنَّت سماعَه، كانت قد أصبحَت أكثر تعلقًا بـ«إسمين» التي يُفترض أنها تحمل طفل «ماينز» - وكان الأمر كذلك على الأغلب - رغم أنه بالنظر إلى الحياة التي تعيشها الإماء لم يكُن من الممكن دائمًا الجزم بهوية آباء أطفالهن، لكن ذلك الطفل صار أمل «ماير» في الأسابيع والأشهر اليائِسة الأخيرة، أجل، لقد كانت «إسمين» أَمَة، لكن تحرير الإماء أمرٌ مُمكن، وإن قُدِّر للطفل أن يكون صبيًّا.

تابعتُ التقدُّم داخل الغرفة: «ألديكِ كل ما تحتاجينه؟»

«أجل»، أجابَت دون تفكيرٍ تدفعها الرغبة في أن أذهَب وحسب.

«هل الماء كافٍ؟»

أشارَت بعينيها إلى الطاولة بجانب السرير.

التففتُ حول السرير وحملتُ الإبريق الَذي كان مُمتلئًا تقريبًا، صببتُ لها كأسًا كبيرة ثم ذهبتُ لأعيد ملء الإبريق من إناء ماء في الزاوية الأبعد عن الباب، كان الماء دافئًا آسنًا تعلُوه طبقَة رقيقة من الغبار، غمرتُ الإبريق عميقًا وحملتُه إلى السرير.

على البساط الأحمر والأرجواني تحت قدمي امتدت أربعة شرائط حادة من الضوء، ساطعة بما يكفي لتُؤلم عيني، رغم أن السرير كان في ظلامٍ شبه كامل. كانت تجاهد كي تنتصِب جالسةً، قربتُ الكأس من شفَتيها فشربَتْ بشراهَةٍ، وارتعشَ عنقها المهزول مع كل جرعة، بعد قليلٍ، رفعَتْ رأسَها فظننتُ أنها اكتفت، لكن نَدَّ عنها مواءُ احتجاجٍ خافِتٍ حين هممتُ بإبعاد الكأس، وحين

انتهَت أخيراً، مسحَتْ فمَها بلُطفٍ مُستخدمةً طرف خمارها، كان يمكنني أن أستشعر امتعاضها مني لأنني شهدتُ عطشها وعجزها.

قمتُ بترتيب الوسائدِ خلف رأسها، وحين مالَت إلى الأمامِ بدَا عمودها الفقري مرئيًّا بشكل صادمٍ تحت جلدها الشاحب، كان أشبه بالحسك الذي يُنزع من الأسماك المطهوة، مددتُها على الوسائد برِفق فأفلتَت تنهيدَة تنمُّ عن رِضى، ثم سوَّيتُ الملاْء، فانبعثَت من كل طية في القماش رائحة شيخوخة ومرض وبول كذلك.

لقد كنتُ غاضبة، كرهتُ هذه المرأة بضراوة لمدة طويلة ولمِ أكن أعلمِ السبب لذلك؛ فقد دخلتُ منزلها فتاةً في الرابعة عشرة، فتاة دون أمٍ تُوجهها، كان بوسعها أن تكون رؤُوفةً معي لكنها لم تفعل؛ كان بوسعِها أن تساعدني على إيجاد موطئ لقدمي لكنها لم تفعل، لم يكن لديَّ سبب كي أحبها، لكن ما تسبَّب بغضبي في تلك اللحظة كان أنها - من خلال السماح لنفسها بالتضاؤل إلى حدٍّ لم تعُد معه أكثر من كومة جلد مجعد وعظمٍ ناتئ - لم تترك لي سوى النزر اليسير لأكرهه، أجل، كنت قد فُزْتُ، لكنه نصرٌ فارغ، وليس ذلك لأن «أخيل» كان يدكُّ البوابة وحسب.

- «هناك ما يمكنك فعله من أجلي»، صوتها مُرتفع وواضح وبارد: «أترين ذلك الصندوق؟»

رأيتُه وإن كنتُ لم أرَه من قبل؛ فهو مستطيل من خشب السنديان المحفور الثقيل، كامن في ظلهِ عند قائمة السرير.

- «أريد منكِ أن تحضري شيئًا».

ومع رفعي للغطاء الثقيل، كنتُ أطلق رائحة عفنة لريش وأعشاب عطرية بائتة:

- «ما الذي أبحث عنه؟»

- «ثمة سكين، لا، ليس في الأعلى، في الأسفل، أترينها؟»

استدرتُ لأنظر إليها، فحدقَتْ نحوي مباشرةً، دون أن ترمش أو تخفض ناظريها. كانت السكين مدسُوسة بين الطبقتين الثالثة والرابعة من مُلاء السرير، استللتُها من غمدها فغمزني نصلها الحاد بخبث، كانت أبعد ما تكون عن السكين الصغيرة المزخرفة التي توقعتُ أن أجدها، النوع الذي تستخدمه النساء الثريات لتقطيع اللحم؛ لها طول خناجر الرجال الرسمية، ومن المؤكد أنها كانت تعود إلى زوجها.

حملتُها إليها ووضعتُها في يديها، أنزلَتْ عينيها نحوها ممررةً إصبعها على المجوهرات التي تكسُو المقبض، تساءلتُ للحظةٍ إذا ما كانت ستطلُب مني أن أقتُلها وكيف سأشعُر إن فعلتْ، لكن لا، اكتفَت بالتنهُّد ووضعَتِ السكين جانبها.

قالت وهي ترفع من جلستها قليلًا على السرير:

- «هل سمعتِ أي شيء؟ أتعرفين ما يحدث؟»

- «لا، لكنني أعلم أنهم اقتربوا من البوابة».

كان بوسعي أن أشفق عليها حينذاك؛ امرأة عجوز - لأن المرض جعل منها عجوزًا - تخشى أن يُقال لها: إن ابنها مات.

- «إن سمعتُ شيئًا بالفعل، سأُعْلمكِ طبعًا».

أومأَتْ إيعازًا لي بالانصراف، وحين بلغتُ الباب توقفتُ لبرهةٍ ويدي على المزلاج ثم نظرتُ إلى الخلف، لكنها كانت قد أشاحَت بوجهها.

***

كانت «ريتسا» تُحَمِّم طفلاً مريضًا حين عُدت، وتعينَّ عليَّ أن أتخطى بضعَة أجساد نائمة كي أصل إليها، استدارت حالما حط ظلي عليها:

- «كيف هي؟»
- «ليست جيدة، لن تصمُد.»
- «لعل في ذلك خيراً لها.»

انتبهتُ إليها توجه نحوي نظرةً مرتابَة؛ كان العداء بيني وبين حماتي أمراً بيِّنًا، قلتُ بما لا يخلو من نزعَة دفاعية:

- «كان بوسعها أن تأتي معنا، وكنا لنحملها، لكنها لم تُرِد ذلك.»

ندَّت أنَّةٌ شاكيَة عن الطفل، فرفعَت «ريتسا» شعره عن جبينه المبلل، أمه جالسَة على بُعْدِ أقدام تُعاني مع رضيع شكِسٍ يريد الرضاعة لكنه يعارك الثدي، بَدَتْ مُنهكة، فتساءلتُ إذا ما كانت مواجهةُ المستقبل أصعب حين يكون المرء مسؤولاً عن حيوات أخرى! أنا لم يكن لديَّ ما أحمِله سوى عبء نفسي، واستشعرتُ وأنا أنظرُ إلى تلك الأم المرهَقة بالحرية الناجمة عن ذلك، إضافة إلى الوحدة، ثم خطر لي أن هنالك طرقًا مختلفة ليكون المرء مرتبطًا بآخرين، أجل، لم يكن لديَّ أطفال، لكنني كنتُ أشعُر بمسؤولية تجاه كل امرأة وطفل في تلك الغرفة، عدا عن ذِكر الإماء المحشورات بعضهن فوق بعض في القبو.

مع اشتداد الحر، همدت معظمَ النسوة في أماكنهن وحاولنَ النوم، نجحتَ بعضهن في ذلك، وسادَت جوقة متصاعدة من الشخير والأنفاس الصافرة لبعض الوقت، لكن أغلب النساء كُنَّ مستلقيات يُحدِّقن إلى السقف بكسَل، أغمضتُ عينيَّ وأبقيتهما مغمضتين بينما أحس بالنبض في صدغي وتحت فكي، ثم وردت صرخة «أخيل» الحربية مجدداً، قريبةً هذه المرة إلى درجة دفعت بعض النساء إلى النهوض جالسات والتحديق في الأنحاء برعب؛ كنا نعلم

جميعًا أننا نقترب من النهاية.

وبعد ساعة، لدى سماعي صوت التحطم وتطاير شظايا الخشب، ركضتُّ متجهة نحو السطح، وانحنيتُ على المتراس فرأيت المحاربين الإغريق يتدفقون من ثغرة في البوابة، تحتي مباشرة كان حشد من الأذرع والأكتاف المعقودة يتقدم ثم يتراجع بينما يصارع رجالُنا في سبيل دفع الغزاة إلى الخلف، ما من جدوى، لقد كانوا ينهمرون من الثغرة موزعين الطعنات والجلدات في طريقهم، وسُرعان ما صبغت الدماء ذلك الميدان المسالم الذي اعتاد المزارعون أن يعقدوا فيه السوق في نهاية الأسبوع.

من حينٍ إلى آخر ودون سبب جلي، تنشق فجوة ضمن الصفوف التي تكدح في المقاومة، وفي إحدى تلك الفُرجات اللحظية رأيت «أخيل» يرفع رأسه المزين بالريش وينظُر نحو عتبات القصر حيث كان زوجي يقف وإلى جانبه اثنان من إخوتي، وما شاهدتُه بعد ذلك كان «أخيل» وهو يشق طريقه نحوهم بسيفه.

حين بلغ العتبات نزل الحراس راكضين ليعترضوا طريقه، رأيته يُقحم سيفه صعودًا في بطن أحد الرجال، انبجست الدماء والبول، لكن الرجل المحتضر - دون أي أثر للألم على وجهه - ضم أحشائه المُراقة بحنو أم تُرضع طفلها الوليد، رأيت أفواه الرجال تفغر مثل ورد قرمزي لكنني لم أسمع صراخهم، ظل ضجيج المعركة يتواتر بما يصمُّ الآذان للحظة ثم ينكتم في اللحظة التالية، كنتُ أقبض على حاجز المتراس بشدة تشققتْ معها أظافري على الحجر الخشن، ومرت لحظات أقسم أن الوقت توقف فيها.

رأيت أصغر إخوتي - في الرابعة عشر وبالكاد يستطيع رفع سيف أبي - وهو يموت، رأيتُ وميض الرمح المرفوع، رأيت أخي وقد طُرِحَ أرضًا كخنزير محشور، وفي تلك اللحظة - وكأن أمامه كل الوقت في العالم - أدار «أخيل» رأسَه وألقى نظرةً على البرج إلى الأعلى، كان ينظر نحوي مباشرة أو ذلك ما بدا لي، أظنني تراجعت خطوة إلى الخلف، لكن الشمس كانت تسطع في عينيه، لا يمكن أن يكون قد رآني، ثم - بإحكام رابط الجأش أتمنى لو أنساه لكنني لا أستطيع -

وضع قدمه على عنق أخي ونزع رمحه منها، تطاير الدم من الجرح، ونازع أخي طيلة دقيقة كاملة من أجل أنفاسه، ثم خمد ساكنًا، وشاهدت سيف أبي يسقط من قبضته المرتخية.

كان «أخيل» قد مضى يتابع طريقه نحو الرجل التالي، ثم الذي يليه، لقد قتل ستين رجلًا ذلك اليوم.

العراك الأعتى نشبَ على عتبات القصر، حيث قاتل زوجي «ماينز» المسكين الساذج ببسالةٍ ليذود عن مدينته، هو الذي كان حتى ذلك اليوم فتى ضعيفًا فجًّا متذبذب الروع، مات ويداه قابضتان على رمح «أخيل»، كما لو أنه يظنه ملكه «وأخيل» يحاول انتزاعه منه، بدا «ماينز» مشدوهًا تمامًا، مات أخواي الكبيران إلى جانبه، ولا أدري كيف مات ثالث إخوتي عمراً، لكنه لقي حتفه بطريقة أو بأخرى، سواءً أكان ذلك عند البوابة أم على عتبات القصر، وللمرة الأولى والوحيدة في حياتي سُرِرْتُ لكون أمي ميتة.

ذلك اليوم مات كل رجُل في المدينة وهو يُقاتل عند البوابة أو على عتبات القصر، وسيقَ الذين كان سنُّهم أكبر من أن يقاتلوا خارج منازلهم ليُذبحوا في الشارع، رأيت «أخيل» مسربلًا بالدماء من خوذته المزينة بالريش حتى صندله، يلقي ذراعه على منكبَي شاب آخر ويضحك منتصرًا، ورمحه المجرور خلفه يشق خطًّا في التربة الحمراء.

انتهى كل شيء خلال ساعات، ومع امتداد الظلال عبر الميدان كانت أكوام الجثث المرتفعة تغطي عتبات القصر، ومع ذلك بقي الإغريق منشغلين ساعةً أخرى في مطاردة الفلول وتفتيش المنازل والحدائق التي ربما حاول المصابون الاختباء فيها.

وحين لم يعد ثمة رجال يُقْتَلون بدأ النهب، وراح الرجال يمررون الغنائم من يدٍ إلى يد كصفوف من النمل الأحمر، ثم يكومونها قرب البوابة استعداداً لحملها إلى السفن، وعندما نفدت المساحة قاموا بسحل الجثث إلى جانبٍ من ساحة السوق وكدسوها عند جدران القلعة، وأخذت الكلاب ولعابها يسيل بغزارة

تتشمم الموتى الذين حُفِرَت ظلالهم السوداء المهزولة الناتئة على الحجر الأبيض، وبدأت الغربان تحط متزاحمة على الأسطح والأسوار، وتغطي أُطُرَ جميع الأبواب والنوافذ مثل ثلج أسود، أثارت الضجة في البداية ثم هدأت تترقب.

أصبحت عمليات النهب أكثر تنظيماً الآن، جماعات من الرجال تجرُّ حمولات ثقيلة من المباني، أثاث محفور وحزم من الأقمشة الباذخة والأنسجة المزخرفة والدروع والمِحفَّات ومراجل الطهو وبراميل الخمر والحبوب، ومن حينٍ إلى آخر يجلس الرجال للاستراحة، بعضهم على الأرض، وبعضهم على الكراسي والأسرَّة التي كانوا يحملونها، جميعهم كانوا يعُبُّون الخمر من أباريقه مباشرةً، ويمسحون أفواههم بظهور أيديهم المبقعة بالدماء، ويثملون بعزم وثبات، ومع بدء السماء بالخبو؛ ازداد تحديقهم شيئًا فشيئًا نحو كوى القلعة حيث يعلَمون أن النساء يختبئن، تنقَّل القادة بين جماعة وأخرى يستحثون الرجال على النهوض من جديد حتى نجحوا تدريجيًّا، وما هي إلا بضع جرعات أخيرة عادوا إلى العمل بعدها.

ظللتُ أراقبهم لساعاتٍ يجردون المنازل والمعابد من ثروات عملت أجيالٌ من شعبي بكدٍّ لتحصيلها، وكانوا بارعين جدًّا ومدربين بشكلٍ حسَن على ذلك، كان الأمر يطابق رؤية سربٍ من الجراد يحطُّ على حقلِ محصول، إذ يوقن المرء أنه لن يذر خلفه كوز ذرة واحد.

تابعتُ المشاهدَة مكتوفَة اليدين بينما يتم تجريد القصر -منزلي- من كل ما فيه، وبحلول ذلك الوقت كانت نساء كثيرات قد انضممنَ إليَّ على السطح، لكن الأسى والخوف يحكمان قبضتيهما علينا بما يمنعنا من الكلام، توقف النهب تدريجيًّا - إذ لم يكن قد بقيَ ما يُنهَب - وبدأ الشرب بشكل جدي، أُحضِرَت عدة دِنان ضخمة إلى الميدان على العربات وتناقل الرجال الأباريق. وبعدها وجَّهوا انتباههم نحونا.

الإماء في القبو أول من تم اقتيادهنَّ إلى الخارج، وبينما كنت أتابع من السطح،

شاهدتُ امرأةً تُغْتَصب مرارًا من قِبل جماعة رجال يتشاركون إبريق خمر يمُررونه عن طِيب خاطر من يدٍ إلى أخرى بينما ينتظر كل منهم دوره، كان ابناها -ربما في الثانية عشرة والثالثة عشرة- يستلقيان مثخنين بالجراح ينتظران الموت على بعد بضع ياردات منها، ولا فرق لو أن تلك الياردات القليلة كانت ميلًا؛ إذ لم يكن لديها أمل بالوصول إليهما، ظلت تمد يديها وتنادي اسميهما بينما مات الأول ثم تلاه الثاني؛ أشحتُ بوجهي حيث لم أحتمل أن أتابع المشاهدة.

بحلول ذلك الوقت، كانت جميع النساء قد صعدنَ إلى السطح والتممنَ على بعضهن، الفتيات الصغيرات تحديدًا متشبثات بأمهاتهن، كنا نستطيع سماع الضحك حين احتشد الإغريق يصعدون الدرج، قبضت «أريانا» - ابنة خالتي - على ذراعي وهي تقول دون كلام: تعالي.

ثم تسلقت المتراس، وفي لحظة هجومهم على السطح رمَت نفسَها، ثوبها الأبيض يرفرف حولها أثناء سقوطها مثل فراشة تحترق، بدا أن وقتًا طويلًا مر قبل ارتطامها بالأرض، رغم أن ذلك ربما لم يستغرق أكثر من ثوانٍ، ذَوَتْ صرختها إلى صمت مكلوم، استدرتُ على إثره ببطء متقدمةً النساء الأخريات كي أواجه الرجال، أخذوا يُحدقون بي تعلوهم سيماء الارتباك والتقلقل، مثل جراء مترددة فيما عليها أن تفعله بأرنب قبضت عليه بين فكوكها.

حينها تقدم رجُل أشيب وعرف عن نفسه باسم «نسطور» ملك بيلوس، انحنى بدماثة وخطر لي أن ثمة - وربما للمرة الأخيرة في حياتي - من ينظُر إليَّ فيرى «بريزيس» الملكة.

قال:

- «لا تخافي، لن يُقدم أحَد على إيذائك.»

أردتُّ أن أضحك وحسب، كان قد تم سَوْقُ الصِّبْيَة الذين تظاهروا بالدفاع عن الدرج بعيدًا، في حين ظل صبي آخر - أكبر بعام أو عامين لكنه متأخر عن سنِّه -

يتشبث بإزار أمه حتى انحنى أحد المقاتلين وحرر له أصابعه السمينة القصيرة بالقوة، سمعناه يصرُخ: «أمي، أمي» على طول الدرج، ثم عمَّ الصمت.

نظرتُ إلى «نسطور» وأنا أحرص أن يكون وجهي خِلوًا من التعابير، وقلتُ في قرارتي: سأكرهك حتى آخر أنفاسي.

كل ما تلا ذلك كان ضبابيًّا، غير أن بضعة أشياء بقيت بارزة وما زالت تجرح كالخناجر. جرى اقتيادنا بعيدًا عبر شوارع مدينتنا الجانبية الضيقة يحدونا رجال يحملون المشاعل، ظلالنا المختلطة تثب عن الأسوار البيضاء أمامنا وتسقط بعيدًا خلفها، ومررنا أثناء سيرنا بحديقة مسيجة فهَفَتْ نحونا رائحة الميموزا في الهواء الليلي الدافئ، فيما بعد حين كانت الكثير من الذكريات الأخرى قد تلاشَت، ظلت تعتريني ومضَات من تلك الرائحة تشد نياط قلبي وتذكرني بكل ما خسرته، ثم انحسرت الرائحة، عاودنا التشبث ببعضنا ونحن ننزلق في أزقة مرصوفة بإخوتنا.

وهكذا حتى الشاطئ؛ البحر مُظلم يلهث، يكسر أبيضَه المتخثر على مقدمات سفنهم السوداء، دُفِعْنَا إلى المتن، استحثنا على السلالم رجال بأطراف مقابض أسنتهم ثم أُرْغِمْنَا على الاحتشاد وقوفًا فوق ظهور السفن، إذ كانت العنابر مليئة بالحمولة الأكثر قابلية للتلف.

ألقينا نظرةً أخيرة نحو المدينة؛ معظم المنازل والمعابد تحترق، وألسنة اللهب تحاوط أحد أجنحة القصر، تمنيت أن تكون حماتي قد استجمعت قوتها بطريقة ما لقتل نفسها قبل أن تطالها النار.

أقْلَعَت السفُن في البحر تشيِّعها صلصلة عظيمة من سلاسل المرساة، وحالما غادرنا حيز الميناء، ملأت الأشرعةَ رياحٌ خائنة حملَتنا بعيدًا عن الوطن بسرعة، تزاحمنا على الأطراف نتضور للَمحة أخيرة من ليرنيسوس، وكانت الفترة القصيرة التي مرت منذ صعدنا على المتن كافية لانتشار النار، فكرت في الجثث المتكومة فوق بعضها في ساحة السوق، وتمنيتُ أن يسبق اللهبُ الكلابَ إليها، ولكنني - خلال تكوُّن الفكرة - كنت أرى أوصال إخوتي المقطعة تُجَرُّ من شارع إلى آخر،

ستزمجر الكلاب وتطقطِق بأسنانها لفترة نحو الطيور السوداء المحومة في الأعلى والنسور الكبيرة الخرقاء التي تنتظر، وبين فينةٍ وأخرى سترتفع الطيور في الهواء ثم تحط على مهل متهاويَة مثل قصاصات قماش يحترق، بقايا متفحمة من الأنسجة المزخرفة الفاخرة التي كانت تكسُو جدران القصر، وسُرعان ما ستكون الكلاب قد نهشت حتى التخمة، وملَّت ثم انسلَّت خلسَة من المدينة مبتعدة عن النيران الجائحة، لتترك الدور للطيور.

كانت الرحلة قصيرةَ، تشبثَت واحدتنا بالأخرى طلبًا للمواساة فوق ظهر السفينة المتمايل، غثيان عنيف تمكَّن من معظم النساء وكل الأطفال تقريبًا؛ مبعثه الخوف وحركة الأمواج كما أظن، وبعد وقتٍ بدا قصيراً للغاية، انعرجت السفينة واهتزت وهي تستدير عكس التيار لتلجَ خليجًا شاسعًا.

فجأةً شرع الرجال يتصايحُون ويرمُون حبالًا - أفلت أحدها مُتلويًا فوق ظهر المركب وضرب قدمي - أو يقفزون في البحر ويخوضون حتى خواصرهم في أمواج يكسوها الزبد ميمِّمين الشاطئ، كنا لا نزال متمسكات ببعضنا مبللات نرتجِف من البرد؛ لأن موجة تكسرت فوق مقدمة السفينة وهي تحرف اتجاهها، وجميعنا مرتاعات مما سيحدُث، تابَعوا توجيه السفينة بشدة نحو حصباء الشاطئ، بينما قفز عدد غير قليل من الرجال في البحر ليساعدوا في جرِّها فوق خط المد، وبعد ذلك تم إنزالنا واحدة تلوَ الأخرى إلى الأرض، نقلت نظري على طول منحنى الخليج ورأيت مئات من سفن النهب المعقوفة السوداء، أكثر من كل السفن التي رأيتها في حياتي، أكثر مما كان لي أن أتخيله يومًا، وحالما أصبح الجميع على اليابسة، سِيق بنا على الشاطئ وعبر فسحة كبيرة نحو صف من الأكواخ، كنتُ أسير إلى جانب فتاة صغيرة، داكنة الشعر وجميلة جدًّا - أو هكذا كانت ستبدو لو لم تورم الدموع وجهها - جذبتُها من ذراعها العاري وقرصتُه، فاستدارت لتنظر إليَّ مجفلَة وقلت: «لا تبكي». حدقت إليَّ فاغرَة الفم، فعاودتُ قرصها بشدةٍ أكبر: «لا تبكي».

صُفِفْنا وفُتِّشْنا خارج الأكواخ، سار رجلان لم يتكلما إلا مع بعضهما بمحاذاة صف النساء، يجذبان شفةً هنا وجفنًا سفليًّا هناك، ينخسان البطون ويعتصران

النهود ويقحمان أيديهما بين سيقاننا، أدركت أننا نخضع لتقييمٍ قبيل توزيعنا.

اصطُفيَت بعضنا ودُفعَ بهن إلى داخل كوخ محدد، بينما سيقت الأخريات بعيدًا، «ريتسا» ذهبت، حاولت أن أتمسك بها لكنهم فرقونا، وحالما أصبحنا داخل الكوخ، قدموا لنا خبزًا وماءً ودلوًا ثم خرجوا وأرتجوا الباب خلفهم.

لم يكن ثمة نافذة، لكن بعد مدة - حالما اعتادت أعيننا الظلام - انسلَّ عبر صدوع الجدران ما يكفي من ضياء القمر ليجعلنا نرى وجوه بعضنا، صرنا الآن مجموعة أقل بكثير تتألف من نساء شابات جدًّا وفتيات، جميعهن جميلات وباديات الصحة، وتضم بعضهن رُضَّعًا إلى صدورهن، نظرت في الأنحاء بحثًا عن «إسمين»، لكنها لم تكن موجودة.

مساحة مغلقة حارة مخنوقة، رُضَّعٌ ينتحبون، ومع تقدم ساعات الليل أُضيفت إلى المشهد رائحة الخراء النتنة المنبعثة من الدلو الذي أُجْبِرْنا على استخدامه، أظن أنني لم أنمْ على الإطلاق.

في الصباح دفع لنا الرجلان نفسهما بأكوام من السترات عبر الباب وطلبوا منا بفظاظةٍ أن نرتديها، كانت ملابسنا التي علينا مُتسخة ومبتلة ومجعدة من عبورنا في البحر، فعلنا ما طُلِبَ منا، راحت الأصابع الخدرة تعبث متلكئة بعُقدٍ يُفترض أن يسهل حلها، وشرعت إحدى الفتيات - لا يزيد عمرها عن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة - بالبكاء، ماذا عسانا نقول لها؟ مسدتُّ لها ظهرها فضغطتْ بوجهها الساخن الرطب على جنبي.

«سيكون كل شيء على ما يرام»، قلتُ موقنةً أن ذلك غير صحيح.

كنتُ أُولى الخارجات، ونظرًا إلى أنه لم يسبق لي أن خرجتُ من المنزل بلا خمار ودون وصيفَة منذ بلغت الرابعة عشرة، سرتُ مخفضةً ناظري أحدِّق في أبازيم صندلي المزخرفة التي التمعَت في ضوء الشمس، تعالت هتافات الإعجاب: هلا نظرتم إلى هذين النهدين اللذين يصرعان الألباب؟ كانت معظمها دمثة، غير أن رجلًا أو اثنين صاحا بأشياء مريعة حول ما يودان فعله بي وببقية عاهرات

طروادة.

كان «نسطور» حاضرًا؛ «نسطور» أكبرهم سنًّا، في السبعين على الأقل، تقدم وتحدث إليَّ باعتداد لا يخلُو من بعض اللطف قائلًا:

- «لا تفكري في حياتك السابقة، فقد باتَت من الماضي الآن، لن تزيدي نفسك إلا بُؤسًا إن بدأتِ تتحسرين عليها، انسي، هذه هي حياتك الآن.»

انسي، وهكذا بُسِطَ واجبي أمام عيني، بسيطًا وواضحًا كإناء من الماء: تذكري. أغمضتُّ عيني، سطع الضوء الباهر بلونٍ برتقالي على أجفاني المغمضة تتخلله هنا وهناك شرائط متمايلة من الأرجواني، كان صياح الرجال قد ارتفع الآن: أخيل أخيل، ثم تعالى الهدير أكثر فعلمتُ أنه جاء، ولولَة وضحك ونكات بَدَتْ كالوعيد وكانت وعيدًا، كنتُ بقرةً تُقاد بحبلها وتنتظر أن يُضحَّى بها، وأصدق القول إذ أقول: إنني حينذاك كنت أرحب بالموت.

أطبقتُ يدي على أذُني، واستجمعتُ آخر شراذم القوة في لأعيد نفسي إلى ليرنيسوس، دخلتُ من البوابة التي لم تتحطم، ومرةً أخرى رأيتُ القصور والمعابد التي لم تحترق، والشوارع المزدحمة، والنساء يغسلن الملابس عند البئر، والمزارعين ينزلون حمولة الفاكهة والخضروات في أكشاك السوق، أعدتُّ بناء المدينة المدمرة، وأعدتُّ تأهيل شوارعها بالناس، وأعدتُّ زوجي وإخوتي إلى الحياة، ابتسمتُ أثناء مروري للمرأة التي كنت قد رأيتها تُغْتصب، وهي تجوب الميدان الرئيسي وابناها يسيران بجانبها سالمين، أنا من فعلتُ ذلك، بينما أقف وسط تلك الغوغاء النابحة، دفعتهم إلى الخلف، إلى خارج الساحة نحو الشاطئ، ثم إلى السفن، فعلتُها أنا وحدي، أرسلتُ تلك الأساطيل القاتلة إلى منزلها.

المزيد من الصياح: أخيل أخيل، الاسم الأكثر مقتًا من بين كل أسمائهم، ومجددًا رأيتُه يتوقف للحظة في خضمٍّ قتله أخي ويستدير لينظر عاليًا نحو القلعة - نحوي مباشرةً كما بدا - تاركًا أخي ملقًى هناك، مسمَّرًا إلى الأرض، قبل أن يعود

إليه وينتزع الرمح من عنقه بطريقته المتوازنة المتروية الأنيقة تلك.

قلت في قرارة نفسي: «لا». وهكذا عدتُّ إلى المنزل من ساحة السوق أسيرُ عبر الشوارع الهادئة ذات الجو اللطيف، ثم دخلتُ من بوابة القصر نحو عتمة الردهة، تلك الردهة التي دخلتُها لأول مرة يوم زفافي، ومن هناك ذهبتُ على الفور إلى مكاني المفضل، كان ثمة شجرة في الفناء الداخلي، شجرة متفرعة الأغصان تمُد بالظل حتى في أكثر الأيام قيظًا، اعتدتُّ أن أجلس هناك في المساء، مصغيةً إلى الموسيقى في الردهة، وكان صوت القياثير والنايات يجرفني مع هواء الليل فتتساقط عني كل هموم النهار، كنت هناك الآن، أشرئبُّ بعنقي لأنظر إلى الشجرة، فأرى القمر عالقًا كسمكة فضية ذات ألق في الشبكة السوداء لأغصانها.

وفي تلك اللحظة امتدت يدٌ خَشَّنَ الرملُ رؤوس أصابعها، أحكمتْ على ذقني وأدارَت رأسي من جانب إلى آخر، حاولتُ أن أفتح عيني لكن الشمس مُؤلمة للغاية، وحين حملتُ نفسي على فتحهما ألفيتُه يسير مبتعدًا. توقف في مركز الساحة ورفع كلتا يديه فوق رأسه حتى خمد الهتاف.

قال:

- «مرحى يا رفاق، هذه ستفي بالغرض.»

وطفق الجميع -كل رجُلٍ في تلك الساحة الشاسعَة- يضحكون.

***

-٣-

على الفور، ظهرَ حارسان وأخذاني إلى كوخ «أخيل»، لعل مفردة (كوخ) تعطي انطباعًا خاطئًا؛ فقد كان بناءً مهيبًا له شرفة على جانبين ودرجات ترتقي نحو الباب الرئيسي، سِيرَ بي عبر بهوٍ كبير إلى غرفة صغيرة ضيقة لا يميزها شيء في

القسم الخلفي، بالكاد أكبر من خزانة وليس فيها نافذة تطل على العالم الخارجي، وهُناك تُرِكْتُ وحدي ببساطة، وجلستُ على سرير ضيق أرتجف من البرد والصدمة.

بعد قليل انتبهتُ إلى يدي تلامسان غطاء سرير صوفي فحملتُ نفسي على تفحُّصه، كانت حياكته مُتقنة جدًّا وتزخرفه نقوش معقدة من أوراق الشجر والأزهار، صنعة طروادة جلية فيه؛ إذ إن النسيج الإغريقي ما كان يضاهي جودة نسيجنا، وتساءلتُ من أية مدينة تُراه قد نُهِبَ!

سُمِعَتْ قعقعَةَ صحون وأطباق على مقربة، وتسلَّلَت رائحة لحم عجل مشوي إلى الغرفة، أُصِيبت معدتي بالغثيان، وأحسستُ بطعم الصفراء في فمي فأرغمتُ نفسي على ابتلاع ريقي وأخذ سلسلة متتالية من الأنفاس العميقة المطردة، عيناي تسيلان وحلقي جاف، وأنا أتنفس بعُمق: شهيق، زفير، شهيق، زفير، أنفاس عميقة مطردة.سمعتُ وقْع أقدامٍ يدنُو، ثم بدأ مزلاج الباب يُرفع، وأنا أنتظر بفم جاف. دخل رجل طويل - ليس أخيل - إلى الغرفة حاملًا صينية عليها طعام وخمر.

سألني قائلًا:

- «بريزيس؟»

أومأتُ، لم أكن أشعُر بنفسي مثل أي شيء يحمل اسمًا.

- «فَطْرُقل».

كان يشير إلى صدره وهو يتحدث، كأنه ظن أنني قد لا أفهم ، وما كان لي أن ألومه بما أنني كنت أجلس بلا حراك بصمتٍ وعينين خاويتين مثل ثور، لكنني ميزت اسمه، فقد كانت الحرب مندلعة منذ وقت طويل، وكنا نعرف الكثير عن قادة العدو، كان هذا أقرب رفاق «أخيل»، ونائبه في القيادة، لكن الأمر لم يبدُ

منطقيًّا البتة، فلماذا يقوم رجل شديد السطوة مثله بالتخديم على أَمَة؟

قال:

- «اشربي، سيتكفل ذلك بجعلكِ تشعُرين بتحسن.»

صب لي بسخاءٍ وقدم لي الكوب، فأخذتُه وأظهرت له أنني أرفعه إلى شفتي.

- «لن يقدم أحد على إيذائك.»

حدَّقْتُ فيه متأملةً كل تفاصيل مظهره؛ طوله وشعره الناعم وأنفه المكسور، لكنني لم أستطع الكلام، وبعد قليل رمقني بابتسامة مائلة، ووضع الصينية على منضدة صغيرة عند السرير ثم غادر.

كان الطعام مشكلة؛ مضغتُ قطعة من اللحم لمدة بدَت لي ساعات قبل أن أبصقها في راحة يدي وأخفيها تحت حافة الطبق، في بدء الأمر ظننتُ أنني لن أستطيع التعامل مع الخمر أيضًا، لكنني أرغمتُ نفسي عليه، لا أعلم إن كان قد ساعدني - لعله فعل - فقد جعلتني هذه الكمية من النبيذ القوي على معدة فارغة أشعُر بالخدر في أنفي وفمي؛ أما بقية جسمي فكانت خدرة أصلًا.

تواردت من البهو أصوات رجال ملعلعة، ذلك الهدير النافذ الذي يحجب ما دونه من أصوات، غَدَتْ رائحة لحم العجل المشوي أقوى الآن؛ لحم العجل خاصتنا، إذ كانوا قد ساقوا الماشية بعيدًا قبل ثلاثة أيام، قبل سقوط المدينة.

مرت ساعة بطيئة، المزيد من الصياح، المزيد من الضحك والأغاني، الغناء ينتهي دائمًا بخبط على الطاولة وانفجار التصفيق، ومن مكان وسط الظلام في الخارج، أظنني سمعت طفلًا يبكي.

نهضتُ أخيراً وسرتُ إلى الباب، لم يكن مقفلًا، بالطبع لم يكن مقفلًا، ولماذا يكلفون أنفسهم العناء؟ كانوا يعلمون أنه ما من مكان أذهب إليه، شققته رويدًا

رويدًا بحذر، وفجأة صارت ضوضاء الأغاني والضحك أعلى بكثير، خشيتُ أن أغامر بالخروج، ومع ذلك شعرت أن عليَّ أن أرى، عليَّ أن أعرف ما كان يحدث، كنت بدأت أشعر أن الغرفة الضيقة صارت أشبه بقبر؛ لذا سِرْت على رؤوس أصابعي في الممر القصير الذي يقود إلى البهو واسترقت النظر في الظلام الجزئي.

بَهو طويل ضيق بسقف مُنخفض ترفعه العوارض، يعبق برائحة خشب الصنوبر والصمغ وتُنِيره صفوف من القناديل الداخنة فوق رفوف على الجدران، طاولتان بقوائم ومقاعد على الجانبين تمتدان على طول الأرضية، ورجال يحتشدون كتفًا لكتف وتتدافع أيديهم لتغرس رؤوس خناجرها في أكداس اللحم الأحمر، رأيتُ صفوفًا من الوجوه المشرقة يسيل الدم والعصير متألقًا على ذقونها في دوائر الضوء المتداخلة، وظلال ضخمة تتلاقى وتتصارع بالأيدي على طول السقف المدعم بالعوارض مقزمةً الرجال الذين تصدر عنهم، ورغم المسافة الفاصلة كنت ألتقِط رائحة العرق الواخزة، عرق اليوم ما يزال طازجًا، لكن تحته كان العرق البائت الذي يعود إلى أيام وليالٍ ماضية ينحسر نحو المسافة البعيدة نحـو الظـلام، ويقطـع الطـريق عائـدًا إلـى السـنة الأولـى مـن هـذه الحـرب اللامتناهية؛ كنتُ فتاة صغيرة ألعب بالدمى حين وصلت أولى السفن السوداء.

جلس «أخيل» و«فطرقل» إلى طاولة صغيرة ينقلان أنظارهما من وسط الغرفة إلى الباب الخارجي، كان ظهراهما إليَّ، لكنني استطعتُ أن ألاحظ تواتر نظرات أحدهما إلى الآخر، الجميع في مزاجٍ رائق للدعابة، يتبجحون بمآثرهم في ليرنيسوس، المزيد من الأغاني، ومن ضمنها أغنية عن هيلانة، كل بيت فيها أكثر فحشًا من سابقه، انتهت بانفجار من الضحك، وفي الصمت القصير الذي أعقب ذلك، دفع «أخيل» صحنه ونهض على قدميه، لم ينتبِه أحد في بادئ الأمر، ثم بدأ الصخب يخمد تدريجيًّا، رفع يديه وقال شيئًا ما بلهجته الشمالية الغليظة تلك، كنتُ عادةً لا أجد صعوبة في فهم الإغريقية، لكنني وجدتُّ لكنته صعبة للغاية في الأيام القليلة الأولى، كان يقول شيئًا عن أنه لا يريد مقاطعة الحفل، لكن ...

كان يضحك أثناء حديثه، بَدَا كأنه يلقي نكتة عن نفسه، اندلعَت عاصفة من الملاحظات الساخرة وصيحات الاستهجان ثم صاح شخصٌ ما من الخلف: «جميعنا نعلم لماذا تريد إنهاء السهرة مبكرًا.»

بدؤوا يخبطون على الطاولات، وانطلق أحدهم في أغنية ثم التحقوا به يجأرون بالتزامن مع إيقاع قبضاتهم المشدودة.

«لماذا وُلِدَ بهذا الجمال؟

لماذا وُلِدَ من الأساس؟

إنه بائس لا فائدة لأحد منه.

لا فائدة تُرْجَى منه على الإطلاق.

ربما يكون بهجة لأمه.

لكنه لا يسبب لي سوى الكدر والمقت.»

استمروا على هذه الحال، فانسللتُ عائدةً إلى الخزانة وأغلقت الباب، ولكن مع استمرار الغناء، شققت الباب قليلًا من جديد، بما يكفي لأنظر إلى داخل غرفة «أخيل»، لمحتُ أنسجة مزخرفة فاخرة معلقَة على الجدران ومرآة برونزية، وإلى الخلف عند الجدار: سرير.

بعد دقيقة أو أكثر، توارَد وَقْعُ أقدام ثقيل على طول الممر وأصوات رجال، انسحبتُ إلى الداخل، مع أنني كنتُ موقِنة أنهم لا يستطيعون رؤيتي، دخل «فطرقل» إلى الغرفة الأخرى، وتبعه على الفور تقريبًا «أخيل»، الذي رمى بذراعه على كتفي صديقه وهو يضحك ضحكًا ينمُّ عن الانتصار والفرج، غزوة أخرى كُلِّلَت بالنجاح، مدينة أخرى دُمِّرَت، رجال وصِبية قُتِلوا، نساء وفتيات سُبِين، يوم جيد بالمجمل، وكان الليل ما يزال أمامهم.

تحدثا عن تناول المزيد من الشراب، وكان «فطرقل» قد وضع يده على مسكة الإبريق متهيئًا للصب، لكن «أخيل» أومأ نحو الباب حيث كنتُ أقف وتوهجت

عيناه.

ضحك فطرقل:

- «أجل، إنها هناك.»

تراجعتُ إلى الخلف وجلستُ على السرير الضيق ضاغطةً اليد على الأخرى لأمنعهما من الارتجاف، حاولتُ أن أبلع ريقي لكن فمي كان شديد الجفاف، بعد ثوانٍ، فُتحَ الباب وحَجَبَ ظل «أخيل» الضخم الضوء، لم يتكلم - ربما ظنني لن أستطيع فهمه - واكتفى بالإشارة بإبهامه نحو الغرفة الأخرى، فنهضتُّ وتبعتُه وأنا أرتجِف.

***

-٤-

ماذا عساي أقول؟ لم يكن جِلفًا، لقد انتظرتُ منه ذلك بل توقعته، لكن لم يكن ثمة شيء من ذلك، وانتهى الأمر سريعًا على الأقل، كان يُضاجع بنفس السرعة التي يقتُل بها، وكذلك كان الأمر بالنسبة إليّ أيضًا؛ شيءٌ ما فيّ ماتَ تلك الليلة.

رقدتُّ هناك مُبغضةً إياه، رغم أنه بالطبع لم يكن يفعَل أي شيء لا يمتلك الحق الكامل في فعله، لو أن جائزة شرفه كانت دِرعَ سيدٍ عظيمٍ ما، لما ارتاح قبل أن يُجربها: يرفع الترس ويلتقط السيف، يعاين طوله ووزنه، يلوّح به بضع مرات في الهواء، وهذا ما فعلَه بي، لقد جربني.

قلتُ لنفسي إنني لن أنام، كنتُ منهكة لكنني مُتوترة بشدة، خائفة جدًّا من كل ما حولي ولا سيما منه هو، إلى درجة أنه حين انتهى وانفضّ من فوقي كي ينام، بقيتُ مُستلقيةً هناك دون حراك أحدق في الظلمة متيبسةً مثل لوح، كان جفناي يكشطان عيني الجافتين بشكلٍ مُؤلم كلما رمشت، ومع ذلك لا بد أنني نمتُ بطريقة ما؛ لأنني حين نظرتُ مجدداً كان فتيل السراج قد قَصُر. كان «أخيل»

مُستلقيًا ووجهه لا يبعد عن وجهي سوى إنشات قليلة، يغط غطيطًا خفيضًا، شفته العلوية تتجعد مع كل نَفَس، وتوقًا للهرب من حرارة جسده اللافعة، ألصقتُ جسدي بالجدار وأشحتُ بوجهي كيلا يتعين عليَّ النظر إليه.

بعد دقائق قليلة انتبهتُ إلى صوت - ليس صوتًا جديدًا - فقد كنتُ أعيه حتى في حالتي نصف الحالمة، ربما كان تنفُّسه، لكنني قلتُ لنفسي: لا، بل هو البحر، ولا بد من أنه كان البحر، إذ كنا على مبعدة بضع مئات من الياردات عن الشاطئ، رحتُ أصغي وأترك للصوت أن يُهدئني؛ حركة الجَزر والمد الدائمة تحطم الأمواج، وتنهيدة انحسارها المتغلغلة كان الأمر أشبه بالاستلقاء على صدر شخص يُحبك، شخص تُوقن أنك تستطيع الوثوق به، رغم أن البحر لا يحب أحدًا ولا يمكن الوثوق به أبدًا، وعلى الفور أدركتُ رغبةً جديدة؛ رغبةً في أن أكون جزءًا منه، في أن أنحلَّ داخله؛ البحر الذي لا يشعُر بشيء ولا يمكنه أن يتألم.

وأفترضُ أنني قد نمتُ مجددًا بعد ذلك؛ لأنه كان قد رحل حين استيقظت. اجتاحني القلق على الفور، هل كان يجدر بي أن أستيقِظ قبله كي أحضر له الفطور؟ لم تكن لديَّ أية فكرة عن كيفية تحضير الطعام على هذا الشاطئ المقفر أو حتى إذا ما كان تحضيره إحدى مهامي، لكن خطر لي بعدها أن «أخيل» لديه الكثير من الإماء دون شك، ولكل منهن وظيفة مختلفة: الحياكة والطبخ وإعداد الحمام له وغسل المُلاء والملابس، سيتم إخباري قريبًا بما يُنتظر مني إنجازه، ومن المحتمل ألا يُطلب مني أكثر مما سبق وفعلته بكثير، وحين فكرتُ في محظية أبي الشابة التي اتخذها لنفسه بعد وفاة أمي، تذكرتُ أنها أُعْفِيَت من معظم الواجبات الملقاة على كاهلها.

كان السرير باردًا، ولدَى اعتدالي في جلستي رأيتُ أنه ترك أحد الأبواب مفتوحًا، كنتُ ما أزال أحاول استيعاب محيطي، هناك ثلاثة أبواب: أحدها يقود إلى الغرفة الصغيرة وكنت قد بدأتُ بالفعل أفكر فيها بوصفها خزانة، وآخر يقود نحو البهو عبر ممر قصير، والثالث ينفتح مباشرة على الشرفة ومنها يطل على الشاطئ، من الجلي أنه سلك ذلك الطريق؛ لأن الباب كان مواربًا ومفاصله تصر.

ضممتُ عباءتي حول كتفي، وذهبتُ كي أقف على العتبة، هَبَّ نسيمٌ من البحر مباشرةً رفع لي شعري وبرد العرق الذي خلَّفَه النوم على بشرتي، كان الظلام ما يزال سائدًا، مع أن القمر الذي بَدَا مثل قُلامة ظفر يبعث ضوءًا يكفي كي أرى الأكواخ - التي بدت بالمئات - تنبسط إلى مسافة بعيدة، وبين ظلالها القاتمة المحتشدة استطعتُ أن أحظى بلمحات معذبة من البحر، وبينما أدرتُ رأسي كي أنظر نحو الداخل، لاحظت وهجًا خافتًا في السماء أصابني بالحيرة بادئ الأمر، حتى أدركت أنها طروادة لا ريب؛ طروادة التي تُضاء قصورها ومعابدها وحتى شوارِعها طيلة الليل، هنا كانت الطرقات بين الأكواخ ضيقة وغارقة في ظلام دامس، شعرتُ أنني أتيتُ إلى مكان مُفزع، النقيض التام لمدينة عظيمة، مكان تحكمه الظلماء والهمجية.

من موضعي على عتبة كوخ «أخيل»، بَدَا هدير تكسُّر الأمواج مثل معركة، صليل سيوف على دروع، لكن كل شيء كان يبدُو كمعركة بالنسبة إلى ذهني المنهَك، كما لو أنه لم يكُن ثمة ألوان في العالم عدا الأحمر، غامرتُ بحذر ووطئت أرضية الشرفة الخشبية الخشنة، ثم قفزتُ من هناك على الرمل، وقفتُ دقيقةً أدسُّ أصابع قدمي في الرمل الندي يغمرني شعور بالانفراج من قدرتي على الإحساس بشيء ما - أي شيء - بعد خدر تلك الليلة، ثم انطلقتُ بحثًا عن البحر حافيَةَ القدمين ولا شيء عليَّ سوى عباءتي.

بينما كنت أشق طريقي مستعينةً باللمس أكثر من الرؤية، صادفتُ طريقًا بَدَا يقُود بعيدًا عن الأكواخ، ينساب في بدايته بمحاذاة حواف الكثبان ثم ينحدر بشدة نحو الشاطئ، في آخر بضع ياردات تحوَّل الطريق إلى نفَق، تحيط به من جانبيه كثبان رملية يعلُوها قصب الرمال؛ تعين عليَّ أن أتوقف للحظة لأن المساحة الضيقة قيدت أنفاسي، الخوف يقبع في القسم الخلفي من فكري: ماذا لو عاد؟ ماذا لو أرادني مجددًا ولم أكن هناك؟ كان ضوء القمر يومِض ويخفت على العشب المتمايل في الريح، وانتهيتُ إلى الشاطئ قُرب جدول أخضر المياه(2) يترقرق بين الصخور والحصى ويتسع عند بلوغه البحر.

هناك ضوضاء جديدة الآن، أعلى من صوت الموج: نقر أوتار مسعور يجرح الأعصاب، استغرقتُ بعض الوقت حتى عرفتُ أنه صوت حبال أشرعة السفن وهي تطقطِق أعلى الصواري، كانت السفن - وقد تم جَرُّ معظمها إلى بعد خط المد وإرساؤها في مهودها - تشكل كُتلة قاتمة على شِمالي، وهناك سفن أخرى أُرْسِيَت بعيدًا عن الشاطئ، لكنها كانت مراكب حمولات صغيرة بدينة الجسم تختلف عن السفن الحربية الهزيلة اختلاف البط عن عِقبان السمك، كنتُ أعلم أن السفن الحربية ستكون خاضعة للحراسة تحسبًا لهجوم طروادي؛ لذا تراجعت بين الكثبان مجددًا وقطعت رقعةَ أرض تكسوها شجيرات قصيرة نحو البحر.

هنا كان الصوت السائد هو تلاطم الأمواج الأشبه بصليل السيوف على الدروع، سرتُ نحو البحر مؤملةً نفسي أن أحظى بلمحة من «ليرنيسوس»، حيث أظن أن النيران التي كانت قد دمرت المدينة ما تزال مشتعلة، لكن غشاوة الضباب أخذت تزداد كثافةً كُلما اقتربتُ من الماء، بَدَا أنه انبثق من العدم، ضباب كثيف، بارد ودبق مثل أصابع رجل ميت، يحوِّل السفن السوداء إلى أشكال شبحية ما عادت تبدُو حقيقية بالكامل، بَدَا من الغريب أن تتشكل هذه الغشاوة وتَعْلَق في ليلة مرتفعة الرياح، لكن ذلك حررني وجعلني غير مرئية حتى بالنسبة إلى نفسي.

هناك بعيدًا خلف الأمواج المتلاطمة، في المكان الهادئ حيث ينسى البحرُ اليابسة، كانت أرواح إخوتي الموتى؛ لأنهم حُرِموا من الشعائر الجنائزية سيُحظر دخولهم إلى عالم هاديس(3) السفلي، ويُحْكَم عليهم بمطاردة الأحياء، وليس لعدة أيام فحسب بل إلى الأبد.

مرارًا وتكرارًا، خلف أجفاني المطبقة، شاهدت أخي الأصغر يموت، حزنت عليهم جميعًا، لكن عليه بشكلٍ خاص، بعد وفاة أمنا، كان يتسلل إلى سريري كل ليلةٍ طلبًا إلى المواساة التي يستحي من الحاجة إليها في النهار، وهناك على الشاطئ المكشوف للريح، سمعته يناديني تائهًا ومشردًا وعاجزًا مثلي تمامًا.

ودون أية فكرة في رأسي عدا الوصول إليه، بدأتُ أخوض في البحر حتى كاحلي ثم ربلتي ثم ركبتي ثم فخذي، ثم تلك الصدمة الباردة المفاجئة حين ضربني

المد المتعاظم في مغبني، وقفتُ مكاني متزعزعةَ القدمين والرمل يتحرك تحتهما، وأنزلتُ يدي أغسل نفسي منه، وحينها وقفتُ نظيفة - أو بأقصى درجة من النظافة ستسنح لي بعد اليوم - والماء يغمرني حتى الخصر، أتحسس الموج وهو يرفعني على أصابع قدمي ثم يعيدني مجدداً، وهكذا رُحْتُ أصعد وأهبط مع البحر، رفعتني إحدى الموجات مهددة بسحبي إلى عُمق يتجاوز ارتفاعي، فقلت لنفسي: لمَ لا؟ كنت أستطيع أن أشعُر بإخوتي ينتظرونني.

لكنني حينذاك سمعت صوتاً، ظننتُ لوهلة أنه قد يكون صوت أخي الأصغر، أصغيتُ محاولةً أن أسمع من فوق هدير الأمواج، فعاد الصوت مجدداً، صوت رجل دون شك، رغم أنني لم أتبينَّ الكلام، وفجأةً انتابني الخوف.

كنت هلِعةً طوال أيام - حتى إنني نسيتُ شعور المرء حين لا يكون هلِعًا - لكن هذا كان نوعًا مختلفًا من الخوف، تخدرت بشرة مؤخر عنقي مع انتصاب الشعر، قلتُ لنفسي: إن الصوت لا بد أن يكون قادمًا من المعسكر، لكنني سمعتُه مجدداً وتيقنت هذه المرة أنه كان هناك، شخص ما - شيء ما - يخوض في الماء خلف الأمواج المتكسرة؛ حيوان ما - لا بد من أنه كذلك - لا يمكن أن يكون أي شيء آخر؛ دولفين أو حوت قاتل، هذه الحيوانات تقترب كثيراً من اليابسة أحياناً، حتى إنها تدفع بنفسها إلى الشاطئ كي تقتنص جرو فقمة من بين الصخور، لكن حينذاك تفرقت حجُب الغشاوة للحظة ورأيت ذراعين وكتفين بشريين، ووميض ضوء القمر على بشرة مبتلة، المزيد من اللهاث والطرطشة، ثم الصمت على نحو أبتر حين استدار واستلقى على الماء ووجهه إلى الأسفل، وراح يتمايل مع التيار جيئةً وذهاباً.

الرجال في هذا الساحل لا يتعلَّمون السباحة؛ هم بحَّارة ويعلمون أن السباحة لا تُفيد إلا في إطالة ميتةٍ قد تكون سريعةً ورحيمة نسبيًّا، لكن هذا الرجل كان يلعب مع البحر مثل دولفين أو خنزير بحر، كأنه موطنه الحقيقي، وها هو الآن يستلقي فارداً ذراعيه وساقيه على السطح، محافظًا على هذه الوضعية مدةً طويلة جعلتني أظنه قادرًا على تنفُّس الماء، لكنه فجأةً رفع رأسه وكتفيه وطفَا مُنتصبًا مثل سدادة فلينية، وأتت رؤية وجهه صادمةً لي، رغم أنه ما كان لي أن

أُصْدَمَ، إذ كنتُ قد خمنت من يكون مسبقًا.

رحتُ أخوض نحو الشاطئ بسرعة، إذ باتت تدفعني العجلة للوصول إلى الكوخ وتجفيف نفسي، فكيف بحق السماء عساي أشرح هذا؟ لكنني أُجْبِرْتُ على الإبطاء في المياه الضحلة؛ لأنني لم أشأ أن ألفت الانتباه بالطرطشة، وحالما وطأتُ اليابسَة شعرت بطعنة ألم سريعة وحادة في قدمي اليمنى، كان شيء ما - حجر أو كِسرة صدفة - قد علق في أخمص قدمي فاضطررتُ أن أنحني وأنزعه، حين رفعت رأسي مجددًا رأيت «أخيل»، لم يكن يسبح الآن بل يخوض في مياه تبلغ ركبتيه متجهًا نحو الشاطئ.

جلستُ القرفصاء كاتمةً أنفاسي، لكنه مر بي دون أن يراني رافعًا كلتا يديه ليمسح الرذاذ المالح عن عينيه، أطلقتُ أنفاسي المحبوسة وأنا أفكر أن الأمر انتهى وأنه عاد إلى المعسكر، لكنه كان يقف على خط المد مواجهًا البحر دون أن يُحرك ساكنًا.

حين تكلم ظننتُه يخاطبني وفتحت فمي، رغم أنه لم تكن لديَّ فكرة عما سأقوله، لكنه تكلم من جديد، وخرجَت الكلمات من فمه فقاعاتٍ كأنها آخر أنفاس رجل يغرق، لم أفهم شيئًا منها، بدا يخوض جدالًا مع البحر، يخوض جدالًا أو يدافع عن نفسه، الكلمة الوحيدة التي ظننتُ أنني فهمتُها كانت «أماه»، ولم يكن ذلك منطقيًّا البتة، أماه، لا، لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا، لكنه كررها من جديد: «أماه، أماه»، مثل طفلٍ صغير يبكي طالبًا أن يُحمل، لا بد أن لها معنى آخر، غير أن لفظة «أم» هي نفسها تقريبًا في الكثير من اللغات المختلفة، أيًّا كان معناها، كنت أعلم أنه لا يجدُر بي سماعها، لكنني لم أجرؤ أن أتحرك؛ لذا جثمتُ منتظرةً انتهاء الأمر، استمر ذلك طويلًا، حتى تلاشى الخطاب اللزِج أخيراً إلى صمت.

كانت الغشاوة قد بدأت تنقشع مع شروق الشمس، رأيت أولى ومضات الضوء الذهبية تعثر على ذراعيه وكتفيه المبللتين وهو يستدير ليسير على طول الشاطئ، ثم يختفي في ظلال سفنه السوداء.حالما تأكدتُّ من ذهابه ركضتُّ عبر

الكثبان بأسرع ما استطعت، لكنني ما إن دخلتُ المعسكر حتى تُهْتُ، وقفت مبتلةً مرتاعة في حالة يرثى لها، ولا فكرة لديَّ عما سأفعل أو إلى أين أذهب، لكن حينذاك خرجَت فتاةٌ إلى باب أحد الأكواخ وأومأَت تدعوني إلى الداخل.

كان اسمها «إيفيس» كما قالَت، ولقد اهتمت بي ذلك الصباح، حتى إنها ملأت لي مغطسًا بالماء الساخن لغسل الملح عن شعري، وحين نضوت عني العباءة وتهيأت لدخول المغطس سقط شيء ما على الأرضية، وأدركت أنني أحضرت الحجر معي من الشاطئ، كانت قدمي ما تزال تنزف في موضع الجرح، أخذتُ أعاين الحجر في راحة كفي بدقة مثلما يفعل مَنْ هم في حالة صدمة أحيانًا، إذ يركزون كامل انتباههم على شيء تافه، كان أخضر، الخَضار المصفر لبحر عاصف، لكن تخللته ضربة مائلة من البياض، لا شيء مميز فيه، عدا عن أنه حاد، حاد جدًّا.

رفعتُه أمام وجهي وشممتُه: ماء بحر وغبار، لعقتُه: كان ملمسه رمليًّا ومذاقه مالحًا، ثم رحتُ أمرر إصبعي على طول الحافة المشحوذة: لا عجب أن الجرح كان عميقًا هكذا، وحين سحبتُه على رسغي - وأنا بالكاد أطبق ضغطًا - ترك أثرًا انبثقت على طوله نقاط دماء كرأس الدبوس، سبَّب لي ذلك شيئًا من الفرج؛ أن أجعل الدم ينبثق من بشرتي الخدرة، لكن حين هممتُ بجرح نفسي مجددًا يَحْدوني الفضول لأعرف ما إن كان تكرار ذلك الشعور ممكنًا، أوقفني شيء ما، لا أعرف لماذا قدَّم البحرُ لي هذه الهدية، لكنني أعرف أن ذلك ليس كي أؤذي نفسي بها، فقد كانت السكاكين منتشرة في كافة أنحاء المعسكر إن أردت فعل ذلك؛ لذا أرخيتُ راحة يدي حول الحجر من جديد ونظرتُ إليه، دون أن أفكر في أي شيء آخر، لا شيء سوى لونه وملمسه ووزنه، الكثير من الحصى على ذلك الشاطئ - ملايين من الحصى - وجميعها حُتت حتى مَلُستْ بفعل الصقل القاسي الذي يجريه البحر، لكن ليس هذه، هذه بقيت حادة.

شغلني ذلك الحجر الصغير العنيد، وما زال أمره يهمني، وها هو الآن في راحة يدي. حين أحضرَت «إيفيس» لي ملابس نظيفة جافة ارتديتُها أو هي ألبسَتني إياها بالأحرى، إذ كنتُ أقف هناك بإحساس لا يزيد عما تملكه قرمة خشب،

ودسستُ الحجر داخل حزامي حيث يضغط على بشرتي كلما تحركت، لم يكن ذلك مُريحًا، لكنه كان مطَمْئنًا، يذكرني بالبحر والشاطئ، وبالفتاة التي كنتُها ذات يوم وما عاد بوسعي أن أكونها أبدًا.

***

-٥-

أكثر ما أتذكره - بعيدًا عن الرعب المريع المنهِك المحدق بعينين واسعتين في الأيامِ القليلة الأولى - هو المزيج الغريب من الثروَة والنجاسة، كان «أخيل» يتناول طعامه من طبق ذهبي، وينام تحت أغطية سرير مطرزة بخيوط من الذهب والفضة، وكل صباح بينما يمشط شعره ويجدله - وما من فتاة تُعد نفسها لزفافها بأناة أكبر من التي يعد «أخيل» نفسه بها لميدان القتال - كان يتفقد هيئته في مرآة برونزية لا شك أن قيمتها تساوي فديَة ملك، بل ليس لديَّ ما يجعلني أستبعِد أن تكون فدية ملك بالفعل، ومع ذلك إذا احتاج إلى التغوُّط بعد العشاء، كان يأخُذ قطعة قماش خشن من كومة في زاوية البهو وينطلق نحو مرحاض خارجي تتصاعد منه الروائح النتنة إلى أعالي السماوات ويغطيه سرب من الذباب الأسود الطنان، وفي طريقه إلى هناك ذهابًا وإيابًا، يتعين عليه أن يتجاوز كومة عملاقة من النفايات التي يُفترض أن يتم إحراقها في فترات منتظمة، لكن هذا لم يحدُث أبدًا فأصبحت نتيجة لذلك بيئة لتكاثر الجرذان.

هذا هو الشيء الذي أتذكره: الجرذان، جرذان في كل مكان، قد يسير المرء في طريقٍ بين صفين من الأكواخ فتنهض قطعة من الأرض أمامه فجأة وتسير، أجل، الأمر بهذا السوء! افترُض بالكلاب النحيلة نصف البرية التي تجوب المعسكر أن تحدَّ من انتشار الجرذان، لكنها فشلَت في ذلك بطريقة ما، واعتاد «مايرون» - الذي كان مسؤولًا عن الاعتناء بمجمع «أخيل» - أن يُنظم المقاتلين الشبان في منافسات لصيد الجرذان مقابل جوائز من النبيذ القوي للفائزين، كان المرء يرى شبانًا يختالون بصفوف من الجيَف الصغيرة المغروزة برماحهم: كباب الجرذان، لكن مهما قتلوا منها، بَدَا أن هنالك الكثير بعدُ.

إنني أحاول - وربما بجُهدٍ حثيث - أن أنقِل انطباعاتي الأولى عن المعسكر، رغم أنني لم أكن في حالة تسمح باستيعاب أي شيء، لقد كان مكانًا بسيطًا بطريقة ما؛ هناك البحر والشاطئ والكثبان الرملية ورقعة من الشجيرات، إضافة إلى ميدان القتال الذي يمتد على طول المسافة حتى يبلغ أسوار طروادة، هذا ما كنت أستطيع رؤيته، لكن بالطبع كنا - نحن الأسيرات - محصورات في المعسكر، خمسون ألف مقاتل مع العبيد والإماء المرافقين لهم مكدسون في تلك المساحة، الأكواخ صغيرة والطرقات بينها ضيقة، كل شيء محصور، ومع ذلك بدت المساحة لا تنتهي؛ لأن المعسكر كان كل عالمنا.

وكان الوقت يمارس خدعه الغريبة هو الآخر: يتمدد ويتقلص ويحفر داخل نفسه ليعود على شكل ذكريات كانت أكثر حيوية من الحياة اليومية، هناك لحظات محددة - مثل الدقائق القليلة التي قضيتها أحدِّق في الحجر - تتمدد حتى لتبدُو سنوات، لكن يلي ذلك أيام كاملة تمر خطفًا في سديم من الصدمة والأسى، لا أستطيع أن أذكُر شيئًا واحدًا حدث في أحد تلك الأيام.

ومع ذلك بدأ روتين ما يتخذ شكلًا بالتدريج، كانت مهمتي الحقيقية الوحيدة هي أن أخدم على «أخيل» وقادته أثناء العشاء؛ لذا كنتُ على مرأى من الجميع - دون خمار حتى - كل ليلة، وشكَّل هذا صدمةً لي؛ لأنني كنتُ قد اعتدت نمط حياة منعزلًا بعيدًا عن تحديقات الرجال، لم أستطِع في البدء أن أفهم لماذا أرادني هناك، لكنني سرعان ما تذكرتُ أنني كنتُ جائزة شرفه، مكافأته على قتل ستين رجلًا في يوم واحد؛ لذا أراد أن يتباهى بي أمام ضيوفه بالطبع، لا أحد يفوز بجائزة فيخفيها في القسم الخلفي من خزانته، بل سيريد لها أن تكون في مكان مرئي كي يحسده بقية الرجال.

كرهتُ تقديم الشراب على العشاء، رغم أن «أخيل» لم يكن يأبَه طبعًا إذا ما كرهت ذلك أم لا، وعلى نحوٍ غريب، سرعان ما لم أعُد آبه أنا كذلك، هذا ما لا يفهمه الأحرار أبدًا، ليست الأَمَةُ شخصًا تتم معاملته على أنه شيء، الأَمَة شيء بالفعل، في تقديرها هي كما في تقدير أي شخص آخر.

وهكذا على أية حال، كنتُ هناك أتحرك جيئة وذهابًا بمحاذاة الطاولات، أصبُّ الخمر في أكواب الرجال وأبتسِم، دائمًا أبتسم، كل العيون كانت عليَّ، ومع ذلك حين كنتُ أنحني عند أكتافهم لم يكن هنالك لمسات ولا همسات ولا ملاحظات فاحشة، كنتُ هنا بأمان كما لو كنتُ في قصر زوجي؛ بل ربما أكثر أمانًا؛ لأن جميع الرجال هنا كانوا يعلمون أنهم إن تخطوا حدودَهم سيتعينّ عليهم أن يتعاملوا مع «أخيل»؛ أي - بصياغة أخرى - أن يموتوا.

كان «أخيل» يجلس إلى طاولته مع «فطرقل»، يتشاركان في الأنخاب والضحك حتى تهدأ المحادثة وتتحول إلى همهمة ثابتة، حينها يوجه أحدهما الحديث إلى الآخر بشكلٍ رئيس، وإذا نشب شجار ما وكان ذلك يحدُث بالطبع وبشكل متكرر؛ فهؤلاء رجالٌ درِّبوا منذ نعومة أظافرهم على ألا يتقبلوا أقل إهانة لشرفهم؛ كان «فطرقل» ينهَض على قدمَيه فورًا، يُهدئ المتشاجرين ويكبحهم ويقنعهم أن يشابكوا الأيدي ويتشاركوا المزاح، ثم أن يعاودوا الجلوس مجدداً كالأصدقاء في نهاية المطاف، وبعد ذلك يعود إلى «أخيل» وتُستأنف محادثتهما على الفور.

لم تكن علاقتهما علاقة الند بالند، رغم أن «أخيل» كان دائمًا يوجِّه أوامره بدماثة دائمًا على الأقل أمام الرجال، وكان يشير إلى «فطرقل» بـ «الأمير» أو «السيد»، ومع ذلك، بدَا من الجلي أن «فطرقل» مرؤوس يليه بالسلطة، غير أن تلك لم تكن القصة الكاملة، ذات مرة رأيتهما يسيران معًا على الشاطئ، «فطرقل» يضع يده على مؤخر عُنق أخيل، وتلك إيماءة تصدر أحيانًا عن الرجل نحو أخٍ أصغر أو ابن، ما كان لشخص آخر في الجيش أن يفعل ذلك لأخيل وينجُو بحياته.

يبدو أنكِ قضيتِ وقتًا طويلًا في مراقبته.

أجل، كنتُ أراقبه في كل دقائق يقظتي، ولم أكن أسمح لنفسي بدقائق كثيرة من النوم في حضرته، هذا غريب، لكنني حين قلت: «كنت أراقبه» قبل قليل كدت أضيف «مثل صقر»؛ لأن هذا ما يقوله الناس، أليس كذلك؟ هذا ما يمكنك أن تصف به التحديق المتعمد الذي لا يرمش، لكن الأمر لم يكن كهذا، فأخيل هو من كان الصقر، وأنا كنتُ أمَته التي يفعل بها ما طاب له؛ كنتُ خاضعة لسطوَته

بالكامل، إن استيقظ ذات صباح وقرر أن يبرحني ضربًا حتى الموت، ما كان أحد ليتدخل، كنتُ أراقبه فعلًا، كنت أراقبه مثل فأرة.

كنت أمضي القسم الأخير من المساء بعد العشاء برفقة «إيفيس»، التي كانت فتاة «فطرقل» التي منحها له «أخيل»، اعتدنا أن نجلس على السرير في الخزانة وننتظر أن يتم استدعاؤنا، كان «فطرقل» يرسل في طلبها معظم الأمسيات، ولم يكن ذلك مفاجئًا نظراً إلى جمالها الرقيق الشاحب، كانت أشبه بشقيقة «نعمان» ترتعش فوق ساقها النحيلة، هشة إلى درجة تشعُر معها أنها يستحيل أن تنجُو من الهبات التي تهزها، مع أنها تنجُو منها كلها، تحدثنا كثيراً لكن ليس عن الماضي، ليس عن الحياة التي كنا نعيشها قبل قدومنا إلى المعسكر؛ لذا لم أكن أعرف عنها سوى القليل بمعنى أو بآخر، هكذا كانت تسير الأمور، جميعنا وُلِدْنا مجدداً في يومنا الأول في المعسكر، كانت تعلم أنها محظوظة؛ لأنها مُنِحَت لفطرقل الذي كان لطيفًا دائمًا، ولاحظتُ كم كان رقيقًا معها، رغم أنني كنت أظنه فضَّلها على بقية الفتيات إلى حد بعيد؛ لأنها هدية من «أخيل».

في تلك الأيام المبكرة، ارتبتُ من لطف «فطرقل»؛ لأنني لم أستطِع فهمه، وكانت لامبالاة «أخيل» القاسية منطقيةً أكثر بكثير، كان لا يكاد يوجه إليَّ كلمتين، ومع ذلك غالبًا ما كنت أتحدث إلى «فطرقل» حين بدأ حذري يتبدد، أتذكر أنه ذات مرة - في وقت مبكر من إقامتي - وجدَني أبكي فطلَب مني ألا أقلَق، وقال: إنه يستطيع جعل «أخيل» يتزوجني، كان من الاستثنائي قول شيء كذلك، لم أعرف كيف أرد؛ لذا اكتفيت بهز رأسي والإشاحة بوجهي.

وجدتُ عزائي الوحيد في المشي إلى البحر قبل الفجر، أخوض في الماء حتى خصري، إلى أن أجد نفسي واقفةً على رؤوس أصابعي أستشعر بكل موجة منحسرة وهي تشدني، وغالبًا ما كانت غشاوة الضباب تزحف من البحر، كثيفةً بما يكفي أحيانًا كي تحجب النظر، وحين أكون محجوبة هكذا، ومخفية عن أي شخص قد يمر في الجوار، كنتُ أشعُر بالسلام، أو بأقرب ما أستطيع أن أبلغه من السلام، وأشعُر بإخوتي - الذين لا بد أن جثثهم التي لم تُدفَن كانت قد تحللت إلى شظايا من العظم المتآكل بحلول هذا الوقت - يتجمعون حولي، لقد

أصبح ذلك الشريط المكسو بالحصى، الذي ينتمي مع انتشار المد فوقه إلى البحر تارةً وإلى اليابسة تارةً، الأرضَ الطبيعية للقائنا، صار إخوتي كائنات حدية بين بين حتى الصميم، بما أنهم باتوا لا ينتمون إلى الأحياء ولا إلى الموتى، ما بَدَا ينطبق عليَّ أنا كذلك.

ورغم كوني محجوبة بغشاوَة الضباب وغير مرئية، لم أكن وحدي، كان «أخيل» يسبح كل صباح قبل الفجر، ومع ذلك لم يحصل أي اتصال بيننا، إما لأنه لم يكن يراني أو لأنه اختار أن يتجاهلني، لم يكُن لديه أي فضول تجاهي، ولا شعور بي كشخص منفصل عنه هو ذاته، حين أضع الطعام أو الشراب أمامه على العشاء، لم يرفع ناظريه نحوي ولو مرة واحدة، لم أكن مرئية إلا في السرير، ولستُ واثقةً في الحقيقة إلى أي حد كنتُ مرئية هناك، عدا بصفتي مجموعة من الأعضاء، أعضاء بشرية يألفها، كانت بمثابة عدة عمله، شعرت أن المرة الوحيدة التي رآني فيها بالفعل كانت لحظة التفحص المقتضبة تلك حين عُرِضتُّ أمامه، لقد نظر إليَّ آنذاك دون شك، رغم أن نظرتَه دامَت فقط بما يكفي ليتأكد أن الجيش يكافئه بجائزة تتناسب مع منجزاته.

لم يكن يتحدث إليَّ، لم يكن يراني، لكنه كان يرسل في طلبي كل ليلة، تحملتُ ذلك معللةً نفسي بأن كل شيء سيتغير ذات يوم وربما عما قريب، وأنه سيتذكر «ديوميد» - الفتاة التي كانت مفضلة لديه قبل وصولي - ويرسل في طلبها عوضًا عني، أو الأفضل من ذلك، أنه سينهب مدينة أخرى - ويعلم الإله أن شهيته لنهب المدن بدَت لا تعرف حدودًا - فيكافئه الجيش بهدية أخرى، فتاة مصدومة مرتعشة أخرى، وحينها سيباهي رجالَه بها هي، ويختال بها أمام ضيوفه، وسيُترك لي أن أغرق في إبهام أكواخ النساء.

تغيرت الأمور بالفعل - وهذا ديدن كل شيء - لكن ليس في الاتجاه الذي كنتُ أتمناه، لا أعرف كم من الوقت مضى عليَّ في المعسكر، ربما حوالي الثلاثة أسابيع، إذ كان من المستحيل تقريبًا - كما قلت - رصد الزمن في ذلك المعسكر، شعرتُ أنني أعيش في فقاعة، بلا ماضٍ أو مستقبل، لا شيء سوى تكرار لا متَناهٍ من الحاضر والحاضر والحاضر!

لكنني أظن أن التغيير ربما بدأ فيَّ أنا، بدأ الخدر يتبدد ليحل مكانه ألَم شديد إلى درجة تمنعني من الوقوف أو الجلوس ساكنة، حتى تلك المرحلة، كنت خاضعةً ويقظة بشكل شاذ عن الطبيعة في آنٍ واحد، لكنني أعدم العواطف على نحو يدعو للفضول، أما الآن فتمر بي لحظات متكررة من الكآبة، بل حتى اليأس.

حين مدت ابنة خالتي «أريانا» يدها إليَّ على سطح القلعة قبل أن تثب نحو حتفها، اخترتُ أن أعيش، لكن لو كان لي أن أعيد الاختيار الآن، مع معرفتي بكل ما أعرفه الآن، هل كنتُ لأتخذ القرار نفسه؟

ذات ليلةٍ بعد العشاء، بدلًا من الذهاب لأجلس مع «إيفيس» في الخزانة بانتظار أن يتم استدعاؤنا، سرتُ إلى البحر، حالما ينتهي الرجال من تناول الطعام، عادةً ما تقتنص النساء لقمةً سريعة، لكنني كنتُ أشعر بالغثيان، ولم أستطِع تقبُّل فكرة الطعام.

سرت في الطريق بين الكثبان، والرمل الناعم يتبعثر مع كل خطوة، في بعض الأحيان حين أفكر في إخوتي، كنت أشعُر بشيء يشبه الانتعاش، فما دمت حية أتذكر لن يصبحوا موتى بالكامل، وكنت أريد أن أحيا حتى أرى «أخيل» يتلظى في محرقة جنازته، لكن تلك اللحظات كانت مقتضبة يعقبها دائمًا إدراكي أن هذا هو كل شيء، هذه هي حياتي من الآن فصاعدًا، سأُشارك «أخيل» سريره حتى يسأَم مني، وحينها ستتدنى مرتبتي إلى حمل دلاء الماء أو قطع نبات الأسَل لبسطه حصائرَ على الأرضية، وحين تنتهي الحرب سأؤخَذ إلى فثيا؛ لأن الإغريق سينتصرون، كنت أوقِن أنهم سينتصرون لأنني رأيت «أخيل» وهو يقاتل، ستُدمَّر طروادة كما دُمِّرَت ليرنيسوس؛ المزيد من الأرامل والمزيد من الفتيات المصدومات النازفات، لم أرغب أن أعيش وأرى أيًّا من ذلك.

حين وصلتُ إلى الشاطئ، دخلتُ البحر مباشرة كما كنت أفعل في العادة، لكنني تابعتُ السير هذه المرة حتى أحاط الماء برأسي، وتحتي كانت حزم متحركة من ضوء القمر تومض بشكل متقطع فوق عروق من الرمل الأبيض، حاولتُ أن

أجعل نفسي آخذ نفسًا، لكن من المذهل كيف يكافح الجسد للنجاة حتى حين تكون الروح مستعدة للمغادرة! لم أستطِع إرغام نفسي على أخذ ذلك النفس، وبعد فترة ما عاد تضييق الطوق الحديدي حول صدري محتملًا؛ فاندفعت إلى الأعلى لاإراديًا، مخترقةً السطح بصرخة تستجدي الهواء.

ولدى عودتي إلى مجمع «أخيل» مغتمةً في حال يرثى لها، كانت «إيفيس» تنتظرني، وبينما كنتُ أرتجف، ألقَت على رأسي رداءً نظيفًا جافًّا وجدلت لي شعري على شكل عقدة في الخلف كيلا يكون بلله جليًّا، كانت تتمتم متخوفةً طيلة ذلك الوقت، تَرْبِت على كتفي وتمسد وجهي وتفعل كل ما في وسعها لتجعل مظهري مقبولًا، لكن «فطرقل» استدعاها حينذاك فاضطرت للذهاب.

ظللتُ جالسةً هناك دون حراك، وكان «أخيل» يعزف على القيثارة في الغرفة المجاورة كما يفعل دائمًا في هذا الوقت من الليل، ثمة مقطوعة موسيقية محددة تنتهي بنوتات متتالية تشبه آخر بضع قطرات مطر في نهاية عاصفة، بدَت لي مألوفة، كما لو كنت أعرفها دائمًا، لكنني لم أستطِع تحديدها؛ لم أستطع بالتأكيد أن أتذكر أيًّا من كلماتها، رحتُ أصغي، ثم توقف عن العزف، اللحظة التي كنت أرهبها دائمًا، سمعته يضع القيثارة على المنضدة المجاورة لكرسيه، وبعد دقيقة فتح الباب وأومأ لي برأسه كي أدخُل.

بعد أن تركتُ ردائي يسقط أرضًا؛ وقفتُ لبرهة أفرك ذراعي المبللتين، ثم دسستُ نفسي بين أغطية السرير، لم يكن مستعجلًا، راح يرتشف آخر ما تبقى من نبيذه وأخذ القيثارة ليعزف نفس النوتات المتتالية مجددًا، استلقيتُ ورحتُ أستمع مبغضةً رقة أصابعه وهي تتحرك على الأوتار، كنتُ أعرف كل إيماءة تصدر عن تلك اليدين المقلمتين بعناية، واللتين ما يزال الدم عالقًا بطريقة ما في قشرهما الميت؛ حتى مغاطس الاستحمام المعطرة لن تزيل كل الوصمات، ولأنني كنتُ أراقبه عن كثب - بدافع الخوف وليس أي شيء آخر - شعرتُ أنني أعرف كل شيء عنه أكثر من رجاله، أكثر من أي أحد، ما عدا «فطرقل»، كل شيء ولا شيء؛ لأنني ما كنت أستطيع أن أتخيل ولو للحظة واحدة شعور أن أكون مكانه، وفي الوقت نفسه، لم يكُن قد تعلم عني شيئًا على الإطلاق، وكان ذلك

يناسبني تمامًا، فلم أكن أرغب أن يتم فهمي دون شك.

جاء إلى السرير في نهاية الأمر، أغمضتُ عيني متمنيةً أن يطفئ القنديل، رغم تيقني من أنه لن يفعل؛ إذ ما كان يفعل ذلك أبدًا، شعرتُ به ينقلب على جنبه ويكور هاتين اليدين المريعتين حول صدري، فأرغمت نفسي ألا أتخشب، ألا أنكمش.

وحينذاك توقف، «ما هذه الرائحة؟»

تلك كانت تقريبًا أولى الكلمات التي يوجهها إليَّ، تزحزحتُ أكثر مُبتعدةً عنه، كنت أعلم أنها غلطة، لكنني لم أستطِع منع نفسي، انحنى إلى الأمام وتشمَّم بشرَتي وشعري، وكنت أعي كيف بَدَا له الأمر؛ الملح المتيبس على وجنتي، ورائحة عطن البحر في شعري، توقعتُ منه أن يطرُدني من السرير أو يضربني، وأن ينقلب العنف الذي كان يجيش طوال الوقت تحت السطح عليَّ أخيراً.

لكن ما قام به بالفعل كان أكثر صدمة بكثير!

دفنَ وجهَه في شعري متأوهًا، قوستُ ظهري بفعل الصدمة؛ لأنه لم يكن رجلًا يمارس الحب مع امرأة، بل كان رضيعًا يتضور جوعًا، أخذ يلكم صدري بقبضته، ثم كبح لجام نفسه وبدأ يدس خصلات شعري المبللة داخل فمه، وبعدها عاد إليَّ يعانقني مجدداً، قد يتساءل المرء: لماذا شكَّل الأمر لكِ كل هذه الصدمة؟ وليس بوسعي إلا أن أقول مجدداً: هذا لم يكن رجلًا، بل كان طفلًا!

حين أفلتَني، كان قد اكتسى بسيماء رضيع مُزهر، سيماء لم يسبق لي أن رأيتها تعلُو وجه رجل من قبل ولا بعد ذلك.

وعندما انتهى الأمر، أنزل عينيه ينظر نحوي؛ بدا ذاهلًا مُضطربًا تقريبًا، انقبضتُ متوقعةً أن يضربني، ليس بسبب شيء قلتُه أو فعلتُه، أو لم أقُله أو أفعله، بل لأنني شهدتُ هذا ببساطة؛ شهدتُ عَوَزَه، لكنه عوضًا عن ذلك انقلبَ على جنبه مبتعدًا عني وتظاهرَ بالنوم.

***

-٦-

تغير كل شيء بعد تلك الليلة ولكن ليس نحو الأفضل، فمكان استخدام «أخيل» النشط الفعال المُسلم به لجسدي بهدف التفريج عن نفسه؛ حل شغفٌ هائل؛ شغف ولكن دون رقة، كان يمارس الحب كما لو كان يتمنى أن تودِي المضاجعة التالية بحياتي، يطحنني محولاً إياي إلى غبار في لحظة، ثم يتشبث بي في التالية كأنه يخاف أن أختفي فجأة، في بعض الليالي اعتقدتُّ أنه قد يخنُقني بالفعل.

لم تكفَّ «إيفيس» عن سؤالي إذا ما كنتُ على ما يرام، وكنت أكتفي بالإيماء وأتابع ما أفعله أيًا كان، صرتُ أغامر أكثر فأكثر بالخروج والذهاب أبعد عن أكواخ النساء، إذ ذهبتُ في البداية إلى أقرب جلسات السمر حول النار حيث تتواجد عادةً بعض النساء اللاتي أعرفهن من ليرنيسوس على الأقل، وأنا في الخارج وضوء الشمس على بشرَتي، كنت أشعُر أنني نجوت، حسنًا، كنت قد نجوت بمعنى ما؛ إذ كان ثمة نساء في المعسكر، نساء رأين أبناءهن يُقْتَلون، نساء ما زلن غير قادرات على الكلام، نساء يتعثرن أثناء المشي بأعين ميتة تغمرهن الصدمة، كان للمرء أن يُصفق بيديه - حرفيًا - أمام وجوههن دون أن يرمشن.

لكن الأمور لا تكون بسيطةً إطلاقًا، أليس كذلك؟ للدهشة، كانت حيوات بعض النساء قد تغيَّرت نحو الأحسن، هنالك فتاة كانت أَمَةً في ليرنيسوس - بل أَمَة مطبخ، أي في الدرك الأسفل - وأصبحت الآن مَحْظِيَّة سيد عظيم، بينما تضطر سيدتُها - وهي امرأة عادية ثقيلة البطن في آخر سنوات قدرتها على الإنجاب - أن تكدح وتكدَّ من أجل الطعام حول النيران؛ ما من شيء يهمُّ الآن سوى الشباب والجمال والخصوبة.

كنا نتغلب على المصاعب كل بطريقتها، ثمة امرأتان أتذكرهما على وجه الخصوص - أظنهما أختين - كانتا تمّضِيان كل اليوم في سقائف الحياكة، لا

تخرجان أبدًا إلا للسير قليلًا في نهاية الأصيل، وحينها تخرجان سويةً دائمًا إحداهما تتأبَّط ذراع أختها تكسوهما أخمرة ثقيلة إلى درجة أنني كنتُ أتفاجأ من قدرتهما على رؤية طريقهما، بدتا كما لو أنهما توطِّنان نفسيهما - من خلال الحفاظ على كل محاذير حياة النساء المحترمات - أن تُرْجِعَا الزمن وتُبطلا ما أصبحتا عليه، كنتُ أنظر نحوهما وأقول في قرارة نفسي: أنتما مجنونتان.

على النقيض من ذلك، أنا كنتُ أسلُك الاتجاه الآخر، وأنطلِق كل صباح للمشي في أنحاء المعسكر وحدي دون خمار، كانت قدماي تسيران بي أحيانًا على طول الشاطئ، مرورًا بالعديد من المجمعات، ووصولًا إلى اللسان الصخري الذي يتم إحراق الموتى عليه، من هناك يمكن للبصر أن يمتد أميالًا، فيرى في اليوم الصحو أبراج ليرنيسوس المحروقة المحطمة، وكان ثمة درب آخر نحو الداخل يمر بين الكثبان وصولًا إلى أرض شجيرات تقود طرقاتها الموحلة المُهمَلة نحو ميدان القتال في نهاية المطاف، ومن هناك كنت أستطيع أن أرى الأرض المنبسطة تمتد حتى طروادة، بل حتى كنتُ ألمح - من حينٍ إلى آخر - وميض نور الشمس على تاج الملك بريام الذهبي، لقد كان يمْضِي طوال وقته تقريبًا على المتراس مُطلًّا على ميدان القتال، وإلى جانبه نقطة بيضاء تنحني إلى أكبر درجة تتجرأ عليها؛ هي هيلانة.

ما كان بمقدور أحد تصديق أن الحرب قد امتدت كل هذه المدة، كانوا يتقاتلون منذ تسع سنوات على سهل طروادة، والجبهة تتقدم وتتراجع مسافةً لم تكبر يومًا، ولم يستطِع أيٌّ من الطرفين أن يدحر الآخر، وما كان ذات يومٍ أرضًا زراعيةً خصبةً تحوَّل الآن إلى يباب من الوحل، إذ كان النهران اللذان يتعرجان فوق السهل يفيضان خريفًا وشتاءً، اختفت الأشجار، حيث قُطِّعَت في أول شتاء من الحرب لبناء الأكواخ وإصلاح السفن، واختفت الطيور هي الأخرى، وكانت ندرتها مروعة، بالكاد صقر منعزل يحلِّق فوق القفر. لم أكن أسلُك ذلك الطريق كثيراً، كان يُؤلمني أن أرى طروادة التي أمضيتُ فيها عامين سعيدين جدًّا ذات زمان.

شيئًا فشيئًا، بدأتُ أتعرَّف على بقية «الجوائز» - النساء اللاتي أُهدين من قبَل

الجيش إلى مختلف الملوك - كنا نلتقي في مجمع نسطور؛ لأنه الأقرب إلى الميدان المركزي مما جعله مناسبًا للجميع، تقوم «هيكاميد» - التي أُهْدِيَت إلى «نسطور» حين قام «أخيل» بنهب تينيدوس - بمزج دوارقَ من النبيذ الثقيل توزعها على الحضور مع أطباق من الخبز والجبنة والزيتون، كانت في التاسعة عشر - كما أظن - أي أصغر أو أكبر مني بقليل، ملساء الشعر بنية البشرة، سريعة ورشيقة في كل حركاتها؛ تذكرني بطائر النمنمة، قُدِّمَت إلى «نسطور» مكافأةً على «تفكيره الاستراتيجي»؛ بما أنه كان أكبر سنًّا من أن يشارك في الغارات الفعلية.

- «أكبر سنًّا من أن يفعل أي شيء».

ارتجلتُ راجية.

صاحت «أوزا» - وهي أيضًا من تينيدوس - ضاحكةً:

- «إياكِ أن تصدقي ذلك، الشيوخ هم الأسوأ دائمًا، يظنون أنكِ ما إن تقومي بشيء ما - شيء آخر غير الذي تقومين به - حتى يتصلَّبوا كالصخر، لا، أنا أفضل الشبان في أي وقت.»

كانت «أوزا» مكافأة «أوديسيوس»، وبدا أنه ما من مشاكل في ذلك، الأمور صريحة للغاية، حين ينتهي الأمر، يستلقي ناظرًا نحو السقف وينغمس في ذكريات طويلة غير مترابطة عن زوجته «بينيلوبي»، التي كان مكرسًا لها إلى أبعد درجة.

قالت «أوزا» وهي تَكْبِتُ تثاؤبها:

- «جميعهم يتحدثون عن زوجاتهم».

لم يَرِدِ ذِكر مهنة «أوزا» قبل سقوط تينيدوس يومًا، ومع ذلك أظنني أستطيع التخمين.

التفتَت «ريتسا» إليَّ:

- «ماذا عن أخيل؟ كيف هو؟»
- «سريع»، أجبتها مكتفيةً بذلك القدر.

سُرِرْتُ لرؤية «ريتسا» مجددًا، كان قد تم إهداؤها إلى «ماشاون» كبير أطباء الجيش، وليس بسبب مظهرها بالتأكيد، بل بسبب مهارتها في العلاج، كانت أرملة، أكبر من بقيتنا، وما كانت في الظروف الطبيعية لتقبل أن تتحدث النساء المتزوجات بهذه الطريقة أمام الفتيات الشابات.

أما صغرانا «كريزيس»، فكانت في الخامسة عشر؛ ابنة كاهن كانت ما تزال تعيش في منزل أبيها حين سقطت تينيدوس، اختارها «أجاممنون» من بين مجموعة فتيات أسيرات صُفِفْن كي يتفحصهن، وكان هو دائمًا من يختار أولًا لكونه رئيس الأركان، رغم أن «أخيل» هو من يتحمل عناء القتال، «كريزيس» كانت محببة كما تكون الفتيات عادةً في أول إزهارهنَّ، بَدَتْ أول الأمر خجولة جدًّا، غير أنني اكتشفتُ لاحقًا أن ذلك لم يكن خجلًا على الإطلاق بل تحفُّظًا شديدًا.

توفِّيت أمها حين كانت ما تزال طفلة؛ لذا أصبحت ربة منزلِ أبيها منذ سن مبكرة كما ساعدته في المعبد، وأنضجتها تلك المسؤولية المزدوجة قبل أوانها، لم تقل الكثير في لقائنا الأول - لم أستطع التخمين إذا ما كان ذلك نتيجة الخجل أم التحفظ أم الاحتشام المفرط - لكنها كانت محط اهتمام الجميع، حين غادرَت قبل بقيتنا، انصبَّت المحادثة حولها على الفور، لكنها لم تكن نميمة ماكرَة، أظهر الجميع تخوُّفه عليها، رغم أنها من منظورٍ ما - كما أشارت أوزا - كانت أفضل حالًا من معظمنا؛ إذ لم يكن أجاممنون يكتفي منها.

قالت «أوزا»:

- «لا يُرسل في طلب أية فتاة أخرى، يُدهشني أنها لم تحبل!»

فأردفت «ريتسا»:

- «إنه يفضل الباب الخلفي.»

وكان حَرِيًّا بـ «ريتسا» أن تعلَم، إذ كانت تملك مرطبانًا من دهن الإوز الممزوج بالجذور والأعشاب العطرية المطحونة تعتمد عليه عامة النساء اللاتي يرتدن حلقات السمر إن واجهن ليلة قاسية ما، كانت أكثر تحفُّظًا من أن تكشف ما إذا كانت «كريزيس» تزورها، لكن التضمين بَدَا واضحًا.

«حقًّا؟» سألت «أوزا» مستدركةً: «بالطبع، فهي نحيلة جدًّا»، ثم اتكأت إلى الخلف عاقدةً يديها وراء رأسها لتجذب الانتباه إلى انحناءاتها الوفيرة.

قالت «هيكاميد»:

- «إنه يحبها».

شخرت أوزا:

- «أجل، إلى أن يملَّ منها، أتتذكرون ما اسمها؟ إنه يبدأ بحرف الواو، كان يُفترض أنه واقع في حبها، لكن ذلك لم يمنعه من تمريرها إلى الرجال، إضافةً إلى تلك الفتاة الأخرى.»

سألت:

- «أيفعلون هذا؟»

- «ماذا؟»

- «يمُررون السبايا إلى الرجال».

هزت «أوزا» كتفيها:

- «هذا أمر يحدُث.»

فقالت «هيكاميد»:

- «لن يحدُث لها، فالرجل مفتون.»

أجابت «أوزا»:

- «ربما، آمل أن تكوني مُحقة.»

تمططت «ريتسا» متثائبة:

- «كل ما عليها فعله هو أن تمنحه ابنًا، حينها تطمئن لبقية حياتها.»

فسألتُ:

- «ألا يمكن أن يكون هذا صعبًا قليلًا، إن كان يفضل الباب الخلفي؟»

تعالت الضحكات مترقرقة. حين أرجع الآن بذاكرتي، يبدُو لي أمراً لا يُصدَّق أننا كنا نضحك؛ غير أننا كنا نضحك كثيراً، لكن في نهاية المطاف لم تفقِد واحدة منا طفلًا.

امرأة أخرى كانت ترتاد تجمعاتنا، لكن بشكل أقل انتظامًا من الأخريات، وهي

«تيكميسا» سبية «أجاكس»، كانت في المعسكر منذ أربع سنوات ولها ابن رضيع قيل: إن «أجاكس» يهيم به، وبما أن مجمع «أجاكس» كان بجوار مجمع «أخيل»، عادةً ما كنت أمشي معها قسمًا من طريق العودة، كانت امرأة ضخمة البنية تلاقي صعوبة في المسير في الحر؛ لذا كان مسيرنا تجولًا بطيئًا يوفر الكثير من الوقت للكلام، لكنني كنت أستصعب أن أستلطف «تيكميسا» أو أُكِنَّ لها أي مشاعر عدا عن الشفقة الساخطة، لقد قَتَلَ «أجاكس» أباها وإخوتها واغتصبَها في الليلة نفسها، ومع ذلك فقد بدأت تحبه مع الزمن - أو هذا ما قالته -، ولم أكن متأكدةً أنني أصدقها، وبصراحة، لم أُرِدْ أن أصدقها، وجدتُّ تأقلمها مع الحياة في المعسكر مهددًا، عدا عن أنه مخزٍ، لكن من جهة أخرى، كان لديها ابن، وحياتها كلها تتمحور حول الطفل.

أما شغفها الآخر فكان الأكل، ثمة طبق محدد كانت «هيكاميد» تقدمه عادةً، عبارة عن مزيج من الفواكه المجففة والمكسرات والعسل، حلوٌ ومتخمٍ إلى درجة أن لقمة أو اثنتين في نهاية الوجبة كان أكثر ما تستطيع معظمنا تحمله، في حين كان بوسع «تيكميسا» التهام صينية كاملة منه، بينما تراقبها بقيتنا بريبة ونحن نتبادل بعض النظرات من حينٍ إلى آخر، لكن دون أن تنبس إحدانا ببنت شفة.

مرةً أو اثنتين، أزعجتني «تيكميسا» حقًّا بنصائح مُستفزة رغم أنها صادرة عن طيب نية حول اغتنام أفضل ما في المواقف؛ كانت تقول لي: إن عليَّ أن أحاول جعل «أخيل» يحبني: «هو ليس متزوجًا، ولديه ابن واحد فقط كما تعلمين، وليس هذا بالشيء الذي يُذْكَر بالنسبة إلى رجل في منصبه، كان بوسعه أن يتزوجها، لكنه لم يفعل»، اتضح أن اسم الابن «بيرهوس»، وأن «أخيل» لم يرَه مذ كان رضيعًا، وأنه يترعرع وسط عائلة أمه، تابعتْ بإلحاح: «ثمة فرق كبير، لا يشبه هذا أن يُنجب طفلًا ويشاهده يكبر»، كانت الرسالة واضحة: هناك شاغرٌ وسأكون غبية إن لم أحاول أن أملأه، «انظري إليَّ، «أجاكس» يعبُد الأرض التي أمشي عليها.»

قلتُ في قرارتي: أجل، انظري إلى نفسكِ، إن كانت حياتكِ مُدهشة كما تقولين،

فلِمَ لا يتوقف فَكَّاكِ عن العمل أبدًا؟

ظهرت في أحد الأيام ملفعةً بعباءة ثقيلة رغم القيظ، وحينما انحنت لتلتقط دمية السفينة الحربية الخاصة بابنها، انفلتت طيات القماش لتكشف عن آثار أصابع سوداء حول عنقها، علمَتْ أننا رأينا ذلك، لكن إحدانا لم تقُل شيئًا لمدة طويلة.

ثم قالت «أوزا» أخيرًا: «أهناك مشاكل في الفردوس؟» موجهةً سؤالها إلى الهواء كما بَدَا.

هزت «ريتسا» رأسها، لكن الوقت كان قد فات، وانقلبَت «تيكميسا» إلى لون أحمر دميم مبقع قائلةً:

- «ليس هذا ذنبه، تراوده كوابيس مريعة، وأحيانًا حين يستيقظ يظنني شخصًا طرواديًّا.»

فقلت:

- «أنتِ طروادية بالفعل.»

أجابت تيكميسا:

- «لا، أقصد محاربًا.»

في طريقنا إلى المنزل - حسب تعبيرها لا تعبيري - ذلك اليوم، قَصَّت «تيكميسا» عليَّ أحداث الليلة السابقة، وكيف اضطرت أن تضرب «أجاكس» بقبضتيها كي توقفه: «الأمر خارج عن إرادته»، يا للمرأة المسكينة! كانت في حاجة واضحة إلى أن تُفْضِي لشخص ما، لكنني كنت أسوأ شخص لذلك بحق، «أتراود الكوابيس أخيل؟»

هززتُ رأسي بصمت.

- «سترُاوده، فالكوابيس تراودهم جميعًا عاجلًا أم آجلًا، سيستيقِظ ذات ليلة ويظنكِ العدو.»

- «حسنًا، إن فعل ذلك سيكُون محقًّا.»

- «لن تقولي هذا حين تنجبين طفلًا.»

لاحظتُ أنها استخدمَت حين وليس إذا.

حتى ذلك الحين، اعتقدتُّ دائمًا أنني لن أحبل، فرغم كل شيء، لقد فَشِلَتْ خمس سنوات من الزواج أن تثمر الابن المنشود، لكن مع ذلك فمن الحقائق المعروفة أن الفرس العاقر قد تلد مهرًا إن تولاها فحلٌ مُختلف.

بدأتُ أتحير؛ ها هي ذي «تيكميسا» وابنها الصغير، وفي كل أنحاء المعسكر نساء يدفعن أمامهن بطونهن الكبيرة أو يحملن بين أذرعهن رُضَّعًا صغارًا يبكون، وكان للأقدم هنا من بينهن أطفال بدؤوا يعيلون أنفسهم حول النيران، ومع ذلك، كنتُ مُقتنعة أن هذا لن يحدُث لي، بل بصراحة، لم أكن أعتمد على الاقتناع وحده، إذ كنت ما أزال أغسل نفسي منه كل صباح، خلافًا لما يصب في مصلحتي كما كانت «ريتسا» تقول، وكان جزء مني قد أدرك تمامًا صحة ما قاله «نسطور»: هذه هي حياتك الآن؛ لن أجني شيئًا من التشبث بماضٍ لم يعد موجودًا، غير أنني تشبثت به؛ لأنني في العالم المفقود كنت شخصًا ما، شخصًا له دور في الحياة، وشعرتُ أنني لو تركتُ ذلك يذهب سأفقِد آخر أثر لي.

تركت «تيكميسا» عند بوابة مجمع «أجاكس»، وسرتُ آخر بضع مئات من الياردات وحدي، كنتُ واعيةً لوجود عوام النساء حولي يُعنَينَ بالنيران ويحملن قدور الطبخ مهيئات أنفسهنَّ لعودة المحاربين، هؤلاء كُنَّ الأكثر بؤسًا من بين كل النساء في المعسكر، تحمل كثيرات منهن الكدمات الدائرية الغريبة الناتجة عن وكز أعقاب الرماح، كُنَّ يعِشن حول النيران، ويَنَمْنَ تحت الأكواخ في الليل، وكانت الفتيات الأصغر بينهنَّ لا يتجاوَزن التاسعة أو العاشرة من العمر، كنت

أظن أن حياتهن منفصلة تمامًا عن حياتي، لكنني الآن أدركتُ أن «أجاممنون» على الأقل قد يمنح إحدى محظياته لرجاله أحيانًا من أجل الاستخدام المشترك، ربما حين يملها أو حين تفعل شيئًا لا يسره، أو حين يرى ببساطة أن رجاله يستحقون مكافأة، هل سبق لأخيل أن فعل ذلك؟ لم تكن لديَّ فكرة، كل ما كنتُ أعرفه أن المعسكر قد أصبح فجأةً مكانًا أكثر تهديدًا حتى من ذي قبل.

حالما عبرتُ بوابة المجمع - التي كانت تُترَك مفتوحة خلال النهار - امتلأ ذهني رهبةً من الليلة المقبلة، كان يجب إعداد المغاطس لـ «أخيل» و«فطرقل» اللذين يحظيان كلاهما بحمام ساخن معطر عقبَ القتال كل يوم، إضافة إلى تجهيز الدفعة الأولى من الشراب الذي يكون وافراً، لم يكن لي عمَل حقيقي ضمن هذا - عوام النساء هُنَّ من يغلينَ الماء ويحملنَ المراجل الثقيلة - لكنني كنت أتأكد دائمًا من جهوزية حمام «أخيل» في الوقت المناسب؛ لأن ذلك يُحْدِثُ فارقًا في مزاجه، ومزاج «أخيل» هو ما يُدير كل شيء.

الصمتُ يُطبق علينا جميعًا حين تقترب عربته، وهو يذهب كل مرة - حتى قبل نزع خوذته - ليتفقد الإسطبلات ويطمئن إلى تدليك خيوله وسُقياها بشكل لائق، حينها فقط يتجرد من دروعه ويُلْقِي بها إلى مرافقيه كي يتم تنظيفها، وغالبًا ما يقوم - عوضًا عن الغطس في المغطس الساخن الذي هُيِّئَ بعناية كبيرة - بالاندفاع إلى البحر، وبعيدًا خلف الأمواج المتكسرة، ينقلب على ظهره ويطفُو بينما يبرد ماء استحمامه في المعسكر خلفه، «فطرقل» يتبعه عادةً إلى الشاطئ ويقف هناك يراقبه، دائمًا ما يبدُو قلقًا في تلك الأثناء، غير أنني ما كنتُ لأفهم بأي شكل ما الذي يستدعي القلق في ذلك؛ إذ يصعب على رجل يسبح بتلك الطريقة أن يغرق.

في نهاية المطاف، يخوض «أخيل» ببطء نحو الشاطئ، سائرًا بخطوات كبيرة متزعزعة بين الأمواج التي تتكسر على ركبتيه حتى يصل إلى اليابسة، وهناك يتوقف وينفض نفسه حتى يتطاير شعره الطويل الذي وَخَطَه الدم بالأسود حول رأسه وتغضن قطرات الماء سطح الرمل مشكِّلَةً دائرةً تحيط به، وبعد أن يغسل الدم يقف لحظة ليمسح الرذاذ من عينيه قبل أن يدخُل الضوءَ وهو يرمش، كان

يبدو كمن وُلِدَ من جديد، ثم يلقي ذراعه على منكبَي «فطرقل» ويصعدان منحدرات الرمل والحصى سويةً، يأخذان كأسي النبيذ اللتين تُناوَلان لهما ويدخلان الكوخ كي يستعدا للعشاء.

***

-٧-

كنت أصلي من أجل حدُوث شيء جيد، أي شيء قد يغير الطريقة التي أعيش بها، في ذلك الوقت، كنت أشعُر كأن النهار يلي النهار والليل يلي الليل دون أي إحساس بالتقدم، لكن حين أعيد التفكير، أرى أنه كان ثمة تغييرات، رغم أنها بدَت هامشية آنذاك، ذات مساء - على سبيل المثال - حين كنا أنا و«إيفيس» ننتظر في الخزانة، أتى «فطرقل» ليجلب المزيد من الخمر، وقال حين رآنا جالستين هناك:

- «لمَ لا تدخلان؟»

كلتانا تبادلنا النظرات، كان هذا غير متوقع، وأي تطور غير متوقع كان يوعز بالإنذار، لكننا كنا قد تكيَّفنا على الطاعة؛ لذا نهضنا وتبعناه إلى الغرفة الأخرى، وهناك جلستُ على كرسي أبعد ما استطعت عن «أخيل»، وأخذتُ أرشف النبيذ الحلو من الكوب الذي ناولني إياه «فطرقل»، بالكاد أتجرأ على التنفس، نظر إليَّ «أخيل» مندهشًا لبرهة، لكنه لم يُلْقِ لنا بالًا فيما عدا ذلك.

حين غادر «فطرقل» آخذًا معه «إيفيس»، قمتُ إلى السرير كالعادة، كنت بحلول ذلك الوقت قد استنتجتُ أن التبدل الذي طرأ على سلوك «أخيل» له صلة برائحة ماء البحر في شعري، حاولتُ أن أبقى بمنأى عن الشاطئ، بيدَ أنني لم أستطِع؛ كنت أحتاج ذلك الانغمار في الأعماق الباردة المالحة التي لا تُسامح، وبدا أن حاجتي إليها تزداد مع مرور الوقت؛ لذا ظللتُ آتي إلى سريره ورائحة عطن البحر في شعري والملح متيبس على جلدي، وتجلدتُ على مواجهة شهوته

وغضبه وعَوَزه خائفةً - خائفة أكثر من أن أتكلم إلى أي أحد - دون أن أفهم شيئًا من ذلك.

صار ذلك ديدنَ أمسياتنا، نُدْعَى أنا و«إيفيس» إلى غرفة «أخيل» قبل حلول وقت الخلود إلى السرير، وأحيانًا يتابع «أخيل» و«فطرقل» المحادثة التي كانا يخوضانها على العشاء، فيمران على قتال اليوم ويقرران ما يجب التأكيد عليه في تعليمات الصباح التالي، إن كان اليوم قد سار على ما يرام، لا تدوم هذه المحادثة طويلًا، أما إن كان قد مرَّ عسيراً، تثور ثائرة «أخيل» ويبصق كلمات الاحتقار بحق «أجاممنون».

كان الرجل عديم الكفاءة، لا يأبه البتة برجاله أو بأي شيء عدا جشعه، والأسوأ من ذلك أنه كان رعديدًا، يتخلَّف دائمًا ليحرس السفن، بينما يتجشم البقية ويلات القتال، «إضافةً إلى أنه ...» وهنا رفع «أخيل» كوبه طلبًا للمزيد من الخمر، «... يشرب».

- «جميعنا نشرب».
- «ليس مثله»

رفع «أخيل» ناظريه نحو «فطرقل»:

- «بحقك، متى حدث ورأيتني مخمورًا؟»

وفي آخر الأمر، بعد مقدار كبير من التهدئة من طرف «فطرقل»، أخذ «أخيل» قيثارته وبدأ بالعزف.

حالما يستغرق، تكون لي حرية تقليب نظري في الأنحاء، أنسجة مزخرفة باذخة، أطباق ذهبية، صندوق محفور مطعَّم بالعاج، أظن أنه ربما أحضر بعضهما معه من منزله، لكن معظمها نُهِبَ من قصور محرَقة، المرآة البرونزية كاملة الطول: كنت أتساءَل من أين جاءت هذه بالتحديد، لم أتساءل عن القيثارة لأنني كنت

أعرف، لقد أخذها من قصر «إيوتيون» يوم نهبه لطيبة، قُتِلَ «إيوتيون»، وقُتل أبناؤه الثمانية، ذُبِحَ رجال وصبيان، جُرَّتْ نساء وفتيات سبايا للعبودية، ولم يبقَ سوى القيثارة، وكنت أظنها أجمل شيء رأته عيناي.

بينما كان يعزف، حط ضوء المشعل على وجهه وأناره بالكامل فاستطعتُ أن أرى حدودًا غريبة على جلده، المناطق التي تغطيها قطع خوذته الحديدية من جبهته ووجنتيه كانت أفتح ببضع درجات من البشرَة المكشوفة حول عينيه وفمه، كما لو أن الخوذة قد أصبحت جزءًا منه تقريبًا فحفرت نفسها في جلده بطريقة ما، لعلي أبالغ في الوصف، أتذكر أنني ذكرت ذلك لـ «إيفيس» فقالت - رغم أنها أدركت ما أعنيه على الفور -: إنها عن نفسها لم تلحظ ذلك على وجه الخصوص، أما بالنسبة إليَّ فقد كانت خطوط جلد النمر التي على بشرته تلك أكثر شيء ملحوظ فيه، أحدهم قال لي ذات مرة: أنتِ لا تأتين على ذكر مظهره أبدًا، وهذا صحيح، لا أفعل ذلك، أجد الأمر صعبًا، في تلك الفترة، كان غالبًا أجملَ رجُل على قيد الحياة، كما أنه كان الأعنَف بالتأكيد، لكن هذه هي المشكلة، كيف لك أن تفصل جمال نمرٍ عن ضراوته؟ أو رونق فهدٍ عن سُرعته في الانقضاض؟ هكذا كان «أخيل»، الجمال والترويع كانا وجهَين لعُملة واحدة.

أثناء عزف «أخيل»، كان «فطرقل» يجلس في صمت، ذقنه مُستندة على يديه المتشابكتين، وأحيانًا يُداعب ساهمًا أذنيَ كلبه المفضل، الذي يجلس رانيًا نحوه إلى الأعلى أو يُقعي متمددًا عند قدميه، ومن حينٍ إلى آخر تصدر عن الكلب النائم نبحة صغيرة غريبة كأنه يُطارد أرنبًا خياليًّا، فيبتسم حينها «فطرقل»، ويرفع «أخيل» رأسه ويضحك قبل أن يعود بانتباهه إلى القيثارة.

كل الأغاني دارت حول المجد الذي لا يفنى أو الأبطال الذين يموتون في ساح الوغى أو - بشكل أقل - حول العودة إلى الوطن عودةً مكلَّلة بالنصر، وكنت أتذكر الكثير من هذه الأغاني من أيام طفولتي، عندما كنتُ فتاة صغيرة في منزل أبي، اعتدتُ أن أتسلل إلى الفناء حين يُفترض بي أن أكون نائمة في سريري، فأصغي إلى الزجَّالة يعزفون ويغنُّون في البهو، ربما رأيتُ في تلك السن أن كل الحكايات الحماسية عن الشجاعة والمغامرة كانت تفتح بابًا على مستقبلي أنا،

رغم أن العالم بعد بضع سنوات - حين بلغتُ العاشرة أو ربما الحادية عشرة - بدأ يتضيَّق حولي؛ فأدركتُ أن الأغاني تخص إخوتي ولا تخصني أنا.

اعتادت الفتيات من السبايا أن يخرُجن من أكواخ النساء ويجلسنَ على عتبات الشرفة ليسمعن «أخيل» يغنِّي، كان صوته صدوحًا؛ كُنَّ يسمعنَ نُتفًا من هذه الأغاني في أدنى المعسكر وأقصاه، ومع ذلك كان الغناء يخبُو آخر الأمر إلى سكون، فلا يحرك أحدٌ ساكنًا ولا ينبس ببنت شفة للحظات، وحينها تهوي قرمة خشب في النار الغائرة مرسلةً غزيرَ الشرر، وينظر «أخيل» إلى «فطرقل» مبتسمًا.

هذه كانت الإشارة؛ ننهض كلنا ويتهيأ «فطرقل» و«إيفيس» للمغادرة، كنتُ أسمعهما يتهامسان في البهو وأتساءل كيف كانت تشعُر تجاه الأمر، لقد خسرت أقارب لها وخسرت وطنها، وكان «فطرقل» ضالعًا في ذلك، كيف كان ممكنًا لها أن تحبه؟ عندئذٍ كان «أخيل» يتجرد من ملابسه على مهل عائدًا مرارًا وتكرارًا إلى القيثارة، وكنت أستلقي مغمضةَ العينين وأستمع، متنشقةً رائحة الصمغ من الجدار قربي، إلى أن أُدرك من إعتام أجفاني أنه ينثر الرماد على النار، وأشعر بعد لحظة بالسرير يرتخي تحت وزنه.

لا أدري، ربما لو كنتُ قادرةً على محاولة التواصُل معه أو التحدث؛ لاختلفت الأمور، رغم أنني أظن أن من المحتمل أيضًا - بل من الراجح - أن أي إشارة إلى ما كان يحدُث سينتُج عنها تفجُّر للغضب، كان هذا طقسًا شديد الخصوصية يجب إتمامه في صمت، في الظلام، وهكذا ليلةً تلو الأخرى كنت أضطجع تحت هذا الرجل، الذي لم يكن رجلًا البتة بل طفلًا غضوبًا، وأتضرع أن ينتهي الأمر بسرعة، وبعد ذلك أمطط نفسي ممددةً ساقي بأكبر ما أستطيع حتى لأكاد أبدو كجثة في محرقتها، وأنتظر اللحظة التي يُحررني فيها تنفُّس نومه حتى أنقلب على جنبي وأواجه الحائط. وصليتُ من أجل التغيير، كل صباح وكل ليلةٍ كنتُ أصلي كي تتغير حياتي.

***

-٨-

أظن أنني ربما كنتُ أول مَنْ رأى الكاهن في المعسكر.

كنت أسير على الشاطئ بمحاذاة خط المد حتى بلغتُ سفن «أوديسيوس» المرفوعة فوق أمهدتها خلف الميدان مباشرةً، عندما توقفت ونظرت ورائي نحو الطريق الذي وردتُّ منه، وكان الكاهن هناك يُوسِع خطاه نحوي، وقدماه تتركان أثر حلزون في الرمل المتوهج، بشعره الرمادي وإهابه الأغبر الخليق بعابر سبيل، بَدَا منهكًا كما لو كان على درب سفره منذ أيام أو حتى أسابيع، كان يحيد من جانبٍ إلى جانب وهو يقترب، وأثوابه تخفق مع الريح، ظننتُه بادئ الأمر بحارًا، لكنني رأيتُ - مع اقترابه - صولجانه مكسوًّا بأوشحة أبولو القرمزية، وملابسَه - رغم اتساخها وتجعدها - مصنوعةً من أفخر الأصواف.

حينما صار لا يفصل بيننا سوى بضعة أقدام؛ تردد، كأنه لم يعرف كيف يُخاطبني، كنت أرى المشكلة، هذه امرأة شابة باذخة الملبس دون خمار خارجة تمشي وحدها، لو أنه رآني في مدينة لعلِمَ ما أكون بالضبط، على الفور انتصبتُ قائمةً أمامه أقول في قرارتي: أيْ نعم أيها الشيخ، هذا هو تمامًا ما أنا عليه، لكن ليس باختياري.

«بُنيتي...» بدأ كلامه كمن يجرب:

- «هلا أرشدتِّني إلى محل إقامة أجاممنون؟»

استدرتُ أُشير إلى شِمالي، لكن حينذاك خرج أحد رجال «أوديسيوس» من بين السفن وسأل الكاهن عما كان يفعله هناك، أجابه أنه جاء ليسأل السيد «أجاممنون» قبولَ فدية مقابل رجوع ابنته، فخمَّنتُ أنه لا ريب والد «كريزيس»، ذهب الرجل إلى كوخ «أوديسيوس» ليبلغه، ثم لم يلبث الأخير حتى ظهر بنفسه.

هَرَعْتُ بأسرع ما استطعتُ إلى مجمع «نسطور»، ووجدتُ «هيكاميد» في إحدى سقائف الحياكة، وبينما رحتُ أقصُّ عليها ما رأيت، بدأ الصمت يحط على النول تلو الآخر، وتجمعت النساء حولنا لمناقشة قدوم الكاهن.

قالت «هيكاميد»:

- «سيتعين عليه أن يطلق سراحها.»

فأجبتُ:

- «هيهات، إنه «أجاممنون»، لا يتعين عليه فعل أي شيء.»

سَرَت أخبار وصول الكاهن من كوخ إلى كوخ، وعندما وصلتُ إلى الميدان وجدتُها قد تفشَّت في أنحاء المعسكر؛ وكانت جمهرةٌ من الرجال المستشارين المشورين المتدافعين بالمناكب قد تجمَّعت بالفعل.

تلك كانت أول مرة أذهب فيها إلى الميدان مذ أهداني الجيش إلى «أخيل»، وكانت ذكريات ذلك اليوم فظيعة إلى درجة أغرَتني بالاستدارة كي أعُود أدراجي، لكنني ثبتُّ على موقفي، لم أكُن المرأة الوحيدة هناك؛ رأيت «ريتسا» تقف تحت تمثال «زيوس»، ذراعاها المفتولتان معقودتان أمام صدرها، لوَّحْتُ إليها لكننا لم نكن قريبتين بما يتيح أن نتكلم، تابع الرجال توافدهم للاحتشاد مع تفشِّي أخبار قدوم الكاهن يشرئبون بأعناقهم ليشاهدوا ما كان يجري، وراحوا يهتفون بصخب مع وصول «أجاممنون»، ومن كل جهة في الميدان، كانت تماثيل الآلهة - بطلائها المتشقق والمقشور بفعل الرياح الجارفة التي تهب من البحر - ترنُو إلى أسفل بأعين فارغة عديمة الشفقة.

رحتُ أنظُر في الأنحاء مُحاولةً إيجاد نقطة رؤية أستطيع منها أن أنظُر من فوق رؤوس الحشود، فلفتت حركةٌ نظري، تلك كانت «كريزيس»، تقف على قمة الكثبان في ظل شجرة ناقصة النمو قَوَّسَتْهَا الرياح العاتية، ركضتُ كي أنضم

إليها، ولدَى اقترابي رأيتُ أن أحد جانبي وجهها اصطبغ بالأحمر الفاتح، والعين التي في ذلك الجانب تسيل مدرارًا؛ كانت ترفع زاوية خمارها مرارًا لتمسحها، لكنها لم تأتِ على ذكر الإصابة ولا أنا فعلت، اكتفيت بتطويقها بذراعي، ثم وقفنا معًا نُشْرِفُ على الميدان من فوق رؤوس الحشد، كانت تقبض على ذراعي، وأنَّت قليلًا حين لمحت أباها ينتظر قرب المدخل.

غاصت أصابع «كريزيس» في ذراعي حين شرع الشيخ أبوها كاهن «أبولو»، يسير نحو وسط الميدان رافعًا الصولجان وأوشحة الإله القرمزية، وبالفور حط السكون على الحشد، كانت الريح قد بدأت تتصاعد مُشكِّلَةً زوابع صغيرة من الغبار في الرمل تدوم لثانية أو اثنتين قبل أن تختفي بالسرعة التي جاءت بها، ورفعت عصفةٌ أشد شعرَ الكاهن الأشيب حالما هَمَّ بالحديث، حيَّى «أجاممنون» بلباقة أولًا، داعيًا أبولو وكل الآلهة أن يؤيدوه بنصرهم، وأن يتمكن من نهب مدينة بريام ويحمل ثروات طروادة إلى وطنه على متن السفن.

- «فقط رُدَّ عليَّ ابنتي».

بعد الرسميات في كلماته الافتتاحية، جاء التماسه ذاك صادمًا، وفجأة أصبحنا في عالم آخر، عالم فيه حب أبٍ لطفله يهمُّ أكثر من أية ثروة منهوبة مهما عظمت، بَيْدَ أن «أجاممنون» كان قد ضحى هو نفسه بابنته كي تجري الرياح بسفنه نحو طروادة كما يريد.

شعرتُ بالخوف على الشيخ وعلى «كريزيس»، وللحظاتٍ مديدة تلَت ذلك، بدا أن الأسى قد غمر الكاهن، لكنه حمل نفسه على المتابعة، كان قد جلبَ معه فديَة عظيمة في عنبر سفينة الحمولة التي يراها الجميع راسيةً في الخليج، وراح الآن يتوسل إلى «أجاممنون» كي يقبلها باكيًا دون تحفُّظ.

- «أرجوك أيها السيد أجاممنون، أرجوك اسمَح لي أن أعيدها إلى المنزل.»

تأثر كل مَنْ في الميدان بدموع الشيخ وبحجم الفدية التي جاء بها، فبسبب رقة وجدان الإغريق وجشعهم، كانوا يحبون القصص الوجدانية كما يحبون الذهب تقريبًا.

«اقْبَلْ»، أخذوا يهتفون: «أعطِ الأحمقَ الهرِمَ المسكين ابنته»، ثم وكفكرة متأخرة: «أكرِم الآلهة»، وسرعان ما عَمَّ الحشد اضطرابًا، فراح المقاتلون يتدافعون ويتزاحمون هاتفين: «رُدَّها، رُدَّها».

نهض «أجاممنون» بعد تشاور وجيز مع مستشاريه، واستمر الصخب لحظةً أو اثنتين إلى أن أدرك مَنْ هم على أطراف الحشد أنه نهض على قدميه، وحينها - فيما خلا صيحة فردية أو اثنتين - ذوى الهتاف إلى صمت.

قال «أجاممنون» دون لقب ولا احترام:

- «أيها الشيخ، خُذ فديتك واذهب، لقد نجوتَ بحياتك هذه المرة، لكن إن صادفتُكَ في المعسكر مرةً أخرى لن يشفع لك الصولجان وأوشحة الإله»، أجال نظره على صفوف الرجال الذين كانوا قد صمتوا متابعًا: «لن أعيدها، ستُمْضِي بقية حياتها في قصري، بعيدةً عن أرض وطنها، تعمل على الأنوال نهارًا وتنام في سريري ليلًا، وتلِد لي أطفالي، حتى تصبح عجوزًا هرمةً وتفقد أسنانها، والآن اخرج لا مزيد من الكلام، اذهب فحسب، وكن ممتنًّا لأنك على قيد الحياة.»

استدار الكاهن في صمت، جارًّا صولجانه وراءه فوق الرمل يرسم خطًّا حادًّا تبعَهُ طوال الطريق إلى المخرَج، وهناك التفتَ من أجل نظرة أخيرة على «أجاممنون» وتحركت شفتاه، لكن الخوف ألجمه عن الكلام، وكان «أجاممنون» قد استدار أصلًا وراح يتحدث إلى الرجال خلفه، يبتسم - بل يضحك - مستمتعًا بلحظة انتصاره الصغيرة على شيخ واهن تعس متضعضع، وبدأ الحشد يتشتت على مضض، فابتعد الرجال مدمدمين في جماعات من اثنين أو ثلاثة، لم يرُق الأمر لأحد، وأظنني رأيت رجلًا أو اثنين يرسمان إشارة طرد العين الشريرة. كدتُّ لا أتجرأ على النظر إلى «كريزيس»، لكنني كنت أعرف ما عليها فعله.

«اركضي»، نظرتْ إليَّ فاغرةً فمها تمنعها الصدمة من استيعاب ما قلتُه:

- «هيا اركضي، عودي إلى الكوخ، فقد يرسَل في طلبك.»

كنت موقنة أنه سيفعل ذلك، ما كان له أن يقاوم الرغبة في مضاجعة احتفالية، ولن يعني أساها من الانفصال عن أبيها شيئًا له. وهكذا انطلقَت تركُض مثل أيلة فتية بين الأكواخ، وشرعتُ أسير عائدة إلى مجمع «أخيل».

كانت كل الطرقات مكتظَّة برجال انفضوا عن الحشد؛ لذا انكفأتُ واتجهت إلى الشاطئ، وهناك كان الكاهن يمشي مثقلًا فوق مفارش من الطحالب الجافة، وقدماه ترسلان إذ يجرهما غمائم من الذباب الرملي الذي راح يحوم حوله، كان يتقدم ببطء، باكيًا ومتضرعًا إلى أبولو بينما يسير، طفِقتُ أتبعه دون أن أتعمد ذلك، كنت أسير في الاتجاه نفسه ببساطة، ومع تزايد المسافة بينه وبين «أجاممنون»، راح يرفع عقيرته بالتضرع أكثر، شاهرًا الصولجان وأوشحة الإله عاليًا فوق رأسه، كما لو أنه في معبده يقف على عتبات المذبح.

«يا سيد الضوء، اسمع دعائي.

يا سيد القوس الفضية، اسمع دعائي.»

بدأ ترنيمَه يعلُو أكثر فأكثر حتى بات يصيح على السماء.

تأثرت بالشيخ، لكنني شعرتُ بالسخط كذلك، لو كانت المناداة على الآلهة تجدي نفعًا لما سقطت ليرنيسوس، يعلم الإله أنه ما كان لأحد أن يتضرَّع أشد مما تضرعنا آنذاك.

لكنني تابعتُ المشاهدة والاستماع، بينما استمر هو في مسيره العاثر على الشاطئ مترنمًا بالصلوات.

«يا سيد تينيدوس، اسمع دعائي.

يا سيد سيلا، اسمع دعائي.

بحق ما قدمتُه من الحملان والمعز أضاحيَ على مذبحك.

انتقِم لكاهنك.»

كنتُ قد فقدت الأمل بالاستجابة إلى صلواتي عن نفسي، ما من إلهٍ أعرفه يستمع إلى صلوات العبيد، ومع ذلك فقد سمَّر هذا الشيخ انتباهي، أعتمت السماء والبحر من حوله لكن الترانيم استمرت رغم ذلك، غير أنني ما عدتُّ آلفُ ألقاب الإله كثيراً.

«سمينثيوس(4) أبولو، اسمع دعائي.

أيها السيد الذي تُصيب سهامُه عن بُعْدٍ، اسمع دعائي.

يا سيد الفئران، اسمع دعائي.»

سيد الفئران؟! كنتُ قد نسيت - إن كنت أعلم أصلًا - أن أبولو إله الفئران، وفجأة ومع ارتقاء صلاة الكاهن الانتقامية العظيمة نحو السماوات؛ ألفيتُ نفسي أصلّي معه.

«يا سيد الفئران، اسمع دعائي.

يا سيد القوس الفضية، اسمع دعائي.

أيها السيد الذي تُصيب سهامُه عن بُعْدٍ، اسمع دعائي.»

إلى أن لُفِظَت الكلمات المحرمة من فمي في نهاية الأمر مثل الدم أو الصفراء:

«يا إله الطاعون، اسمع دعائي.»

***

لم يحدُث شيء، بالطبع لم يحدث شيء، أليس هذا ما يحصل عادةً حين تصلي للآلهة؟

في الصباح التالي، احتشد الرجال كدأبهم قبل الفجر، ووسط قرع السيوف الشديد على الدروع، قفز «أخيل» إلى عربته وأعطى إشارة الانطلاق، وبعد أن رحلوا - بعد أن تلاشت الصيحات والقرع على الدروع - اكتسى المعسكر مظهرَه المألوف الأشعث المتفاجئ بعض الشيء، متروكًا كما هو للنساء والأطفال وحفنة الرجال الشيب الذين تُرِكُوا لحراسة السفن.

عثرتُ على «كريزيس» تحِيك، غير أنها انكفأت عن ذلك حالما رأتني وقدمت لي كوبًا من النبيذ، وبينما أخذتُ أراقبها تتحرك في أنحاء الكوخ، رأيت أنها تسير بخُيَلاء أكبر مما في اليوم السابق، مسكينةٌ «كريزيس»، لا تعرف شيئًا من التقنيات التي توظفها نساء على شاكلة «أوزا» كي يتحكمن بشهوات الرجال، وأنا لم أكن أعرف الكثير منها، لكنها لم تكن تعرف شيئًا البتة، إذ ذهبتْ إلى سرير «أجاممنون» عذراءَ بالكاد أكبر من طفلة، ومع ذلك - تحريًا للإنصاف - فقد كانت تدبر أمرها، يعينها في ذلك إخلاصها لأبولو وغمسة من مرطبان دهن الإوز بين حين وآخر.

حين عبَّرت «ريتسا» عن تعاطفها مع «كريزيس»، شخرت «أوزا» بسخرية قائلة:

- «أنا لا أشعُر بالتعاطُف، إن عرفت المرأة كيف تعمل سينتهي الأمر كله حتى قبل أن يقترب بقضيبه منها.»

فسألَتها «ريتسا»:

- «ماذا تعنين بقولك: إن عَرفَتْ كيف تعمل؟ إنها في الخامسة عشرة!»
- «أنا كنتُ في الثانية عشرة».

مسكينةٌ «كريزيس»، لم يكن بمقدور «أجاممنون» رفع يديه عنها، وأية فتاة

عساها تجد نفسها محبوبة - أو مشتهاة على الأقل - من قِبَلِ أكثر رجال اليونان سؤددًا فلا ينفش الزهو ريشها؟ ليست «كريزيس»، فقد كانت متوحدةً إلى أبعد حد، لا تحلم إلا بالعودة إلى أبيها، أخبرَتني أنها تريد أن تصبح كاهنة، وأن أباها كان يُعِدُّها لذلك، وكانت ستصبح كاهنة جيدة أيضًا شديدة التقوى، تُصلِّي أربع مرات في اليوم: عند الشروق والظهيرة والغروب، وتستيقظ كذلك قبل الفجر لتتوسل عودة الإله أبولو قاهر الظلماء، أبولو إله الشفاء الذي صادف أيضًا أن يكون إله الطاعون، طلبَت مني ذات مرة أن أنضم إليها في صلاة الظهيرة، لكنني تذرَّعتُ بحجة لأتملص من ذلك.

كنتُ أصلي لأبولو، بل وصليتُ بشكلٍ متزايد، لكن صلواتي ما كانت من النوع الذي للمرء أن يشاركه.

«يا سيد الفئران، اسمع دعائي.»

عدتُّ إلى مجمع «أخيل» أسيرُ على طول شريط الرمل القاسي الممتد بين أمهدة السفن والبحر.

«يا سيد الضوء، اسمع دعائي.»

ترنُّ الصلاة جوفاء على شفتي، كنتُ أدوم والجةً عمق الظلام، وقد قطعتُ فيه مسافة أبعد من أن يكون لي أن أبتهل إلى أبولو بوصفه سيد الضوء، عوضًا عن ذلك، راحت قبضتي المشدودة تحفر وَشمًا في راحة يدي.

«يا سيد الفئران، اسمع دعائي.

يا سيد القوس الفضية، اسمع دعائي.

أيها السيد الذي تصيب سهامُه عن بُعْدٍ، اسمع دعائي.»

بَدَا البحر يومذاك منبسطًا وهادئًا بشكلٍ يكاد يكون غير طبيعي، تعلُو سطحَه لمعةٌ حليبية ملسَاء تشبه قشرة البشرة، والأمواج تتورم عند حدود الخليج ثم تتكسر في أهلَة مُتداخلة من الزبد المصفر الذي يفور قليلًا بين الكتل الحجرية

قبل أن يتلاشى متغلغلًا في الرمل، كان ثمة ما يُنذر في هذا السكون، مثل آخر بضع دقائق تسبق عاصفة، نظرت إلى السفن المثبتة في أمهدتها، إلى الأكواخ والنيران الآخذة بالانخماد، فشعرتُ بالحدس ينفخ جلدي.

قطعتُ الميدان حيث تبعتني أعين الآلهة الفارغة، ثم بدأتُ أسير في طريق بين الكثبان يمتد على كامل طول المعسكر، ويلتف في إحدى نقاطه حول مكبِّ النفايات الواسع، ليس ذلك أفضل مكان يتواجد المرء فيه في يومٍ قائظ، فبالرغم من أن السماء ظلت غائمة كانت الحرارة تتزايد ساعة تلو الأخرى: الرائحة النتنة، آلاف الذباب الأسود الطنان، العرق الذي يتفصَّد من جنبي؛ اجتمع كل هذا متجليًا في رعشة من الغثيان، ومع ذلك كان فيَّ شيءٌ يُرحب بالاحتكاك مع التفسخ والاضمحلال، كنت أرى أنني أنتمي إلى هذا في الحقيقة؛ هنا وسط كل الزبالة الأخرى، في تلك اللحظة، لم أُلْقِ اللوم على «أخيل» ولا الجيش الإغريقي ولا حتى الحرب فيما صرتُ عليه، ألقيتُ اللوم على نفسي.

وبينما كنت أقطع المكبَّ، انتبهت إلى جرذٍ يجري بين أكوام من الطعام المتعفن، كان الكثير من الطعام يُبدد في ذلك المعسكر؛ لأن أحدًا لم يكد ساعات طوالًا كي يستنبت المحاصيل أو يُعنى بالقطيع، لا شك أن هذا ما يُعزى إليه حجم الجرذان، إذ لم يسبق لي أن رأيت جرذانًا وافرَة الصحة وحسنة التغذية مثل هذه؛ كان المرء يلمَحها دائمًا، لكنها تفرُّ هاربةً بطبيعة الحال حالما يقترب، أما هذا الجرذ فلم يفعَل، في الحقيقة كان سلوكه غريبًا بالمجمل، يترنَّح في دوائر متتابعة، عندما اقتربتُ رأيتُ أن فروَه شوكيًّا ناتئًا لا يُشبه الفرو الأسود اللامع المعتاد في شيء، تابعتُ السير، لكن شيئًا جعلني أستدِير وأعاود النظر، وفي تلك اللحظة صرخ الجرذ، انبثق الدم من فمه؛ سقطَ على جنبه وراح يتلوَّى في عذاب لدقيقة كاملة، ثم صرخ مجددًا ومات.

انتبهتُ بعد ذلك إلى جرذان أخرى، كلها طليقة في العراء لا أحد من بينها يهرب، وكلما نظرتُ رأيت المزيد، جيَف صغيرة منتفخة مبعثرة بين القمامة هنا وهناك، كدتُّ أطأ إحداها، وحين نظرت رأيتُ اليرقات تنغل تحت جلدها، لم تكن هذه جيفًا حديثة النفوق، لا بد أن الجرذان كانت تموت منذ فترة، ابتعدتُّ وأطلقتُ

ساقيَّ للريح تاركةً مكب القمامة في إثري أسرعَ ما استطعت، ورحت ألهَث قاطعة آخر بضع مئات من الياردات التي تفصلني عن بوابة المجمع، اقتحمتُ كوخ النساء اقتحامًا وروعي ممتلئ بما رأيت، ومع ذلك لم أخبر أحدًا حالما صرتُ في الداخل، فما الذي لديَّ لأقصَّه حقًّا؟ بضعة جرذان نافقة؟ أمر لا يستحق أن يُذكر، أليس كذلك؟

بَيْدَ أنني فكرتُ فيها وأنا أتهيأ للعشاء، كنتُ أُزجي كثير الاهتمام على مظهري كما أفعل دائمًا، لم يزدني هوس «أخيل» بشَعري وبشرَتي أية درجة في شعوري بالأمان؛ بل الحقيقة أن العكس هو الأصح، إذ كان هوسه ذاك قد انبثق بشكل فجائي شعرتُ معه بإمكانية انقلابه نفورًا بالسرعة نفسها؛ لذا حرصتُ - ولو في العلن على الأقل - أن أكون مثل ما أرادني تمامًا، مصداقًا بصريًّا على أنه - كما يُدْعَى على الدوام - أعظم الإغريق.

كان الحَرُّ شديدًا في البهو على العشاء إلى حد أن تُؤلمك بطانة أنفك حين تتنفس؛ حرارة الأجساد والمشاعل المتقدة ورائحة أطباق لحم العجل المشوي؛ اجتمعت لتُثخن الهواء، لمَّا يزل الحديث يدور حول معاملة «أجاممنون» للكاهن، لم تَرُق لأحد، لم يفهمها أحد، فدية كتلك مقابل فتاة ويرفضها؟ أيكون أصِيب بالجنون؟ حتى «أخيل» - حين انحنيتُ لأصبَّ له الخمر - كان يتحدث عن رفض «أجاممنون» للفدية:

- «لماذا لم يقبلها؟! إنه أكثر الرجال الأحياء جشعًا.»

قال «فطرقل»:

- «لعله يحبها».
- «يُحبها! ذلك التيس الهَرِم اللعين لا يعرف ما هو الحب.»

وأنت تعرف؟! قلتُ ذلك في قرارتي مُبتعدة.

كنتُ قد بدأت أرى بعض الرجال على أنهم أفراد معظمهم يمكن احتماله، لكن واحدًا أو اثنين منهم ليسُوا كذلك على الإطلاق، «مايرون» كان رجلًا بدينًا في منتصف عمره بلبدة من الشعر الأسود الخشن المجعد الذي بدأ يتحول إلى الشيب، أظن أنه حاربَ لا محالة في مرحلة ما، لكنه لم يكن يفعل الآن، كان عمله يتجسد في الإشراف على صيانة السفن، وذاك كان منصبًا ذا أهمية.

«أخيل» يشنُّ غزوات متكررة على مدن في مختلف مناطق الساحل، ويحتاج أن يكون أسطوله أهلًا للإبحار طوال الوقت، كنتُ ألاحظ قليلًا من حبال الأشرعة البالية على سفن ترجع لبعض الملوك الآخرين - وحتى تلفًا لم يتم ترميمه في بدن إحداها ذات مرة - لكن المرء لا يرى أيًّا من هذا في معسكر «أخيل»؛ سفُنه دائمًا على أُهْبَة الاستعداد للإبحار خلال ساعات، «مايرون» موسوَس في إنجاز واجباته، لقد كنتُ أكرهه - أقصد أنني أكرهه على المستوى الشخصي - لا لسببٍ إلا أن النظرات التي يرمُقني بها كانت أكثر جرأة ووقاحة في إظهار إعجابها من نظرات الرجال الآخرين، لم يقُل أي شيء بالطبع؛ فما كان ليجرؤ، لكنه كان يُحملق في ثديي عندما أنحنِي أمامه، ويُصدر أصوات تلمُّظ خفيفة بشفَتيه، كما لو يتطلع إلى الخمر الذي أوشك أن أصبَّه.

تلك الليلة صببتُ له خمره بسُرعةٍ كما أفعل دائمًا؛ لأنني أمقت التواجد قربه، ثم انتبهتُ وأنا أتراجع إلى الرداء الذي يلبسه؛ كان رداءً حِكْتُه لأبي، حتى إنني أنهيتُه قبل أيام معدودة فقط من حملي على محفة إلى منزل زوجي الجديد، الرحلة التي على كل فتاة أن تخوضها، التطريز على ظهر الرداء ليس متقنًا تمامًا - لم أدَّعِ يومًا امتلاك أية مهارات عظيمة في الحياكة أو الخياطة - لكن الحب كان قد تخلَّل كل قطبة فيه، بالطبع لم تكن تلك أول مرة أختبر فيها خضةَ الإدراك هذه؛ إذ إنني في اليوم الذي تلا وصولي انتبهتُ إلى طبق طعام ذهبي من قصر زوجي مركونًا على طاولة جانبية في البهو، بَيْدَ أن هذا كان شخصيًّا، رحتُ أرمُق الطيات المكتنزة في عنق «مايرون»، ومرةً أخرى ترددت الصلاة في ذهني لا طواعيةً كما لو كانت الكلمات تتحدث إليَّ.

«يا سيد الفئران، اسمع دعائي.

يا سيد القوس الفضية، اسمع دعائي.

أيها السيد الذي تصيب سهامُه عن بُعْدٍ، اسمع دعائي.

يا إله الطاعون، اسمع دعائي.»

***

-١٠-

الحرارة أرَّقت الجميع، نشبت مشاجرات في البهو تطورت إحداها إلى قتال، وحتى «فطرقل» - الميَّال إلى الاسترضاء في الظروف الطبيعية - بعد أن فصل بين المتشاجرين ضربَ أحدهما ودفع بالآخر على الجدار بشدة، فعقب ذلك صمت مكفهر وانفضَّ الجمع دون الغناء المعتاد.

حتى بعد الظلام كانت السماء تحتفِظ بمسحة مصفرَّة تشوبها، وتبدو أنها تضغط على المعسكر حابسةً الحرارة داخله مثل غطاء فوق قدر طبخ، بعد أن رُفِعَت أطباق العشاء، جلستُ وحدي في الخزانة منتظرةً أن يُنادَى عليَّ، كانت «إيفيس» قد توعكَت ذلك الصباح بسبب اضطراب مَعِدي ينتشر في المعسكر، ساد هدوء غير معتاد، لا صوت موسيقى أو أحاديث من الغرفة المجاورة، وبعد فترة، إذ سئمتُ من احتجازي في الصندوق الحار الخالي من الهواء، ذهبتُ إلى الخارج فوجدتُّ «فطرقل» يجلس على عتبات الشرفة وحده.

هممتُ من فوري بالعودَة إلى الداخل، لكنه أشار إليَّ بالجلوس جانبه، قال: إن «أخيل» ذهب للسباحة، وشيء في صوته جعلني ألتفِت لأنظُر إليه، كان بوسعي أن أرى بياض مقلتيه ولمعان أسنانه حين يبتسم، لكن لا شيء غير ذلك تقريبًا، المعسكر غارق في ظلام يكاد يكون دامسًا، لا قمر ولا نجوم، نيران الطهو ما تزال موقدة هنا وهناك لكن أحدًا لم يرغب بالجلوس حولها في هذا القيظ، وفي المدى البعيد - مثل لمحة من عالم آخر - كانت أضواء طروادة تأتلق على التل.

من الحَري بالجلوس في الخارج إبانَ أمسيَة دافئة أن يكون أمراً مبهجًا، لكن

العرق كان يخز كل ثنية في البشرة وما من نسمة ملطفة تحرر المرء منه، أخذَت حشرات سوداء ضخمة - ليست عثًّا، لا أعرف ما تكون - تُرفرف حول وجوهنا فنضطر إلى هشِّها، وتفشَّت الرائحة العفنَة من مكب القمامة إلى كل زاوية من المعسكر، حتى كان بوسعك أن تستطعمها، حسدتُّ «أخيل» على انغماره في البحر، لكن ما من مجال لألحق به إلى الشاطئ، ليس مع جلوس «فطرقل» قُربي، ورغم ذلك تساءلتُ قليلًا عما منعه هو من الذهاب، لعل «أخيل» أبدى رغبة بالبقاء وحيدًا، ففي ما خلا ملاحظة واحدة لاذعة بشكل خاص أدلى بها عن «أجاممنون»، كان على غير عادته صامتًا خلال العشاء.

ظللنا جالسَين جنبًا إلى جنب، ولم يتحدث أحدنا لمدة، فما عسى أحدنا يملك ليقوله للآخر في نهاية الأمر: نحن «الأمير فطرقل» وفتاة سرير «أخيل»؟ (وهذا كان حتى الآن أكثر الأسماء التي تعبر عما كنته إطراءً)، إلا أن الحرارة والصمت وظلام الليل آنذاك بَدَت لتجعل المستحيل في متناوَل اليد، فسمعت نفسي أقول: «لماذا تتعامل معي بهذا اللطف دائمًا؟»

ظننتُ أنه لن يُجيب أول الأمر، وأنني تجاوزتُ ما هو مسموح للأمة، لكنه قال:

- «لأنني أعرف شعور أن يخسر المرء كل شيء ويُقدم كدميَة إلى «أخيل»».

صراحته بغتَتني، لكنني كنتُ أفكر في الوقت نفسه: كيف لكَ أن تعرف؟ أنت - بكل امتيازاتك ونفوذك - أنَّى لك إدراك شعور أن تكون مكاني؟ هل طرحتُ السؤال؟ أشك في ذلك كثيراً، لكن لعله شكَّل نفسه في الفراغ بيننا، إما ذاك أو أن «فطرقَل» كان في حاجة إلى التكلم وحسب.

«حين كنتُ في العاشرة قتلتُ صبيًّا»، راح يقول:

- «لم أقصِد فعل ذلك، كان صديقي المفضل، تشاجرنا بسبب لعبة نرد، قال: إنني غشَشت، وقلتُ: إنني لم أفعل، وشيءٌ أدى إلى آخر فضربته، سقط وظننت

أن هذا كل شيء، وأن الأمر انتهى عند ذلك، حتى إنني هممتُ بالابتعاد، لكنه وثب ناهضًا ونطحني على وجهي فكسر لي أنفي»، رفع يده وتلمَّس جسر أنفه المفلطح: «كنت أتألم بشدة تمنعني عن التفكير، فتناولتُ حجرًا ضربته به، ظننت أنني سأضربه مرةً واحدة فقط، ولا أذكر أنني فعلت ذلك إلا مرة، لكن هذا ليس ما حدث؛ لأن صبية آخرين كانوا هناك وقالوا: إنني تابعتُ ضربه، ولا بد أن ذلك كان صحيحًا لأن وجهه تهشَّم وتهاوى إلى الداخل، حين أمسكوني عنه كان قد مات، حسنًا، كان ذلك قتلًا ولا مراء، وكان والده رجلًا ذا نفوذ؛ لذا أُرسِلت إلى المنفى، بُعِثْت على سفينة لأقيم مع «بيليوس» والد «أخيل»، وليس لبضعة أشهر وحسب، بل إلى الأبد، وهناك كان «أخيل»».

كان يحدق أمامه مباشرةً دون أي تعبير:

- «لا أظنني رأيت صبيًّا يضاهيه بؤسًا إلا حين أنظر في المرآة بالطبع، كانت أمه قد غادرت لتوها»

ثم تردَّد قبل أن يضيف:

- «أتعرفين أنها إلهة بحر؟»

أومأتُ.

- «لم يكن زواجًا سعيدًا، وذات يوم استيقظَتْ ودخلت في البحر ببساطة، كان قد سبق لها أن فعلت ذلك، كانت تفعل ذلك دائمًا، لكنها لم تعُد تلك المرة، ما كان «أخيل» ليأكل، ما كان ليلعب مع بقية الأطفال، أظن أنه توقَّف عن النمو، يصعُب تصديق هذا لكنه كان أقرب إلى قزم صغير مهزول حين التقيت به، وكان «بيليوس» يوشك على استنفاد آخر ما تبقى له من السلامة العقلية؛ لذا بدا أنني جئتُ في وقتي؛ لأنه تعينَّ عليَّ أن أكون صديق «أخيل»»، ضحك مردفًا:

«لكن ذلك كان جيدًا لي أيضًا».

- «كيف ذلك؟»

- «لقد هدأني».

- «بيليوس؟»

- «لا، بل «أخيل»، أجل، أعرف أن من الصعب تصديق هذا، أليس كذلك؟»

على بُعْدِ مسافة ما، انطلق غناء ذيَّلَهُ ضحك، شعرت به يلتفت إليَّ شعورًا أكثر مما هو رؤية:

- «أنتِ تراقبيننا جميعًا، أليس كذلك؟»

هززتُ رأسي نافيةً.

- «بلى، تفعلين ذلك.»

لم تبعث معرفة أن يقظتي قد لوحظت شعورًا مريحًا فيَّ.

- «وأسمعك تبكين أحيانًا».

- «لا تستطيع كبح نفسك دائمًا، حسنًا، النساء لا يستطعن، أنا متأكدة أنك أنت لم تبكِ قَط.»

- «كل ليلة طوال عام».

قيل ذلك بمرح صعُب معه تخمين ما إن كان جادًّا أم لا، فأومأتُ نحو الشاطئ:

- «سباحة طويلة».

- «قد تكون هناك».

للحظة لم أفهَم:

- «هل تقصد والدته؟»

- «أجل».

- «أما زالت تأتي لرؤيته؟»

- «أجل».

مجدداً، ثمة نبرة في صوته لم أستطع تحديدها، مرارة ربما؟ تذكرت «أخيل» على الشاطئ، كلامه الغريب غير البشري المتغرغر كالفقاعات، الكلمة المكررة - الكلمة الوحيدة التي فهمتها، أو ظننت أنني فهمتها -: أماه، أماه، كيف تراه يكون الشعور حين يحب المرء رجلاً كهذا؟ «أتندم؟»

- «على نشأتي بصفة أخي «أخيل» بالرعاية، إطلاقاً، حسناً، من الجلي أنني أندَم على قتل صديقي، لكن، لا، لقد كانا في غاية اللطف معي».

ظلَّ جالساً بلا حراك لدقيقة أو اثنتين قبل أن يصفع ركبتيه فجأة:

- «أظنني سأتمشى إلى هناك وأرى ما هو بصدده».

- «لماذا تقلق عليه كل هذا القلق؟»

- «العادة»، نهض مُتابعاً: «أنتِ تعلمين، أليس كذلك؟ إنه ...»

انتظرتُ أن يتابع، لكنه ابتسم واستدار مبتعداً.

كانت لي الآن - كما افترضتُ - الحرية في العودة إلى أكواخ النساء، لكنني لم أستطِع أن أهمد بعد تلك المحادثة، فقررتُ أن أسير قليلاً على الطريق المؤدي إلى الشاطئ، وظل قلبي يخفق بغير انتظام دون أن أعي السبب.

أفضيتُ إلى الشاطئ عند المكان الذي ينساب فيه الجدول فوق قاعٍ من الحصباء نحو البحر، ووجدت «أخيل» و«فطرقل» على الطرف القصي قرب الحدود العليا للمياه، كنتُ أبعد من أن أستطيع سماع ما يقولانه، لكنني اعتقدتُّ بناءً على

إيماءاتهما أنهما ربما يتشاجران، وعند نقطة معينة أدار «أخيل» ظهره فجذبه «فطرقل» من ذراعه وأعاده على عقبيه، ووقفا يواجه أحدهما الآخر للحظات دون أن ينطقا، ثم اقترب «أخيل» أكثر إلى أن بات يسند رأسه على جبهة «فطرقل»، بقيا كذلك دون حراك أو كلام لفترة طويلة!

تراجعتُ إلى الظلال، كنتُ أعلم أنني تعثرت بشيء شديد الخصوصية لا يُفترض بأحد أن يشهده، لطالما كان ثمة أناس -حينذاك وفيما تلا- يظنون أن «أخيل» و«فطرقل» عاشقان، فقد كانت علاقتهما تجتذب الظنون: وما كان من «أجاممنون» - على الأقل - أن يتركُ الأمر وشأنه، كما أن «أوديسيوس» كان بنفس السوء تقريبًا، ولعلهما عاشقان، أو كانا كذلك في مرحلةٍ ما، لكن ما شهدتُّه على الشاطئ تلك الليلة كان يتجاوز الجنس، وربما يتجاوز الحب، لم أفهمه عندئذٍ ولستُ واثقةً أنني أفهمه الآن، لكنني أدركتُ سطوتَه.

***

-١١-

في الصباح التالي، حين عبرتُ بين الكثبان لأرى هيكاميد، كان ثمة سبعة وأربعون جرذًا نافقًا، عددتُها واحدًا واحدًا.

تابعتُ الحرارةُ عقابها لنا، عاد الرجال من ميدان القتال ذات مساء منهكين بسحنات رمادية، وعلى أُهْبَة الاستعداد لينفجروا في وجوه بعضهم - وهذا ما كان يحدث غالبًا - أو ليفرغوا جوم غضبهم على الإماء، كان يتعين تزويدهم بالمغاطس الفاترة والطعام والشراب على الفور.

وجهي كان يتوارى منغلقًا، أخدم على المائدة مشمئزةً منهم جميعًا، حتى إنني بتُّ أتجنب النظر إلى «فطرقل» لخزيي من استلطافي له، عوضًا عن ذلك، رحت أركز على الرجال الذين ينكبُّون فوق أطباقهم مثل خنازير تكرع في حوض، كان «مايرون» يرتدي رداء أبي مجددًا؛ بَدَا أنه قد أولَع به، حين انحنيتُ من فوق كتفه لأصبَّ له الخمر، أطلَّ لسانُه السميك العجيني وراح يتمطق حول شفَتيه، فبدأ

نبضٌ يخفق في دماغي: يا سيد الفئران، اسمع دعائي، يا سيد القوس الفضية، اسمع دعائي، لا أعرف كيف اجتزت تلك الليلة، لكنني فعلت. في الصباح التالي حين اجتزتُ مكب القمامة، كان هناك عدد من الجرذان النافقة يتعذر إحصاؤه.

علمنا أن الجرذان اجتاحت المعسكر، وكيف لا مع كل تلك الكميات المبددة من اللحم والحبوب والطعام نصف المأكول الذي يُترك ملقًى كيفما اتفق؟! كان المرء يسمعها في الليل تحت الأرضيات تهسهس وتصرِف، الكلاب التي تجوب المكان كانت عادةً تتكفل خلال النهار بإبقائها بعيدةً عن الأنظار، لكن ليس الآن، الآن بَدَتْ تفتقر إلى مشاعر الخوف، فتخرج من تحت الأكواخ لتَنْفُقَ في الهواء الطلق، ودائمًا - مع تلك الصرخة الحادة المريعة والازهرار المفاجئ للدم الأحمر في النهاية - ما كان باستطاعة الكلاب أن تستوعب حظها، كل تلك الجرذان دون حاجة إلى الصيد، لكن عددها كان أكبر من أن تُلْتَهَم كلها، وسرعان ما بقعت الجيفُ السوداء الصغيرة كل الطرق، وراح الرجال العابرون يركلونها إلى تحت الأكواخ حيث تنتفخ وتفوح نتانتها.

مقت «مايرون» ذلك، إذ لم يكن مسؤولًا عن صيانة السفن فقط، بل عن العناية بالمجمع أيضًا، كل جرذ ينفق في العراء كان ينفق على أحد طرقه هو - وهذا هو الأسوأ - أو على إحدى شرفاته هو، بالطبع كانت تحت إمرته فرقة كاملة من الرجال لإماطتها، إلا أن رؤيته وهو يلتقط الجرذان النافقة بنفسِه مرارًا كانت مثيرة للاهتمام؛ إذ يبدُو كمن لا يستطيع احتمال منظرها ثانية واحدة بعدُ، ودائمًا بعد إلقائها في الكيس الذي يحمله معه، يمسح أصابعه على نحو أنيقٍ بثوب أبي قبل أن يمرر ظهر يده على شفته العلوية.

بعد وقت غير طويل، بدأَت الكلاب والبغال تَنْفُق، وعلى عكس الجرذان، لم يكن من الوارد تكويمها في مكان ما خارج نطاق الرؤية وتركها لتتعفن؛ كان يجب تحريقها، وهكذا أُضْرِمَت النيران، في تلك الفترة تقريبًا كنتَ تلاحظ الرجال يرمون بعضهم بنظرات خاطفة من ألحاظ أعينهم، مع أنهم ما كانوا يقولون شيئًا، وعلى وجبة المساء، ربما كان الضحك يبدو مكرَهًا بعض الشيء، لكن ما إن تُوزَّع جِفان الخمر حتى يسترخي الجميع، ويا إلهي كيف كانوا يشربون! كل

ليلة يترنَّحون مبتعدين عن المائدة، يملؤهم التورُّد والتبجح والتشدق والخوف، ويقلب «أخيل» - الذي كان يشرب أقل من الجميع - تحديقته من وجه إلى آخر متيقظًا يقيم المزاج العام.

ذات مساء على وجه التحديد، كنت قد فرغتُ لتوِّي من صبِّ الخمر في كوب «مايرون»، ولأنني أبغض تمطُّقه بشفتيه والطريقة المتكلفة في عَرَضيتها التي يُحرك بها ذراعه حتى تناوش ثديي، حاولت دائمًا أن أصبَّ له شرابه بأسرع ما يمكن ودون أن أقترب أكثر من اللازم، هذه المرة، أسأتُ تقدير المسافة فأُهرِق بعضٌ من خمره على الطاولة، لم يكن ذلك حَرِيًّا بالاهتمام حقًّا، فأينما وَلَّيْتَ وجهك في أنحاء الطاولة رأيتَ ثَمَّ أكثر من بِرْكة واحدة صنعها الخمر المُراق، لكن ذلك أثار سخط «مايرون»، إلى حد أن عروقًا انتفخت وبرزت في جبهته؛ كان رجلًا تقلب سفاسفُ الأمور مزاجَه على نحو سخيف، حالما حدث ذلك، انتصب على قدميه يمسح بقطعة قماش وهو يجدف لنفسه، وأوشك يهمُّ بالجلوس مجددًا حين لفتَتْ حركةٌ بصرَه، وبحكم وقوفي خلفه تمامًا أمكن لي تتبُّع اتجاه تحديقه؛ فهناك جرذ يعدو على الأرضية بين الطاولتين الطويلتين.

لم يكن أحد قد رأى الجرذ بعدُ، لكنه راح يترنح من جنب إلى آخر مفلتًا تلك الصرخة المريعة قبل أن ينقلب على عقبه نهاية الأمر ويقيء دمًا، حينئذ كان بعض الأشخاص قد التفتوا يحدقون، اكتنفت موجة من الصمت الطاولات مع توقُّف الرجال واحدًا تلو الآخر عن الأكل رافعين أعناقهم ليروا ما كان يحدث، جرذ نافق! حسنًا، لن يتسبب جرذ نافق واحد بتكدير ملذة الطعام والشراب، وكانوا قد عادوا إلى أطباقهم حين فزَّ «مايرون» متمايلًا على قدميه، إذ وقف يحملق فيَّ، «أنتِ»، قال: «أنتِ».

على ما بدا كنت مسؤولة عن الجرذ النافق علاوةً على الخمر المُراق، فلم يستطِع احتمال ذلك ببساطة، حصير الأسل كان يحجب الجرذ تقريبًا، بَيْدَ أن ذلك لم يُشكل فرقًا: كان يعلم أنه هناك، وما انفكَّ يُلقي نظرات خاطفة جهةَ الطرف المقابل من الغرفة نحو الطاولة الصغيرة التي يجلس «أخيل» و«فطرقل» إليها، لم يبدُ على «أخيل» أنه انتبه إلى الجرذ، لكنه قد ينتبه في أية لحظة، وبالنسبة

إلى «مايرون»، ذلك احتمال لا يُطاق، خَطَا بضع خطوات تعلُو وجهه تكشيرة اشمئزاز، ثم التقط الجرذ النافق من ذيله وأخذه إلى باب البهو ليرميه خارجًا، تعالت الهتافات التهكمية من الرجال الذين شرع بعضهم يقرعون على الطاولات بينما هو يسير عائدًا إلى مقعده: لماذا وُلِدَ بهذا الجمال؟ مسح «مايرون» يده بجنب رداء أبي متفصدًا عرقًا، بينما تابع الرجال جئيرهم بالأغنية مرسلين هتافًا تهكميا أخيراً مع اتخاذه مقعده.

عدتُّ لمتابعة عملي بسرعة، نائيةً بنفسي عنه أبعد ما أمكنني، وانتهى اليوم كما سبق وانتهى كل يوم آخر، بالاستماع إلى «أخيل» يعزف على القيثارة، ثم الاضطجاع تحته في سريره ليلًا أكزُّ على أسناني فيما هو يعتصرني ويشد شعري في الظلام، أغمضتُ عيني أصلي: يا سيد القوس الفضية، أيها السيد الذي تصيب سهامه عن بُعْدٍ، انتقم لفئرانك.

في الصباح التالي حين خرجتُ إلى الشرفة، وطئتُ شيئًا ناعمًا، قلت لنفسي: «هذا هو الجرذ»، لكن عندما نظرت إلى الأسفل كان ثمة جرذان كثيرة، عشرة أو اثنا عشر على الأقل، تساءلتُ أية قوة تلك التي ساقت الجرذان خارج مساحاتها الضيقة المظلمة لتَنْفُقَ هكذا في الهواء الطلق.

لم تكن تلك هي الجرذان الوحيدة التي رأيتها يومئذ، حيث شاهدتُّ جماعة من رجال «مايرون» يركلون جرذًا كبيراً عند الشاطئ، وكانت المسافات الضيقة بين السفن مسودة بجيَفِها، «مايرون» يخفِر الطرق طيلة النهار مقحمًا رمحه تحت الأكواخ أبعد مسافة يمكنه بلوغها، والإماء يتجنبن اعتراض طريقه قدر ما يمكنهن، رغم هذا الاجتياح، كان يتوجب بطريقةٍ ما الحفاظ على نظافة المعسكر ولا سيما كوخ «أخيل»؛ الطاولات تُفْرَك والأسل الطازج يُجْمَع ويُفْرَش على أرضية البهو، ثم تُعَد مغاطس الاستحمام ويُطهى الطعام؛ كل ذلك تحت إشراف رجل بَدَا متهيجًا إلى أبعد حد، ما رأيت رجلًا يعمل بذلك الجد وتلك النفحة من القنوط.

لكن بالرغم من كل جهوده؛ غلبَته الجرذان، فبينما كان «أخيل» يَذْرَع الشرفة

عابثًا بأبازيم درع صدره، عثر بجرذ نافق فركلَه بعيدًا إلى الفناء بصيحة اشمئزاز، وكانت النظرة التي علَت وجه «مايرون» حينها لَتُذِيب أي قلب أقل قساوة من قلبي.

وعلى العشاء، حالما اتخذ كلٌّ مقعده، نهض «مايرون» بنفسه وأرْتَجَ الأبواب، وهذا فِعل مُستهجن في ذلك الحر لكن أحدًا لم يحتج، أظن أنه كان بوسع الجميع استيعاب خروج الرجل عن السيطرة، رحت أدور بالخمر كالعادة، غير أنني طلبتُ من «إيفيس» تخديم طرف «مايرون» من الطاولة، وكنت إذ أفرغ من صبِّ كل كوب أنتصب وألقي نظرة نحوه، عيناه كانتا ترمحان من جهة إلى جهة، وبَدَا من الواضح أنه يظن نفسه لم يُحْكِم إغلاق الباب بما يكفي فنفذت الجرذان إلى الداخل، وها هي تعدُو في الأنحاء، أحقًّا كان ذلك؟ ظننتُ أن بوسعي سماع شيء ما، لكن ذلك يمكن أن يكون قدمي تُصْدِران حفيفًا لدى وطئهما حصير الأسل أثناء غدوي ورواحي، أخذ «مايرون» يختلِس النظر إلى الظلال، وَبَدَا من حين إلى آخر يحصر تركيزه في رقعة بعينها، فكرت: إنه يراها، إلا أنني حين التفتُّ لأتبع خط نظره لم ألقَ شيئًا هناك.

بعد مُضِيِّ عشر دقائق على بداية الوجبة، بدأ «مايرون» - وكان يتصبَّب عرقًا بحلول ذلك الوقت - يهرش رقبَته وإبطيه، وراح بقية الرجال يعاكسونه: «هل أُصِبْتَ بالبراغيث يا «مايرون»؟» تلك كانت مزحة - الجميع مصابون بالبراغيث، المعسكر برمته يعج بها - لكن «مايرون» لم يكن في مزاج رائق للمزاح، فنهض على قدميه وهمَّ قاصدًا الباب، نادى أحدُ الرجال عليه ظانًّا أنه قد شعر بالإهانة:

- «اجلس يا «مايرون»، بحق اللعنة، تناول شرابًا.»

لا أظن أن «مايرون» سمع ذلك، كان يكاد يمزق رقبته وإبطيه، حتى إنه دس إحدى يديه في ردائه وشرع يهرش في مغبنه، بدأ يلوح الارتباك على ملامح واحد أو اثنين من الرجال؛ كان جليًّا أن ثمة خطب ما، «هل أنت على ما يرام؟» سأله أحدهم.

تداعى «مايرون» مستندًا إلى الحائط:

- «انظروا إلى الخبثاء الصغار الدُّعَّار»، راح يقول: «انظروا إليهم».

حطَّ الصمتُ على الرجال عند الأطراف البعيدة من الطاولات، وراحوا ينحنون قُدُمًا ليروا ما كان يحدُث.

- «انظروا إليهم، انظروا».

استدار بعض الرجال على أعقابهم متوقِّعين ربما أن يروا مقاتلين طرواديين يقتحمون الأبواب، وكنت أعرف أنه يقصد الجرذان، لكن لم يكن هناك جرذان.

كان «أخيل» قد هبَّ على قدميه عندئذٍ، وتنحى «مايرون» عن الجدار منطلقًا في مطاردة متثاقلة خلف شيء هو وحده يراه، غير أنه لم يكن قد زاد على نصف دستة من الخطوات حين سقط متعجلًا على الأرض، لم تكن قد خارت ركبتاه، ولم يكن ذلك انزلاقًا رشيقًا، وانهار مثل شجرة قُطِعَت. سادت لحظة من الصمت، كان بعدها «فطرقل» راكعًا بجانبه يقلبه على ظهره ويصيح على الجميع ليتراجعوا:

- «أفسحوا لبعض الهواء من أجله».

تفرَّق الحشد ليفتحوا طريق «أخيل»، الذي ركع هو الآخر وغاص بأصابعه في الألغاد المكتنزة حول فك «مايرون»: «تحسس هذا»، همس لفطرقل.

وضع «فطرقل» يده على عنق «مايرون» وأومأ:

- «قاسية».

دس «أخيل» يده في مقدمة رداء «مايرون» ليتحسس إبطيه، ثم نظر إلى

«فطرقل» وهز رأسه بشكل يكاد لا يُرى:

- «من الأفضل أن ننقله إلى الكوخ».

تطلَّب رفع «مايرون» أربعة رجال وآخر يسند رأسه، ولدى مرورهم بي مترنحين، لاحظتُ رائحة مثل ماء مزهرية تُرِكَت فيها الزنابق حتى تعفنت، اتجه «أخيل» إلى الباب وراقب الموكب الصغير يقطع الفناء، وفي تلك الأثناء كان «فطرقل» يجوب الطاولات مطمْئنًا الرجال يقول لهم، أجل، «مايرون» متوعك، لكنه في المكان الأمثل، وسيتم الاعتناء به، ما من شيء يستدعي القلق، جميعهم يعرفون «مايرون»، قوي كثور، يتطلَّب طرحه ما هو أكثر من هذا بكثير، وسيعود على قدميه في وقتٍ لا يُذْكَر لينغص على الجميع.

حتى إن «فطرقل» أخذ إبريقًا من إحدى الفتيات وطفق يملأ أكواب الرجال، مستحثًّا إياهم على الشرب بصحة «مايرون»، تتبعته كل عين في الغرفة، وسرعان ما استؤنِفَت الأحاديث والضحكات تدريجيًّا.

***

-١٢-

في الصباح الباكر، أخذتُ إلى «مايرون» خلطةً مُسكنة للآلام مزجها «أخيل» بنفسه، كنت قد شاهدتُه يطحن الأعشاب ويُفتِّت الجذور من أجلها في الليلة السابقة، إحدى الأساطير التي تنامت حول «أخيل» كانت فحواها أنه يتمتع بقوى شفائية مميزة، أما إن كان يمتلك قوى كتلك بالفعل أم لا، فذلك ما لا أعرفه، لم تشفِ الخلطة «مايرون» بالتأكيد، غير أنها - تحريًا للإنصاف - قد خفَّفت الألم.

وجدت «مايرون» في كوخ الاستشفاء مدعمًا بالوسائد، متعرقًا أشعث الشعر وما يزال يحك رقبته وإبطيه ومغبنه، ملمس بشرته حار وانتباجاته بدأت تبعث رائحة كريهة، عندما حملت نفسي على تحسُّس رقبته وأنا أكزُّ على أسناني، قبض على

رسغي وحاول سحبي إلى السرير، وحينئذ تيقنت أنه فقد عقله، ظل يُحملق في الظلال ويغمغم عن الجرذان، رغم أن أيًّا منها لم يكن مرئيًّا، وتخللتْ هذيانه لحظاتٌ عارضة من الجلاء، اغتنمتُ إحداها لأسأله كيف كان يشعر.

«لستُ مريضًا»، قال بنزق:

- «إنها تلك الجرذان اللعينة وحسب، لقد سمحتُ للأمر أن ينال مني.»
- «لم يكن ثمة الكثير منها هذا الصباح.»

قلتُ ذلك مُضمِرةً تهدئته لا غير، غير أنني أدركتُ صحته بعد أن قلته، ابتهج بعض الشيء وأتم الخلطة الداكنة مُرَّة الرائحة، هممتُ بالمغادرة ووعدتُه أن أجلب كوبًا آخر له، إذ بَدَا ذلك يُحسن إليه بعض الشيء بالفعل، رغم أنني اشتبهت أن السبب الرئيس هو علمه أن «أخيل» مَنْ أرسله، وعند الباب التفتُّ لأنظر مجدداً، وبَدَا أكثر ارتياحًا بشكلٍ ملحوظ، حتى إنه انزلق غائصًا في السرير، ورفع الأغطية ليستر بساط الشعر الأسود الذي يكسو صدره.

بعد ساعات قليلة، أخذتُ إليه جرعةً أخرى وصُدِمْتُ لدى رؤيتي تدهوره، كان قد رمى الأغطية ورقد نصفه على السرير ونصفه على الأرض، وتجمَّع رداؤه حول خصره، استطعتُ أن أرى الانتباجات في مغبنه تنتفخ نائتة من الشعر الأسود الكث مثل حبات تين رهيبة متفسخة، وكان القيء يلطخ أنحاء صدره وعنقه؛ مزيج دبق من المخاط والصفراء، لاحظتُ خلوَّه من المواد الجامدة، لكنه بطبيعة الحال كان لم يتناول أي شيء ذلك اليوم ومعظم الذي سبقه، إحدى يديه في مغبنه، والأخرى على عنقه، وكان جلده من السخونة لدى ملامستي له ما دفعني إلى خطف يدي لا شعوريًّا.

غمغم بشيء ما ظننته عن الجرذان، لكنني التقطتُّ بعدها كلمة «نار»، بدا أنه يقول: «النار مندلعة»، غير أن حلقه كان مسدودًا إلى درجة تمنعه من إخراج الكلمات، قدمتُ له الكوب لكن كان من الواضح أنه غير قادر على إمساكه؛ لذا انحنيت عليه وقطرت بعض السائل البني الداكن في فمه، وعلى الفور تقريبًا

تقيَّأ، جربتُ معه الماء لكنه لفظه هو الآخر، إلا أنه تمكّن - على الأقل - من شطف فمه وترطيب شفتيه؛ كان يتلظّى تمامًا.

حتى في حالته الواهنة، كدح ليرفع نفسه لدى دخول «أخيل» الغرفة، فجلسَ في وضعية الانتباه تقريبًا يمد عنقه كما لو أراد إبعاد نفسه عن الكتلة المتعرقة كريهة الرائحة التي صار إليها جسده، «آسف»، راح يقول:

- «أنا آسف جدًّا».

«لا داعي»، أجابَه «أخيل»: «لقد رحلَت الجرذان».

بعد دقائق قليلة غادر «أخيل»، لا شك أنه كان يقصد البحر ليسبح قبل العشاء، صُفِقَ الباب خلفه مرسلًا نفحة من هواء أنقى، لكنني ما كدتُ أشعُر به على جلـدي حتى اختفى، مكثتُ متريثة أحاول إدخال القليل من الخلطة في «مايرون»، الذي بدأت عيناه تغمضان، وبعد ذلك بقليل، غَطَّ في نومٍ عميق فاستطعتُ أن أغادر كوخ الاستشفاء وأعود أدراجي قاطعةً البهو الرئيس، حيث كان القادة قد بدؤوا يتجمعون، كنت قد أخذتُ إبريقًا عن الخوان الجانبي وهممتُ ببدء جولات الصبِّ مستهلَّة كالعادة بأخيل، حينها أخذ «فطرقل» الإبريق وطلبَ مني أن أذهب إلى قسم المعيشة لأنال قسطًا من الراحة.

عندما ذهبت لرؤية «مايرون» مُجددًا تلك الليلة، اعتقدتُ حقًّا أنه أخذ يتحسن، إذ بَدَا أكثر إشراقًا وعاد كلامه متماسكًا من جديد، لكنه بحلول الصباح التالي كان قد تردى، تراجعَت حالته كثيراً، يتقلب ويتلوَّى فوق الملاء التي نقعها العرق مدمدمًا دون توقُّف، رغم أن شيئًا مما قاله لم يبدُ ذا معنى، استدعيت بعض النساء الأخريات وحممناه، وانتحت إحدى الفتيات جانبًا لتستفرغ حين باتت الرائحة أكثر من أن تحتملها.

جاء «أخيل»، وهو ما يزال في عتاده الكامل، حالما عاد من القتال، توقَّف لبرهة في المدخل مصدومًا كما بَدَا واضحًا، كان ثمة قشور بيضاء على شفتي «مايرون»

مثل الفطريات التي يراها المرء أحيانًا فوق الأشجار الساقطة، وصِوارا فمه يتشقّقان حين يحاول أن يتكلم، أتى «فطرقل» بعد بضع دقائق، ونظر من طرف السرير إلى «أخيل» الذي هز رأسه.

قال «فطرقل»:

- «سأبقى معه».

فرد «أخيل»:

- «كلا، لن تفعل، فأنت تحتاج شيئًا تأكله.»
- «وكذلك حالك، هيا، افرنقع، سأبقى أنا.»

لكن «أخيل» قعدَ على طرف السرير ووضع راحتيه على أخمصي قدمي «مايرون»، بدَت لي تلك بادرة حنو غريبة تجاه رجل ليس لديه الكثير مما يزكيه، غير أن «أخيل» كان يرى جانبًا مختلفًا منه كما هو واضح؛ كانا رفيقين في نهاية المطاف.

سأل أخيل:

- «هل لي ببعض الماء؟»

بَدَا الكلام موجهًا إليَّ؛ لذا ذهبتُ وأحضرتُ إبريق مياه نظيفة من الراقود قرب الباب، أخذه «أخيل» مني وحاول إنفاذ شيء منه إلى فم «مايرون»، وكان «مايرون» يُتمتم: «جرذان، جرذان»، ثم قال مجدداً حين بَدَا أنه تعرَّف إلى «أخيل» للحظة: «آسف، ليس الذنب ذنبك.»

لكن «مايرون» كان قد تجاوز مرحلة أن يأبه ذنب مَنْ كان هذا، جاءت النهاية بسرعة أظنها باغتتنا جميعًا، انتظرنا النَّفَس التالي، وحين لم يأتِ التمس «أخيل»

النبض في عنق «مايرون»، محركًا أصابعه قليلًا من جهة إلى جهة، «لا، انتهى الأمر».

أسدل جفنَي «مايرون»، ووقف يتنفَّس بعُمق برهةً ثم التفت إلى «فطرقل»:

- «كلما سَرُعَ إحراقه كان أفضل، أحرقوا كل متعلقاته.»
- «فاتَ الأوان قليلًا على ذاك.»
- «أعلم، لكن ماذا عسانا نفعل غير هذا؟»

وفقًا للتقاليد النافذة منذ القدم، كان تجهيز الموتى عملًا نسائيًّا، حال اليونان في ذلك مثل حال طروادة، حمل الرجال جثة «مايرون» إلى كوخ الغسيل ووضعوها على لوح، لكنهم انسحبوا بعد ذلك تاركين ما تبقى للنساء.

ولأن «مايرون» كان قريب «أخيل»، علمت أن عليَّ التواجُد هناك؛ لذا ملأت دلو ماء من الراقود في زاوية الغرفة، ونثرت مزيج أعشاب - إكليل جبل ومريمية ومردقوش وصعتر - على وجه الماء وشرعت بالعمل، ثلاث نساء أخريات يعملن في الغسيل رحنَ يملأن الدلاء أيضًا ويحملنها إلى اللوح، بينما تُوقعُ أقدامهن الحافية صفعًا على الأرضية الخشب.

كانت الغسالات نساءً ثقيلات القامة في المعظم، وبطيئات الحركة بأقدام مفلطحة شائهة، وجوههن شاحبة خضِلة متوسعة المسام، الثنيات دائمة الظهور على جلد رؤوس أصابعهن من انغمارها الطويل في الماء، كنتُ أراهن واقفات في الأحواض خارج كوخ الغسيل، أُزُرهن معقودة حول خصورهنَّ، يخضن حتى ركبهنَّ في البول، وهُنَّ يدُسنَ فوق الثياب ساعة تلو الأخرى، لا يزيل الغسلُ الدمَ الجاف بسهولة، والبول واحد من الأشياء القليلة جدًّا التي تفككه، ونتيجة لذلك، سيقان هؤلاء النسوة كريهة الرائحة دائمًا؛ كان بمقدوري شمُّها، رغم ظني أنهن ما عدنَ يشممن روائحهن منذ فترة طويلة.

لم تُكْنِن هؤلاء النسوة حبًّا لمايرون، الذي لطالما عاملهنَّ بقسوة وحتى قام

باستغلالهنَّ جنسيًّا كذلك، لكن كان ثمة عمل يتعين إنجازه، جردنا جثته من الملابس التي بقعها العرق، فصاحت إحدى النساء تقززًا إزاء الانتباجات النافرة في مغبنه، «يا للوغد المسكين»، قالَت متراجعةً خطوة.

لكن امرأة أخرى تمتمَت: «جزاءٌ مُسْتَحَقٌ لهذا التافه».

كنت أعصر خرقة وعلى وشك أن أبدأ بغسل الجثة، حين فُتِحَ الباب ودخل «أخيل» يتبعه «فطرقل» عن كثب، وتزاحم كبيراَ معاوني «أخيل»: «ألكيموس» و«أوتوميدون»، في المساحة الضيقة خلفهما، لزمت النساء أمكنتهنَّ، فانتهى الجمع إلى وجود «أخيل» ورجاله على جانب من اللوح وصف من النساء الصامتات ذوات الأقدام الرحاء(5) على الجانب الآخر.

تقدمتُ عن النسوة وواجهت «أخيل» من فوق الجثة لأقول: «لن نستغرق طويلًا»، ما كان لي أن أعرف ما يفعله هنا ولو فكرتُ طوال حياتي.

أومأ دون أن يُبْدِي نية بالمغادرة، فتنحنح «فطرقل»:

- «أحضرنا بعض الثياب لنُلْبِسَه إياها».

دفعها نحوي فوق الرخام الرطب:

- «وكذلك قطعتين نقديتين لعينيه».(6)

كان «أخيل» ينظر نحوي مباشرة، لم يتحرك أحد من الموجودين أو ينطق، وأظنه رآنا في تلك اللحظة - مهما كانت وجيزة - كما كنا حقًّا، لا نساءً ولا إماءً وحسب، بل طرواديات العدو، رؤيته لنا بتلك الصفة - رؤيته لي بتلك الصفة - أشبعَت في شيئًا همجيًّا نهِمًا، وفي آخر الأمر، بعد تحديقة ثاقبة أخيرة، استدار وخرج من الغرفة بخطاه الواسعة تاركًا الآخرين ليتبعوه.

كنتُ أعلم فيما يفكر: إن «مايرون» سيكون بمأمن بين أيدينا؛ إن لم تحدونا

الخشية من العقاب الدنيوي على معاملة جثمانه باحترام، فطاعة الآلهة ستتكفل بذلك دون شك، والنساء - في نهاية المطاف - شهيرات بإخلاصهن للآلهة.

انتظرنا حتى أُغلِقَ الباب خلفهم، وحينها التقطَت إحدى النساء قضيبَ «مايرون» المسكينَ الرخوَ بين إبهامها وسبابتها وراحت تهزه نحو بقيتنا، تعالىَ من النسوة ضحك هازئ، وأطبقن أيديهن فوق أفواههن على الفور ليكتمن أصواتهن، لكن شيئًا لم يكن ليكبح ذلك الضحك الذي ارتفع نبرةً وصوتًا حتى تحول إلى صيحات هستيرية لا بد أنها كانت مسموعة بجلاء خارج الكوخ، وكانت المرأة التي تهز قضيب «مايرون» تضحك صارخة كمن تلهث من أجل الهواء، لا بد أنهم سمعونا وهم يبتعدون، لا بد أن «أخيل» سمع، لكن أحدًا منهم لم يستدر ويطلب أن يعرف ما كان يحدث، وعلى هذا تُرِكْنَا وحدنا مع الميت.

***

-١٣-

لِكونِهِ من عشيرة «أخيل»؛ مُنح «مايرون» جنازة جليلة، حُمِلَت جيفته المتعفنة مدهونةً بالزيت ومعطَّرة ومكسوَّة برداء أبي، إلى المحرقة مع كل ما يليق من الأضاحي والترانيم والمراسم والشعائر والصلوات، وقبل إشعال الضرام، أراق كاهنٌ بعض الخمر تكريمًا للآلهة، لكن حالما بدأ المقاتلون بالانفضاض، دار الحديث عن جميع الرجال الآخرين الذين طرحهم المرض، خمسة منهم أصيبوا يوم وفاة «مايرون».

وسرعان ما راحت سهام أبولو تضرب بسرعة وغزارة، امتلأ كوخ الاستشفاء برجالٍ يتلوون ويتقلبون تحت أغطية ضمَّخها العرق، والقلائل الذين تحلَّوا بالشجاعة الكافية لزيارة أصدقائهم كانوا يحملون معهم ثمار ليمون أُقْحِمَت فيها غصينات إكليل الجبل والغار، لكن ما كان شيء ليمنع الغازات المؤذية من دخول رئاتهم.

لم يكن هذا طاعون السعال؛[7] لذا تمكَّن بعض من أصيبوا به من النجاة، لكن العديد منهم لم يفعلوا، وبحلول نهاية الأسبوع الأول، كان الرجال يموتون بأعدادٍ ما عادت تسمح للجنائز أن تكون شعائر جليلة تكرم الموتى، وعوضًا عن ذلك، كان يتم نقل الجثث في جُنح الظلام إلى قسمٍ مهجور من الشاطئ ليتم التخلص منها بأكبر سرعة وسرِية ممكنتين، كانت نيران محارق الجثث مرئية من طروادة، ولم يشأ أحد أن يعرف الطرواديون عدد الإغريق الذين يموتون؛ لذا كان يتم عادةً إلقاء خمس أو ست جُثث في المحرقة الواحدة، فينجم عن ذلك في الصباح التالي كومة من الرفات المتفحمة والتي يمكن التعرُّف إلى أصحابها بسهولة، وأحيانًا يقوم الرجال السائرون خلف رفيقهم الميت إلى مثواه بالغناء بصوت عالٍ وقرع سيوفهم على دروعهم، متظاهرين أنهم في طريقهم إلى وليمة، وفي بعض الحوادث الأسوأ، تشاجرت جماعات المشيِّعين المتنافسة لتأمين مكان في المحرقة للصديق الميت.

استمر الغناء وخبط الطاولات على العشاء رغم ذلك، لكن كان ثمة أماكن شاغرة على المقاعد لا تكفي أية كمية من النبيذ القوي لجعل الرجال ينسونها، وكان «أخيل» يجوب الطاولات بنفسه ممازحًا وضاحكًا وفي يده كوب خمر طوال الوقت، غير أنه بالكاد يشرب أكثر مما يرطب شفاهه، وأنا تابعتُ ما كنت أفعله دائمًا: أبتسمُ وأصبُّ، أصبُّ وأبتسم، حتى أرغب بالتقيؤ، وأظنني استشعرتُ تغيراً طفيفًا في الجو، في طريقة نظر الرجال إلى النساء اللاتي يخدمن عليهم، و«إيفيس» هي مَنْ فسرت لي ذلك: «هذا لكوننا لسنا نموت»، لم يكن ذلك صحيحًا تمامًا؛ فقد ماتت عدة من نساء العوام، يزحفن إلى تحت الأكواخ ويمتن إلى جانب الكلاب، لكنها كانت محقة في أحد الجوانب: لم نكن نموت بأعداد تقارب ولو قليلًا أعداد المحاربين الإغريق، والوفيات القليلة التي حدثت بين النساء كادت تمر دون أن تُلاحَظ، ففي النهاية، مَنْ ذا الذي سيلاحظ بضعة فئران نافقة وسط هذا العدد من الجرذان الزاعقة؟

بماذا كنت أشعر خلال ذلك الوقت؟ حسنًا، كان التمريض يُعييني بحيث لا أستطيع أن أشعر بشيء يُذْكَر، لكن هذا تملُّصٌ من السؤال، أجل، مرت أوقات

شاهدت فيها شبانًا يحتضرون فتذكرت صلواتي الانتقامية، هل ندمتُ على تلك الصلوات؟ لا، كانت الحرب مندلعة في بلادي، وعائلتي قُتِلَت، وللتذكير، تلك لم تكن حربًا اخترناها؛ لذا لم أندم عليها؛ رغم أنني في الوقت نفسه شعرتُ بالأسى لضياع كل تلك الحيوات الشابة، لكنني لم أشعُر قط بمسؤوليتي تجاه موتهم، أجل، لقد صليتُ طلبًا للانتقام، بَيْدَ أنني لم أكن مزهوَّة بما يكفي لأصدق أن لصلواتي أي وزنٍ لدى الإله، أبولو تعرض للإهانة فراح يجتثُّ ثأره الرهيب كما كان معروفًا عنه.

في اليوم التاسع، عاد «أخيل» و«فطرقل» من محرقةٍ مُغِمة بعينها، شعرهما وملابسهما يعبقان بدخان الخشب والدهن المحروق، صاح «أخيل» طلبًا لمزيد من الخمر، خمر أقوى، فهرعتُ لأجلبه، حين عدتُّ كان «فطرقل» غائصًا في كرسيه، ويداه مرتخيتان بين ركبتيه، حالما ملأت كلا كوبيهما بدأت أسترخي قليلاً، لكن «أخيل» عندها هَبَّ على قدميه وراح يَذْرَع جيئةً وذهابًا:

- «لماذا لا يدعو إلى اجتماع؟ ما الذي يفعله؟»

هزَّ «فطرقل» كتفيه:

- «لعله لا يرى أن الأمر يرتقي إلى مصاف الأزمة.»
- «ما الذي يجب أن يحدُث بعدُ؟ أم لعل الموت لم يطل رجاله هو؟»
- «بلى، المستشفى مليء، لقد سألت.»
- «إذًا لمَ لا نحزم أمتعتنا ونعود إلى الوطن؟»

ألقى «أخيل» جسده على كرسيه، ثم لم يلبث حتى فزَّ مجددًا:

- «حسنًا، إن كان لن يدعو إلى اجتماع فسأفعل أنا.»

راح «فطرقل» يُحرك الخمر بين حواف كوبه، ثم رفعه إلى فمه وشرب.

أخفض «أخيل» بصره إليه:

- «ماذا؟ ماذا؟»
- «هو لم يدعُ إلى الاجتماع.»
- «لا، وجميعنا نعرف السبب؛ لا يريد أن يُقال له: إن عليه رد الفتاة.»
- «لعله لا يرى الرابط.»
- «إذًا فهو وحده الذي لا يراه، إن أقدمتَ على إهانة كاهن أبولو، فأنت تهين أبولو.»
- «سيتطلب الكثير من الإقناع.»
- «حسنًا، أنا واثق أن بإمكاننا العثور على عرَّاف يُخبره ما يعلمه الآخرون جميعهم أساسًا.»

اتخذ القرار، بالنسبة إلى بعض الرجال، يمكن أن ينتهي الأمر على ذلك، لكن ليس لدى «أخيل»؛ راح يرغي ويزبد، قبضتاه تلكمان الهواء وبصاقه يتطاير، وهو يهيج نفسه حتى يقارب الجنون، «أجاممنون» كان خزيًّا كليًّا لعينًا، مَلكًا لا يعبأ برجاله، طماعًا وجشعًا وجبانًا، وفي ما يتعلق بتشبثه بالفتاة، كان كلبٌ مدمنٌ على تشمُّم المهابل ليُبدي تعقلًا أكثر منه، أحيانًا يرى المرء طفلًا أحال الغيظُ لونه أرجوانيًّا، يصرخ حتى يلهث طلبًا للهواء، فيعلم أن لا شيء سوى صفعة سيصدمه ليخرجه من حالته تلك، كانت نوبات غضب «أخيل» شبيهة بذلك، لكن مَنْ ذا الذي يصفع «أخيل»؟

أخيراً، بدا القذع الساخط يشرف على النهاية، وحين اتضح أنه لن يكون ثمة المزيد؛ عدَّل «فطرقل» من جلسته على كرسيه، حتى تلك النقطة لم يكن قد تحرك أو نطق، واكتفى بالشخوص إلى النار، وربما كان ليبدو مسترخيًا عن بُعْدٍ؛ أما عن كثب فكنتَ لترى عضلةً تنبض في فكه.

بعد صمتٍ وجيز، مدَّ «أخيل» يده نحو عباءته: «أظنني سأذهب لأتمشى»، وبَدَا أنه ينتبه إليَّ لأول مرة: «لن أحتاج إليكِ الليلة»، لمس كتف «فطرقل» سريعًا

حين مر قرب كرسيه، وبعد ثوانٍ صُفِقَ الباب خلفه. نهضتُ كي أذهب، فانتبه «فطرقل» إلى تحرُّكي:

- «اجلسي حبًّا بالإله، تناولي بعض النبيذ، تبدين منهَكةً تمامًا.»
- «شكرًا».

كنا على سجيتنا مع بعضنا الآن، كل تلك الساعات من هرس الأعشاب سويةً - ومراقبة «أخيل» متنبهين إلى أي تغير في مزاجه - كانت قد صاغت رابطًا في النهاية، بدأت أثق به، إلى درجة كنت أحتاج معها إلى بذل جهد حتى أتذكر أنه هو أيضًا شارك في نهب ليرنيسوس.

نهض الآن وأعاد ملء كوبه وناولني كوبًا.

سألته:

- «هل ستنتظر؟»
- «أظن ذلك، هذا ما أفعله عادةً.»

لا أستطيع تخمين السبب الذي يدفع «فطرقل» ليرهب الليالي التي يلتقي «أخيل» فيها بأمه، أعلم فقط أنه يرهبها.

انخفض اتقاد النار، فرمى قرمة خشب أخرى، دخنتْ لبعض الوقت قبل أن تتمكن ألسنة اللهب منها، وامتد سكون لم يقطعه إلا صوت كلب يهرش عنقه، ومن مكان أبعد وبجرْس بالكاد يُدرَك، تناهى همس الأمواج التي تمد زبدها فوق الشاطئ، استمر السكون غير الطبيعي؛ حتى عند ارتفاع المد كان البحر نادرًا ما يتعدى على اليابسة، نظرتُ إلى الجدران واستشعرتُ الاتساع المتعِب للبحر والسماء خلفها، أحسستُ بالظلام الحار يطبق بضغطه، ففكرتُ في مدى سهولة أن يمُسح كل هذا عن بكرة أبيه، هذا الكوخ متين البنيان، ورجل وامرأة يجلسان سويةً قرب النار.

سمعتُه مرة «يتحدث إليها، لم أستطِع فهم ما كان يقوله»، ثم انتظرت، وحين لم يُعلق، سألتُه:

- «هل تبادله الكلام هي؟»
- «أجل».
- «أهما متقاربان؟»
- «يصعب الجزم بذلك، فقد غادرَتْ حين كان في السابعة».

تابع بعد وقفةٍ قصيرة:

- «من الظاهر أنها تبدُو أكثر شبابًا منه الآن.»

قلتُ أسبر طريقي:

- «لا بد أن هجر طفل في تلك السن كان أمراً صعبًا.»
- «لا أدري، ربما الأمر أنها كانت تكرَه هذا الزواج، لم يكن خيارها، لم يستشرها أحد، أظنها وجدت الأمر برمته مثيراً للاشمئزاز بعض الشيء، كما أنها أورثت ذلك».

رمقني متابعًا:

- «حسنًا، لا شك أنكِ انتبهتِ، شيء من الجفاء».

كنتُ قد انتبهتُ إلى ذلك وغير قليل، لكنني حاذرتُ أن أتحرى خلف الموضوع، شعرت أنه يتفوّه بما هو أكثر من اللازم وقد يندم على ذلك لاحقًا.

كان يبتسم:

- «أنتِ تُذكرينه بها.»

- «أنا أذكره بأمه؟»

- «يجدر بكِ أن تشعري بالإطراء، فهي إلهة.»

- «إنني أحاول ذلك.»

كان ما يزال يبتسم، بطريقةٍ ما حين يبتسم، كَسْر أنفه يتضح أكثر بكثير، لا بد أن كل مرة ينظر فيها إلى المرآة كانت تذكره بأسوأ أيام حياته.

- «أتعلمين أن باستطاعتي جعله يتزوجك؟»

هززتُ رأسي نافيةً:

- «لا يتزوج الرجال إماءهم.»

- «عُرِفَت بعض الحالات».

- «بوسعه أن يتزوج ابنة ملك».

«بوسعه فعل ذلك، لكن لا حاجة به إليه في الوقت نفسه، الأم إلهة، والأب ملك، يمكنه فعل ما يطيب له».

سحب تنهيدة وحبسها:

- «بوسعنا أن نبحر جميعنا إلى الوطن سوية».

أردتُّ أن أقول: أنتم أحرقتُم وطني.

تلك الليلة، بينما كنت مستلقية بجانب «إيفيس» على فراش قش في أحد أكواخ النساء، أخذتُ أقلِّب ما قاله في ذهني، لا يتزوج الرجال إماءهم، أظن أنهم قد يفعلون ذلك من حينٍ إلى آخر، إن وَلَدَت الأَمَةُ ابنًا ولم يكن ثمة وريث شرعي،

لكن ما احتمال حدوث ذلك؟ لا، كان الأمر سخيفًا، لكنني تذكرت بعد ذلك اللمحة التي اختلستُها على «أخيل» وهو يتكئ على «فطرقل» عند الشاطئ، كنتُ أعلم أنه لم يُبالغ في الحديث عن تأثيره.

هل كنتِ حقًّا لتتزوجي الرجل الذي قتل إخوتك؟

حسنًا، قبل كل شيء، ما كنتُ لأحظى بفرصة الاختيار، أجل - على الأغلب - أنا كنتُ أَمَة، والأَمَة قد تفعل أي شيء، أي شيء على الإطلاق، كي تكفَّ عن كونها شيئًا وتُصبح شخصًا من جديد.

لا أعرف كيف يمكنكِ أن تفعلي ذلك.

لا، بالطبع لا تعرف، فلم يسبق لك قط أن كنتَ عبدًا.

***

-١٤-

بعد وقتٍ قصير من انبلاج الفجر، أرسل «أخيل» سفراءه في أنحاء المعسكر، كان بوسعه طبعًا أن يقف في مؤخر سفينته ويصيح رسالته ببساطة؛ صرخة واحدة من «أخيل» ويكون الجيش بأكمله قد سمع، لكنه ككل القادة كان دقيقًا في التقيد بالأعراف الصحيحة، جميعهم كانوا شديدي الحساسية تجاه أي تقصير في الإقرار بمنازلهم الرفيعة، وكانت الاجتماعات بينهم بشكل عام تتم بكياسة مُحْكَمَة.

أمضيت القسم الأول من النهار في كوخ الاستشفاء، أصب الخلطات المسكنة للآلام في أفواه الرجال المحتضرين، وصل ثلاثة مرضى جدد بينما كنت هناك، أحدهم كان منتهيًا إلى درجة تعيَّنَ معها على أصدقائه حمله فوق نقالة، ألقوه على الأرضية وغادروا فورًا، شادِّين قمصانهم القتالية لتغطي أفواههم، وبعد أن بذلت له أفضل عناية استطعتها، ذهبت إلى البهو حيث كان «ألكيموس» و«أوتوميدون» جالسين مع مجموعة من رفاق «أخيل» المقربين يمررون إبريق

خمر فيما بينهم، هنا كان الحديث كله حول الاجتماع، وحول نية «أخيل» أن يطالب - لا أن يطلب - برد الفتاة «كريزيس» إلى أبيها، «ولن يحصل على فدية مقابلها هذه المرة»، قال أحدهم بتشفٍّ ظاهر، فتصاعدت دمدمة من الموافقة: «سيكون بخته اللعين ميموناً إن لم ينتهِ به الأمر إلى الدفع من أجل التخلص منها.»

بحلول منتصف ما بعد الظهيرة، اكتظَّت الطرقات برجال يشقُّون طريقهم نحو الميدان، كنت أَهِمُّ بالمغادرة حين جاءت فتاة صغيرة تركُض نحوي، وقالت هاذرةً تقطع جسامةُ مهمتِها عليها أنفاسَها: «تقول هيكاميد: أيمكنك القدوم إلى كوخ السيد نسطور؟» ودون أن تنتظر جوابًا أمسكَت بيدي وسحبَتني في الطريق الضيق الذي يقود إلى مجمع نسطور.

حين وصلنا إلى هناك، كان «نسطور» وابنه «أنتيلوكوس» والسادة المرافقون لهم قد ذهبوا لحضور الاجتماع، جاءت «هيكاميد» حاملةً إبريق خمر إلى الباب لترحب بي، وحالما تجاوزتُ العتبة رأيت «كريزيس» شاحبة بلون الطبشور ترتجف، رَفَعَت «أوزا» - التي كانت تحاول حملها على تناول شيء ما - عينيها حين دخلتُ وهزت رأسها، فسِرْتُ مباشرة ولمست جبهة «كريزيس»، أول فكرة كانت لتخطر لك حين يبدو أحدهم متوعكًا تلك الأيام هي الطاعون، لكن ملمسها كان معتدل الحرارة رغم أن بشرتها رطيبة، وسرَّني أنني لم أرَ أذيات جديدة.

كوخ «نسطور» كان قريبًا جدًّا من الميدان، فاستطعنا بوقوفنا على الشرفة أن نرى تماثيل الآلهة وكراسي الملوك بوضوح، تعالَتْ ضوضاء حديث من الحشد المجتمع، وكانت تتلاشى إلى سكون ينمُّ عن الاحترام كلما اتجه أحد الملوك ليتخذ مقعده يتقدمه سفراؤه ويحيط به مستشاروه، جلسوا في نصف حلقة كبيرة مواجهين كرسي «أجاممنون» الشاغر، الذي تم وضعه تحت تمثال زيوس الذي يستمد «أجاممنون» سلطته منه بشكل أساسي، الشمس محتجبة جزئيًّا خلف غشاوة ضباب تشبه ضمادة شاش كحالِها كل يوم منذ تفشي الوباء، وبالكاد تُرسل تماثيل الآلهة المطلية أية ظلال على الرمل.

مُشيَّعًا بصوت الطبول والأبواق، دخل «أجاممنون» آخر مَنْ وصل من الملوك واستقر في جلسَته على كرسيه الشبيه بالعرش، كان «أخيل» يجلس قبالته تمامًا مُبديًا الاسترخاء، يداه متشابكتان برخاوة في حجره، رغم أنني استطعتُ عن بُعْدٍ أن أشعُر بكل الطاقة المعذبة الحبيسة في الرجل، أخذ يتشارك مزحة مع «فطرقل» ويضحك - أو يدَّعي ذلك - لكنه توقَّف فجأة واستدار ليشاهد الشرذمة الأخيرة من الناس يدخلون رتلًا إلى القسم الخلفي من الميدان، كان هادئًا في الظاهر لكنه يغلي من الغيظ في الداخل، وحين وقف بان توتُّره؛ لأنه ارتكز بكامل وزنه على مقدمة قدميه مثل ما قد يفعل رجل يتأهب للقتال أو الفرار، مع أني أشك أن يخطر الفرار ببال «أخيل» كثيراً، كل عين في الميدان كانت عليه، إلا أنه وجَّه خطابه إلى «أجاممنون» حصراً.

«حسنًا»، بدأ كلامه: «الطرواديون على أحد الجانبين، والطاعون على الآخر، لا يمكننا قتالهما معًا، فلِمَ والحال كهذه لا نذهب إلى الوطن؟» أردف مُكشِّرًا عن نابيه: «هذا صحيح، أليس كذلك؟»

لم يَرُدَّ «أجاممنون».

رفع «أخيل» يده ليُسكت التهامس المتأمل: «يمكننا أن نحاول التوصل إلى سبب حدوث هذا، لا بد من وجود شخص ما - عراف - يمكنه أن يقول لنا ما الذي فعلناه وأساء إلى أبولو؟ فمن الواضح أن أبولو هو من أرسل الوباء، وإن علمنا ما الذي فعلناه - أو لم نفعله - أمكننا تصويب الأمور.»

ثم قعد، همدت حركة فوضوية في الصفوف الأمامية لتكشف عن العرَّاف «كلاخوس» واقفًا على قدميه والتوتر بادٍ عليه بوضوح، لم يكن «كلاخوس» في أفضل حالاته: مظهر جذاب، شاحب السحنة باهتها، وله عنق طويل بشكل استثنائي، وكانت حنجرته النافرة بما يكفي لتُلقي بظلها الخاص الواضح تتقبَّض باهتياج متشنج لدى محاولته الكلام، وحتى حين ينجح في ذلك أخيراً تخرج الكلمات على شكل نعيب ينذر بالشؤم، بَدَا أنه يسأل إذا كانت نبوءته تلمِّح إلى رجل بعينه، رجل فائق النفوذ، فهل يتعهد «أخيل» بحمايته؟

رفع «أخيل» نفسه بنصف قيام: «تفضل أخبرنا، لن يؤذيك أحد ما دمتُ حيًّا»، ثم سكت قليلًا لكنه لم يستطع أن يقاوم: «حتى لو كنتَ تقصد «أجاممنون»، الذي يدَّعي أنه أعظم الإغريق».

وهكذا قُذِف تحدي سلطان «أجاممنون» على مرأى كامل من الآلهة والرجال، بينما اكتفى آلاف المقاتلين التابعين لـ «أجاممنون» بالمشاهدة. وعندها تنبأ «كلاخوس» بإسهاب مُعتبرَ بما كان يعرفه كل مَنْ في الحشد مسبقًا، وهو أن أبولو أرسل الوباء ليعاقب «أجاممنون» على إهانة كاهنه، وأن الطريقة الوحيدة الآن أمام «أجاممنون» كي يسترضي الإله هي رد الفتاة إلى أبيها، إلى جانب التضحية بمئة ثور، ومن الواضح أن عليه فعلُ كل ذلك، دون الفدية.

قبل أن ينهي «كلاخوس» كلامه، كان إصبع «أجاممنون» قد أُشْهِر في وجهه، هذا القزم القميء المنتحب البائس المثير للشفقة، متى حدث وتنبأ ذات مرة بأي شيء طيب؟ وها هو الآن ذا مجددًا يصيح - وبالكاد تقدِّمُ هذه الكلمة توصيفًا دقيقًا لطريقة «كلاخوس» العاثرة في الإلقاء - أن «أجاممنون» هو المسؤول عن الوباء؛ لأنه رفض رد الفتاة «كريزيس» على أبيها، «وهذا صحيح تمامًا»، قال:

- «لا أريد أن أخسرها».

سمعت «كريزيس» من الغرفة خلفي تقول فاقدةً الأمل:

- «ها أنتن أولاء، أرأيتن؟»

- «سأكون صريحًا، أنا أفضِّلها على زوجتي؛ فهي تُضاهيها براعة في العمل على النَّوْل، كما أنها أفضل منها بكثير في جوانب أخرى: الطول والجمال والبنية».

وهنا سرَتْ في الجمع موجة من التعاطف اللاهي:

- «لكن بالطبع - بصفتي رئيس الأركان - فأنا أتحمَّل كامل المسؤولية؛ لا أريد أن

أرى رجالي يموتون أمام عيني؛ لذا سأرجعها.»

هتفت «هيكاميد» من البهجة، فاستدرتُ متوقِّعةً أن أرى «كريزيس» وقد انقلب حالها، لكنها بَدَتْ أكثر شحوبًا من ذي قبل.

«إنه لا يعني ما يقوله»، قبضتاها مشدودتان وصوتها خافت شرس: «هذه خدعة».

قالت «هيكاميد»:

- «حسنًا، أنا أظنه يعني كلامه.»

فَرَدَتْ «أوزا» يديها تجول بنظرها من وجهٍ إلى آخر:

- «هل أنا الوحيدة التي تملك ذرةً من العقل هنا؟ إنه يفضلها على زوجته، يجدر بها أن تتوسَّل إليه كي يستبقيها.»

قلتُ:

- «حبًّا بالإله، اصمتي يا أوزا.»

فقالت «أوزا»:

- «أعتذر أنني فتحتُ فمي.»

استدرتُ نحو الميدان، كان «أجاممنون» ما يزال يتحدث، غير أن هتافات الرجال غطَّت على كلماته، وحين انخمد الهدير فجأة نهاية الأمر قال:

- «لكنني أخشى أن هذا يتركنا أمام مشكلة صغيرة؛ لن تكون لديَّ جائزة،

الآخرون سيحتفظون بجوائزهم جميعًا، ولن يُترَكَ لي شيء، أريد تعويضًا.»

وقف «أخيل»:

- «ومن أين يفترض بنا أن نجد لك ذلك؟ هل يعرف أحدكم عن مخزون من الكنز الذي لم يُوزَّع؟ أنا لا أعرف، تم تقسيم كل ما حصلنا عليه من ليرنيسوس منذ أسابيع، سيتعين عليك الانتظار حتى نستحوذ على طروادة.»

- «كلا يا «أخيل»، ما هكذا تعاملونني، سأُتْرَك دون شيء، وإن لم تقدموا لي جائزة، سآخذ واحدة بنفسي، ربما جائزتك أنت يا أوديسيوس.»

لكمَت «أوزا» الهواء بقبضتها: «مرحى»، ولم تكن تدَّعي.

«أوزا» كانت تروق لي، لكنها ما كانت تأبه بقضيب من الذي يلجها ما دامت تحظى بحياة رخاء، وأن تصبح جائزة «أجاممنون»، لا شيء يضاهي ذاك رخاءً.

لكن «أجاممنون» كان قد تابع منقلًا إصبعه المُشهَر على طول نصف حلقة الملوك المصطفين أمامه قائلًا: «أو جائزتك أنت أو أنت»، وكل هذا تظاهُر؛ إذ كان قد وضع رجلًا محددًا نصب عينه بالفعل قبل أن يُتبِع ذلك بإشارة من إصبعه: «أو أنت يا «أخيل»».

لبرهة عابرة، ظننتُ أن ثمة خطأ، أنا هي من كانت جائزة «أخيل»، لا يمكن أنه يعنيني، لم أجرؤ على النظر إلى النساء الأخريات، فوقفت أحدِّق بثبات إلى الميدان.

«لكن هذا كله من أمور المستقبل»، قال «أجاممنون»: «عليَّ أولًا أن أعيد «كريزيس» إلى أبيها، وأقنعه أن يستخدم تأثيره على أبولو حتى يرفع لعنته، والآن، إلى مَنْ عساي أعهد بهذه المهمة الدقيقة؟ إلى «إيدومينيو» ملك كريت المحترم حيثما حلَّ؟ أم السيد «نسطور» الشهير بحكمته؟ أم ربما «أوديسيوس» الذكي ذلق اللسان، المفاوض الماهر؟ أم أنت يا «أخيل»، أكثر رجال الأرض عنفًا؟»

لم أكن مهتمة بإهاناتهم وتهافتهم الدائم على السطوة، أردت فقط أن أعرف ما كان سيحلُّ بي. وضعت «هيكاميد» يدَها على ذراعي هامسةً: «لا تقلقي، لن يفعلها.»

هززتُ رأسي.

في الميدان، خَطَا «أخيل» بضع خطوات نحو «أجاممنون»، لم يتقدم كثيراً، لكن المسافة بينهما بَدَت تتقلص حتى لتكاد تنعدِم، قال: «لقد حاربتُ من أجل تلك الفتاة، إنها هديتي، كافأني بها الجيش مُظهراً تقديره لخدماتي أنا، لا حق لك في أخذها، لكن الأمور تسير هكذا دائمًا؛ أنا أتحمل ويلات القتال وتحظى أنت بحصة الأسد من كل ما نحصل عليه، كل ما أناله لا يعدُو القشور التافهة، حين أعود إلى كوخي وقد نال مني إرهاق القتال ما ناله، بينما تكتفي أنت بالجلوس على مؤخرتك السمينة تحرس السفن.»

انفجرت «أوزا» ضاحكةً خلفي، وراحت تقول: «قشور تافهة»، حتى «هيكاميد» كانت تبتسم، بَيْدَ أن ابتسامتها تلاشَت حين رأت وجهي، جاءت «كريزيس» راكضةً وعانقَتني، قالت: «لن يحدُث ذلك، هذا ما يفعله، ينصب الفخاخ للناس، لكن ذلك لن يحدُث.»

كان «أجاممنون» يصِيح: «سأحضر الفتاة اللعينة بنفسي، لن أرسل أحدًا آخر، سأذهب بنفسي، وحينها سترى ما يحدُث لرجل يجرُؤ أن يخال نفسه ندًّا لي!»

«لن أقاتل من أجلها»، قال «أخيل»: «الجيش مَنَحَني إياها والجيش سيأخذها مني؛ لأنه لا أحد منكم - وهنا نقل نظره في نصف حلقة الملوك - يمتلك الشجاعة لينهض على قائمتيه الخلفيتين ويخبره أنه مخطئ، حسنًا، لا بأس، سيحصُل على الفتاة إذًا، لكن لا تتوقعوا مني أن أتابع القتال، فلماذا عساي أخاطر بحياتي أو حياة رجالي من أجل كومَة خراء الكلاب كريهة الرائحة التي هناك؟»

عقب ذلك، تلاشى كل ادعاء بالاحترام المتبادل، وفي إحدى اللحظات، أوشكا

على الاشتباك؛ أخرج «أخيل» سيفه حتى نصفه من غمده، لكنه تراجَع في اللحظة الأخيرة، بعدها نهض «نسطور» على قدمَيه وحاول إقناعهما بالصلح، لكنني كنت قد كففتُ عن الإصغاء بحلول ذلك الوقت، لم أعد مهتمة، كانت يداي على وجهي، أصابعي تحاول فك بشرتي الخدرة المطاطية لترسم تعبيراً مقبولاً أكثر، رغم أنه لم تكن من حاجة إلى أن أتكلَّف عناء ذلك.

وبِصَمْتٍ أحاطتني «هيكاميد» بذراعيها، أتذكر دائمًا أنها بكَت عليَّ حينما لم أستطع البكاء على نفسي.

غير أن «أوزا» حاولت رفع معنوياتي، وقالت: «ستكونين على ما يرام، أنا أعرف ما يحب، على كل حال، إن احتدمَت الأمور فمرطبان دهن الإوز موجود دائمًا.»

لم يبقَ الكثير ليُقال بعد ذلك، هدأت حمية المقاتلين بعد انفضاض الاجتماع: نظرات قلقة، كلام هامس، والأكثر هو الصمت، كان «أخيل» قد انسحب من القتال، لقد انحلَّ الائتلاف، وللوقت الحالي على الأقل، لم يتم حل شيء؛ ما زالت أكواخ الاستشفاء تغصُّ برجال يعانون من الوباء.

بدأ السفراء يُفْسِحُون طريقًا بين الحشود لأجاممنون، لكنه تباطأ يتحدث إلى «أوديسيوس»، الذي تم اختياره ليقود الوفد المفوض بأخذ «كريزيس» إلى وطنها.

أمسكت «هيكاميد» بذراع «كريزيس»: «اركضي هيا اركضي، سيأتون لاصطحابكِ.»

بَدَتْ «كريزيس» دائخة، لم تكن تتجرأ على الأمل، وكانت تخشى حتى الآن أن يُنتزع كل ذلك منها، سارَت حتى بلغت الباب، ثم استدارت وركضَت عائدةً نحوي:

- «بريزيس، أنا آسفة جدًّا.»

- «لا تتأسَّفي، سأكون على ما يرام، هيا اذهبي.»

عدتُّ أجرُّ نفسي إلى مجمع «أخيل»، لن يقاتل من أجلي، لقد وضح ذلك تمامًا، كان ليقاتل حتى الموت - موت «أجاممنون» - من أجل أيٍّ من ممتلكاته الأخرى، لكن ليس من أجلي، بينما كنتُ أسير في المعسكر، نظرتُ نحو النساء العوام ألاحظ شفة مشقوقة هنا وكدمَة هناك، إحدى الفتيات شابة وجميلة فيما خلا ندبَة لها على شكل نجم منفجر على جبينها حيث لكزتها عصاة رمح، أتراها كانت إحدى فتيات «أجاممنون»، من أولئك اللاتي سئمهنَّ ورماهنَّ خارج أكواخه؟

لم يكن «فطرقل» ولا «أخيل» قد عادا من الاجتماع، أحدهم قال: إنهما يسيران على الشاطئ، لا شك أنهما يخططان لما سيفعلانه - أو يمتنعان عن فعله - حين يجيء «أجاممنون» مطالبًا بي، رحتُ أتجول في قسم المعيشة - دون أن أبكي فلم أستطِع البكاء - ألتقط الأشياء ثم أعيدها إلى مكانها، اقتربت من المرآة وانحنيتُ نحو انعكاسي، وغبش نفَسي البرونز البرّاق للحظة ثم اختفى، وجودي في هذه الغرف زائل وغير جوهري هكذا تمامًا، انسحبت إلى الخزانة واقتعدت السرير، وبعد قليل جاءت «إيفيس» وأمسكَت يدي، لم تتحدث أي منا، وأخيراً، سمعنا وَقْع أقدام في البهو: «أخيل» و«فطرقل» عائدان من تمشيهما.

داهم «أخيل» قسم المعيشة، وهو ما يزال يخوض المعركة التي نشبَت في الميدان.

- «إذًا هل الأمور واضحة؟ حين يأتي لا تدعه يدخل، أَوْقِفْه عند البوابة، يمكنك إخراج «بريزيس» إليه هناك، لا أريد أن أراه، إن رأيته سأقتله.»

- «لن يأتي».

- «قال: إنه سيفعل».

- «سمعتُ ما قاله».

- «سأقتُله».

- «أجل، أعلم، وهو يعلم كذلك، ولهذا تحديدًا لن يأتي.»

كان صوت «فطرقل» يشي بالتعب، خمنت أنهما يدوران مرارًا وتكرارًا في هذه

الحلقة منذ وقت طويل، كنتُ أستطيع رؤيتهما بوضوحٍ بعينَي خيالي، تقريبًا كما لو أن الجدار بيننا انقلب شفافًا: «أخيل» يَذْرَع المكان جيئةً وذهابًا، و«فطرقل» يجلس مشابكًا يديه، هادئًا في الظاهر، لكن تلك العضلة تنبض في فكِّه.

«لن يضيرك أن تجلس»، قال «فطرقل» بعد وقفة قصيرة:

- «لن يكونوا هنا قبل ساعات».
- «لن يطيق الانتظار».
- «عليه أن يعيد «كريزيس» إلى أبيها أولًا، ثم أن يعثر على مئة ثور؛ لا أظنه سيجد مئة ثور ملقاةً في الأنحاء، وبعد ذلك من المحتمل كثيراً أن ينتظر عودة السفينة، هذا ما يحسُن به أن يفعله».

مع إصغائي، ألفيت نفسي أشعر ببصيص أمل، ربما يتعيَّن على السفينة التي تقلُّ «كريزيس» إلى وطنها أن تبات الليلة؛ إذ قد تستغرق شعائر ذبح مئة ثور وقتًا طويلًا، ثم ستعقبها الصلوات والتراتيل لأبولو، وبعد ذلك وليمة عظيمة، قد يستمر ذلك طيلة الليل، ثم هناك رحلة العودة، لن ينطلقوا للإبحار مبكراً، سيكون أثر الخُمار ينال منهم جميعًا، ومع كل ذلك الوقت الذي سيحظى به لتقليب أفكاره، أليس من الممكن أن يغير «أجاممنون» رأيه؟ هل سيُقْدِمُ حقًّا على قطع علاقته بأخيل والمخاطرة بخسارة الحرب من أجل فتاة؟

المزيد من وَقْعِ الخطوات السريعة في الغرفة المجاورة، وفي آخر الأمر، سمعتُ صرير كرسي «أَخيل» عندما ألقى بنفسه فوقها.

تنحنح «فطرقل» مسلكًا حنجرته:

- «أتود أن أرسل في طلب بريزيس؟»
- «ماذا؟ من أجل مضاجعة وداع؟ لا، شكراً.»

صمْت، تخيلت «أخيل» وهو يبدُو مخزيًّا بعض الشيء.

«لا، دعك من الأمر»، قال أخيراً: «هي ستعرف عما قريب».

***

-١٥-

متحررةً من أَسْرِ إمكانية الإرسال في طلبي، انتهزتُ الفرصة كي أتسلل إلى الخارج، أردتُّ أن أودع «كريزيس» وأتمنى لها خيراً؛ لأنني شعرتُ أن أخبارها الطيبة أُجحِفت في ظل ما سيحدُث لي.

كان الظلام في بدايته حين ركضتُّ بمحاذاة منعطف الخليج إلى المكان الذي تُعَدُّ فيه سفن «أجاممنون» للإبحار، على الشاطئ تجمعت جماعات صغيرة من النساء تشاهد الثيران تتمايل بتثاقل على المتن، وأخذَت الثيران تخور حين شعرت بالأرض تميد وتتأرجح تحت حوافرها، وأصبح ظهر المركب زلقًا من خراء خوفها الأخضر، راح الرجال الذين يسوقونها إلى المتن يُغَنُّون ترانيم تمجيد لأبولو، إلا أنني شعرت أن ثمة نغمة من اليأس في غنائهم، ماذا لو كان هذا لا يكفي؟

في اللحظة الأخيرة حين بات كل شيء آخر جاهزاً، أُخْرِجَت «كريزيس» من كوخ «أجاممنون»، كانت ترتدي عباءة بيضاء بسيطة بلا مجوهرات، وشعرها مجدول في ضفائر مشدودة حول رأسها، بَدَتْ مثل ملكة، شاحبة ومتزنة، وفجأة أكبر سنًّا بكثير.

لم يظهر «أجاممنون»، «أوديسيوس» هو مَنْ أخذ بيدها وقادها فوق لوح العبـور إلى السـفينة، حيـث وقفـت فـي المؤخـر تـرمي بنظرهـا نحـو مجمع «أجاممنون» ثم على طول الخليج إلى صفوف السفن السوداء، عيناها - وهي تمسح الشاطئ - مشرعتان عن آخرهما، مشرعتان بتوتر، رأيت أنها تحت الاتزان السطحي كانت مرتاعة؛ يريعها أن «أجاممنون» في أية لحظة قد يُغير رأيه فتُسْلَب كل هذا.

كنا نتقافز ونصيح: «حظًّا سعيدًا، فلتحظي برحلةٍ آمنة.»

في البداية ظننتها لن تجيب - كانت متوترةً وتعتزم الحفاظ على هدوئها - لكن يدًا صغيرة ارتفعت، وبحركةٍ مرئية بالكاد من أصابعها لوّحَت مودِّعة.

لدى إجالة نظري في الأنحاء، امتلأتُ دفئًا - بل حبًّا في الحقيقة - تجاه كل هؤلاء النساء اللاتي جئنَ لتشييعها، لم يحسِدنَها على حظها، رغم أن كل واحدة منا كانت لتقدم ذراعها اليمنى مقابل السماح لها بالعودة إلى الوطن وامتلاكها وطنًا تعود إليه.

فجأةً ظهر «أوديسيوس» واقفًا إلى جانب «كريزيس» في المؤخر، وتحوَّل كل شيء على الفور إلى ضوضاء وصخب، سُحِبَت الأشرعة ورُفِعَت المرساة، وسرعان ما كانت السفينة تبتعد ببُطء عن الشاطئ، وأثرها العريض يرغو بالطمي البني، في بادئ الأمر، راح الرجال يجدِّفون في تناغم قرع الطبول، لكن مع تقدم السفينة في الماء انتفخت أشرعتها وانطلقت مبتعدةً كما لو كانت تشارك «كريزيس» لهفتها إلى الرحيل، شاهدنا السفينة تتضاءل في المسافة، وحطَّ صمتٌ موحش، لا يمكنني التحدث نيابة عن الأخريات، لكنني أوقِن أنني شعرتُ تلك اللحظة بوحشَة لم أعرفها من قبلُ. مع بدء تشتُّت الحشد، أحسستُ ببعض النساء الأخريات يرمقنني من زوايا أعينهنَّ، كان خبر ما سيحل بي قد انتشر في أنحاء المعسكر بحلول ذلك الوقت، نظرَتْ إحداهنَّ إليَّ، امرأة لم أكن أستلطفها كثيراً، وتكلَّفت ابتسامة: «أظن أن التحدث إليكِ بات مكلفًا الآن.»

لا أظن أيًّا من النساء الأخريات حسدتني على ترقيتي؛ إن كان ذلك يُعَدُّ ترقية.

عدتُ سائرة بمحاذاة الشاطئ مطأطئة رأسي لا أرى سوى قدمي تعتصران رطوبة الرمل المبلل، وتجنبت اصطدامي الوشيك بالناس مرة أو اثنتين غارقةً في أفكاري، لكن غريزة ما جعلتني أرفع ناظريَّ في الوقت المناسب، كان «أجاممنون» واقفًا على بُعد أقل من مئة ياردة يراقب سفينته التي تحمل «كريزيس» على متنها، وهي تتقلص إلى نقطة سوداء على وهج الغروب الأحمر.

دسستُ نفسي في المسافة بين سفينتين ورحت أنتظر، كان على طول الشاطئ رجال يخوضون داخل البحر، يكشطون الزيت والوسخ عن جلودهم، ويغمرون رؤوسهم تحت الأمواج ليطهروا أنفسهم، وجميعهم - الجميع دون استثناء - ينشدون ترانيم لتمجيد أبولو: سأتذكر أبولو الذي يُطلق من بعيد، حين يشدُّ قوسه الفضية ترتجف أمامه الآلهة، وصلوات لا تُحصى، كلها تلتمس منه إبراءهم من الوباء، وسرعان ما اسودَّت الأمواج بالرجال، وصارت اليابسة مهجورة تقريبًا، علمت أنني قد شهدت شيئًا مدهشًا: جيشًا بأكمله يدخل البحر!

تعيَّن حمل بعض الرجال الذين أعياهم المرض بما يمنعهم من المشي إلى الماء على نقالات، وكنتَ لتظن أن ذلك الانغمار المفاجئ للأجساد الساخنة في البحر البارد المالح الضاري كافٍ لقتلهم، لكن أحدًا منهم - على حد علمي - لم يمت، ولقد رأيت أحد الرجال، الذي بَدَا مريضًا لا أمل له وهو يُحْمَل إلى الداخل، يسير عائدًا إلى الشاطئ.

كانت النجوم قد بدأت تثقب السماء المخضرة، وأوقدت نيران الطهو على طول الخليج، ولدى خروج الرجال وهم يقطرون من بين الأمواج، وُضِعَت في أيديهم أكواب من النبيذ الحار الممزوج بالبهار أراقَ كل منهم بعضه إكرامًا لأبولو قبل أن يشرب، ولم يلبثوا حتى تجمَّعوا يرتجفون حول النيران، وراحوا يمررون أباريق النبيذ القوي من يد إلى يد، وبأوامر من «أجاممنون»، ذُبِحَت الخراف والماعز، وسرعان ما وُضِعَت أمامهم أطباق من اللحم المشوي، غير أنه لم يكن ثمة أي من الضحك والمزاح الذي يرافق الولائم عادةً، وبانتظار أن يتقبَّل أبولو العودة الآمنة لكريزيس والتضحية بالثيران، بقي المعسكر تحت لعنته، ومعرفة ذلك أثقلت كواهلهم كثيراً.

تابعتُ مراقبة «أجاممنون» من الظلال، وكان ما يزال واقفًا على الشاطئ كظل صامت منعزل، لا بد أنه في خضمِّ كل ما يحدث قد نسي أمري، إذ يفعل ما بَدَا الآخرون جميعهم يتقصدون فعله: الشرب حتى السُّكْر ومحاولة النسيان، هذا ما قلتُه لنفسي، مع أنني في الوقت نفسه كنت أعلم أن ذلك لن يحدث، رغم أنه لم يبدُ منطقيًّا - لا لي ولا للآخرين - أن يتشاجر أعتى رجلين في الجيش الإغريقي

على فتاة. حين رجعت إلى كوخ «أخيل»، اتجهت من فوري إلى الخزانة حيثُ جلستُ وحدي بانتظار أن يُرسل في طلبي، لم تأتِ «إيفيس»، ربما طلب «فطرقل» منها أن تبقى بعيدة.

مرت ساعة متثاقلة، أمضيتُ معظم الوقت أطوي حاشية ردائي ثم أسويها مجدداً، المرء يرى نساءً مسنّات يقمن بهذا، أتذكر أن جدتي كانت تفعل هذا، إنه علامة على أنهنَّ بدأن يهترئن، وها أنا ذي لم أتجاوز التاسعة عشرة وبدأت أفعل ذلك، أرغمتُ نفسي على التوقف.

ثمة إبريق خمر على المنضدة إلى يمين الباب، وكنتُ أعلم أن أحدًا لن يمانع إن صببتُ كوبًا لنفسي لذا فعلت، وكانت يداي ترتجفان كثيراً فأهرقت بعضه واضطررت إلى إيجاد خرقة كي أمسحه، كنت لم أنتهِ من المسح حين سمعت أصواتًا في البهو، ظننتُ في البدء أن «أجاممنون» جاء ليأخذني فأحسستُ على الفور أنني تعرضتُّ للغدر، كنت أعوّل على بعض التأخير ولا تأخير الآن، كان «أخيل» على حق: «أجاممنون» لا يطيق الانتظار حتى يضع يديه عليَّ.

انتصبتُ واقفةً، سوَّيتُ ردائي وفركتُ شفتي باللعاب كيلا يظهر أثرٌ أرجواني من الخمر، لن أؤخذ جرًّا، سأُبْقِي رأسي مرفوعًا ولن أنظر خلفي، لن أمنح «أجاممنون» الشعور بالرضا من رؤية خوفي.

لكنني حينذاك سمعت «فطرقل» يعلن وصول السيد «نسطور» وابنه «أنتيلوكوس».

خطر ببالي على الفور أنها بعثة سلام دون شك، وأن «أجاممنون» قد لانَت عريكته؛ إذ كان «نسطور» دون غيره الوسيط الذي اختاره، شققتُ الباب كي أستطيع أن أسمع بوضوح أكبر وأرى على الأقل شيئًا مما كان يحدث.

دخل «نسطور» إلى الغرفة: طويل، فضي الشعر، باذخ الملبس، وخلفه أصغر أبنائه الأخرق ذو الخجل المستفز «أنتيلوكوس»، فتى مخبول بحب «أخيل» إلى درجة بَدَا معها يلاقي صعوبة في التنفس بحضرته، كانا يرتديان عباءتين، فرغم

أن الليلة دافئة ثمة ريح رطبة تهب من البحر، ورقطات من المطر تُشبه ثقوب دبوس ضئيلة من الضوء تنتثر على كتفيهما، وقف «أخيل» ليرحِّب بهما، ونضا «نسطور» عباءته وناولها لفطرقل، ثم راح يمسِّد شعره المشعث، وحالما اتخذ المقعد الذي دعاه «أخيل» إليه، رأيت أن شعره بدأ يخف، إذ أمكنني رؤية رُقَع من فروة رأسه الوردية بين الخصل البيضاء، وبعد التأكد من استقراره في الجلوس، طلب «أخيل» من «فطرقل» إحضار نبيذ أفخر: «هذا شبيه ببول العذارى»، قال بضحكة مرتبكة، كان «أنتيلوكوس» في هذه الأثناء يبحث بعينيه عن مكان يقتعده، فرأى السرير ومشى نحوه مرتبكًا، ولأنه كان يعلم - أو يتخيل بالأحرى - أن «أخيل» يراقبه، تعثَّر ببساط وكاد يسقط.

أخذ «فطرقل» يمزج نبيذ «نسطور»؛ بضعة تدرجات من الأحمر الغامق تدور بين حواف إناء ذهبي، وحين انتهى سار نحو النار وأهرق مقدارًا سخيًّا لأبولو؛ فطقطقت مقادح النار واضطرمت، رفع «نسطور» كوبه يُعلن نخبًا، ثم نظر مطولًا وبإمعان نحو «أخيل»:

- «أرى أنك لم تبدأ بعدُ بتحميل سفنك؟»
- «لم يأتِ في طلب الفتاة بعدُ.»

ابتسم «نسطور» وهز رأسه:

- «لن تغادر، فمهما انطبق عليك من صفات أخرى، لستَ أنت من يفر من الجندية.»
- «لا أرى الأمر فرارًا من الجندية، هذه ليست حربي.»
- «كنتَ متحمِسًا بما يكفي لدخولها.»

«كنتُ في السابعة عشر»، انحنى «أخيل» إلى الأمام: «اسمع، ما فعله اليوم كان شائنًا للغاية، الجميع رأى ذلك، ولم يرتفع صوت واحد ليناهض ما حدث.»

- «صوتي ارتفع، حينذاك وفي ما يلي.»
- «لذا أقول الآن لنفسي: تبًّا لذلك، هو يريد طروادة، فليأخذ طروادة من دوني، غير أن كلينا نعلم أنه لا يستطيع.»

ظل «نسطور» صامتًا لبرهة، ثم قال:

- «عادةً ما أُلاقَى بالإصغاء يا «أخيل»، تفضَّل، أنا مُصغٍ.»
- «لا يمكنك ترك الرجال الآخرين يتولون القتال بينما تجلس هنا وتحرد»، رفع «نسطور» يده: «تحرد».

أتى رد «أخيل» موزونًا بشكلٍ يستدعي المفاجأة: «ما فعله اليوم خَرَق كل القواعد، أنا قاتلتُ من أجل تلك الفتاة، الجيش قدمها إليَّ، ولا حق له في أخذها، هذا هو الأمر، لن أخاطر بحياتي أو بحياة رجالي من أجل ملك ضعيف جشع جبان وغير كفء.»

كنت أنتظر أن يهبَّ «نسطور» للدفاع عن «أجاممنون»، لكنه لم يزدِ عن الابتسام.

- «ربما تنطبِق عليه كل هذه الصفات، لا يهم أنك مقاتل أفضل وأقوى وأشجع وأيًّا كان، ليس هذا هو الأمر، إنه يملك رجالًا أكثر منك، وسفُنًا أكثر منك، وأراضٍ أكثر منك؛ ولهذا فهو رئيس أركان وأنت لا.»
- «لا شيء من ذلك يمنحه الحق في أخذ جائزة شرف رجل آخر، إنها شيء لا يخصه؛ شيء لم يكسبه بجهده.»

قالا أكثر من ذلك بكثير، لكنني توقفتُ عن الاستماع، الشرف والشجاعة والولاء والسمعة؛ تم تقاذُفُ كل تلك الكلمات الكبيرة، لكن بالنسبة إليَّ لم يكن سوى كلمة واحدة، كلمة واحدة صغيرة جدًّا: شيء، إنها شيء لا يخصه، شيء لم

يكسبه بجهده.

حين تمكنتُ من التركيز على المحادثة مجدداً، كان نسطور يقول: «حسناً، أنا آمل فقط ...»

لكننا لم نطَّلع أبدًا على ما كان «نسطور» يأمله، جاء صوت وَقْع أقدام راكض من البهو، وبعد ثانية داهم «ألكيموس» الغرفة ووجهه السمين يلتمع من العرق: «إنهم سفراء «أجاممنون».

انزلق الكوب الذي كنتُ أحمله من بين أصابعي، راشقًا إزار ردائي بالنبيذ الأحمر.

سأل «أخيل»: «هل «أجاممنون» معهم؟»

هز «ألكيموس» رأسَه أن لا، رأيت «أخيل» يرمق «نسطور» بنظرَة جانبية من عينين تتوهجان، لكنه حين تحدَّث وجَّه حديثه إلى «فطرقل» قائلًا: «هلا نظرتَ إذا ما كانت «بريزيس» جاهزة؟»

كان الحرج باديًا على «نسطور»: «لم أعلم أنهم قادمون.»

لمس «أخيل» ذراعه مظهراً تفهُّمه.

تقدم سفيرا «أجاممنون» تدريجيًّا إلى الغرفة يلتمعان بالقرمزي والأسود والشرائط الذهبية المعقودة على صولجانيهما اللذين يرمزان إلى رتبتيهما، كان يُفترض بهما أن يُظهرا سطوتهما، أن يقفا بقامتين مُنتصبتين ويوصلا رسالة «أجاممنون» بنبرة عالية واضحة رنانة، لكن بدلًا من ذلك، تقدم أكبرهما وخر على ركبتيه، فقام «أخيل» على الفور وأعان الشيخ برفق لينهض على قدميه، «لا تقلق»، قال: «لن أفرغ حنقي عليك، فليس الذنب ذنبك.»

فُتحَ باب الخزانة عن آخره، ثم دخل «فطرقل» وحاول أن يضع ذراعه على كتفي، لكنني أبعدتُه بلُطف: «أما زلتَ تظن أن بمقدورك جعله يتزوجني؟»

لم يُتَحْ له الوقت للإجابة، إذ نادى «أخيل»: «فطرقل، هل هي جاهزة؟»

مد لي «فطرقل» يده، فأخذت بها إذ علمتُ أن عليَّ أن أفعل، وتركتُ نفسي أُقاد إلى الغرفة الأخرى، كان السفيران قد بدآ يتراجعان، غامرتُ بنظرة نحو «أخيل» فرأيتُ لدهشتي دموعًا تتحدَّر على وجنتيه، لا نشيج ولا شيء من ذلك، فقط هذا الخط الصامت الذي ما كان ليقرَّ بوجوده بما يكفي حتى كي يمسحه.

بكى «أخيل» بينما يتم اقتيادي بعيدًا، هو بكى وأنا لم أفعل! والآن بعد سنوات، حين لم يعُد أيٌّ من ذلك ذا أهمية، ما زلتُ فخورةً بذلك.

لكنني بكيتُ تلك الليلة.

***

(2) الماء الأخضم أو المسوس أو المويلح: أملح من المياه العذبة وأعذب من الماء المالح، ينتج غالبًا من اختلاط مياه البحار بمياه الأنهار، ويوجد أكثر ما يوجد في المصبات الخليجية، (المترجم)

(3) هاديس: إله العالم السفلي في الميثولوجيا الإغريقية، (المترجم)

(4) كان «سمينثيوس» Smintheus لقبًا للإله أبولو مشتقًّا في لفظه اليوناني من الفئران وطاعونها؛ إذ قيلَ له: أبولو سمينثيوس، حيث اعتُبر الفأر رمزاً للنبوءة لدى قدماء الإغريق، ورُسِمَ أبولو يحمل فأرًا على العملات المعدنية. (المترجم)

أدركتُ ما كانت كل تلك الصلوات تمهِّد له، ليس أبولو سيدَ الفئران لأنها مخلوقات لطيفة ذات فرو يحبها كثيراً، لا، إنه سيد الفئران لأن الفئران - حالها في ذلك حال الجرذان - تحمل الطاعون؛ وأبولو سيد الضوء وسيد الموسيقى وسيد الشفاء، هو أيضًا إله الطاعون.

(5)القدم الرحاء أو المسحاء أو المسطحة: هي التي يستوي باطنها فيمس الأرض بجميعه، إذ يفتقر إلى التقوُّس الطبيعي الموجود في القدم الخمصاء. (المترجم)

(6)كان قدماء الإغريق يضعون عملات معدنية على أعين موتاهم لتُدْفَعَ رشوةً لـ «خارون» ملاَّح العَبَّارة الذي يعبر بالأرواح النهر الفاصل بين عالم الأحياء وعالم الموتى.

(7) طاعون السعال: تسمية قديمة للطاعون الرئوي أو طاعون ذات الرئة، أحد الأشكال الثلاثة الرئيسة للطاعون (الطاعون الدملي حيواني المنشأ – الطاعون الرئوي – طاعون إنتان الدم)، ويُعَدُّ نوعًا شديدًا من التهاب الرئة، وهو أكثر ضراوة وأندر من الطاعون الدملي، وينتج عادةً عن إصابة أولية بالأخير، وينتقل بالعدوى من إنسان إلى آخر دون مشاركة من الحيوانات. (المترجم)

الجزء الثاني

-١٦-

منذ مجيئه إلى طروادة، علمَ - ولو بين إقبال وإدبار على الأقل - أنه لن يعود إلى وطنه، الاستقبالات الترحيبية المبتهجة ليست له ولا المعانقات ولا الولائم، ليست له العاقبة المضجرة طويلة الأمد، التي يمضيها في إنجاب أطفال بُلَدَاء من زوجة مملَّة، وقضاء ساعات طويلة في الإصغاء إلى مزارعين يتذمَّرون شاكِين من جيرانهم، والبتُّ في دعاوى قضائية تافهة، حتى تمر السنوات لتنتهي إلى الوهن الجسدي والشيخوخة والهشاشة ثم الموت، الموت في غرفة مريحة بموقد مشتعل وأبناء وأحفاد يتجمعون حول سريره، وبعد ذلك - لسنوات قليلة - اسمه على شفاه الجميع، الناس الذين عرفوه طوال حياته، الرجال الذين قاتلوا معه في طروادة، لكن الذاكرة البشرية لا تستمر طويلًا؛ ثلاثة أجيال في أفضل الاحتمالات، وتبدأ بعدها القرون البطيئة التي لا حصر لها، وينمو العشب ليرتفع فوق جثوة قبره،(8) فيتريث الناس الذين يمرون قربها في عربات لا يستطيع تخيُّلها ويقولون: «ما هذا برأيكم؟ يبدو أنه من صنع البشر.»

لا شيء من ذلك، وهو لا يمانع حقًّا؛ في الحقيقة، من الأسهل عليه بالفعل تقبُّل أنْ قريبًا سيجيء وقت - سواء أكان عند الفجر أو الغسق أو تحت حرارة الظهيرة البيضاء - يخترقه فيه سيف أو رمح فيموت كما عاش في وهج ضوءٍ لا ظل له، وحينها لن تكون ثمة نهاية لقصته؛ لأن هذا هو كل شيء، هذه هي الصفقة، هذا ما وعدتْه به الآلهة المخادعة: مجد أبدي مقابل ميتة مبكرة تحت أسوار طروادة.

هو يعرف كل أمزجة هذا البحر، أو على الأقل، كان يستطيع أن يقول ذلك حتى الأسبوعين الأخيرين، لكن حركة المد أصبحت غريبة مؤخرًا، لا تشبه أي شيء اختبره من قبل، كل يوم تحت السماء المتجهمة، كانت الأمواج تتورم وتتورم دون أن تتكسر إلى زَبَد، انتفاخ مديد مستمر متوعَّد لا غير، لقد أحس بغضب

الإله في تضيُّق جلده قبل أن تضرب أولى سهام الوباء بأيام.

وخلال الوباء، لم يكن المد يرتفع، لكن البحر الآن يطالب بأرضٍ ضائعة، كل موجة تسيل مثل اللعاب على الشاطئ لتترك مروحة من الزَّبَد القذر يفور بهدوء لثوانٍ قبل أن يغور داخل الرمل، وعندها تقذف الموجة التالية نفسها إلى ارتفاع أعلى، وترتفع التي بعدها أعلى من ذلك، حتى يصل المد إلى أجزاء من الشاطئ ظلت جافة لسنوات، فيرفع بُسُطًا سميكة من طحالب الفوقس ويحمل أصدافًا مكسورة وعظامًا بيضاء لنوارس إلى مناطق عالية من الشاطئ.

ليلةَ أخذوا «بريزيس»، تحررت إحدى السفن الراسية من مراسيها، هزَّه «فطرقل» حتى استيقظ وانطلقا معًا نحو الشاطئ، يصيحان بالأوامر وينظمان فرقًا من الرجال لسحب السفينة إلى خارج المد، وحين حلَّ الفجر، ربضت مائلة إلى أحد جانبيها، ومنحها محار البرنقيل الشاحب على بدنها مظهر وحش بحري عتيق تكسوه الثآليل، لم يصل المد بعدها إلى ذلك الارتفاع، لكن هذا يظل إنذارًا رغم ذلك، ومُنذ ذلك قاموا بتفقد مَراسي كل السفن الراسيَة، وحملوا بعض السفن المثبتة في أمهدتها إلى مناطق أبعد من اليابسة.

اتساع البحر والسماء يقزِّمه، الكثبان ترتفع خلفه، وعشبها الطويل الملوح يلقي أشواكًا من الظل الأسود على الرمل الشاحب، لكن غشاوة ضباب بدأت تزحف الآن، كما تفعل عادةً في هذا الوقت تقريبًا، خلال دقائق، طوَّقته وما عاد يرى أي شيء، يستمع إلى تحطُّم الأمواج لا غير، يشعر بترقرق تموجات الماء الصغيرة بين أصابع قدميه لا غير، في طفولته، كان ينام مع أمه في غرفة نوم مواجهة للبحر، وبعد رحيلها، اعتاد أن يستيقظ في الظلام ويتظاهر أن الأمواج صوتُها يسترضيه كي يعود إلى النوم.

الذاكرة تمارس ألاعيب غريبة، يقف في إحدى أكثر ذكرياته حيويةً إلى نافذة غرفة النوم ويشاهد أمه تخوض داخلةً في البحر، شعرها الأسود الطويل ينتشر على الماء مثل مروحة من جدائل الطحالب البحرية قبل أن تبتلعها الموجة التالية، ومع ذلك هو يُدرك استحالة أن يكون قد رأى ذلك، لم يكن البحر مرئيًّا من

الغرفة التي نام فيها طفلاً، لا تخيلات لاحقة تستطيع رغم ذلك أن تشوِّش ذكراه عن غرفة النوم الموحشة وألم غيابها، والده جرَّب كل شيء: إغراءه كي يأكُل، ابتياع الألعاب باهظَة الثمن له، كل ليلة في وقت النوم كان يُقدم له ذراعيه ليواسيه، فيجده يشيح بوجهه أو - الأسوأ - يتحمل العناق لكنه - مثل أمه قبله - يرقُد مُتخشبًا دون استجابة بين ذراعيه.

كهنة وعرافون وعلاقات أثوية ومربيات، تم اللجوء إليهم جميعًا ولم يعرف أحد منهم ما يجدر فعله، تم استقدام أولاد النبلاء بالعبَّارات ليصبحوا «أصدقاءه»، إلا أنهم كانوا ينتبهون على الفور - كما يفعل الأطفال - أنه لم يكن «صحيحًا»، وبعد بضع محاولات عابرة، اكتفوا باللعب مع بعضهم فقط.

توقَّف عن النمو، ثم ذات يوم، حين صار أشبه بقريدس ضئيل شاحب فضي الشعر، وبرزت كل الأضلع في صدره، جاء «فطرقل» الذي كان قد قتَل طفلاً آخر، صبيًّا أكبر منه بعامين، في شجارٍ على لعبة نرد.

يوم وصول «فطرقل» سمع «أخيل» جلبة، وأملًا منه في أن تكون أمه عائدة في واحدةٍ من زياراتها النادرة اقتحم البهو، فقط ليكبح اندفاعه حين رأى أباه يتحدث إلى شخص غريب، وبالقرب وقف صبي أخرق ضخم البنية له وجه مكدوم وأنف مكسور، غير أن الإصابات لم تكن حديثة، فالكدمات صفراء في مركزها وأرجوانية عند حوافها، إنه «صديق» آخر.

حدَّق الصبيان أحدهما في الآخر، وراح «فطرقل» يختلس النظر من خلف جنب والد «أخيل»، ما شعر به «أخيل» تلك اللحظة لم يكن الارتباك الأخرق المعهود الذي يرافق لقاء «صديق» آخر، بل شيئًا أكثر تشويشًا بما لا يتيح المقارنة: رجفةَ تبصُّرٍ باردة طويلة، لكنه كان قد سبق وتأذى كثيراً ومرارًا مما لم يعد يسمح له بعقد الصداقات بسهولة؛ لذا حين مد الصبي الآخر يده بعد أن حثَّه والده، هزَّ «أخيل» كتفيه بلا مبالاة وأشاح مبتعدًا.

حالما ذاع أن «فطرقل» قد قتل شخصًا - أي جاء حقًّا بالفعلة التي كان يتم تدريب الجميع عليها - راح الصبية الآخرون يقفون في طوابير لنزاله؛ أصبح

الشخص الذي يُسعى إلى هزيمته، وهكذا كان يُقاتل طيلة الوقت، مثل دبٍّ مغلول بالسلاسل لا يستطيع الهرب من التصيد، بل عليه أن يتابع ويتابع، يئنُّ ويلعق جراحه في الليل، ويُجَرُّ إلى الخارج كي يواجه الكلاب مجدداً في النهار، وبحلول الوقت الذي استجمع فيه «أخيل» شجاعته أخيراً ليقترب من «فطرقل»، كان الأخير قد قطع شوطًا كبيراً في طريقه ليصبح الأزعر الدموي الصغير كما رآه الجميع.

كيف تقاربَا؟ لا يستطيع أن يتذكر؛ فهو يكاد لا يتذكر شيئًا عن السنتين اللتين أعقبتا رحيل أمه، يعلم أنهما كانا يتقاتلان ويلعبان ويتشاجران ويضحكان وينصبان الفخاخ للأرانب ويقطفان العليق الأسود، ويعودان إلى المنزل ببقع أرجوانيـة حـول فميهما، ويتفحـص أحـدهما السحجات على ركبتي الآخـر، ويسقطان في السرير وينامان عاريين ومتجردين من الجنس مثل حبتي فاصولياء في قرنٍ واحد، لقد أنقذ «فطرقل» حياتَه قبل اقترابهما من أي ميدان قتال بوقت طويل، غير أن «أخيل» فعل معه الشيء نفسه؛ إذ كان يقاتل إلى جانبه كلما هاجمه أحد الصبية الآخرين، إلى أن توقفوا عن الهجوم واعترفوا بقائد طبيعي، وببلوغ «أخيل» السابعة عشرة، كان هو و«فطرقل» أكثر من مستعدَّيْنِ للحرب، مستعدَّيْنِ لخوض غمار العالم بأَسْره، كانا رفيقَا سلاح، وتلك علاقة رجولية تستحق الثناء.

الحقيقة أن «فطرقل» أخذ محل أمه، سيكون الآن في الكوخ ينتظره لسببٍ ما، لطالما كره «فطرقل» زياراتِه الليلية هذه إلى البحر، لعله يخشى أن يسير «أخيل» ذات ليلةٍ مباشرةً إلى داخله كما فعلت أمه، حين لا يعود تنفسُ الهواء الكثيف محتملًا.

حسنًا، سواء أكان قلقًا أم لا، سيتعين على «فطرقل» أن ينتظر، إنه ليس مستعدًّا للرجوع بعدُ، ليس مستعدًّا لمواجهة السرير الفارغ، الذي لا لزوم لبقائه فارغًا، يعلم الإله أن لديه الكثير من الفتيات، لكن ليست هذه هي المشكلة؛ المشكلة أنه لا يريد الفتيات الأخريات، بل يريد تلك الفتاة، ولا يستطيع أن يحظى بها؛ ولذا تراه يقلِّب ألم الخسارة في ذهنه مرارًا وتكرارًا، محاولًا أن يصقله فيصبح

أملَس، مثل الحصى التي يقف فوقها ملساء كلها، الحقيقة أنه يشتاق إليها، لا يجدر به ذلك، لكنه يفعل، ولماذا؟ لأنها ذات ليلةٍ جاءت سريره برائحة عطن البحر في شعرها؛ لأن لبشرتها مذاق الملح، حسنًا، إن كان ذلك كل ما يتطلبه الأمر، يمكنه أن يأمر برميهنَّ كلهنَّ في البحر، وسيعُدنَ جميعهنَّ عابقاتٍ بالملح.

هي جائزته، هذا كل شيء، جائزة شَرفه، لا أكثر ولا أقل، ليس للأمر علاقة بالفتاة بحدِّ ذاتها، والألم الذي يشعُر به ما هو إلا الإذلال الذي تُسببه سرقة جائزته منه، سرقة من قِبَلِ رجل أقل منه في كل الجوانب التي يُعتدُّ بها: عدد المدن التي حُوصِرَت ونُهِبَت، عدد المحاربين الذين قُتِلُوا، ورحى الحرب الدامية التي لا تلين برمتها، ومع ذلك يأخذها، بتلك البساطة، هذا ما يُؤلم؛ ليس الفتاة بل الإهانة، الضربة التي وُجِّهَت إلى كبريائه.

حسنًا، لقد انقضت المسألة، هو خرج من الصورة الآن، فليحاولوا الاستحواذ على طروادة دونه، لن يلبثوا حتى يأتوا زاحفين طلبًا للعون حين يكتشفون أنهم لا يستطيعون، يحاول أن يعتصر البهجة من الفكرة، لكن ذلك لا ينفع، ربما كان يجدر به اتباع غريزته الأصلية والذهاب إلى الوطن؟ «فطرقل» أيَّد ذلك، و«فطرقل» - رغم أن الاعتراف بهذا يؤلمه - محق دائمًا تقريبًا.

ما من إجابات يمكن إيجادها على هذا الشاطئ المحجوب بالغشاوة، لن تأتي أمه الليلة؛ لذا يشمل نفسه بعباءته ويقفل عائدًا إلى الكوخ، حيث يعلم أن «فطرقل» سيكون بانتظاره.

وفيما يسير بين السفن المثبتة في أمهدتها، يمتلئ فكره بمهمات صغيرة، قوائم من الأشياء التي عليه فعلها، إن قُيِّضَ لمد الربيع المقبل أن يكون بنفس ارتفاع الماضي، ربما يحسُن بهم أن يفكروا في نقل بعض أكواخ التخزين إلى مكان أبعد على اليابسة، لقد تم بناؤها قبل ثمانية أو تسعة أعوام، بعد الشتاء الأول الرهيب تحت الخيم، وقد حالَ لونُ الخشب الآن إلى الرمادي اللؤلؤي من التعرض الطويل للريح والمطر، ولا شك أنك إن نظرت تحته ستجد الكثير من الألواح المتعفنة، برنامج إعادة بناء إذًا؟ يمنح الرجال شيئًا يقومون به وفي

الوقت نفسه يبرهن عن التزامه بالإشراف على إتمام الأمر، أيًّا ما سيتبين أن يكون هذا «الأمر»، قال لنفسه: أجل، أبقِهِم منشغلين.

عملي وثيقُ الصلة بالواقع، محاربٌ من جديد، لا شيء فيه رتيب، لا شيء فيه بين بين، وها هو ينسلُّ كظلٍّ بمحاذاة السفن الشبحية.

***

-١٧-

لكنني بكيتُ تلك الليلة.

إذًا ما الذي فَعله وكان رهيبًا إلى هذه الدرجة؟ لا شيء يُذْكَر كما أعتقد، لا شيء لم أتوقعه، لكنه حين ظننتُ أن الأمر انتهى وباتت لي حرية الذهاب، أخذ ذقني بين إبهامه وسبَّابته ورفع وجهي ليقابل وجهه، للحظة مجنونة ظننتُ حقًّا أنه سيُقبِّلني، لكنه أقحَم إصبعًا بين أسناني ليفصل فكيِّ، واستجمع كتلة كبيرة من البلغم - مستغرقًا وقته بتروٍّ - ثم بصقَها داخل فمي المفتوح.

قال: «هاكِ، الآن يمكنكِ الذهاب».

متخبطةً في أنحاء مجمع مجهول في الظلام، عثرتُ نهايةَ الأمر بأكواخ النساء، حاولتُ محمومةً طوال الوقت أن أفرك فمي بحاشية ردائي وجعلني المجهود أحاول التقيؤ بشدة إلى أن استفرغت على الرمل، وكنت ما أزال أمسح فمي حين فُتحَ بابٌ وظهر منه وجه «ريتسا»، سقطتُ بين ذراعيها، ولم أستطع التحدث لوقت طويل، أخذت تهزني وتهدهدني بعبارات تقصد منها إعادة الطمأنينة إلى روعي، أشياء من النوع الذي قد يقوله المرء لطفل راوده منام سيئ، وتجمعت بعض النساء الأخريات حولنا ورُحْنَ يربتن على ظهري، لم أستطع إخبارهم بما حدث، لكن ربما لم تكن لي حاجة إلى ذلك، ربما كانوا يعرفون أصلًا أو خمَّنوا، لا شك أن أغلبهنَّ قد نِمْنَ ذات مرة أو أخرى مع «أجاممنون»، قبل أن يعتقهنَّ هوسُه بكريزيس من المهمة، كانت «ريتسا» لطيفة جدًّا، لكن رغم كل محاولاتها

للتخفيف عني مرّ وقت طويل قبل أن أهدأ بما يكفي كي أنام.

استيقظتُ في ساعةٍ مُبكرة وبقيتُ مُستلقيةً أحدِّق في الظلام الجزئي متحجرة، كنت أعلم أن «أجاممنون» حالما يسأم مني - ولن يستغرق هذا طويلًا إذ إنه سبق وأخبرني بالفعل أنني بديل هزيل عن «كريزيس» - سيمررني إلى رجاله من أجل الاستخدام المشترك، غير أن «ريتسا» قالت حين ذكرتُ لها مخاوفي في الصباح التالي: «لا، لن يفعل ذلك، لا يستطيع، أنتِ جائزة «أخيل»»، اكتفيتُ بهز رأسي، كنت أرى أن هذا بالضبط ما سيدفعه لفعل ذلك: إنزال الإهانة القصوى برجل تجرّأ أن يتحدى سلطانه، افترضتُّ أنها ليست سوى بضع ليال أخرى من الإذلال المبتكَر حتى أجد نفسي أزحف تحت الأكواخ كي أجد مكانًا أنام فيه.

لم يحدُث شيء من ذلك؛ بعد الليلة الأولى لم يرغب فيَّ مجددًا أو ليس لوقتٍ طويل، لكنني كنتُ مطالَبةً مع ذلك كل مساء بصبِّ الخمر لضيوفه، قد تتساءل: لماذا عساه يريدني أن أفعل ذلك بينما من الجلي أنه لا يطيق مرآي؟ أظنني كنت مفيدة، كنت أخدم غايةً محددة، الرجال ينحتون المقاصدَ في وجوه النساء، رسائلَ موجهة إلى رجال آخرين في مجمع «أخيل»، كانت الرسالة: انظروا إليها، جائزتي التي كافأني بها الجيش، برهان لما أنا عليه وما زعمتُ أنني عليه دائمًا: أعظم الإغريق، أما هنا في مجمع «أجاممنون»، فقد كانت: انظروا إليها، إنها جائزة «أخيل»، سلبتُهُ إياها مثل ما أستطيع أن أسلبكم جوائزكم، أستطيع أن آخذ كل ما تملكونه.

لذا كنت أبتسم وأصبُّ، أصبُّ وأبتسم، إلى أن باتت وجنتاي تؤلمانني، وبعد ذلك، عقبَ مغادرةِ الجميع، أزحف عائدةً إلى كوخ النساء، أَشُدُّ دثارًا فوق رأسي وأحاول أن أنام، كان الكوخ يغصُّ بالأجساد النائمة، تخنقه رائحة العرق، وكنت قد وجدتُّ لنفسي مكانًا قرب الجدار حيث تسمح فجوة بين لوحين لنسمة قادمة من البحر بالنفاذ، في بعض الليالي، كنت أرقد مطبقةً فمي على ذلك الصدع الضيق أرضع الهواء المالح البارد.

كنا ننام على فُرْشٍ من قشٍّ مصفوفة بين الأنوال، تُكَدَّس الفُرْشُ تحت الأكواخ نهارًا وتُسْحَبُ في المساء الباكر حين تصبح العتمة أشد من أن نتابع العمل، فوقنا مربعات القماش التي كنا نحيكها؛ ألوان غنية من الأحمر والأخضر والأزرق، رغم أن أكثر الألوان إشراقًا كانت تبدو داكنة في أضواء الأسل(9) التي ترقط الأرضية هنا وهناك، ووجوه النساء المتجمعة كعناقيد حول الأضواء تلمع مثل أجنحة العث الشاحبة، حتى في ضوء الشمس الساطع، كانت النساء تبْدُون شاحبات، وعانت كثيرات بينهنَّ من سعال قاسٍ بسبب استنشاق جزيئات الصوف الدقيقة، إذ يمتلئ الهواء في بعض الأيام بخيوط القماش الضئيلة الطافية حتى ليبدو كالحساء، في قصر زوجي، كانت غرف الحياكة تنفتح مباشرةً على الفناء الداخلي، وبالتالي هناك دائمًا هواء نقي ومنظر الناس المارين، أما هذه الأكواخ فكانت مطوَّقة بشكلٍ تام؛ عملنا ساعات طوال وكان من النادر لنا أن نخرج، وبينما نعمل كنا نغني أغانيَ عرفناها من الطفولة، الأغاني التي علَّمتنا إياها أمهاتنا، لكن بحلول نهاية الأصيل ينال الإنهاك مِنا فيموت الغناء منخمدًا، ثُم وجبة سريعة: خبز وجبن، كوب خمر مخفف إلى درجة أنه كان بالكاد زهري اللون، وإن حالفنا الحظ فلمحة مقتضبة إلى العالم الخارجي قبل حلول الظلام.

وهكذا استمر الحال، عادةً ما رجعتُ إلى كوخي مُتأخرة، وأحيانًا متأخرة جدًّا، أخبر «ريتسا» بأية قصاصة معلومات استطعت أن ألتقطها من محادثة العشاء مهما صغرت، ثم أتجرَّد من حُليي المبهرجة وأرقد على الفراش القاسي، واحْدًا تلو الآخر تنطفئ القناديل، ومع ذلك تستطيعُ حتى في الظلام الجزئي أن تحسَّ بوجود الأنوال وبالتدريج؛ إذ تعتاد أعيننا العتمة، يصير بمقدورنا أن نترسَّم الأقمشة المتقنة التي كنا نغزلها طوال النهار، وعلى هذا أمضينا الليالي ملتفِّين على أنفسنا كعناكب في وسط شباكنا، غير أننا لم نكن العناكب؛ كنا الذباب.

أحيانًا قبل العشاء، كنت أختلس لحظةً لأسيرَ إلى الشاطئ وأسترق لمحة من البحر، غير أنني ما إن أصِلَ حتى يتعين عليَّ أن أركُض عائدةً كي أتزين من أجل تقديم الخمر، وفي إحدى تلك التعريجات الموجزة، رأيت «أخيل» يركض في عتاده الكامل على طول الشاطئ، قدماه الحافيتان تومضان مع دخولهما

وخروجهما من الأمواج الضحلة، لم يرَني حينها، بعد قليل، توقَّف وانحنى، اتكأتْ يداه على ركبتيه وهو يكدح ليستجمع أنفاسه، ثم رفع ناظريه فرآني، لم يتكلم ولم يلوح ولم يقربني بأية طريقة، فقط استدار وبدأ يركض عائدًا في الطريق الذي جاء منه، ظِلٌّ صغيرٌ يقزمه الامتداد الشاسع للبحر والسماء.

في الأمسيات القليلة الأولى التي تلَت شجاره مع «أخيل»، كان «أجاممنون» منفرجَ الأسارير، بَدَا واضحًا أن الوباء انتهى؛ لم تقع إصابات جديدة منذ عودة «كريزيس» إلى أبيها، ومع ذلك ظلت شعائر الصلوات والأضاحي لأبولو عند البزوغ والغروب تُقام بدقة متوخاة، ولزيادة الرضا كان جيش «أجاممنون» قد تقدَّم بضع مئات من الياردات في السهل الموحل، وبذلك تم بالفعل إثبات خطأ ذلك الخراء الصغير الخائن، بالطبع يمكنهم الاستحواذ على طروادة دونه، يمكنهم وسيفعلون، طوال العشاء في تلك الليالي، لم يفتأ «أجاممنون» يقفز على قدميه ليقدم الأنخاب حتى يصبح بالكاد قادرًا على الوقوف في نهاية الوجبة.

وفي وقتٍ لاحق، في قسم معيشته، محاطًا بالرجال القلة الذين يثِق بهم تقريبًا، كان الحديث يصبح أكثر بذاءة، ماذا يجد «أخيل» بحق السماء ليفعله وحده؟ حَرِدًا في كوخه - بالطبع - يأكل قلبَه حسرةً؛ لأنه لم يستطع القتال، وذنب مَنْ كان ذلك؟ يثمل ويحشو جوفه حتى يضطر إلى التقيؤ كي يفسح المجال للمزيد، ثم يهوي في السرير مع «فطرقل» ويرقد هناك حتى الظهيرة، بضعة أسابيع أخرى من ذلك وسيصبحان مترهلين كالخصيان، يضحك ضيوفه بتملُّق ذليل، مع أنهم يعلمون - لا شك - أن أيًّا من ذلك لم يكن صحيحًا، لا بد أن كل واحد منهم ذات مرة أو أخرى رأى «أخيل» يركُض بعتاده الكامل حول الخليج، أو سمع «فطرقل» يوجه الإرشادات إلى المرميدين(10) من أجل دورة قاسية أخرى في ميدان التدريب؛ ومع ذلك لم يُكذبه أحد، الصديق الحقيقي الوحيد الذي بقي لـ«أخيل» كان «أجاكس»، و«أجاكس» نأى بنفسه.

لكن بعد ذلك، وبالتدريج أمسيةً تلو الأخرى، بدأ المزاج يقتم، المساحة التي كانوا قد كسبوها خلال أيام من القتال القاسي والمرير سرعان ما خُسِرَت مجددًا،

وبـدأت أرقـام المصابين والقتلى تتصاعد وئيـدًا، ظلـت الأنخـاب والأغـاني موجودة، لكن لم تعُد النكات حول «أخيل» تُلْقَى بنفس الغزارة، وفي إحدى الأمسيات، أشار «أجاممنون» إلى أن درع «أخيل» كانت هدية من الآلهة لأبيه «بيليوس» بمناسبة زفافه من «ثيتس»، «إنها درع إلهية»، قال «أجاممنون»: «وهذا ما يستوجب طرح سؤال: هل السر في الدرع أم في الرجل؟»

قال «أوديسيوس» بلطف: «حسنًا، أظن أن بإمكانك دائمًا تحديه في قتال بالأيدي العارية، وسرعان ما ستكتشف ....»

عمَّ صمتٌ تشُوبه صدمة خفيفة حين أنهى كلامه، مجرد فكرة أنه تجرَأ - مهما بلغ أسلوبه من التهذيب - على تحدي «أجاممنون» كشفت عن التغير الجذري الذي اعترى الجو.

كنتُ قد بدأتُ أرهب حفلات الشرب الليلية المتوالية؛ أحسستُ أن حضوري - وأنا أسير حول الطاولة لأصبَّ الخمر في أكوابهم - بدأ يستحضر استجابة مختلفة، لم أعد العلامة الصريحة المرئية على سؤدد «أجاممنون» وذل «أخيل»، لا، أصبحتُ شيئًا أكثر شؤمًا بالمجمل: كنت الفتاة التي سبَّبت الشجار، أجل، أنا من سببتُه بنفس الطريقة التي تُلْقَى فيها المسؤولية على عَظْمَة في شجار كلاب كما أظن، وبسبب ذلك الشجار - بسببي أنا - هبطَت أرواحُ الكثير من المقاتلين الإغريق الشبان الشجعان إلى هاديس؛ شهداء سقطوا من الشبان والرجال، أم ترى أن الآلهة هم من فعلوا ذلك؟ لا أعلم، تنتابني الحيرة، كل ما أعلمه أنهم كانوا حين لا يلومون الآلهة، يُلقون اللوم عليَّ.

كنتُ مدركةً للنظرات التي تتبعني في أنحاء الغرفة، ولم تكن - كما سبق وكانت ذات مرة - نظرات إعجاب متحفظ، تذكرتُ حادثةً شهدتُها ذات مرة حين كنتُ صبية في طروادة، تقدَّم رجلٌ وحيًّا «هيلانة» بكل علائم الاحترام، وراح يتحدث ويبتسم ثم انحنى حين أُذِن له بالانصراف، إلا أنني استدرتُ صدفةً بعد أن تركناه فرأيتُه يبصق في ظلها.

كان بوسعي أن أشعُر بنفس العدائية، بنفس الاحتقار، وهما يبدآن بالتجمع

حولي، أنا هيلانة الآن.

***

-١٨-

حين كنتُ فتاة شابة - أكبر سنًّا من اللعب بالدمى وغير ناضجة بعدُ للزواج - تم إرسالي لأقيم مع أختي المتزوجة في طروادة، أمي كانت قد توفِّيت، وكرهتْ المحظية الشابة التي حلَّت محلها، وصار أبي يسخط من صوت الشجار المنبعث من قسم النساء، فبَدَا من الأفضل للجميع أن أذهب بعيدًا.

لم نكن أنا وأختي «إيانثي» مقرَّبتين يومًا، عند ولادتي كانت هي تتجهز بالفعل لزواجها من «لياندر»؛ أحد أبناء الملك «بريام»، الزواج لم يكُن سعيدًا، سرعان ما سئمها «لياندر» واتخذ محظيةً صار له منها الآن ثلاثة أبناء؛ لذا لم تكن أختي تُسْتَدْعَى كثيراً لتؤدي واجباتها الزوجية، تحوَّلت إلى امرأة ضئيلة بسيطة بدينة، وجعلها التعبيرُ الممتعض الذي يعلو ملامحها تبدو أكبر من عمرها بكثير، الكيفية التي استطاعت بها امرأة كهذه أن تُصبح صديقة «هيلانة» كانت لُغزاً، ومع ذلك فقد كانتا صديقتين بحق، اعتادتا أن تتبادلا النمِيمة لساعاتٍ على دورق أو اثنين من الخمر، وأظنهما كانتا امرأتين وحيدتين للغاية.

كانت «إيانثي» تأخذني معها في هذه الزيارات فأجلس وأصغي، إلا أنني لم أشارك في الحديث كثيراً، لكن ذات يوم، تم استدعاء أختي لتُعنى بأزمة منزلية ما فترِكْتُ وحدي مع «هيلانة»، تحدثتْ لمدة - بشكل أقرب إلى الخجل، كما يكون الأشخاص الواثقين بأنفسهم بشكل طبيعي خجلين أحيانًا مع الأطفال - ثم اقترحتْ أن نتمشَى، كنتُ في الثانية عشرة، وكانت جدران السجن بدأت تتضيق عليَّ بالفعل، لا تخرج الفتيات القريبات من سن الزواج إلا بخمار مُحْكَم وبمرافقة وصيفة كي يزرن قريبات لهنَّ، ومع ذلك بَدَا لهيلانة أن التمشي إلى شرفات الحصن لم يكن شيئًا خارجًا عن المألوف، كانت مبتهجة، فثبتت خمارها الأبيض عليها فجأة وأخذتني من يدي كما لو كنا ننطلق في مغامرة رائعة، سِرنا

عبر السوق تُرافقنا خادمة واحدة فقط، لا بد أنني بدوتُ متفاجئة كما أظن؛ لأنها قالت: «حسنًا، لِمَ لا؟»

ولم يكن ثمة مغزى لقلقها مما قد يظنه الناس، لم يكن بمقدور النساء الطرواديات - «السيدات» كما كانت تدعوهنَّ دائمًا - أن يظنن بها ظنًّا أسوأ مما كُنَّ يفعلن أصلًا، وكذلك الحال بالنسبة إلى الرجال، حسنًا، كانت لديها فكرة جيدة تمامًا عما يظنون، نفس الشيء الذي كانوا يظنونه مذ كانت في العاشرة من عمرها، أجل، تلك القصة بلغتني أنا أيضًا، مسكينة هيلانة، تعرضت للاغتصاب على ضفة نهر حين لم تكن قد تجاوزت العاشرة، أنا صدقتُها بالطبع، وكانت صدمةٌ حقيقية لي لاحقًا؛ إذ اكتشفتُ أن أحدًا غيري لم يُصدقها.

من متاريس السور يمكنك أن تطلَّ على ميدان القتال، السهل الذي كان ذات مرة خصبًا بات يعج بمعمعة حوافر الخيل وإطارات العربات حتى تحوَّل إلى أرضٍ يباب لا ينمو فيها شيء، أخذ غرابان أو ثلاثة من غربان الجيَف تحوم على ارتفاع خفيض فوق رأسينا، أتذكر أنني رأيتُ ريش أجنحتها يُشبه أصابع اليد المفرودة تمامًا، سارت «هيلانة» متجهة نحو المتراس مباشرةً، ولم يكن أمامي خيار سوى أن أتبعها، غير أنني حاذرت أن أنظر إلى تحت، وبدلًا من ذلك رُحْتُ أرنو إلى السماء، ثم بحذر نحو الأسفل بعيدًا حيث تألَّق ضوء الشمس على بحر هادئ.

تحتنا مباشرة لم يكن إلا العنف والفوضى المشوشة، سمعت حصانًا يصرخ، سمعت صيحات رجال جرحى، لكنني كنتُ عاقدةً عزمي ألا أنظُر، لاحظتُ كيف تسارعت أنفاس «هيلانة» وهي تنحني فوق المتراس؛ بَدَت توَّاقة بل متعطشة لرؤية أكبر قدر تستطيعه، لم أعرف آنذاك - ولا أستطيع أن أتخيل الآن - ما الذي كانت تفكر فيه، لدى سماعي كلامها، بَدَا أنها لم تكن تشعر بشيء إلا الذنب والبؤس لكونها سبب كل هذا التذابح، لكن هل كان هذا حقًّا كل ما شعرت به؟ ألم تنظر إلى الأسفل ولو لمرة وتقول لنفسها: هذا يتعلق بي أنا؟

كان قد مضى على وجودنا هناك نصف ساعة ربما حين وصل «بريام»، وضع أحدهم كرسيًّا له فاستدعى «هيلانة» للجلوس إلى جانبه، لطالما عاملَها بكياسة

فائقة، رغم أنه كان يعلم دون شك أن أفراد شعب طروادة - وبالتحديد نساء حرمه هو - يمقتونها.

«مَنْ هذه؟» قال وهو يرمقني من أعلى إلى أسفل.

احمرَّت وجنتاي بشكل يُثير الشفقة بينما راحت «هيلانة» تشرَح، لكن حينذاك، في خضمِّ كل مخاوفه، ومسار الحرب السيئ، واتهام «هكتور» العلني لأخيه «باريس» بالجبن، وقَرْع نواقيس الموت، واتجاه صناديقه نحو الخواء، أخرج «بريام» عُملة فضية ووضعها في راحة يده، مرَّر يده الأخرى عليها بسرعة، وتمتم ببعض الكلمات السحرية، فاختفت العملة، حدَّقْتُ وأنا موقنة أنها خدعة، لكن دون أن أستطيع فهم كيف نفذها، تظاهر بالتفتيش داخل طبقات ردائه وهو يَرْبِتُ كل مكان في جسده، «أين اختفت؟ لا تقولا لي: إنني أضعتها، هل هي في حوزتك أنت؟» هززت رأسي، ثم مدَّ يده إلى الأمام، وتحسَّس خلف أذني اليسرى وأخرج العملة، كنت ميَّالة إلى الثبات على وقاري ذي الثانية عشرة، إضافة إلى أنني كنت قد كبرت على الخدع السحرية، ومع ذلك فُتِنْتُ في الوقت نفسه؛ لأنني ظللت لا أفهم كيف فعلها، أهداني القطعة النقدية ثم استدار ليشاهد المعركة، واستقرت خطوط وجهه على الفور في تعبير يشي بحزن عميق.

بعد ذلك، سِرنا عائدتين إلى منزل «هيلانة»، أماطت خمارها وطلبت الخمر والكعك، كعكًا حلوًا بنكهة الليمون لا يَعُدُّونه إلا في طروادة.

في العلن، كانت «هيلانة» تلطم صدرها دائمًا، وتلوم نفسها على الدور الذي لعبته في إيقاد هذه الحرب الضارية، لعلها ظنت أنها لو استخدمت كلمة «عاهرة» بنفسها ورددتها بما يكفي، سيقل احتمال أن يستخدمها الآخرون، وإن كان ذلك فقد أخطأت، أما في الخفاء فكانت القصة مختلفةً تمامًا، إذ تسخر من النساء الطرواديات - «السيدات» -، ويعلم الإله أنهنَّ كُنَّ يوفرن لها مادة غزيرة، بطريقتهن الغبية في تقليد تسريحاتها وزواقها وملبسها، من المدهش كيف بَدَا أن نساءً يتمتعن بذكاء حقيقي يعتقدن أنهنَّ إن سحبنَ كحل تحديد العيون إلى ما بعد الزاوية الخارجية من الجفن وأبرزنه إلى الأعلى قليلًا سيمتلكن عينَيْ

«هيلانة»، أو إن شددن أطواق خصورهنَّ بنفس طريقتها سيمتلكن ثديَيْ «هيلانة»، كل هذه المحاكاة الغافلة لامرأة كُنَّ مولعات باحتقارها، لا عجب أنها كانت تضحك عليهنَّ.

وهكذا جلسنا نتبادل النميمة ونشرب النبيذ، بل الكثير من النبيذ، وأحسستُ أنني بالغة جدًّا، وشعرت بإطراء كبير، حين عادت أختي لتصحبني ارتاعت للغاية، لكن ذلك لم يزد الأمر إلا متعة.

وبعدها بتُّ أزور «هيلانة» وحدي غالبًا، لكن مع مرافقة إحدى خادمات أختي لي بالطبع، كل مرة تقريبًا، كانت «هيلانة» تأخذني معها إلى شرفات الحصن، وبينما تتدلَّ عن المتراس متشربةً كل تفاصيل القتال، كان «بريام» يكتشف الحلوى والقطع النقدية خلف أذني، وأحيانًا تكون «هيكوبا» الملكة هناك أيضًا، ودائمًا برفقة أصغر أطفالها «بوليكسينا» التي تتشبث بإزار أمها متخذةً وضعيةً دفاعية خليقة بهرَّة ينتصب شعرها بكبرياء الفتيات الصغار المعهودة، حاولَت «هيلانة» عقد صداقة معها، لكن «بوليكسينا» لم تكن لتقبل بذلك؛ كانت قد تشرَّبت بُغْض أمها لـ «هيلانة»، كنت أراها أحيانًا في أفنية القصر، تحث الخطى خلف أخواتها الكبيرات وهي تصيح: «انتظرنني انتظرنني»، الصيحة المألوفة لدى الإخوة الأصغر في كل مكان.

كانت «هيكوبا» و«هيلانة» تتبادلان بضع كلمات متكلِّفة، لكنني لاحظت أننا لم نمكث طويلًا حين تكون موجودة، فضلَت «هيلانة» الانفراد ببرايام وحده، لمحة ممحصة أخيرة من فوق المتراس نعود بعدها إلى منزلها لتناول النبيذ وكعك الليمون، وكل الزيارات تنتهي بالطريقة نفسها، فجأة تكفُّ عن الابتسام وتقول: «حسنًا، فلنعد إلى العمل»، فتكون تلك إشارتي لأرتدي عباءتي وأنتظر الخادمة كي ترافقني إلى المنزل.

وأحيانًا تدخل «هيلانة» إلى غرفتها الداخلية حتى قبل أن أغادر، فأسمع حينها تَذَبْذُبَ النَّوْل والقعقعة المرافقة لطيران المكوك ذهابًا وإيابًا، كان ثمة أسطورة تفسر لك كل شيء بالفعل؛ فحواها أن «هيلانة» كلما تقطع خيطًا أثناء حياكتها

يموت رجل في أرض المعركة، كانت هي المسؤولة عن كل مِيتة.

ثم أرتني عملها ذات يوم، عرفتُ في حياتي عددًا من الحائكات العظائم، من بينهنَّ بعض النسوة في المعسكر، الفتيات السبع اللاتي أسرهنَّ «أخيل» حين سيطر على لِسْبوس كُنَّ لامعات، ما من كلمة أخرى، كنَّ لامعات لكنهنَّ لم يكُنَّ بنفس براعة «هيلانة»، رُحْتُ أتجول في أنحاء الغرفة أنظر إلى الأنسجة المزخرفة، بينما جلست «هيلانة» خلف النَّوْل ترتشف نبيذها، نصف دستة من اللوحات الضخمة التي تصور مشاهد معارك تغطي الجدران، سلسلة إذا تم تلقيها معًا روَت قصة الحرب كاملةً حتى الآن، اشتباك بالأيدي، رجال فُصِلَت رؤوسهم وبُقِرَت بطونهم وخُوزِقوا وقُطِّعوا شرائحَ ونُزِعَت أحشاؤهم؛ وهناك في أعلى المذبحة يستقل الملوك عرباتهم البراقة: «مينيلاوس» و«أجاممنون» و«أوديسيوس» و«ديوميديس» و«إيدومينيو» و«أجاكس» و«نسطور»، كنت أعلم أن «مينيلاوس» كان زوجها قبل أن تشرد مع «باريس»، لكن صوتها لم يتغير حين نطقت باسمه، هل أشارت إلى «أخيل» يومئذ؟ أظن أنها فعلت، غير أنني لا أتذكر حقًّا.

كان الطرواديون هناك أيضًا، بالطبع «بريام» يطلُّ من شرفات الحصن، وتحته على أرض المعركة أكبر أبنائه «هكتور» يدافع عن البوابة، غير أن «باريس» لم يكن موجودًا، بَدَا أن «باريس» يخوض الحرب من سريره، في المناسبات النادرة التي رأيتهم فيها معًا، كان واضحًا - حتى لطفل - أن «هيلانة» تفضِّل «هكتور» على «باريس»، الذي أظن أنها نشأت تزدريه، كما كان قد اشتهر بنفوره من الاقتراب إلى ساحة القتال، مثل ما اشتهر «هكتور» باحتقاره لجبن أخيه.

حين انتهيت من التجوال على لوحات الأنسجة المزخرفة، أعدتُّ الدورة مرة أخرى؛ لأنني أردت التحقق من شيء لم أفهمه.

«إنها ليست موجودة»، قلت لأختي تلك الليلة بعد العشاء:

- «ليست موجودة في اللوحات المزخرفة، «بريام» موجود، لكنها غير

موجودة.»

- «لا، بالطبع لن تكون موجودة، لن تعلم أين تضع نفسها قبل أن تعرف من سيفوز.»

كان ثمة الكثير من المرارة تشوب تلك الملاحظة، ولم تكن الضغينةَ الروتينية المعهودة لدى بقية النساء الطرواديات، بل شيئًا أعمق إجمالًا، حين أسترجع ذلك، أتساءل إن لم تكن أختي البسيطة القصيرة البدينة قد وقعت قليلًا في حب «هيلانة»، أنا عن نفسي كنت واقعةً في حبها بعض الشيء.

تلك الليلة، تمددتُ في الفراش أتمنى لو أنني قلت المزيد لـ «هيلانة»، لو أنني حاولتُ على الأقل أن أعبر عن إعجابي بعملها، لماذا لم أفعل؟ لعل انبهاري أخرسني، لكن الأمر كان يتجاوز ذلك، أظنني كنتُ أتلمَّس طريقي خلف شيء لم أكن في سنٍّ تكفي لأفهمه، ما رجعتُ به كان شعوري أن «هيلانة» تقبض على قياد قصتها بنفسها، كانت منعزلة جدًّا في تلك المدينة وعاجزة للغاية، حتى في سنِّي تلك استطعت أن أرى هذا، وتلك اللوحات كانت طريقة كي تقول: أنا هنا، أنا شخص، لستُ مجرد غرضٍ يُنْظَر إليه ويتم القتال عليه.

ثمة قصة تعود إلى أول عام من الحرب، كان «مينيلاوس» و«باريس» - الخصمان - قد اتفقا أن يتقابلا في قتال فردي، والنتيجة تقرر مَن منهما سيحظى بـ «هيلانة»، احتشد الجيشان للمشاهدة، واكتظَّت شرفات الحصن بمتفرجين يتوقون لرؤية القتال، إلا أن «هيلانة» لم تكن هناك، لم يكلف أحد نفسه عناء إخبارها بما كان يحدُث، وهكذا قُرِّرَ مصيرها دون معرفتها، أظن أن لوحات القماش المزخرفة كانت طريقةً للمقاومة بدءًا من تلك اللحظة، أعلم أنها لم تكن موجودة فيها، أعلم أنها جعلت نفسها خفية عن عمد، لكنها بطريقة أخرى - وربما الطريقة الوحيدة التي تهم - كانت حاضرة في كل قطبة.

لا أعلم كم أَجْدَاني نفعًا إسهابي في ذكريات طروادة تلك، حقًّا، ما النفع الذي تجنيه أَمَةٌ - وهي تحاول حمل نفسها على النوم فوق فراش قاسٍ في كوخ كريه الرائحة - حين تتذكر أن ملك طروادة ذات مرة قام بتأدية خدع شعوذة من أجل

تسليتها؟ أما كان من الأفضل والأسهل أن تتقبلي الاضطهاد الكئيب الذي صارت إليه حياتكِ؟ لكنني أعود وأقول لنفسي: لا، بالطبع ليس ذلك أفضل.

تلك الليلة، وأنا أتذكر العِداء الذي شعرتُ أنني كنت هدفًا له في كوخ «أجاممنون»، وأتحسس - كما كنت أفعل دائمًا - طعمَ كتلة بلغمه اللزجة في فمي، لَفَفْتُ حنوَّ الملك «بريام» حولي كدثار فساعدني كي أنجرف نحو النوم.

***

-١٩-

ذات مساء بعد العَشاء، ذهب «أخيل» و«فطرقل» ليريا التحصينات الضخمة التي بدأ «أجاممنون» بتشييدها بين المعسكر وميدان القتال، كان «أخيل» قد هلَّل من مؤخر سفينته لنجاح الهجوم الطروادي المضاد بهتافات مبتهجة دون أن يؤرقه كما بَدَا تصاعدُ أرقام الخسائر الإغريقية، والآن يعتريه الفضول لرؤية مساعي «أجاممنون» في تدعيم دفاعاته.

مع بلوغهما موقع البناء، كان الظلام بدأ يُرْخِي سُدُلَه، لكنهما مع ذلك تمكَنَّا من رؤية ما كان يحدث نوعًا ما، لقد تم حفر خندق ضخم في رقعة الشجيرات التي تفصل الكثبان الرملية عن ميدان القتال، مئات الرجال غَطَّتهم طبقات سميكة من الوحل حتى بَدَوا مصنوعين منه، يدفعون عجلات يدوية مليئة بالتراب بعيدًا عن الموقع، بينما يحفر آخرون أعمقَ في الطين الغدِق، لم يسبق وظهرَ بجلاء أكثر وحشية أن هذه الأرض كانت سهلًا فيضيًّا شَطَرَهُ نهران عظيمان كانا يغزوان ضفافهما بشكل منتظم خلال العواصف الخريفية، الخندق يمتلئ بالماء بسرعة تجاري قدرة الرجال على الحفر، وعلى مسافة قصيرة ثمة مجموعة أخرى من الرجال يكدِّسون أكياس الرمل في محاولة لمنع المياه من التدفق إلى الداخل، وبُسِطَت ألواح عبور خشبية على طول قعر الخندق، لكن العمال كانوا مع ذلك في بعض الأماكن يخوضون في ماء يعلو رُكَبَهم، وفوق رؤوسهم يرتفع متراس واسع، أُقِيمَت على امتداده في نقاط تفصلها مسافات متساوية براكاتُ حِراسةٍ

تطلُّ منها وجوهٌ شاحبة لتحملق إلى الفوضى العارمة في الأسفل.

قال «أخيل»: «حسنًا، من الواضح أنه يظنهم على شفا الاقتحام.»

استدار «فطرقل» لينظر إلى الشاطئ خلفه بصفه الطويل من السفن المسحوبة فوق الرمل، سفنُ نهبٍ معقوفة سوداء، صُمِّمَت لبث الذعر حيثما أبحرت، لكنها الآن - في هذا الوضع المنقلب - مجرد أكوام عديدة من الخشب الجاف، إنْ رُمِيَتْ بضعة سهام مشتعلة إلى متونها، وتوافر من الريح ما يكفي لحمل الشرر؛ لاندلعت النيران بكامل الأسطول في غضون دقائق.

لم يكن يطيق أن يقف مكانه دون أن يحرك ساكنًا.

- «تعلم أن بوسعنا المساعدة في هذا، أنتَ قلت فقط إنك لن تقاتل، ولم تقل: إنك لن تفعل أي شيء.»

- «لعلي لم أقُلْ ذلك، إلا أنني قصدته دون شك، ذنب مَنْ أنه وقع في هذه الفوضى؟ ذنبه هو.»

«لكن الآخرين جميعهم متورطون فيها كذلك»، أشار «فطرقل» بإصبعه إلى الرجال الكادحين: «هذا ليس ذنبهم».

- «لا، ولا ذنبي كذلك».

ساد صمت متوتر، تذكر «فطرقل» - مخفضًا رأسه - مستعمرةَ نملٍ كان قد راقبها في طفولته، من النوع الذي يحمل قصاصاتٍ مثلثة من الأوراق الخضراء فيبدو مثل سفن ضئيلة مبحرة، حاول أن يعين ذكراه لكنه لم يستطع، وببطء في هذه الوقفة الخالية من الكلمات، كان هو و«أخيل» يشقَّان طريقهما معًا من جديد، وحين شعر أنه من الآمن أن يتكلم، قال: «أتظن ذلك كافيًا لردعهم عن الدخول؟»

هزَّ «أخيل» رأسه: «لا، إن تكفَّلَ ذلك بشيء فليس إلا تأخير انسحابه»، أشار إلى منطقة الشجيرات على الجانب الآخر من الخندق: «تلك حقلُ قتّل».

سحب «فطرقل» نَفَسًا عميقًا: «أهذا هو كل شيء إذًا؟»

«هذا يعتمد على ما تعنيه بـ «كل شيء»، لست أتوقع أن أسمع خبراً منه بعدُ.»

الأمر لا يدور حولك.

كانا يعرفان بعضهما حق المعرفة إلى درجة أن الكلمات التي لا تُقال تعلق في الهواء بينهما، قال «فطرقل»: «إن قاموا بالاقتحام فعلًا سيتعينّ عليك القتال على أية حال، فهم لن يستثنوا سفنك لمجرد كونك لست تقاتل.»

رفع «أخيل» كتفيه: «إن هوجمتُ، سأقاتل»، واستدار ليذهب: «هيا، لقد رأيتُ ما يكفي.»

***

-٢٠-

كُنا نعلم أن الحرب تتخذ مسارًا سيئًا بالنسبة إلى الإغريق، لم تعُد المعركة مجرد لعلعة بعيدة تستطيع حمل نفسك على تجاهلها، بل باتت هديراً يصمُّ الآذان مسموعًا بوضوح من فوق طقطقة الأنوال، علمنا من الضجة أن الطرواديين يقتربون، وحتى لو كنا صُمًّا لَرَوَتْ لنا وجوهُ آسرينا القصةَ نفسها، صار كل واحد منهم رديء الأعصاب، يميل إلى ركل أي شيء أو أي شخص يعترض سبيله، بِتْنَا نتوخى التظاهر أننا لا نبالي بالنتيجة، وليس الأمر أنهم يلقون أدنى بالٍ لما نفكر فيه على أية حال، وكانت بعض الفتيات - وخاصةً اللاتي كُنَّ إماءً في حياتهن السابقة - غير مباليات بصدق، إذ لا نهاية محتملة ستجر عليهم الخسارة أو تتركهم أسعد مما سبق، إلا أن مَنْ كُنَّ حرائرَ ذات زمان من بيننا، مَنْ كُنَّ يمتلكن الأمان والمنزلة، مُزّقْنَ بين الأمل والخوف، استطاعت بعضهنَّ إقناع أنفسهنَّ أنه إذا حدث شيء واقتحم الطرواديون فسيرحبون بنا

كأننا أخواتهم الضائعات منذ زمن طويل، لكن أتراهم سيفعلون؟ أم أنهم سيروننا على أننا إماء العدو، وصرنا ملكَ يمينهم ليفعلوا بنا ما يحلو لهم؟ عن نفسي أعرف أيةَ نتيجة تلك التي رأيتُها أكثر احتمالاً، وحتى هذه تتطلب افتراضَ أن ننجو من المعركة، كان من المحتمل أن يهاجموا ليلًا ويرشقوا المعسكر بالسهام المشتعلة ليخلقوا الحالة القصوى من الفوضى والبلبلة، وخلال دقائق ستندلع النيران بالأكواخ، والنساء كان يُقْفَل عليهنَّ في الليل.

وعلى هذا انتظرنا وسط تيار جارف من الأمل والخوف مع تقدم الطرواديين يومًا بعد يوم، كل صباح، يصبح المعسكر صِفراً من الرجال، كل من يستطيع الوقوف والمشي وجب عليه القتال؛ لذا كنا على الأقل نتحرر من المراقبة المتواصلة التي كانت إحدى الطبائع المضجرة للحياة في مجمع «أجاممنون»، ظللنا نعمل طيلة النهار، لكننا كنا نأخذ استراحات منتظمة، فنجلس في الشمس لنأكل خبزنا وزيتوننا، منصتات إلى المعركة نحاول أن نقرر إذا ما كانت أقرب الآن أم أبعد قليلًا.

ذات صباح، بينما نحن جالسات على العتبات رأيت «ريتسا» تقترب، كنتُ لم أرها منذ بضعة أيام؛ لأنها راحت تعمل بجدٍّ حَتَّمَ عليها أن تنام في المستشفى، بَدَتْ لي مضناة، وأحسست بطعنة من الخوف؛ لا أستطيع تحمُّل خسارة «ريتسا».

«أنا على ما يرام»، قالت: «الأيام القليلة الفائتة كانت قاسية، في الحقيقة، إنني هنا لهذا السبب، فقد سألتُ «ماشاون» إن كان بإمكاني إحضاركِ للمساعدة ووافق.»

غمرتني البهجة، لكنني قلت لنفسي على الفور: لا، ذلك لن يحدُث.

- «لن يتركني أذهب أبدًا.»
- «بلى، لقد سأله «ماشاون» بالفعل.»

كان المستشفى الرئيس قريبًا من ميدان المعسكر، على بُعْدِ عشرين دقيقة سيراً على الأقدام من مجمع «أجاممنون»، لم أتجرأ على النظر خلفي أو الاسترخاء حتى صرتُ خارج البوابة، لكنني حينها أبطأت، ورحت أحدِّق حولي كأنني أرى كل شيء للمرة الأولى: الحرارة المتلألئة فوق نار الطهو، اللمعة متقزحة الألوان على عنق ديك صغير ينقد بحثًا عن الحبوب، رائحة البول اللاذعة من كوخ الغسيل حين مررنا به، كل شيء كان جديدًا وعجائبيًّا، لا لسبب إلا أنني تركتُ أكواخ الحياكة في إثري.

حالما انعطفنا من الزاوية إلى داخل مجمع «نسطور»، فوجئتُ إذ رأيت بضع خِيَم كبيرة نُصبت أمام أكواخ الاستشفاء، وكان قماشها مبقعًا تنبعث منه رائحة كريهة من التخزين الطويل في عنابر السفن، لا بد أن هذه بعض الخيم التي أقام فيها الإغريق خلال شتاء الحرب الأول حين كانوا ما يزالون متغطرسين بما يكفي ليعتقدوا أن الأمر سينتهي خلال أشهر أو أسابيع، والآن بعد تسع سنوات، تُحْشَدُ الخيم في الخدمة مجدداً لتؤوي الجرحى، أحنيت رأسي وتبعتُ «ريتسا» عبر طية إلى داخل أقرب الخيم، رغم الثرثرة الضاجة المكرورة عن المعركة والأحاديث المتجهمة التي كانت تتناهى إلى سمعي على العشاء، لا أظنني أدركتُ قبل ذلك كم كانت الحرب تسلك مسارًا سيئًا، كان المكان يَنْضَحُ بالدم ورائحته القوية.

تبعتُ «ريتسا» عبر المساحة الضيقة بين صفين من الفرش إلى حيث يجلس «ماشاون» على رزمة قش يقطب جرحًا، رفع نظره: «لقد استغرقتِ وقتكِ»، قال لـ «ريتسا» باقتضاب، ثم لي: «أهلًا بكِ بيننا».

كان «ماشاون» يرُوق لي، وقد تسنَّت لي معرفته على نحوٍ طفيف حين جاء إلى مجمع «أخيل» ليقدم لنا الاستشارات حول معالجة الطاعون، نسيتُ الكثير من الرجال الذين قابلتهم في المعسكر، إلا أنني أتذكر «ماشاون» بوضوح، لقد كان رجلًا متينًا في أواخر منتصف العمر، رغم شعوري أنه ربما يكون أصغر مما يبدو عليه، شعرٌ أبيض ينحسر عن جبهة عالية، عينان عنبيتا الاخضرار معشَّقتان في شبكة من التجاعيد، حس فكاهة تهكمي، ونزعة شكوكية أصيلة فيما يتعلق بقدرة

الدواء على تعديل مسار الطبيعة؛ وتلك شكوكية - حسب تجربتي - يتشاركها أفضل الأطباء كلهم، بوقوفي هناك ومراقبتي حركة أصابعه وهو يسحب الخيط، شعرتُ بالأمان لأول مرة منذ وصولي إلى المعسكر، لا أعلم لماذا، أنهى ربط العقدة، وأثنى على شجاعة الرجل الذي يتصبَّب عرقًا، ثم انطلق عبر الممشى ليُعنى بمريضه التالي، قدَّمت «ريتسا» شربة ماء للرجل - كان ممنوعًا عن الخمر - وعدَّلت وضعه ليركن إلى النوم، فانقلب بحذر على جنبه السليم، وأغمض عينيه، وخلال دقائق كان يغطُّ في النوم.

تعجبتُ كيف يمكن لأحد أن ينام هناك؛ ثمة طنين دائم لذباب الجيف الأزرق في العتمة الخضراء وصياحٌ وصرخاتٌ لبعض المرضى: رجال يحاولون هرش ضماداتهم حتى نزعها - كما فعل العديد خلال الهذيان - فيتعين كبحهم بالقوة.

أخذتني «ريتسا» إلى القسم الخلفي من الخيمة وأقعدَتني إلى منضدة متطاولة، اعتراني شعور جيد من جلوسي إلى جانبها على المقعد وأمامي مدقة وهاون وفي متناول يدي عدة مرطبانات من الأعشاب المجففة، فوق رأسينا عُلِّقَ رفٌّ غسيل يتمايل برويةٍ مع تيار الهواء الخفيف وتتدلى منه حزم أعشاب مجففة، وعلى امتداد سطح الطاولة فُرِدَت صفوف أعشاب طازجة من تلك التي يمكن جمعها محليًّا، وراحت تبث أرائجها الحادة الحلوة النافذة وتجتذب النحل الذي يتسرب من طية الخيمة المفتوحة، كان العديد من الأعشاب - التي استطعت تمييزها - لغرض تسكين الآلام، لكن أعشابًا أخرى استُخْدِمَت لتنظيف الجروح، قالت «ريتسا»: إن عدد الرجال الذين يموتون من الإنتان أكثر ممن يموتون من خسارة الدم: «راقبي «ماشاون» حين يعاين مريضًا، سترَين أنه لا ينظر إلى الجرح فحسب، بل يصغي إليه.»

في وقتٍ لاحق من ذلك اليوم، راقبتُ «ماشاون» ينحني فوق رجل أُحضِر ذلك الصباح، في البدء اكتفى بالنظر مطولًا وبأناة إلى الجرح، لكن رؤوس أصابعه لم تلبَث حتى بدأت بالجس ضاغطًا برقة مجددًا ومجددًا، أجل، «ريتسا» كانت محقة، استطعتُ أن أعرف من وجهه أنه يُصْغِي، ثم - بشكلٍ واهٍ لكنه لا يُخطأ - سمعتها أنا أيضًا: طقطقة تحت الجلد، ابتسم «ماشاون» وقال شيئًا مُطَمْئنًا، لكن

المريض قبل مُضِيٍّ ساعة كان قد نُقِلَ إلى كوخ على اللسان الصخري حيث يُحرَق الموتى، عُرِفَ بـ «كوخ النتانة»؛ لأن الرائحة الخبيثة تقبض عليك من حلقومك كلما فُتِحَ الباب أو أُغلِق؛ لا أحد دخل كوخ النتانة وعاد قط.

قالت «ريتسا»: «إنها التربة، تدخل في الجرح، وحالما تسمعين تلك الطقطقة...»، هزت رأسها.

عليَّ الاعتراف أن شيئًا في ذلك سَرَّني؛ أن تربة طروادة الغنية هي ما كان يقتل الغزاة، بَيْدَ أنني شعرتُ بالحيرة كذلك، كما كنت خلال الوباء؛ لأن الكثير من هؤلاء الرجال كانوا شبانًا للغاية، بعضهم بالكاد أكثر من صِبية، ومقابل كل واحد استخفته الحماسة وتاق للقتال كان ثمة آخر لم يرد أن يكون هناك على الإطلاق، لكن رغم أنني تعاطفت - دون إرادة مني تقريبًا - مع رجال تُقطب جراحهم أو يهرشون ضماداتهم في القيظ الذي لا يطاق، ظللتُ أبغضهم وأحتقرهم جميعًا، أسررتُ بذلك لـ «ريتسا» التي اكتفَت برفع كتفيها: «أجل، أجل»، وتابعت مدَّ المعجون فوق ضُمادة.

كنتُ أشعر بنفاد صبرها معي، لكنني رأيتُ في الوقت نفسه أن ثمة أشياء يهمُّ توضيحها، لكان أسهل في العديد من النواحي أن أنزلق في التفكير أننا جميعنا في هذا معًا، سجناء بالتساوي على شريط اليابسة الهزيل هذا بين الكثبان الرملية والبحر؛ أسهل إلا أنه خاطئ، هم كانوا رجالًا وأحرارًا؛ أما أنا فكنت امرأة وأَمَة، وتلك هوَّة لا يجدر أن يُسْمَحَ لأية كمية من الثرثرة العاطفية عن الحبس المشترك أن تغبشها.

كل مساء قبل العشاء، يأتي الملوك والقادة لعيادة الجرحى، فيسيرون من فراش إلى فراش ملاطفين الرجال في طريقهم: لا تقلقوا، سنخرجكم من هنا عما قريب، والرجال دائمًا يضحكون ويبتهجون ويسايرونهم، إلا أنه حالما يغادر حمَلَة الرُتَب العليا تُستأنف الدمدمة الشاكية من جديد، وإلى حد عِلمي، لم يزُر أحد من الملوك كوخ النتانة قط، وحتى في خِيام المستشفى الرئيس كانوا يركزون على أصحاب الجروح الطفيفة.

بغضِّ النظر عن كل هذا، أتذكر الأيام التي قضيتها في ذلك المستشفى أعمل جنبًا إلى جنب مع «ريتسا» على أنها أوقات سعيدة، سعيدة؟! أجل، ذلك فاجأني أنا أيضًا، لكن الحقيقة أنني أحببتُ العمل، أحببت كل شيء فيه، هناك مَثَلٌ يقول: إن أحب امرؤٌ ما أدوات حرفة ما، تكون الآلهة قد استدعته، حسنًا، أنا أحببت المدقة والهاون، أحببتُ جوف الطاس الأملس، أحببتُ كيف لاءمت المدقة راحة يدي كما لو أنها لطالما كانت هناك، أحببت المرطبانات والأطباق على المنضدة أمامي، أحببت رائحة الأعشاب العطرية الطازجة، أحببت رفَّ الغسيل فوق رأسي بحزَمِه الضامرة الصغيرة من الأعشاب المجففة تتمايل مع النسيم، ساعات كانت تمر، وما كنت لأدري أين ذهب الوقت، أضعتُ نفسي في ذلك العمل ووجدتُ نفسي أيضًا، كنتُ أتعلم الكثير من «ريتسا»، لكن أيضًا من «ماشاون» الذي ما إن رأى أنني مهتمة ولديَّ شيء من المعرفة والمهارة بالأساس لم يبخل عليَّ بِوَقْته، بدأت حقًّا أقول لنفسي: بوسعي فعل هذا، ونقلني ذلك الإيمان خطوة أخرى لأبتعد عن كوني مجرد فتاة سرير «أخيل» أو مِبصَقة «أجاممنون».

جاء يوم علا فيه صخب المعركة إلى درجة أن جميع مَنْ في خيمة الاستشفاء رفعوا رؤوسهم مجفلين، يظنون أن الطرواديين سيقتحمون المكان في أية لحظة، أتت دفقة الجرحى الجدد تتبعها على الفور تقريبًا - بعدها بنصف ساعة فقط - دفقة أخرى، رُحْتُ آخذ خلطات تسكين الآلام من سرير إلى آخر، ومع تصاعد ضغط العمل ساعدتُ في غسل الجروح وتضميدها، جعلنا «ماشاون» نحمم الجروح في ماء مالح - ليس ماء بحر بل ماء عذب من الآبار أضيفَ الملح إليه - وكانت العملية مؤلمة على نحو فظيع، إلا أن الرجال كانوا دائمًا يضحكون ويمزحون بينما نقوم بذلك، كانت مسألة شرف بالنسبة لهم ألا يصيحوا، هذا عن ذوي الإصابات الخفيفة بالطبع، أما أولئك الذين أُحْضِروا نصف واعِين أو على شفير الموت فلم يأبهوا بما نفعله.

وبعد أن تُضَمَّدَ جراحهم، كان القادرون على المشي يذهبون إلى الخارج للجلوس في الهواء البليل، وأنا أدور بأباريق من الخمر المخفف وأذهب من

مجموعة إلى أخرى أوزِّع أطباقًا من اللحم البارد والخبز.

الحديث كله عن الهزيمة، كانوا غاضبين من «أخيل» لرفضه القتال، لكنهم ألقوا اللائمة على «أجاممنون» لسماحه بحدوث ذلك، «يجدر به أن يعيد الفتاة اللعينة إليه»، قال أحد الرجال بينما أساعده على صبِّ خمره: «ذلك هو ما بدأ كل شيء»، «هم لا يجدون بأسًا في هذا»، قال آخر: «كم من الجنرالات تَرى هنا؟» دمدمة موافقة، «لا، جميعهم منشغلون تمامًا بالقيادة من المؤخرة.»

لكن ذلك كان على وشك أن يتغير، أول الأمر جاء «أوديسيوس» مصابًا، وتبعه على الفور تقريبًا «أجاكس»، ثم ما هي إلا سويعات حتى وصل «أجاممنون» نفسه، ربما كان قد تجنب المشاركة في الغارات، لكنه لم يستطع تجنُّب القتال الآن؛ كان ثمة الكثير على المحك، بقاؤه الشخصي كان على المحك، نظف «ماشاون» جرحه وضمَّده بنفسه، رغم أنه بالكاد كان يفوق الخدش، من الغريب مع ذلك رؤية «أجاممنون» يجلس هناك، يعتري سحنته شحوبٌ وذبولٌ تحت سمرته البرونزية؛ ورغم ذلك، كانت تقاطيعه ما تزال بديعة من على مَبعدة، أدركت فجأةً بماذا كان يذكرني: تمثال زيوس في الميدان (إلا أنني اكتشفت فيما بعدُ أن التمثال كان قد رُسِمَ على مثاله؛ مما جعل التشابه أقل مفاجأةً).

عمَّ الكثير من المرح الزائف خلال حضوره، لكن حالما ينجلي سالكًا الطريق الذي أُفسِح له بين صفين من الفرش، كانت الدمدمة تُباشَر من جديد، كنت لتسمع الدمدمة المتذمرة نفسها من الرجال الذين يأتون لعيادة أصدقائهم، لكنها صدرت بشكل أساسي عن الجرحى الذين تعيَّن عليهم الرقود هناك ساعة تلو أخرى يتقلبون ويتلوون في الحر محاولين ألا يهرشوا جلدهم الذي يطلب الحك تحت أضمدتهم، وبالتدريج بينما رحتُ أستمع، بدأت الدمدمة إرساء نفسها في قرارِ اسمٍ واحد، من كل الرُّتَب والجنود المشاة والضباط وصولًا إلى أقرب أعوان «أجاممنون»، كنتَ تسمع الشيء نفسه: قُم برَشوَته، تحايَلْ عليه، قبِّل مؤخرته اللعينة إن اضطررت، لكن حبًّا بالآلهة، اجعل ذلك التافه يقاتل!

كنتُ أمكث مصغيةً لأطول فترة أجرؤ عليها، لكن سرعان ما يتعيَّن عليَّ العودة

إلى المقعد لتجهيز المزيد من الضُمادات استعداداً للدفقة التالية من الجرحى، إلا أنك حتى من طرف الخيمة ذاك، كنتَ لتسمع الاسم نفسه، مهموسًا في البدء، ثم شيئًا فشيئًا مجهورًا به. مرارًا وتكرارًا، مع تقدم ساعات النهار وحشد المزيد من المرضى في الخيمة المتخمة أساسًا، كنت لتسمعه: «أخيل»، «أخيل»، ومجددًا: «أخيل»!

***

-٢١-

«لا لا، ومجددًا لا».

وهو يستدير ليواجه «نسطور»، عَلِقَ كُمُّ «أجاممنون» بإبريق خمر، فانقلب مرسلًا فيضانًا أحمر قاتمًا فوق سطح الطاولة، انسللتُ وبدأتُ أمسح بلمسات غير مُجْدِية قبل أن يُشار لي كي أبتعد بنفاد صبر، وراح الخمر يقطر عن حواف الطاولة فشكَّل بِرْكَةً حمراء على الأرضية، بينما أخذ الصمت الذي أعقب ثوران «أجاممنون» يطول ويتخثر.

ثم قال «أجاممنون» مُتحدثًا بإحكام شديد:

- «لن أحْبُو على يدي وركبتي من أجل ذلك الوغد الخرائي».

رد «نسطور»:

- «إذًا فأَرْسِلْ شخصًا آخر، وَدَعْ هذا الشخص يحبُو، لن ينتظر منك أن تذهب بنفسك».
- «أظنك تقلُّ من تقدير غطرسته».

دبَّت أقدامٌ على ألواح الشرفة بصوتٍ مكتوم، وبعد ثانية دخل «أوديسيوس» إلى الغرفة وكاد أن يسقط لاهثًا لالتقاط أنفاسه، وحول إحدى ذراعيه عُقِدَت

خرقة دامية.

قال «أجاممنون»:

- «من الأفضل ألا تكون قادمًا بأنباء سيئة، بحق الآلهة يا رجل.»

التفت «نسطور» وأومأ لي:

- «أعطيه بعض الخمر».

صببتُ كوبًا وأخذته إلى «أوديسيوس» الذي أفرغه بجرعة واحدة، كان خمراً قويًّا، أقوى خمر يملكه «أجاممنون»، ومن شأنه أن يزيد النزيف، لكنني لم أكن مخوّلة لقول ذلك، رأيت أن الخرقة مشبعة أساسًا.

انحنى «نسطور» نحوه:

- «لا داعي للعجلة، خذ وقتك».

«لا نملك وقتًا»، خرجت الكلمات من بين أسنان «أجاممنون».

مسح «أوديسيوس» فمه بظهر يده: «أخشى أنها أنباء سيئة بالفعل، إنهم محتشدون على الجانب الآخر من الخندق، وبوسعك سماعهم يتكلمون، لا، أقصد أنك تسمع المحادثات بالفعل، هم قريبون إلى تلك الدرجة، تسع سنوات لعينة، وينتهي الأمر هكذا.»

انتصب «نسطور» قائلًا:

- «لم ينتهِ الأمر بعد.»

- «لا فرق».

- «حسنًا، أنا سأقاتل غدًا.»

- ««نسطور»، مع كامل احترامي، سِنُّك لا تسمح بهذا، اعذرني لكنها الحقيقة.»

تَبَدَّى الشعور بالإهانة على ملامح «نسطور»:

- «نحن في حاجة إلى كل رجل نستطيع الحصول عليه.»

- «لا، لسنا نحتاج إلا رجلًا بعينه.»

«وفِّر أنفاسك»، قال «أجاممنون»: «لقد سبق وقال «نسطور» كل شيء»، ثم جلس مُرْخِيًا ثقله وتابع: «إذًا، فلندخُل صلب الموضوع، كم تظنان سيتطلب الأمر؟»

لوى «أوديسيوس» فمه، وكان من الصعب الجزم إذا ما كان ذلك بسبب الألم أم الاشمئزاز: «لن يكون تنازله رخيصًا».

أضاف «نسطور»: «هذا إن تنازل أصلًا».

شوَّر «أجاممنون» بيده كأنه يزيح الفكرة: «اسمعا، إليكما ما أنا مستعد لفعله»، ثم أخذ يعدِّد على أصابعه: «سبعة مناصب ثلاثية القوائم لم تلمسها النار، عشر سبائك من الذهب، عشرون مرجلًا، دستة من الجياد؛ كلها رابحة، وكذلك سبع نساء حصلتُ عليهنَّ حين سيطرنا على لسبوس»، أشار بإصبعه نحو أوديسيوس: «من الأثيرات لديَّ».

كان «نسطور» قد اتخذ مقعدًا عند النار، وراح يدور الخاتم على إبهام يده اليسرى مرارًا وتكرارًا، أتذكر أنه كان من الياقوت، كبيراً بما يكفي ليلقي بضوء أحمر على يده، رفع رأسه قائلًا: «والفتاة؟»

- «حسنًا، هذا واضح، الفتاة».

استداروا جميعًا لينظروا إليَّ فتراجعتُ إلى الظلال منقبضة.

«إن كان ما يزال يريدها»، قال ذلك «أوديسيوس»، وراح ينقل ناظريه بين الرجلين مردفًا: «حسنًا، ألم تتلوث من الاستخدام بعض الشيء؟ كنت لأظن ذلك.»

قال «أجاممنون» باستعلاء:

- «ليس أكثر مما كانت عليه حين وصلت، لم ألمسها بإصبع.»

رمقني «نسطور» و«أوديسيوس» من مكانيهما، فشعرتُ بالدماء تندفع في وجهي، لكنني ظللتُ أحدِّق إلى الأرض بعناد.

«وهل تحلف على هذا تحت القَسَم؟» قال «نسطور» بوجه صفر من التعابير: «بالطبع».

في الصمت الذي أعقب ذلك، انهارت قرمة حطب في النار مرسلةً وابلًا من الشرر في الهواء.

قال «نسطور»: «جيد».

- «مهلًا، على رسلكما، هذا ليس كل شيء، عندما نأخذ طروادة، يمكنه أن يختار أية ابنة يريدها من بناتي، سأجعله صهري، مساويًا لابني من كل النواحي، هذا كرَم مني، لا يمكنكما إنكار أنه كرَم، لكن ثمة ثمن بالطبع، بالمقابل عليه الإقرار بسُلطتي كرئيس أركان، ففي نهاية الأمر عليه أن يُطيعني أنا.»

قال «أوديسيوس» بحذر:

- «هذا كرم بالفعل، فهل ستذهب بنفسك؟»

- «بالطبع لن أفعل، بحق اللعنة، لن أتوسل إلى ذلك النكرة، ولست أدري ما أفعل، أظنني سأرسلكَ أنت.»

قال «نسطور»:

- «يجب أن يتلقَّى جرحه عناية.»

- «كلا، ما هو إلا مجرد خدش، سأذهب بالطبع.»

قال «أجاممنون»: «ومَنْ أيضًا؟ أنت يا «نسطور»؟»

- «لا أرى هذا، إن ذهبتُ سيشعُر أن عليه التأدب، ولا أظن أننا نريد ذلك، أظنه سيحتاج أن يرغي ويزبد قليلاً قبل أن يرضخ، هذا إن رضخ، ماذا عن أجاكس؟»

قال أوديسيوس:

- «أجاكس بالكاد يستطيع إنشاء جملة من ثلاث كلمات».

- «صحيح، لكن «أخيل» يحترمه، أقصد بصفته مقاتلًا، كما أنهما نسيبان.»

- «هذا صحيح».

بدا التوتر على «أجاممنون» فجأة وهو يُقلِّب نظره بين الوجهين:

- «هل حُسم الأمر إذًا؟»

ألح «نسطور»:

- «يجب أن يفحص أحدهم هذا الجرح له، ما زال ينزف.»

قال «أجاممنون»:

- «جيد، إن تلوث بساطه بشيء من الدم فقد يُدرك مدى سوء الأمور.»

قال «نسطور»:

- «إنه يعرف مدى سوئها.»

كان يمكنني تفهُّم لماذا لم يشأ «نسطور» أن يكون جزءًا من البعثة، فهو طائر مسن أكثر مكرًا من أن يخاطر بالارتباط بالفشل، والبعثة ستفشل، لم أجرُؤ على السماح لنفسي أن تأمل بأية نتيجة أخرى، كانت إمكانية العودة إلى مجمع «أخيل» عجائبية، لا أظنني أدركت قبل ذلك الوقت كم اشتقتُ إلى طيبة «فطرقل».

قال «أجاممنون»: «وكذلك الفتاة خذوها معكم»، كوَّر يديه أمام صدره وأنهضهما مضيفًا: «أرُوه ما كان يفوته».

أرغم «أوديسيوس» نفسه على الابتسام:

- «حسنًا، ما أدرانا؟ قد يصنع ذلك فرقًا.»
- «وأخبروه أنني لم أضاجعها كما تعلمان.»

«لكن ليكن في العلم أن هذا هو كل شيء، لا اعتذار»، رفع إصبعه: «لا اعتذار».

استدار «نسطور» إليَّ:

- «اذهبي واجلبي عباءتك».

بعد أن أُذِنَ لي، ركضتُ صوب أكواخ النساء، حيث وجدتُ «ريتسا» تجلس على الأرضية ملفعةً كتفيها بدثار، توقفتُ عند العتبة مهتاجةً إلى درجة لم أستطع معها أن أتذكر ما جئت من أجله، فلم أزد على التحديق في جنبات الكوخ بغباء، قناديل الأسل تتموج في النسيم المتسرب من الباب المفتوح، باعثةً ظلالًا رمادية

تتلوى على الأرضية.

رفعت «ريتسا» نظرها إليَّ، حدقتاها كبيرتان وسوداوان وهي تحدِّق كي ترى وجهي: «ما المشكلة؟»

«سيردني» حتى بينما أتكلم، كنتُ أسوِّي شعري وأعَضُّ على شفتي وأقرص وجنتي، دسستُ قدمي في صندل أكثر متانة وأنْسَب للمشي على الشاطئ، ثم حبوتُ على يدي وركبتي إلى صندوق في الزاوية، فتحتُ الغطاء، وأخرجت أفضل عباءاتي معولةً على اللمس وحده.

همست «ريتسا»:

- «ما الذي يحدث؟»

فقلتُ محافظةً على انخفاض صوتي:

- «إنهم يحاولون رشوة «أخيل»، وحثه على العودة إلى القتال، الفتيات اللاتي من لسبوس - أومأتُ نحو الزاوية القصية - هُنَّ جزء من الأمر كذلك، لكن لا تخبريهنَّ، فقد لا تنجح الخطة.»

لففتُ العباءة حولي، مقمطةً نفسي بشدة كما تفعل الأمهات للرُّضَّع كي يكفُّوا عن البكاء، سمعتُ أصوات رجال تقترب، فدفعتني «ريتسا» نحو الباب: «هيا، اذهبي».

وعلى بُعْدِ عشر أو خمس عشرة قدم، كان «أجاكس» و«أوديسيوس» يقفان جنبًا إلى جنب؛ «أوديسيوس» داكن البشرة وناحل مثل حيوان ابن مقرض، و«أجاكس» المهيب الأشقر ذو البنية العظمية البارزة يعلوه ارتفاعًا بشكل واضح، وكان سفراء «أجاممنون» هناك أيضًا، أثوابهم الرسمية تبدو بلون دم الثيران في الضوء الخافت، سمعتُ «أوديسيوس» يتكلم وأنا أقترب، كان يسخر من فكرة أن

«أجاممنون» لم يلمسني ولو بإصبع، «ليس إصبعه هو ما يقلقني»، ضحك ضحكةً نصف مكبوتة، ثم لمحني فقال بحدة: «أين خمارك؟»

هرعت «ريتسا» إلى داخل الكوخ، وعادت بعد دقيقة تحمل خمارًا أبيض طويلًا متلألئًا ألقت به على رأسي وكتفي، ارتعدتُ متذكرةً «هيلانة»، لا بد أنني بدوتُ وأنا محاطةً برجال يحملون مشاعل متقدة كصبية تغادر بيت أبيها للمرة الأخيرة، لكن بدل ذلك، شعرتُ كجثة في طريقها إلى الدفن، كنتُ ما أزال أرفض الأمل، ورحتُ أحدِّق حولي، رغم أنني لم أستطع رؤية شيء عمليًّا بسبب الخمار، عدا قدمي حين أنظر إلى الأسفل مباشرةً.

أخرج «أوديسيوس» شيئًا من بطانة ردائه:

- «خذي، ارتدي هذه.»

وعندما أَمَطْتُ الخمار عن وجهي، رأيته يمسك قلادةً من الأوبال، خمسة أحجار كبيرة، تبدو بمظهر حليبي للوهلة الأولى، لكن تشوبها نار في أعماقها تضطرب كلما تحركت يده، خفق قلبي بين أضلعي، فقد كانت هذه قلادة أمي، هدية زواجها من أبي يوم زفافهما، ولا بد أن «أجاممنون» حصل عليها كحصته من الغنائم حين سقطت ليرنيسوس، أخذتها بيدين مرتعدتين ووضعتها حول عنقي؛ فاندفعت «ريتسا» إلى الأمام لتساعدني في شبكها، اعتراني الغثيان بسبب الصدمة - كان هذا أسوأ، إن قارنتُه، من رؤية «مايرون» في رداء أبي - لكن بينما أخذَتِ القلادة تدفأ فوق بشرتي، بدأتُ أشعر بتحسن، أحسستُ بالأحجار الخمسة كأصابع أمي تلمسني.

وانطلقنا، السفراء بصوالجهم الذهبية يقودون الطريق، سرتُ خلف الجمع، أضبط طيات خماري بحيث أستطيع أن أرى موطئ خطاي، ولدى إلقائي نظرة من فوق كتفي، رأيت «ريتسا» واقفة على العتبات تلوِّح مودعةً إياي، لكنها كانت تتضاءل في الظلام بسرعة، فاستدرتُ وتابعتُ المسير.

في مجمع «أجاممنون» كان الرمل أسود، ضُغِط حتى تصلب تحت وزن الأقدام التي تطؤه، لكن الرمل على حافة الشاطئ كان أنظف وأنعم وكان رطبًا، رحتُ أراقب «أوديسيوس» و«أجاكس» يوسعان خطاهما أمامي، والماء ينز من آثار أقدامهما، لم يستدر أحد كي ينظر إليَّ؛ لذا شعرتُ بالحرية بعد بضع دقائق لرفع خماري والنظر إلى البحر، ظهر القمر لفترة وجيزة بما يكفي بالكاد ليخلق مسار ضوء فوق الماء قبل أن تلتهمه الغيوم السوداء المتهافتة من جديد.

ضبطَ السفراء للجمع معدلَ خطوٍ جليلًا وموقرًا، واستشعرتُ نفاد صبر «أوديسيوس»؛ كان يريد الوصول إلى هناك والانتهاء من الأمر، أيًّا ما سيتضح أن يكون هذا «الأمر»، لا أظنه علق كبيرَ أمل على نجاح مهمته، لكن لا أدري، لعله فعل، كان يتحدث إلى «أجاكس»، لكنني لم أستطع سماع ما يقوله، هَبَّات من الريح تخطف الكلمات من فمه وتحملها بعيدًا، على يساري، تحطمت أمواج ضخمة فوق الصخور مرسلةً سحبًا من الرذاذ الأبيض عاليًا في الهواء، ومن يميني، تدفقَ من فوق الأسطح جِرْسُ أصوات طروادية تغنِّي، قريبة بشكل يبعث على الدهشة؛ كما لو أنهم داخل المعسكر، رأيت «أوديسيوس» و«أجاكس» يلتفتان لينظرا في ذلك الاتجاه، وبَدَا وجهاهما في ضوء القمر حادين وشاحبين.

أسوار مجمع «أخيل» كانت أعلى مما أتذكر، وتعلوها أوتاد حادة، لم تعد هذه مجرد تعيينٍ ملائم لحدود قسم المرميديين من الشاطئ، بل تحصينات جادة، ولم تكن تقابل طروادة، رمق «أوديسيوس» «أجاكس» بعينين متوهجتين كأنه يريد أن يقول: أترى ذلك؟

ثمة حراس متموضعون عند البوابة، لكن لم تكن هناك مشكلة: فقد تعرَّفوا إلى «أوديسيوس» و«أجاكس» على الفور، وأشاروا لهما بالمرور.

تلك كانت لحظة عاطفية بالنسبة إليَّ؛ مروري من البوابة، الموسيقى تطفو مع هواء الليل؛ «أخيل» يغنِّي ويعزف على القيثارة، وكالعادة، كثيرات من النساء السبايا كُنَّ قد خرجن إلى الشرفات كي يستمعن، بحثت عن «إيفيس»، لكنني لم أرها.

حين بلغنا كوخ «أخيل»، طلب مني «أوديسيوس» أن أنتظر في الخارج، دار بعض النقاش حول الكيفية التي يجدر أن يدخلوا بها؛ أراد السفراء المسيرَ في موكب رسمي عبر البهو، لكن «أوديسيوس» فرض رأيه عليهم، أراد أن تكون هذه زيارة ودية غير رسمية، صديقان قديمان يعرجان بالصدفة، بَدَا السفراء مروعين على نحوٍ واهٍ كأنهم إزاء عمل لا أخلاقي، غير أن «أوديسيوس» كان يفوقهم رتبة؛ لذا توجَّب عليهم التراجع، وهكذا حُسِمَ القرار؛ سيذهبون جميعهم إلى مدخل «أخيل» الخاص، الذي يقود نحو قسم معيشته مباشرةً، وعندها سيغادر السفراء، «غادروا أو انتظروا عند البوابة»، قال «أوديسيوس»: «هذا حقًّا لا يهمني، لكنكم لن تدخلوا إلى هناك.»

وإذ لم أعرف ما أفعل، جلستُ على العتبات كي أنتظر، مقحمةً يدي في كُمِّي لأدفئهما، سمعت صوت «أخيل»، وبَدَا لي متفاجئًا غير أنه مرحِّب بدماثة وربما بشيء من الحذر، لكن من الممكن أن أكون تخيلت ذلك، أصغيتُ أتحين صوت «فطرقل»، بَيْدَ أنني كنت أوقن أنه سيجلس صامتًا كما كان يفعل غالبًا، صفرتْ ريح باردة بين الأكواخ، وفكرتُ أن أحاول البحث عن «إيفيس»، لكنني خشيت أن يتم استدعائي؛ فمن المفترض أن أُسْتَدْعَى في مرحلة ما.

رحتُ أمرر نظري على طول الشرفة هنا وهناك، بضعة مشاعل ما تزال متقدة، رغم أنها تناهز الرمق الأخير من حياتها، رائحة دهن بقر بارد تثقل الهواء، وداخل الكوخ استمر هدير الأصوات، كنت أود الذهاب إلى البحر، وربما الخوض داخله مباشرةً كما اعتدتُّ أن أفعل حينما عشتُ هناك، لكنني لم أتجرأ بالطبع، اكتفيت بالجلوس هناك مثل عنزة مُقيدة بحبل، مع علمي أن قدري يُقرر على الجانب الآخر من ذلك الباب، وضعتُ يدي على قلادة أمي، أضم أحجار الأوبال برقة واحدًا تلو الآخر، وشعرتُ بها كبيض ما يزال دافئًا من الرقود فوقه، وبتأنٍّ، عدتُّ إلى «ليرنيسوس»، وجلستُ على السرير في غرفة أمي أراقبها وهي تتهيأ لوليمة، لا بد أنها كانت مناسبة خاصة، ربما زفاف أكبر إخوتي؛ لأنها كانت ترتدي قلادة الأوبال، وأحيانًا - إن لم تكن في عجلة كبيرة من أمرها - كانت تتركني أمشط لها شعرها.

ومـع تنشـقي دفء الـذكرى، نسيتُ أين أنـا، حتى دُفِعَ البـاب فجـأةً ووقـف «أوديسيوس» هناك يُومئ لي بالدخول.

***

-٢٢-

كان «أخيل» قد وقف لساعاتٍ في مؤخر سفينته يراقب سيرورة المعركة، مشتتًا بين السخط والابتهاج بالنصر، الخندق كان كارثة لعينة كما أيقن أنه سيكون؛ صار القتال الآن مستنقعًا آسنًا بشكل حرفي، الرجال يتخبطون في الطين، لم يكن الأمر ليختلف كثيراً لو أنهم بعثوا رسولاً إلى «بريام» يقول له: لا تقلق أيها العجوز، نحن نعلم أننا لا نستطيع الفوز.

حسنًا إذًا: الخمر والطعام والاحتفال، هيهات، الجو على العشاء جنائزي من كل النواحي، اتضح أنه لم يكن الوحيد الذي يراقب المعركة، لكن ليس الجميع يشعرون بالسعادة نفسها من إمكانية هزيمة الإغريق، «فطرقل» بالكاد يتحدث، بل والحقيقة أنه نادرًا ما تلفَّظ بشيء طوال الأسبوع، مما قد يوحي أن الوضع ساكن، إلا أن الوضع لم يكن ساكنًا على الإطلاق، كانت شطحات صمته تزداد صخبًا باطراد.

بعد العشاء، قام «أخيل» ببضع محاولات لفتح حديث، وحين لم يحظَ باستجابة أخذ قيثارته وبدأ يعزف، وكدأبه بعد أول بضع نوتات، ضاع في الموسيقى، النار تهدر، والكلب يتنهَّد بما ينمُّ عن قناعته وهو يريح رأسه على ركبة «فطرقل»، وآخر بضع نوتات من الأغنية تلتف لتغرق في السكون، أوشك «أخيل» أن يتكلم، لكن «فطرقل» رفع يده، أصوات على الشرفة: لطمُ أقدام تنتعل الصنادل على الألواح العارية، تبادلا النظرات، لم يكن أحد يأتي لرؤيتهما في هذه الساعة؛ بل في الحقيقة لم يكن أحد يأتي على الإطلاق، وضع «أخيل» القيثارة جانبًا، في اللحظة التي دُفِعَ فيها الباب مفلتًا هَبَّة من الهواء البارد، ارتجفت المشاعل، وأرسلت ظلالًا تتقافز على الجدران، كشَّر الكلبان عن أنيابهما

وبدآ يدوران حول نفسيهما، إلى أن قال «فطرقل» بعد أن تعرَّف إلى الرجال المتلكئين عند العتبة: «أصدقاء»، فعاد الكلبان إلى إقعائهما على مضض وهما يدمدمان في أعماق حلقيهما.

تقدم «أوديسيوس» إلى نطاق ضوء النار، وتبعه «أجاكس» عن كثب، «أوديسيوس»: قصير نحيل ذو بنية عضلية، «أجاكس»: فارع الطول، النمش يرقط أنفه كلسع البعوض، يبتسم ليكشف عن فم مليء بالأسنان البيضاء الكبيرة المتفاوتة.

«تفضَّلا، تفضلا»، قفز «أخيل» على حيله وبدأ يجر الكراسي ليقربها من النار: «اجلس يا «أجاكس»، ستصيب رأسك.»

دفع «فطرقل» الباب ليغلقه عكس الريح، وعلى الفور استطالت ألسنة اللهب من جديد، وكفت لوحات القماش المزخرفة عن الخفقان، وفي السكتة القصيرة التي أعقبت ترحاب «أخيل»، بدأ المكان يتملى غرابةَ حضورِ «أوديسيوس» و«أجاكس» من أصله.

«أترغبان في شيء تأكلانه؟» قال «أخيل» وهو ما يزال مبتسماً، ولكن التيقُّظ يخامره الآن على عكس ما كان قبل لحظات.

فَرَكَ «أجاكس» ركبتيه:

- «لا شكراً، أنا على ما يرام.»

«وأنا كذلك»، أضاف «أوديسيوس» وهو يُخفض جسده على الكرسي بحذر.

قال «أخيل»:

- «أنت جريح».
- «مجرد خدش».

نقل «أخيل» نظره من ذراع «أوديسيوس» المضمدة إلى وجهه: «يبدو أكثر من ذلك بقليل، هنا ...»

ومد يده كأنه يريد إزالة الضماد، لكن «أوديسيوس» انكمش: «لا، حقًّا، ليس هذا بذي بال»، وأسدل عباءته على الذراع المصابة: «هل كنت تراقب سير القتال؟»

- «من حينٍ إلى آخر».
- «إنهم محتشدون على الجانب الآخر من الخندق».
- «حقًّا؟ اقتربوا إلى هذا الحد؟!»
- «بحق الفحشاء يا رجل، بوسعك سماعهم».
- «الآن بما أنك ذكرت ذلك، أظنني سمعتُ شيئًا بالفعل قبل مدة».

أنهى «فطرقل» توزيع أكواب الخمر، فرفع «أخيل» كوبه، ثم رفع «أوديسيوس» و«أجاكس» كوبيهما، ولم يستطع أحد التفكير في نخب.

بعد برهة من التردد، وضع «أوديسيوس» كوبه على الطاولة قربه:

- «هيا بحقك يا «أخيل»، أنت تعرف لماذا أنا هنا».
- «أخشى أنني لا أعرف، أنت الذكي بيننا يا «أوديسيوس»، أما أنا و«أجاكس» فليس منا إلا أن نتخبط باذلين قصارى جهدنا».

لدى سماعه اسمه، رفع «أجاكس» ناظريه، لكنه لم يستطِع التفكير في أي شيء يقوله، ثبت «أوديسيوس» نفسه على ظهر الكرسي - كان يعاني ألماً أكبر مما يترك نفسه يظهره بكثير - وأرغم نفسه على الضحك: «هل ازداد وزنك؟»

رفع «أخيل» كتفيه: «لا أظن ذلك».

«هل أنت متأكد؟» لكز «أوديسيوس» خصره بأصابعه: «كنت لأقول نصف حجر(11) على الأقل».

- «ما يزال مقاس درعي يلائمني».

«أنت تجربها، أليس كذلك؟» رمى نظرة تجاه «فطرقل»:

- «حسنًا، يبدو أن الحياة الهادئة تواتيكما كما هو واضح، كلاكما تبدوان في صحة ممتازة.»

- «وأنت تبدو كالخراء، فلماذا إذًا لا تبلغ بيت القصيد؟»

- «أنا هنا بالنيابة عن «أجاممنون».»

- «الذي أصيبت كلتا ساقيه ولا يستطيع المشي؟»

- «أتتوقع منه حقًّا أن يأتي بنفسه؟»

- «أجل».

هز «أوديسيوس» رأسه:

- «الذي لا أفهمه هو كيف تستطيع الجلوس دون أن تحرك ساكنًا، بينما على مبعدة بضع مئات من الياردات يتجهز الجيش الطروادي اللعين حرفيًّا بأكمله للهجوم، حسنًا، ربما كنتَ لا تشاهد القتال، ربما ضميرك لا يسمح لك، لكنك لا تستطيع إخباري أنك لا تعرف ما يحدث.»

- «ضميري على ما يرام، شكرًا لك.»

انحنى «فطرقل» إلى الأمام قائلًا:

- «آمل أن ...»

أشاح «أخيل» بيده:

- «لا تقلق، لن نتشاجر، المعرفة بيني وبين «أوديسيوس» قديمة جدًّا، ونحن نفهم بعضنا بشكل جيد للغاية».

ثم رمق «أوديسيوس» مضيفًا:

- «أليس كذلك؟»
- «هكذا كنتُ أظن في السابق.»

مد «أخيل» يده إلى الخمر:

- «تابع إذًا، فلنسمع.»
- «أنا مفوَّض بتقديم عرض لك، في مقابل أن تقود مرميدبيك إلى المعركة صباح الغد»
- «صباح الغد؟»
- «بعد الظهيرة قد يكون الوقت تأخر قليلًا! أصغِ إليَّ، أتريد أن تسمع ما يعرضه أم لا؟»

باشر «أوديسيوس» بسرد لائحة طويلة من الأغراض التي كان «أجاممنون» مستعدًّا لتقديمها وهو يتوقف بين فترة وأخرى ليريح ظهره: مناصب ثلاثية القوائم وأقمشة وذهب وجياد سباق ونساء، وراح «أخيل» يصغي باهتمام، إلا أنه حين انتهى «أوديسيوس» من الكلام بدا ينتظر شيئًا آخر، شيئًا بعد.

قال «أوديسيوس»: «قد انتهيت».

- «أهذا كل شيء؟»
- «أظن أن هذا كثير جدًّا».
- «لا شيء منه يستحق حياتي».

بدا «أوديسيوس» مأخوذًا على حين غرة: «لا، أنا أعلم، لكن مع ذلك، منذ متى كنت تقاتل من أجل الأشياء؟ أنت تقاتل من أجل المجد، من أجل السمعة.»

- «ليس بعد الآن، كان أمامي وقت طويل كي أفكر يا «أوديسيوس»، هذه ليست حربي، لا أريد أن أشارك فيها، ما الذي سبق واقترفه الطرواديون في حقي؟ هل سرقوا قطيعي؟ أم أحرقوا محصولي؟ أم أخذوا جائزة شرفي؟ لا شيء، هذا هو الجواب، لم يفعلوا أي شيء.»
- «بحقك، إن نفسك لتتوق إلى ذلك.»
- «ماذا؟ المعذرة، ما الذي تتوق نفسي إليه؟»
- «القتال، تعلم أنك لا تستطيع الاكتفاء منه، إنه هويتك، أنت تعيش الحرب وتتنفسها وتأكلها وتنامها.»
- «ليس بعد الآن».

أرجع «أوديسيوس» ظهره، قطرات العرق تلمع على شفته العلوية؛ كان يجد صعوبة في ضبط أعصابه: «اسمع، أنت وافقتَ على القتال، وتطوعتَ من أجله، لم تكن تكاد تطيق الانتظار بحق اللعنة.»

- «كنتُ في السابعة عشرة.»
- «لا يهمني، أنت وافقتَ أن تكون جزءًا من هذا الائتلاف، ولا يمكنك التراجُع الآن لمجرد أنك غيرت رأيك، هذا ليس عملًا مشرفًا يا «أخيل».»
- «لم أتراجع لأنني غيرت رأيي، بل فعلتُ لأن تصرفه كان شائنًا، ولا تحدثني عن الشرف وأنت قد جئتَ إلى هنا بالنيابة عن خراء كلب.»

في الصمت الذي أعقب ذلك، تنحنح «فطرقل»: «و«بريزيس»؟»

قال «أوديسيوس»: «آه».

تحامل على قدميه، فمد «أخيل» يده للمساعدة، لكنه لم يلبث حتى تركها

تسقط، ترنح «أوديسيوس» قاصدًا الباب، ودفعه في وجه الريح باستخدام كامل وزن جسده كي يفتحه، ومرة أخرى، خفقت المشاعل وأرسلت ظلالًا تتلاشى على الجدران، وما هي إلا بضع كلمات مكتومة عاد بعدها، يجر خلفه امرأة تحجبها ستر ثقيلة من الأبيض حتى لتبدو جثة، دفعها إلى حلقة الضوء حول النار، ثم - وبكل خفة المشعوذين - أماط أخمرتها: «ها هي ذي».

مبهورة كأرنب غمره الضوء فجأة، وقفت الفتاة تحملق من وجه إلى وجه، ابيضَّت براجم «أخيل» حول كوبه، لكنه لم يقل شيئًا، ظهرت الحيرة على «أوديسيوس»، إذ كان واضحًا أنه توقَّع ردة فعل أكثر دراماتيكية بكثير، فرغم كل شيء كانت هذه هي اللحظة: جائزة شرف «أخيل»، الفتاة اللعينة، سبب كل هذه المشاكل، عادت وفوقها فدية ملك، ماذا عساه يريد أكثر من ذلك؟ ومع هذا ها هو يجلس هناك دون أن يقول شيئًا.

أرغم «أوديسيوس» نفسه على متابعة الكلام:

- «وهو مستعد ليُقسِم بأغلظ الأيمان أمام الجيش كله أنه لم يلمَسها قط، كانت تعيش في أكواخه مع بقية النساء دون مُضايقات.»

- «لم يلمسها قط؟»

- «هذا صحيح، وسيُقسِم على ذلك.»

نهض «أخيل» وسار نحو «بريزيس»، صارا قريبين إلى درجة أن أحس بأنفاسها على وجهه، لكنها ما كانت لتنظُر إليه، التقط أحد أحجار الأوبال - وكان دافئًا من بشرتها - وأحاطه براحة يده، راح يقلبه ميمنةً وميسرةً حتى سطعت ومضات من النار خلال السديم الحليبي، وفجأة ترك الحجر يسقط، ثم وضع سبابته تحت ذقنها ورفع رأسها برفق حتى باتت مرغمة على النظر في عينيه.

وبعد لحظة، استدار إلى «أوديسيوس»:

- «قل له إن بوسعه مضاجعتها حتى ينكسر ظهرها، لِمَ عساي أبالي؟»

أطبقت «بريزيس» بيدها على فمها، وعلى الفور كان «فطرقل» إلى جانبها، يضع ذراعه حول كتفيها ويقودها إلى الممر نحو البهو.

قال «أوديسيوس» متنفسًا بعمق:

- «حسنًا، ربما لم تكن هذه فكرة جيدة، لكن اسمعني على الأقل.»
- «أتعني أن هناك المزيد؟»
- «عندما نسيطر على طروادة ..»
- «عندما!»
- «عشرون امرأة، تختارها بنفسك ما عدا «هيلانة» كما هو واضح، لكن أي من الأخريات، سبع مدن محصنة، قدر ما تستطيع سفنك حمله من الذهب والبرونز - لا مهلاً - وابنة «أجاممنون» نفسه زوجة لك، سيقبَلك صهراً له، مساويًا لابنه من كل النواحي.»
- «انتظر دقيقة، لنرَ إن كنتُ قد أحسنت الفهم، سأكون مساويًا لابنه من كل النواحي؟»
- «هذا ما قاله».

«مُساوٍ من كل النواحي لفتى في الخامسة عشر من عمره لم يدفعه الغضب إلى رفع سيف قط!» مال «أخيل» نحو «أوديسيوس» حتى ما عاد يفصل بين وجهيهما سوى إنش: «ويجدر بي أن أشعر بالإطراء!»

- «والابنة ستُحضر معها بائنة ضخمة، هذا علاوة على كل ما سبق، لا يمكنك أن تنكر كرم هذا.»
- «ومن أين سيكون مصدر هذا كله؟»
- «من مخازنه، بالطبع».
- «أجل، لكن كم منه سيأتي من المدن التي سيطرتُ عليها بنفسي؟ بينما اقتعد

هو مؤخرته السمينة دون أن يفعل شيئًا؟»

عاود «أوديسيوس» الجلوس ومرر يده فوق عينيه:

- «ما الذي تريده يا «أخيل»؟»
- «أريد هو، هنا، أريد اعتذارًا، أريده أن يعترف بخطئه».

التفت «أوديسيوس» نحو «أجاكس»: «هيا، إننا نضيع وقتنا»، أخذ عباءته، ثم - وكأن الفكرة خطرت له للتو فقط - استدار إلى الخلف:

- «أتراك تضمر مرادًا آخر؟ إن كان ذلك، فبحق الآلهة يا رجل، أَفْصِحْ عنه لا وقتَ لدينا للمهاترات.»
- «أريد اعتذارًا، هذا بسيط للغاية ورخيص.»
- «ويفترض بي أن أعود وأخبره بذلك؟»
- «أظن بوسعنا القيام بما هو أفضل من ذلك، قل له: إنني لو خُيِّرتُ بين الزواج من ابنته ومضاجعة خنزير نافق؛ لاخترتُ الخنزير في كل مرة، هاك يجدر بهذا أن يفي بالغرض.»

كان «أوديسيوس» قد استدار ليغادر بالفعل، غير أن «أجاكس» تكلم دون تمهيد:

- «ثمة رجال يموتون في الخارج، ليسوا طرواديين، ليسوا الأعداء، بل جانبك أنت، رجال كانوا يتطلعون إليك، رجال قاربوا أن يعبدوك بحق اللعنة، لكنك لا تأبه، أليس كذلك؟ لا تأبه بشيء عدا شرفك والحصول على اعتذار، إنهم يموتون يا «أخيل»، بإمكانك إنقاذهم إلا أنك لا تفعل، أين الشرف من ذلك؟» كان على حافة الدمع: «أشعُر بالخزي من كوني قريبك، أشعر بالخزي من أنني دعوتكَ صديقًا ذات يوم».

التقط عباءته، وخرج ليبتلعه الليل وهو يمسح دموعه ومخاطه بظهر يده.

***

-٢٣-

قال «فطرقل»: «أظن أنه من الأفضل أن أعود إلى الداخل.»

أومأتُ، وتابعت الجلوس إلى الطاولة الصغيرة حيث أقعدني، بعد بضع دقائق، أصبحتُ قادرةً أن أنظر حولي، تمت إزالة صحون العشاء وبسط حصائر أسل طازجة على الأرضية، لكن كان ما يزال ثمة بعض الصحَاف وأباريق الخمر المصفوفة على الخوان الجانبي في الطرف القصي من البهو، سرتُ بين الطاولتين الطويلتين ورحتُ ألقي النظر داخل الأباريق حتى وجدتُ واحدًا ما يزال نصف ممتلئ فصببت كوبًا لنفسي، كان النبيذ قد تُرِكَ منذ وقت طويل؛ فاكتسب لذعة خلِّية في طعمه، لكن لا بد أن يفي بالغرض، شربتُ طويلًا وعميقًا، ثم مسحتُ فمي، وصببتُ كوبًا آخر.

كل شيء كان قد حدث بسرعة كبيرة: جُرِرْتُ من الظلام إلى الضوء، جُرِّدتُ من خماري، عُرِضْتُّ عارية الوجه كعاهرة في السوق، كأن ما حدث لي في ميدان المعسكر أول يوم أُعِيدَ من بدايته، ثم في النهاية، تلك اللحظة المحددة من الحميمية المكدرة حين نظر «أخيل» في عيني مباشرة، وفجأة لم يعد في الغرفة شخص آخر فعلمتُ أنني لن أستطيع الكذب. قل له: إن بوسعه مضاجعتها حتى ينكسر ظهرها.

المزيد من الخمر، عثرت على إبريق آخر وصببت ثُمالته في كوبي، صُفِقَ باب فتجمدتُّ على الفور، الكوب على بُعْدِ إنش من شفتي، كنت أتوقع أن يظهر «أوديسيوس»، لكنني حين خرجت إلى الشرفة، كان «أجاكس» هو من رأيته يَذْرَع مكانه جيئة وذهابًا على بُعْدِ عشرين أو ثلاثين ياردة، وهو يلكم راحة إحدى يديه بقبضته المحكمة الأخرى، خرج «فطرقل» وحاول التحدث إليه، لكن «أجاكس» هز رأسه وتابع مراوحته المحمومة، بعد قليل، استسلم «فطرقل» وعاد نحو

الكوخ، وحين رآني واقفة هناك، أخذ الكوب مني وتشممه: «أفٍّ، يا للآلهة، أظن أن بوسعنا الحصول على أحسن من هذا.»

تقدمني وعُدنا إلى البهو، وجلب من خزانة تحت الخوان الجانبي قنينة كبيرة من النبيذ أفخر الأصناف، النبيذ الذي اعتدتُّ أن أقدمه لـ «أخيل» على العشاء، صبَّ كوبين سخيين وناولني واحدًا، جلسنا إلى الطاولة الصغيرة نطل على امتداد البهو، وقلتُ: «قدمتَ لي النبيذ في ليلتي الأولى هنا، كنتُ جالسةً في الغرفة الخلفية فَزِعةً بالكامل»، رمقته بنظرة جانبية:

- «وما كنت لأفهم لماذا عساك تفعل ذلك لأَمَة؟»
- «تعرفين السبب».

لم أكن أعرف، إلا إذا كان يشير إلى الزمن الذي كان فيه وحيدًا وخائفًا في قصر والد «أخيل»، دون مستقبل ولا أمل ولا أصدقاء، تمنيت أنه قصد ذلك، فأي شيء آخر من شأنه أن يكون بالغ الصعوبة.

قال:

- «أنا آسف»
- «لماذا؟ أنت لم تفعل أي شيء.»
- «ما كان يجدر بـ «أوديسيوس» أن يحضركِ.»

لا - قلت لنفسي - كان يمكن أن يُقرر كل شيء دوني، هل كان ذلك ليجعل الأمور تسير على نحو أفضل؟ ربما لو أنني لم أفضح الألعوبة، لعل «أخيل» كان ليصدق «أجاممنون»، كان الإقدام على ذلك أمرًا جللًا: القسم بأغلظ الأيمان أمام الآلهة، ربما كان ليرى استحالة أن يكون «أجاممنون» يكذب.

أصوات من الغرفة الأخرى:

- «ما الذي يجري؟ أتعرف؟»
- «حسنًا، ما زالا يتحدثان، ظننتُ أن «أوديسيوس» سيُغادر منذ فترة، لكنه لم يفعل».

كانت الأصوات تقترب، نهضنا واقفين حالما دخل «أوديسيوس» البهو وهو يبدُو فجأة أكبر سنًّا بكثير.

قال «فطرقل»:

- «سأرافقك إلى البوابة».

جاء الرد فظًّا ومقتضبًا:

- «لا داعي».
- «بلى، «أخيل» سيودُّ ذلك.»

اقترب «أوديسيوس»، وقال مُبديًا ازدراءه: «هل تفعل كل ما يوده «أخيل»؟» ودون أن ينتظر جوابًا، استدار على عقبيه وأوسع خطاه قاطعًا البهو، فعلمتُ أن عليَّ اتباعه.

كانت قد بدأت تمطر، المطر الناعم جدًّا الذي يبدو كالغشاوة، لكنه يتغلغل إلى جلدك وينقعه بالكامل في ثوانٍ، شرع «أوديسيوس» و«أجاكس» نحو البوابة يحملان مشعلين، كان سفراء «أجاممنون» قد عادوا إلى مجمعه منذ فترة طويلة، وتركاني أنا و«فطرقل» نتعثر خلفهما بأسرع ما نستطيع، أخذ «فطرقل» مشعلًا عن حامله خارج أحد الأكواخ ورفعه عاليًا فوق رأسينا، وكانت عباءته تحتكُّ بعباءتي من حين إلى آخر بينما نسير، لكن عدا عن ذلك لم يكن ثمة تلامس فيزيائي، ولم نتكلم كثيراً كذلك، في الحقيقة، لستُ واثقةً من أننا تكلمنا على الإطلاق، أظن أن البعض كانوا يحاولون تقديم عزاء سهل: لن يستمر هذا

طويلًا، لا داعي للقلق، سنجد حلًّا ما، وما إلى هنالك، يَبْدُ أنه لم يفعل، وكنت ممتنةً لذلك.

تركناه عند بوابة المجمع، التفتُّ أنظر خلفي إلى ظله المطوق بالضوء، لكن «أوديسيوس» نادى اسمي بحدة كمن يستدعي كلبًا، وعلمت أن عليَّ النظر أمامي مجددًا.

كنا مجموعة صغيرة مدحورة ورثّة للغاية، تنعطف شاردةً حول منحنى الخليج، الأمواج تتدافع سريعة، وتتكسر في أهلة متداخلة من الزبد حول أقدامنا، وذلك المطر الناعم الثابت لم يكفَّ عن الانهمار طيلة الوقت، تخبطتُ في الرمل المبلل، حتى خلعتُ صندلي ببساطة نهاية الأمر وسرت حافية، فبعد كل شيء، بالكاد كان مظهري يهمُّ الآن، لم يُعرب أيٌّ من «أوديسيوس» أو «أجاكس» عن أدنى اهتمام بي، لقد كففت عن الوجود ببساطة.

كنتُ خائفة، وقد كنت خائفة طوال الوقت منذ سقوط ليرنيسوس، لا بل أطول من ذلك، منذ سنوات، لقد كنت خائفة منذ بدأت مدن سهل طروادة بالتساقط في يد «أخيل»؛ كل حريق وكل نهب كان يقرب الحرب أكثر، لكن خوفي ليلتئذٍ كان من نوع مختلف كليًّا، مركزًا بحدة لم يسبق لها نظير، كنت أعلم أن تواجدي في مجمع «أجاممنون» ما عاد ينعكس عليه إيجابًا، بل العكس هو الأصح في الحقيقة؛ بتُّ تذكرةً دائمةً بالشجار الذي ساق الجيش الإغريقي إلى حافة الهزيمة، جدواي الوحيدة المحتملة، قيمتي الوحيدة لديه - بما أنه لم يرغب بي في سريره من غير ريب - كانت بصفتي فيشة مساومة ممكنة في المفاوضات المستقبلية مع «أخيل»، والآن حتى ذلك اختفى.

قل له: إن بوسعه مضاجعتها حتى ينكسر ظهرها.

ما عاد ثمة شيء الآن يردع «أجاممنون» عن تسليمي لجنوده من أجل الاستخدام المشترك، سبق ورأيت حياة أولئك النساء، شاهدتُّ ذات مرة بضع نساء أكبر سنًّا في مكب النفايات ينقِّبْنَ عن الطعام بين الجرذان، كانت كلاب «فطرقل» تعيش حياة أفضل.

بالعودة إلى داخل مجمع «أجاممنون»، لم أدرِ ما أفعل، وددتُّ التنصل إلى أكواخ النساء، لكنني لم أجرؤ قبل أن يقول لي «أوديسيوس»: إن بإمكاني ذلك، فقد كنتُ ما أزال أرتدي قلادة الأوبال ناهيك عن أي شيء آخر، حُلَّت المشكلة حين طلب مني «أوديسيوس» جَلْب خلطة تسكين آلام من مخازن «ماشاون»، ركضتُّ الطريق إلى المستشفى بطوله، مزجتُ خلطة مجهزة مع أعشاب عطرية طازجة في إبريق من الخمر القوي، وهرعتُ عائدةً أدراجي.

كان «أوديسيوس» جالسًا على كرسي قرب موقد «أجاممنون»، خطف الإبريق من يدي وعبَّ نصف الخلطة في جَرعة واحدة، «أجاكس» راكع قربه يفك الضماد عن جرحه، و«أجاممنون» صامت يَذْرَع جيئةً وذهابًا؛ خمنت أن «نسطور» طلب إيقاف أي استجواب قبل تدبير «أوديسيوس»، ذهبتُ لأرى إن كان باستطاعتي المساعدة، لكن «أجاممنون» استدعاني لأعيد ملء كوبه، كان مضرَّجًا بلطخ حمراء، وثمة خطَّان عبوسان عميقان بين حاجبيه كأنه لا يستطيع تصديق ما يحدث.

أخيراً، أتم «أجاكس» ربط ضمادة جديدة ونهض.

على الفور قال «أجاممنون»:

- «أهو يفهم حقًّا ما أعرضه عليه؟»

أجاب «أوديسيوس» بتبرم:

- «أجل».
- «الزواج من ابنتي؟»

«أجل»، صمتٌ غليظ: «لقد عبَّر بالطبع عن تشرفه.»

رمى «نسطور» نظرة نحو «أجاكس» الذي رفع كتفيه.

- «ومع ذلك رفض، هل تكرم عليكما بسبب؟»

- «هذه ليست حربه، هو لا يُكِنُّ شيئًا ضد الطرواديين، لم يسبق أن سطوا على قطيعه، لم يسبق أن حرقوا محصوله، ولم يسبق أن سرقوا زوجته.»

- «إنه ليس متزوجًا بحق اللعنة.»

أومأ «أوديسيوس» برأسه نحوي: «أشار لها بزوجته».

«أحقًّا؟»، قال «نسطور»: «آه».

- «وكذلك كان في السابق يُؤمن بالشرف والمجد وكل تلك الأشياء، والآن لم يعُد يفعل، لا شيء يستحق حياته.»

قال «نسطور»:

- «لا يبدو هذا من شيم «أخيل»، أمتأكد أنك ذهبت إلى الكوخ الصحيح؟»

- «وسيعود إلى وطنه».

شخر «نسطور»:

- «مجددًا».

قال «أجاممنون»:

- «لن يذهب، ليس قبل أن يراني على ركبتي أمام بريام.»

نخر «أوديسيوس» قائلًا:

- «بل أمامه هو، كما أظن.»

سأل «نسطور»:

- «ولا يهمه كم يموت من الإغريق؟»
- «لا».

ارتجل «أجاكس»:

- «إنه ليس إنسانًا.»

قال «أجاممنون»:

- «بالطبع ليس بإنسان، أمه سمكة بحق اللعنة.»

ابتسم «نسطور» بنحول:

- «بل إلهة بحر كما أعتقد».

امترقَ «أجاممنون» الإبريق مني وصبَّ لنفسه كوبًا آخر: «ما الذي يعنيه بحق الجحيم؟ «لا شيء يستحق حياته» هذا ما يحدث حين يبدأ سفاح كـ «أخيل» بمحاولة التفكير».

قال «نسطور»:

- «لا داعي للخوض في ذلك مجدداً، لقد أعطانا جوابه ولن يغيره، السؤال هو: ماذا علينا أن نفعل؟»

سأل «أجاممنون»:

- «هل يمكننا إنزال السفن إلى الماء الليلة؟»

حدَّق «أجاكس» إليه مشدوهًا:

- «ماذا؟ أنهرب؟»

تجاهله «نسطور»:

- «لا، سيهاجمون، إن قمنا بإنزال السفن فسنضطر إلى القتال لدحرهم في الوقت نفسه، كلا، ما من خيار، علينا أن نمكُث ونترقب نهاية الأمر.»

قال «أجاكس»:

- «نقاتل؟»

رد «نسطور» بملَل:

- «أجل، نقاتل».

خيَّم صمت طويل، وراح «أجاممنون» يقلب نظره بين الوجوه منتظراً أن يجترح أحدهم حلًّا.

قال «نسطور»:

- «ثمة دائماً المرميديون».

حدَّق «أجاممنون» إليه كما لو ظن أن الشيخ الهرم تبرأ من عقله أخيراً:

- «أظنك ستجد أنهم يأتون مُرفقين بـ«أخيل».»

قال «نسطور»:

- «لا أدري، ما يحدُث لا يرُوق لهم، أقصد، حين قال «أخيل»: «لقد تمت إهانتي، سنذهب إلى الوطن» لم يمانعوا ذلك، لكنهم لا يفهمون هذا، بعيدون مئات الأميال عن عائلاتهم ومع ذلك هم عالقُون هنا دون أن يقوموا بشيء.»

أضاف «أجاكس»:

- «إنهم يعبدون «أخيل»، لن يفعلوا أي شيء دونه».

رد «أوديسيوس»:

- «معه حق، «أخيل» يقودهم.»

قال «نسطور»:

- «لا، بل «أخيل» يُلهمهم.»

نظر «أجاممنون» متفكراً:

- «وهل تراهم قد يتبعون «فطرقل»؟»

قال «أوديسيوس»:

- «لا أرى ذلك».

قال «نسطور»:

- «بلى، قد يفعلون، هو ليس محاربًا سيئًا، وحوذي مركبة جيد جدًّا، يمكنه أن يقود بي في أي يوم، كما أنهم يحترمونه.»

قال «أوديسيوس»: «

- أجل، لكن ثمة بعض العوائق، أليس كذلك؟ لا يمكنه حتى إن يمسح مُؤخرته دون أخذ إذن «أخيل» أولًا.»

قال «نسطور»:

- «وما أدراك؟ لا نعلم ما يحدُث خلف الأبواب المغلقة، لا أحد يعلم».

كشَّر «أوديسيوس» مبتسمًا:

- «أظننا نعلم جميعنا ما يحدث خلف ذلك الباب بالتحديد.»

قال «أجاممنون»:

- «على أية حال، قد يجري الأمر في صالحنا، إنه ابن ملك، «فطرقل»، أيريد حقًّا أن يتذكره التاريخ على أنه صبي «أخيل» المخنث؟ لأن المعطيات تتوجه نحو ذلك.»

كان «أجاكس» قد احمرَّ حتى جذور شعره:

- «لا أعرف أي شيء عن ذلك، لكن ما أعرفه هو أن «فطرقل» لن يقدم على أية

فعلة تضر بـ «أخيل».»

قال «نسطور»:

- «أجل، ولكن ألا ترى؟ لن يكون يضره، بل قد يكون يساعد، فأنا لا أظن «أخيل» يريد هذا الوضع، لا أظنه سعيدًا به، لقد حشر نفسه في الزاوية للتَو.»

قال «أوديسيوس»:

- «أجل، أميل للموافقة في الحقيقة، كلما فكرتُ في الأمر رأيتُه يستحق المحاولة.

قال «أجاممنون» بحنق:

- «أظن ذلك، «نسطور»، لمَ لا تجس نبضه؟»

قال «أوديسيوس»:

- «هذا إن تسنى لك الانفراد به، يكاد وركاهما يكونان متصلين».

قال «نسطور»:

- «حسنًا، سأبذل قصارى جهدي».

رَبَّتَهُ «أجاممنون» على ظهره:

- «نِعمَ الرجل، حسنًا - راح ينظر حوله - لا أظن أن بوسعنا فعل أي شيء بعدُ الليلة، كما أن أمامنا يومًا عصيبًا غدًا.»

كنتُ أقف خلف كرسيه مباشرةً، أتحيَّن فرصة للفرار، وكنت قد نضوت عني أحجار الأوبال الخاصة بأمي ووضعتها على الصندوق المحفور قرب سريره، وسرى في الموضع الذي اتخذته الأحجار الدافئة من بشرتي إحساس بالحرمان، مع تريث ضيوف «أجاممنون» في تبادل تمنياتهم بليلة سعيدة، بدأت أتسحب أقرب إلى الباب؛ لكن في اللحظة الأخيرة - حالما أُغلِق الباب خلف «أوديسيوس» - قال «أجاممنون»: «لا، ابقي».

متوخيةً أن أمسح عن وجهي كل تعبير، استدرتُ وعدتُّ إلى الغرفة.

***

-٢٤-

كان «فطرقل» قد أطال تغيبه؛ أطول بكثير مما يمكن احتسابه لمرافقته «أوديسيوس» و«أجاكس» إلى البوابة.

التقط «أخيل» القيثارة، ثم وضعها مكانها مجدداً، صَبَّ لنفسه كوب خمر ولم يشربه، بدأ الكلبان يئنَّان وآذانهما متلَعة تترقب وَقْع أقدام في البهو، فانحنى ولاطف رأسيهما قائلًا في سره: أجل، أنتما وأنا كلانا.

حين دخل «فطرقل» أخيراً، وشعره المبلل متناثر فوق وجهه، بدا كحيوان بري، كشيء قد تلمحه في الكثبان ليلًا، عينين حمراوين خيطتا إلى العتمة، بَدَا الكوخ الذي تخترقه تيارات الهواء وتحيط به الرياح ينكمش حوله مع تقدمه نحو المدفأة وهو يفرك ذراعيه ويتظاهر بأكثر مما يشعر من البرد كي يقترب أكثر من النار فلا يتعين عليه النظر إلى «أخيل».

- «لقد استغرقتَ وقتك.»

كان «فطرقل» يحاول ويفشل في تمويه غضبه.

قال أخيراً:

- «حسنًا، كان ذلك وحشيًّا.»
- «فقرة الخنزير النافق! لا تقلق، لن يعيدها على مسامعه.»
- «لا يا «أخيل»، أقصد «بريزيس»، ذلك هو ما كان وحشيًّا».

غيرَّ «أخيل» من جلسته فوق كرسيه:

- «على الأقل لم تكذب.»

دفع «فطرقل» الكلبين عنه:

- «هي لم تنطق، «أخيل» ما هو الذي تريده؟»
- «أريده أن يعترف بخطئه.»
- «لكن ذلك غير ممكن، كان «أوديسيوس» يعلم أنك تريد اعتذاراً، لكنه لم يستطع عرضه.»
- «إذًا من المؤسف أنه لم يوفر على نفسه عناء المسير.»

قعد «فطرقل» فاستكنَّ الكلبان عند قدميه:

- «أظن أن الأمر كان مضحكًا جدًّا من جانب ما.»
- «حقًّا؟ لا بد أن ذلك الجزء فاتني.»
- «أجل، «أوديسيوس»، بالغ الذكاء، بالغ الفصاحة، بالغ ..»
- «المراوغة».
- «لكن «أجاكس» هو من تمكّن منك حقًّا.»
- «لم يفعل، لم يتمكن مني.»

نظر «فطرقل» إليه:

- «بلى، لقد فعل.»

انتقى «أخيل» قرمة حطب لا ضرورة لها وألقى بها إلى النار:

- «كيف كانت؟»
- «ماذا تظن؟»
- «ما كان بوسعي أن أفعل أي شيء آخر.»

ظل «فطرقل» صامتًا بعناد.

- «حسنًا، إليّ بما تحت لسانك.»
- «كان يجدر بنا الذهاب إلى الوطن، لا، أصغ إليّ، أصغِ، منذ فترة غير طويلة، انتقدتَّ «أجاممنون» حين قال لرجاله: إن الحرب انتهت وإنهم ذاهبون إلى الوطن»
- «إي بالطبع فعلت، لم يسبق أن سمعتُ شيئًا بذلك الغباء.»
- «لكن ألا ترى أنك أتيت بنفس الشيء تمامًا؟ لقد تمت إهانتي، انقضى الأمر، انتهى عملنا هنا، سنذهب إلى الوطن، الجميع تفهَّم، غير أننا فجأةً ما عدنا ذاهبين إلى الوطن، بدؤوا يتطلعون لرؤية زوجاتهم وولدهم، لم يكن الأمر سهلًا، ليس سهلًا أن تخرجهم صباحًا بعد صباح للتدرب على شيء لا يُسمح لهم بفعله.»
- «أعرف أنه ليس سهلًا، وأنت تقوم بعمل مدهش، أتظنني لا أعرف هذا؟»

مد «أخيل» يده إلى خلف رأسه وسحب شعره من العصابة التي كانت تربطه:

- «هيا إذًا، ما الذي يقولونه؟»

- «لا شيء أكثر من المعتاد، أنك بغيض وتعجيزي، وأن أمك أرضعتك صفراء الكبد.»

- «حسنًا، هذا صحيح.»

- «لا، أصغِ، هم لا يعرفون ما الذي يفعلونه هنا، مكتفين بالجلوس كَشَيْلَةٍ من النساء العجائز البليدات، بينما الرجال يهبُّون للقتال.»

- «سيأتي زاحفًا في النهاية.»

- «لا يا «أخيل»، لن يفعل.»

- «سيفعل إن تواجهَ مع خسارة الحرب.»

نفخ «فطرقل» خديه:

- «أنا أستسلم».

- «مزيد من النبيذ؟»

«لا، شكرًا»، نهض ومد يده إلى عباءته.

- «ماذا الآن؟»

- «ما قصدك بـ «ماذا الآن»؟ سأخرج.»

«كنت في الخارج لتوِّك»، راقب «فطرقل» يشمل نفسه بالعباءة المبتلة: «أتريد صحبة؟»

بعضٌ من التردد، «لا، لكن بوسعك المجيء إن أردت.»

فكر «أخيل»: لا أعرف من المبتهج أكثر، أنا أم الكلبان.

خلال مسيرهما عبر المعسكر، رأى «أخيل» رجالًا يتلبثون قرب النيران، مرجئين اللحظة التي سيتحتم فيها أن يدخلوا الأكواخ ليحاولوا النوم، كان يحسن بـ «أجاممنون» أن يتجول من نار إلى نار محاولًا بث بعض الروح القتالية في

الرجال، لكن لم يكن من أثر له، لا تجده متواريًا في كوخه يثمل حتى يعدم ساقيه، وإلا ففي السرير مع بريزيس، الوغد الكاذب الخرائي الغدار ابن القحبة.

لم يكن «فطرقل» قد نبس ببنت شفة مذ غادرا كوخهما، رماه «أخيل» بنظرة جانبية، وبمحاولة خرقاء للاسترضاء ألقى بذراعه على منكبَي صديقه، تركها «فطرقل» ملقاةً هناك، لكن ليس قبل أن يشعر «أخيل» بلحظةٍ من الانكماش اللاإرادي.

خرجا من المعسكر وشرعا يسيران على الطريق بين الكثبان، ظلاهما المتطاولان يتمددان أمامهما فوق الرمل الشاحب، كان بوسعهما سماع المقاتلين الطرواديين يغنُّون في حلقات سمرهم حول النار، لكنهما لم يستطيعا قبل تركهما الكثبان في إثرهما وإطلالهما من خلف رقعة الشجيرات على ميدان القتال أن يريا كامل امتداد مخيم الطرواديين، متكئًا بظهره على شجرة زيتون مضرسة، رنا «أخيل» إلى السهل الطروادي الشاسع وقال لنفسه: يا إلهي، كانوا قريبين جدًّا؛ أقرب مما بَدَوْا من مؤخر سفينته، كان بوسعه في الحقيقة سماع الخيول تمضغ علفها، وكل هذه النيران مثل النجوم في ليلة لا قمر فيها، حين تستلقي على العشب الطويل وتنظر إلى السماء حتى يدور رأسك، محدقًا في العتمة المرصعة باللهب، رأى احمرار وهج النار على وجوهٍ عرقى، وومضات من ابيضاض العيون، واللمعان العَرَضي للبرونز، ثم - عن كثب بحيث استطاع أن يشم الدخان - وابلًا هائلًا من الشرر يتطاير إلى أعلى؛ إذ يُذكي أحد المقاتلين الطرواديين ناره.

قال «فطرقل» بتجهُّم:

- «أرأيت ما يكفي؟»

أومأ، لكنه لم يستطعِ العثور على كلمات يرد بها.

عبرا البوابة عائدين، ثم قطعا الفناء إلى كوخهما، و«فطرقل» على صمته ونأيه،

حين اقترح «أخيل» شرابًا أخيراً، هزَّ رأسَه:

- «لا، أظنني سأخلد إلى النوم، من يدري؟ قد نجد أنفسنا نقاتل في الغد.»
- «لا، لن نجد أنفسنا نقاتل في الغد.»
- «بلى، إن كانت النار مندلعة في سفنك.»

ملدوغًا مما بدا أشبه بتمرد فاضح، فتح «أخيل» فمه ليقذف بتوبيخ لاسع، لكن الباب كان قد أُغلِقَ.

***

-٢٥-

في الصباح التالي، إذ أدرك «فطرقل» ألا أمل من حمل المرميديين على التركيز في التدريب، أطلَق سراحهم ليشاهدوا المعركة، احتشدوا فوق مؤخرات السفن، يتزاحمون رؤوسا ومناكبَ سوداء على خلفية الأفق، مُنتظرين بدء القتال في صمتٍ مشدود، حين اندلع رنين السيوف على الدروع أخيراً، بدؤوا يتقافزون هاتفين بالتشجيع لمحاربي الإغريق، تمامًا كمتفرجين في سباق عربات، أشاح «فطرقل» مُشمئزًّا، منذ متى كانت الحرب لعبةً يقف الرجال الشبان ذوو الأهلية لمشاهدتها؟

وحينما لم يعُد يستطيع احتمال ذلك، نزل عن مؤخر السفينة ودخل إلى الكوخ، حيث غمر رأسه في راقود من الماء البارد، ولدى رفعه رأسه الذي يتقاطر منه الماء، راح يتبحَّر في انعكاسه على المرآة البرونزية، محاولًا أن يثبت نفسه في واقع خارجي ما، وليكن مجرد منظر وجهه هو على الأقل هنا، بعيدًا عن الرجال، ليس عليه أن يحترس إلى تعابيره.

استلقى على سرير «أخيل»، لم يكن قد نام أكثر من ساعتين الليلة الماضية، لكنه ما إن لامس رأسُه الوسادةَ حتى التقط رائحة جلد «أخيل» وشعره ليست

كريهة، لكنها قوية، حيوانية تقريبًا، استؤنف الهدير والهتافات في الخارج، وأحس مغمضًا عينيه بالتيار التحتي للوسن، ثم لم يلبث حتى صار ينجرف تحت السطح تمامًا؛ أضواء مُهدهِدة فوق رأسه، وظلال تنزلق على طول أرضية البحر البيضاء.

مترنحًا من إفاقته المبتورة، دلى «فطرقل» ساقَيه من على طرف السرير، صاح «أخيل» مُجددًا، وللحظة اعتزمَ حقًّا ألا يذهب إليه، لكن ذلك لم يكن واردًا بالطبع؛ لذا حمل نفسه إلى قدميه وخرج، حتى خلال الوقت القصير الذي نامه، كانت ظلال السفن الضخمة قد استطالت فوق الرمل، وحين ظلل عينيه، رأى «أخيل»، ذهبيًّا وأسود يحفُّه الضوء الباهر.

«ماذا تريد؟» خرج السؤال حادًّا وفظًّا أكثر من اللازم، لكنه لم يستطع كبح ذلك.

«أعتقد أن «ماشاون» أصيب، رأيته للتو في عربة «نسطور»، على الأقل أظنه هو، هل تمانع أن تذهب وتسأل؟»

هل تمانع؟ في حضور الآخرين، كانت أوامر «أخيل» دائمًا تتخذ شكل طلبات وعادةً ما يُرْفَق بها لقبٌ للمخاطبة، أيها الأمير «فطرقل»، أيها السيد «فطرقل» هل تمانع؟ ولم يكن من شأن أي من ذلك تمويه حقيقة أن «أخيل» كان يستخدم ابن ملك كصبي رسول، لكن الأمر جرى على تلك الحال لمدة طويلة حتى صار «فطرقل» بالكاد يعرف كيف يستاء منه.

وعلى ذلك انطلق عَدْوًا، يرسم طريقه بين جماعات من الرجال الجرحى الذين يعرجون عائدين إلى خيام الاستشفاء، الآخرون، ذوو الإصابات الأكثر خطورة، كانوا يُحْمَلون مع الجماعات على العربات، وكل ارتجاج وكل خضة من الإطارات؛ ينجم عنها تأوهات وصيحات ألم، سبق ورأى كل هذا بالطبع العديد من المرات، بَيْدَ أن الصادم اليوم كان مناخ الهزيمة، كانت الهزيمة هناك في الأكتف المُطرِقة والمِشية الثقيلة؛ وأبرز من كل شيء، كانت الهزيمة في الأعين الميتة والتحديقات اللامبالية التي تبعته وهو يمر بها.

حالما استطاع، حاد عن الطريق وتسحَّب في أزِقة ضيقة حتى بلغ كوخ «نسطور»، هناك - على العتبات - توقف ليستجمع أنفاسه قبل أن يدلف إلى البهو، كان «ماشاون» في النهاية القصيَّة مستلقيًا على أريكة و«هيكاميد» تضغط بخرقة بيضاء على كتفه؛ رجل متين أبيض الشعر، بوَجهٍ متهكم لحيم تَرِف، لم يكن لـ «ماشاون» عمل في ساح الوغى، ومع ذلك اتضح أنه يقاتل، خر «فطرقل» على ركبتيه قربه: «كيف أنت؟»

أجفل «ماشاون»: «سأعيش، الأمر يبدو أسوأ بعض الشيء مما هو عليه»، رفع نظره إلى «هيكاميد»:

- «أقوى، استخدمي وزنكِ في الضغط يا فتاة».
- «هل أجرب؟»
- «لا طبعًا، فلن يظل لي كتف بحق الجحيم، لكن بوسعك أن تناولني ذلك الكوب.»

تشمم «فطرقل» الكوب: «قوي، أواثق أنها فكرة جيدة؟»

«لا، بالطبع ليست فكرةً جيدة، أحتاج شيئًا يُلطف حدة الألم»، ومَضَت عيناه وهو يرفع الكوب: «نخبك».

بعد اختلاس نظرة سريعة إلى جرح «ماشاون» - جرح في اللحم، عمقه غير قليل، لكنه بدا نظيفًا - عبر «فطرقل» إلى داخل قسم المعيشة، حيث وجد «نسطور» جالسًا إلى المدفأة، محاطًا بقطع الدرع التي فكَّها وتركها تسقط، رباه، كم كان عمره؟ سبعين! بل ربما أكثر من ذاك بقليل، حار «فطرقل» - الشاب القوي ذو الأهلية - في الممر يدعو أن تبتلعه الأرض.

- ««فطرقل»، تفضل.».

أنهض «نسطور» نفسه عن كرسيه، وقبض على «فطرقل» من يده ساحبًا إياه إلى كرسي آخر قبالته.

«كلا، ليس بوسعي البقاء، أرسلَني «أخيل» لأستخبر عن «ماشاون»، لكنني أرى أنه يتلقى رعاية جيدة»، أخفض صوته إلى الهمس: «هل سيكون على ما يرام؟»

- «يجدر بي أن أظن ذلك، فلديه أفضل طبيب في العالم؛ هو نفسه، نحن ننفذ ما يقوله وحسب، هيا اجلس.»

- «كلا، سيتساءل أين أنا.»

ابتسم «نسطور»:

- «لا يمكنه أن يكون طاغية إلى هذا الحد.»

- «ألا يمكنه؟»

- «لقد وصلت إلى هنا لتوِّك.»

تلعثم «فطرقل»:

- «حسنًا إذًا».

إذ استرخى قليلًا، قَبِلَ «فطرقل» الكوب الذي مدَّه «نسطور» إليه، رفع «نسطور» كوبه إلى شفتيه وشرب بعُمق، كان أنفه أكثر حدة والعروق الحمراء على وجنتيه أكثر بروزًا مما يتذكر «فطرقل»، لقد بدأ يعتري مظهرَه شيءٌ من التهرؤ.

قال «نسطور»: «إذًا «أخيل» يهتم بأمر «ماشاون»؟»

- «أجل، بالطبع يفعل، إنه...»

- «رجل واحد، وفجأة يصبح «أخيل» مهتمًّا، أتعلم كم مات من الرجال اليوم بينما هو واقف على سفينته يتفرج؟»

فتح «فطرقل» فمه.

- «وإياك أن تقول لي: إنك موافق على هذا، أعلم أنك لستَ كذلك.»
- «أظن أنه يجدر بي الذهاب.»

«لا، من فضلك»، ربَّتَ «نسطور» على الكرسي الذي قربه: «أنا شيخٌ هرم، سايِرني.»

جلس «فطرقل» على مضض.

- «بإمكانك أنت أن تفعلها كما تعلم.»
- «أفعل ماذا؟»
- «أن تقود المرميديين».
- «تقصد دون «أخيل»؟»
- «أجل، لمَ لا؟»

هزَّ «فطرقل» رأسه:

- «هذا لن يحدُث أبدًا.»
- «لن يحدُث ما لم تقترحه.»
- «لا جدوى، فلن يوافق أبدًا.»
- «ما أدراك؟ أنت لم تسأله، عرفتُ «أخيل» طويلًا، ليس بطول معرفتك به، لكن طويلًا بما يكفي، لا أعتقد أنه مرتاح لهذا، لا أعتقد أنه ينام ليلًا.»
- «إنه ينام.»
- «أرى أنه حشر نفسه في زاوية لا يجد منها مخرجًا.»

- «أتقول إن الذنب ذنبه و...»

- «أقول: إنه لا يهم ذنب مَنْ، لقد تجاوزنا ذلك بكثير، أظنه يبحث عن مخرج، وما أدراك؟ قد تكون تسدي له معروفًا.»

- «قد غرس سكينه في أحشائي وحسب.»

ابتسم «نسطور»:

- «ليس أنت».

- «أنت واثق من هذا، صحيح؟ أتمنى لو كنتُ كذلك، إلا أنني أعرف شعور أن تقتُل صديقًا وتمضي بقية عمرك نادمًا على ذاك.»

- «أعلم، فأنا أتذكر، ومع ذلك انتهى بك المطاف بحال حسن.»

في الغرفة المجاورة، صاح «ماشاون»، نظر كلا الرجلين إلى الباب ونهض «نسطور» عن كرسيه نصف نهوض.

بعد ثانية نادى «ماشاون»:

- «أعتذر، فقد وُضِعَت الكمادةَ لتوِّها.»

«الآن بِتَّ تعرف ما يعانيه مرضاك»، أنزل «نسطور» نفسه على الكرسي من جديد كالحًا: «عظامٌ هَرِمة»، قال ذلك وهو ينقر على ركبتيه.

- «لا أعلم ماذا أقول».

- «قد يكفي ذلك لدحرهم، لا أعرف ما الذي عساه يتكفَّل بالأمر غير ذلك، أتعلم أنهم سبق وأضرموا النار بإحدى سفن «أجاممنون»؟»

- «لا، لم أكن أعلم.»

«إنها ...» قارَبَ «نسطور» بين إبهامه وسبَّابته حتى كادا يتلامسان: «هم قريبون

إلى هذه الدرجة»، انتظر، ثم نفد صبره فجأة: «ماذا يتعيَّن عليهم أن يفعلوا حتى يقاتل؟»

- «أن يحرقوا إحدى سفنه.»

- «حسنًا، قد يكون الوقت تأخَّر قليلًا حين يحدُث ذلك، بالطبع، هذه هي المشكلة التي تواجهك حين تتنصل من رفاقك، ينتهي بك المطاف إلى القتال بمفردك.»

- «سيظل متفائلًا بفرصه رغم ذلك.»

ابتسم «نسطور»:

- «أجل، أعلم ذلك.»

مرر «فطرقل» يده فوق عينيه، حين رفع نظره من جديد، وجد «نسطور» يراقبه، لم تعُد تعابيره متحسبة أو مناورة الآن، بل فضولية ببساطة.

- «ألا تريد أن تخرج من ظله أبدًا؟»

- «لقد نشأتُ في ظله، تعودتُّ على ذلك.»

- «لكن ما هذا بجوابٍ حقًّا، أليس كذلك؟»

أنهض «فطرقل» كتفيه.

- «قد تكون هذه فرصتك لـ ...»

- «لا، لا، توقف هنا، إن فعلتُ هذا فإنما أفعله من أجله.»

ساد صمتٌ طويل، إلا أن أصابع «نسطور» مُلتهبة المفاصل أفشت عن توتره، أخيراً، قال «فطرقل»: «حسنًا، أنت ربحت، سأقترح الموضوع، لا أستطيع أن

أعِد بأكثر من هذا، والآن يحسن بي حقًّا أن أَهِمَّ بالعودة.»

رافقه «نسطور» إلى الباب وهو بالكاد قادر على تمويه غبطته من النصر: «هناك شيء واحد بعدُ»، قال:

- «سَلْهُ أن يعيرك درعه».
- «ماذا؟ الآن أُوقِن أنك جُنِنْتَ.»
- «إن رأوه هو في ميدان القتال - أو ظنوا أنهم يرونه - فسيقوم ذلك مقام ألف رجل».

تلبَّث «نسطور» يشاهد الاحتمالات تعيث نغلًا كاليرقات تحت جلد الرجل الشاب، كان قد قال ما يكفي، «حسنًا، ابذل قصارى جهدك»، أرخى يده لبرهة على كتف «فطرقل»:

- «لا أحد يستطيع أن يفعل أكثر».

***

-٢٦-

في طريق عودته إلى مجمع «أخيل»، سمع «فطرقل» اسمه يُنادَى فنظر ليرى صديقًا قديمًا، «يوريبيلوس» يعرج فوق الطريق نحوه ورأس سهم مغروز في فخذه، ركض «فطرقل» نحوه وتعانقا باحتراس، إذ كان «يوريبيلوس» متزعزعًا على قدميه.

قال «فطرقل» متراجعًا:

- «يبدو هذا مُغْثِيًا.»
- «أسوأ بكثير».

«هيا، فلنأخذك ليُعتنى بك»، مهيئًا نفسه لتحمل الوزن، أرخى «فطرقل» ذراع «يوريبيلوس» على مِنكبيه وانطلق باتجاه المستشفى: «كلما سارعنا في تنظيفه لك كان أفضل».

كان تقدمهما بطيئًا وهما مغلولان إلى بعضهما هكذا، وحين بلغا خيام الاستشفاء أخيراً، وجد «فطرقل» لـ «يوريبيلوس» مساحةً عند الجدار القماشي فأنزله برويَّة فوق دثار، ولدى بحثه في الأنحاء عما يستعمله كمرقأة لوقف النزيف، عثر على مزقة من القماش الدامي، فركع قابضًا على عصا السهم وطفق ينزعه، صرخ «يوريبيلوس»، فتجاهله «فطرقل»، كان حنانًا في غير محله أن يتوانى عن فعل ما يجب فعله، أحكم قبضته ونزع السهم برباطة جأش، وتحقق من أنه لم يُغفل شيئًا في الداخل، ثم لفَّ الخرقة بإحكام حول ساق «يوريبيلوس» فوق موضع الجرح ببضعة إنشات، أدار «يوريبيلوس» وجهه جانبًا وتقيأ، وحينذاك تقدم رجل ذو إصابة خفيفة يعرج ليرى ما كان يحدث، كان قصيراً، بكومة شعثاء من الشعر الأحمر المجعد ممشطة لتنجلي عن جبهته، ربما كي تعطي انطباعًا بطول أكبر، كان «فطرقل» يعلم أنه يعرف الرجل، لكنه لم يستطع مهما حاول أن يتذكر اسمه، فقال للرجل: «أيمكنك تولي الأمر؟»

أخذ الرجل طرفي الخرقة من «فطرقل»، وسأل الجريحَ: «هل أنتَ بخير يا صديقي؟» حاول «يوريبيلوس» أن يردَّ، لكن أسنانه كانت تصطك إلى درجة منعته من الكلام.

قال «فطرقل»: «سأحضر لك بعض الماء».

مطبقًا يده على أنفه وفمه لدرء الرائحة الكريهة، نهض وراح ينظر حوله، كان العديد من الرجال الجرحى يصيحون طلبًا للماء، والآخرون نائمون أو فاقدون وعيهم، أحدهم على بُعْدِ بضعة فرش إلى يساره، كان واضحًا جدًّا أنه ميت، رأى امرأة في منتصف العمر تقدم شربة ماء لرجل فقد عينًا، «ماء؟» سألها مُومِيًا بإشارة الشرب، لم تكن كل الإماء يفهمن الإغريقية، أشارت خلفها إلى منضدة في الطرف القصي.

كانت الخيمة مكتظة بحيث اضطر أن يتخطى فوق أجساد خاملة ليبلغ الطرف الخلفي، مع اقترابه، شاهد راقود ماء صُفَّت قربه نصف دستة من الأباريق، وبضع أكياس مليئة بالجذور لها رائحة التربة القوية، ورفًّا من الأعشاب العطرية المجففة تتمايل مع النسيم المتسرب من طية مفتوحة، حوالي دستة من النساء كُنَّ جالسات إلى منضدة طويلة، بعضهنَّ يطحن الأعشاب، وأخريات يمددن معجونًا بنيًّا مخضرًّا سميكًا فوق قطع من قماش الكتان، كانت هذه جزيرة من الفعالية الهادئة، إلا أن مدًّا عاليًا من الدماء والألم يرتطم على الصخور، سار بمحاذاة الرف، وانتقى بضع حزم من الأعشاب المجففة، أخذ أعوادًا طازجة من الكزبرة والصعتر وجلس يهمُّ بالطحن، قصعٌ من الماء والعسل والحليب والخمر كانت مصنَّفة في مجموعات منفصلة على طول سطح المنضدة، كل شيء في متناول اليد، عليه أن ينظف الجرح ويضمده، ويصب خلطة مُسكنة للآلام في فم «يوريبيلوس»، ومن ثم يعود إلى «أخيل»، ومن الأفضل حدوث ذلك قبل أن يبدأ فمه بالإزباد، لم يكن ثمة وقت للتفكير في اقتراح «نسطور»، لكن ربما لا ضير من ذلك، لو تسنَّى له الوقت للتفكير، ربما كانت أعصابه قد خذلته بحلول هذا الوقت.

كان مُستغرقًا في عمله لينتهي منه بسرعة، فلم يلحظ الفتاة الجالسة قبالته من فوره، لكنه حين مدَّ يده إلى إبريق حليب ألقى لمحة عامة على الطاولة، وهناك كانت «بريزيس».

- «ما الذي تفعلينَه هنا بحق السماء؟»
- «أنا أعمل هنا».

ما إن رفعَت رأسها حتى انتبه إلى شَفَتها المشقوقة، وكانت الكدمات تُغطي وجهها وعنقها، لا شيء من ذلك كان في الليلة السابقة حين نزع «أوديسيوس» خمارها عنها.

- «كيف أنتِ؟»
- «بخير، إنني أنجُو.»
- «لقد رأيت «ماشاون» للتو».
- «أجل، سمعنا أنه أصيب، كيف هو؟»

«ليس سيئًا، إنه جرح في اللحم، وهو نظيف حسب ما رأيت»، كان يحاول ألا يحدق إلى الكدمات بشكلٍ لافت: «إنه مريض بغيض».

ابتسمت: «أستطيع تخيُّل ذلك»، رفعت يدها ولمست شَفَتها.

بعد ذلك عملا بصمت، وحين انتهى من طحن الأعشاب قال:

- «أيمكنكِ العثور لي على بعض الخل؟»

نقل الأعشاب المطحونة بحذَر إلى الصحن مع العسل والحليب، وسحق بِضعة جذور بكَعبَي يديه وحركها مع المزيج، ثم أضاف الخمر والملح، كان يشعر بها تراقبه، ودون أن ينظرُ تقريبًا، كان يمكنه أن يرى العروق الحمراء في بياض عينيها، وآثار الأصابع وتفاصيلها ما تزال تتضح على عنقها.

- «لمن هذا؟»
- «هو لصديق، لقد صادفتُه للتو، في الحقيقة، هو قريبي نوعًا ما كما أظن، لا أعلم، أنا أفقد التركيز.»
- «سأحضر كمَّادةً أيضًا إن أردت.»

عند عودته، رأى من الأسهل أن يتسحب من طرف الخيمة، وشعر بالقماش السميك المبقع يحتك مع ظهره، وجد «يوريبيلوس» أبيض يستنزفه الجفاف، إلا أن المرقأة بدت تقوم بعملها على الأقل: لقد تباطأ تدفق الدم وصار إلى نز هزيل، شكر الرجل ذا الشعر الأصهب، الذي سرَّه على الأغلب أن يتفرغ للعناية بجرحه هو، وبدأ يقطر مسكن الآلام في فم «يوريبيلوس»، كان الجرح قد

توقَّف عن النزف تقريبًا، فلم يشأ أن يقاطع أية خثرات يمكن أن تكون بدأت تتشكل، لكن الجرح من جهة أخرى بحاجة إلى التنظيف، تمنى لو كان «ماشاون» هنا ليستشيره، في النهاية، قرر أن تنظيف الجرح أهم من أي شيء آخر، لقد رأى الكثير من الرجال يموتون من الغرغرينا؛ لا شيء أسوأ منها ولا حتى الطاعون.

جاءت «بريزيس» من خلفه:

- «أيمكنني المساعدة؟»
- «بوسعك أن تبدئي غسله».

رفع الكوب مجدداً وقطر المزيد من الخلطة في فم «يوريبيلوس»، عمل بطيء مُجد: ظل «يوريبيلوس» يغص بالمزيج وتعين أن يستريح بين الجرعات، بدأت «بريزيس» بغسل ساقه، حركات مسح شاملة رقيقة، وكانت تنحني من حينٍ إلى آخر لتعاين الجرح، ضغطت بأصابعها قرب الحواف، تجسه برقة وتصغي إلى الجلد، بَدَا «فطرقل» مُتسائلًا، فقالت: «أظن ألا مشكلة، إنه نظيف.»

بسماعها، بدا أن «يوريبيلوس» عثر على قوة جديدة فتجرَّع ما تبقى من الخلطة، مسح «فطرقل» فم صديقه وأخفض له رأسه برفق فوق الدثار: «هاك، ستشعُر بتحسن الآن.»

كانت عينا «يوريبيلوس» قد بدأتا تنوسان في محجريهما أساسًا، فغطَّ في النوم خلال ثوانٍ قليلة.

على الفور، التفت «فطرقل» إلى «بريزيس»:

- «أواثقَة أنه نظيف؟»
- «حسب رؤيتي، أجل.»

سارت معه إلى المدخل، وتعيَّن عليهما في مرحلة ما أن يتنحيا جانبًا للإفساح

لأربعة رجال يحملون نقالة، فألفيا نفسيهما وجهًا لوجه دون أن يملكا ما يقولانه، أو ما يمكن أن يقال، مد يده ولمس وجهها بلطف: «مِمَّ كل هذا؟»

- «يبدو أنني لم أبذل جُهدًا كافيًا في جعل «أخيل» يرغب باستعادتي، وهذا صحيح، لم أفعل، كان يجدر بي أن أكذب.»

هزَّ رأسه:

- «لن يبقى الأمر على هذه الحال دائمًا.»
- «أظنه قد يبقى.»
- «لا، صدقًا لن يحدُث، الأشياء تتغير، وإن لم تتغير، تغيرينها أنتِ عنوةً.»
- «كلام ينطقه رجل.»
- «ستحصلين على فرصتك ذات يوم، وحين يحدُث ذلك، تمسكي بها بكلتا يديك.»
- قال «أوديسيوس»: إن «أخيل» أشار لي بـ «زوجته».
- «لقد فعل، كنتُ موجودًا.»

رفعَت كتفيها:

- «لعلَّه سبب آخر جعلني أتلقى هذا.»

وعلى ذلك افترقا، بعد مئة ياردة، استدار لينظُر خلفه فرآها واقفةً عند مدخل الخيمة، رافعةً إحدى يديها تشاهده يذهب.

***

-٢٧-

مُنتظرًا على أدراج كوخه، قال «أخيل» بحدة: «أين كنت؟»

ما من وقت لهذا الآن، ما من صبر، اندفع «فطرقل» متجاوزاً إياه، ورمى كلامه من فوق كتفه: ««ماشاون» مصاب فعلاً».

- «إصابة بالغة؟»

- «لا، ليست بالغة، «نسطور» يعتني به.»

تبعه «أخيل»:

- «واستغرقتَ كل هذا الوقت لتتوصل إلى ذلك؟»

سحب «فطرقل» كرسيًّا وجلس عليه، ثم دفن رأسه بين يديه.

- «ماذا هناك؟»

- «لا شيء، ماذا عساه يكون هناك؟»

- «شيء ما، لا ترجعُ عادةً وأنت تبكي عينيك عن آخرهما مثل فتاة صغيرة.»

مسح «فطرقل» بكعب يده على صفحة خده:

- «لستُ أبكي».

- «حسنًا، كدتُّ أصدق، أماه، قبِّلي موضع الألم، أماه يا أماه.»

كفى، فزَّ «فطرقل» عن الكرسي، ووضع يديه على عنق «أخيل» ضاغطاً بإبهاميه على الحنجرة، ثم ضيَّق الخناق.

ازرقَّ وجه «أخيل»، وبدأت عيناه تجحظان، ارتفعت يداه وأمسكتا بمعصمَي «فطرقل»، لكنه بعد ذلك، فجأةً وعن قصد، تركهما تسقطان، ووقف مكانه ببساطة، رابط الجأش ودون خشية، يشاهد «فطرقل» وهو يجاهد ليستعيد سيطرته على نفسه، أخيراً دفع «أخيل» بعيدًا عنه وهو يرتعد، صمت، أمسك

«أخيل» بعنقه، سعلَ وبلعَ ريقه بصعوبة بضع مرات، ثم تمكّن أن يتكلم: «كنتُ قد نسيت أي مزاج تملك.»

كانت الكلمات طبيعية، إلا أن صوته كان أجشّ وعلى بياض عينيه ظهرت نقاط صغيرة من الأحمر.

جلس «فطرقل»:

- ««ماشاون» على ما يرام.»
- «جيد».

صمتٌ آخر.

- «مما يعيدنا إلى السؤال: لماذا تبكي؟»
- «لأنني لستُ من حجر، بينما أنت كذلك على ما يبدو».

أخذ «أخيل» نَفَسًا عميقًا:

- «ماذا؟»
- «لا يا «أخيل»، لا، أصغِ إليَّ لمرة وحسب، أصغِ إليَّ، لقد ذهبتُ إلى المستشفى، إنه مكتظٌّ إلى درجة ألا مكان لتمشي بين الفرش، وهم ينصبون خيمة أخرى لأن الناس ما زالوا يتدفقون، في طريق عودتي، سمعتَ الطروادبين يهتفون، والليلة يا «أخيل»، بينما هم يشوُون اللحم على النار في حلقات سمرهم، سنكون نحن هناك نحرق الموتى، وأنت تعلَم أن بوسعك إيقاف هذا.»
- «ماذا تريد مني أن أفعل؟»
- «قاتِل».
- «تعلم أنني لا أستطيع.»
- «كيف تعيش مع نفسك؟ كيف تنام؟»

- «لستُ من بدأ هذا، أجا ...»

- «يا إلهي، ليس مُجددًا.»

- «أجل، أعلم، سبق وسمعتَ كل هذا، لكن ذلك لا يعني أنه ما عاد صحيحًا.»

- «هكذا تريد أن تُذكَر إذًا، أليس كذلك؟ الرجل الذي قعد في كوخه حردان بينما قاتل رفاقُه وماتوا؟ هل أنت متأكد من هذا؟»

- «لا يمكنني فعلها».

- «إذًا دَعني أنا».

- «أنت؟»

- «لمَ لا؟ أيصعب تخيُّل ذلك إلى هذه الدرجة؟»

- هز «أخيل» رأسَه: «لا، بالطبع لا.»

- «أمر تراك تظن أن الرجال لن يتبعوني؟»

- «لا، أوقِن أنهم سيفعلون.»

- «حسنًا، ماذا إذًا؟»

كان «أخيل» صامتًا، غارقًا في التفكير.

«إن ارتديتُ درعك، سيظنونك من يقاتل، أعني الطرواديين»، انتظرَ «فطرقل» ثم أردَف: «ستناسب مقاسي، تقريبًا».

نظرةُ قياس، ذلك التقييم الموضوعي، الذي لم يعتد أن يرى فيه إلا العاطفة، كان يبث الذعر، تعيَّن عليه إرغام نفسه على المتابعة:

- «قد يكون ذلك كافيًا لدحرهم.»

- «أجل، وثمن ذلك جَعْلُك هدفًا!»

- «أعرف، لكن ...»

- «وليس مجرد هدف لأي شخص، بل للأفضل، هكتور.»

- «أنت تقصد أنني هراء».

- «لا، لستَ هراءً، لكنك لستَ أنا كذلك.»

صمتٌ منكمش، «لا يهمني ما يحدُث لي.»

«لا، لكنه يهمني أنا»، وإذ لم يستطِع البقاء ساكنًا، مشى «أخيل» إلى آخر الغرفة وعاد مجدداً، ليتوقف أمام «فطرقل»: «أظن أن ذلك قد ينجح.»

- «لا، بل سوف ينجح، أعلم أنه سينجح، حالما يرون الدرع، لن يستطيعوا أن يروا غيرها.»

«حسنًا»، غاص «أخيل» في كرسي، بَدَا مكتوم الأنفاس، كما لو أن أحدًا لكمه على معدته: «لكن بشروط: أولًا في اللحظة التي ينسحبون فيها من السفن؛ تتوقف، لا يهمني كم تسير الأمور بشكل جيد، ستتوقف، وثانيًا لا تقاتل هكتور.»

- «إنني لن أهرب منه.»
- «لا تقاتل «هكتور»، موافق؟»

صمت.

- «اسمع، هذا كل شيء، هذه هي الصفقة.»

«حسنًا، وافقت»، وقفَ «فطرقل» وأخذَ نفَسًا عميقًا، بَدَت الجدران كأنها تنطبق عليه، شعر بحاجة إلى التواجد في الخارج إلى التحرك والقيام بأشياء، لكنه كان يعلم أن عليه البقاء مكانه: «متى نخبر الرجال؟»

- «قبل العَشاء، قبل أن يصيبهم الشلَل بشكلٍ كامل، أتريد عقد جلسة تخطيط؟»

«لا، الخطة هي الخروج من الخندق والقتال بضراوَة»، فجأةً ضحك «فطرقل» بصوتٍ عالٍ: «لا أطيق الانتظار حتى أخبرهم، لن يوقفهم أي شيء، إنهم

يخبطون الأرض بأقدامهم غيظًا منذ أسابيع.»

كان «أخيل» ينظرُ إليه بنظرة أقرب إلى الحزن: «أتعلم؟ لقد كان أحد أحلامي أن نسيطِر على طروادة أنت وأنا معًا.»

- «ماذا؟ نحن الاثنان فقط؟»
- «لِمَ لا؟»
- «كنتُ لأظن أن السبب واضح كفاية.»
- «ليس بالنسبة إليَّ.»

كان «أخيل» يضحك على نفسه ولو للتو وحسب.

- «إذًا - في حلمك هذا - هل جميع الآخرين موتى؟»
- «أجل، أظن ذلك.»
- «ورجالك أنت، جميعهم؟»

رفع «أخيل» كتفيه قليلًا.

- «أنت متوحش، أتعلم هذا؟»

«أجل، على نحو غريب بما يكفي، أعلم»، ألقى بذراعه على منكبَي «فطرقل»: «هيا، فلنأكُل».

***

-٢٨-

كانت القواعد قد تغيرت ذات زمان، منذ فترة غير طويلة، قُيِّدت نساء «أجاممنون» بصرامة ضمن حدود الأكواخ؛ أما الآن، بِتنا مُطالَبات بالخروج

والهتاف للجيش الإغريقي وهو ينطلق نحو ميدان المعركة.

قبل الفجر بساعة، أصبحَت سقائف الحياكة خالية؛ حتى النساء اللاتي في خيم الاستشفاء كان عليهنَّ الذهاب، أخَّرتُ الأمر قدر ما أجرؤ، ثم جررتُ نفسي إلى موقع الاحتشاد، لم أستطِع التفكير في السبب الذي جعل «أجاممنون» يصر على حضورنا، بما أنه لم تصدُر عنا في أحسن حالاتنا سوى بعض الهتافات المزرية، إلا أنني لاحظت - فيما يتعلق بذلك - أن رجالًا يحملون الرماح كانوا يجوبون صفوف النساء، ويشجعونهنَّ على مساندةٍ أكثر صخبًا.

لكن كل شيء في ذلك اليوم كان مختلفًا، ذاع في كل جنبات المعسكر أن «أخيل» قد لان، وأنه سيُقاتل أخيراً، لم أصدق ذلك، فقد كنت سمعته يرفض رشاوى «أجاممنون» بحسم، ما الذي عساه يكون قد حدث في الفترة اللاحقة ليجعله يغير رأيه؟ ما عدا - بالطبع - أن يكون ثمة عرض آخر سري، صفقة، وإن كان ذلك، فهل تضمنتني؟ ما كان من أحد أن يُكلِّفَ نفسه عناء إخباري.

أخذت أنظُر في الأنحاء محاولةً تقييم المزاج العام، في المستشفى، لم تكن الإشاعة التي مؤداها أن «أخيل» قد وضع غضبه جانبًا وهَمَّ بالقتال مجدداً كافيةً لإجلاء الكآبة، الرأي العام وجد ذلك أمراً قليلًا ومتأخراً جدًّا، لكن أولئك كانوا رجالًا مرضى، وحالما ابتعدتُّ عن المستشفى، لم أرَ إلا البهجة والانفراج.

ولم يتضح ذلك في مكان أكثر مما كان في مجمع «أخيل»، إذ لم أستطِع البقاء بمنأى، عبرتُ البوابة بخمار لصيق يلف رأسي وكتفي، كنتُ أعلم أن «ريتسا» ستغطي على تغيبي أطول وقت تستطيعه، كان المرميديون وهم في عتادهم الكامل قد راحوا يتحلقون في فناء تنظيم الصفوف، متهيجين كقطيع ذئاب شم رائحة الدم، وخلفهم في الإسطبلات، استطعت أن أرى خيول «أخيل» تمُشط حتى يلمع شعرها، وحين خرج «أخيل» نفسه من الكوخ واعتلى مؤخر سفينته كي يتكلم، تعالى هديرُ استحسانٍ مِلءَ الحناجر، ومع ذلك لا بد أنه بَدَا غريبًا للرجال، مثل ما بدا لي أنا أيضًا، أن يروه واقفًا هناك أعزلَ وبمفرده، لماذا لم يكن مسلحًا؟ الآخرون جميعهم كذلك، كما أنني لم أرَ «فطرقل» في أي مكان،

رغم أنه يفترض به بحلول هذا الوقت أن يكون في العربة والأعنَّة معقودة حول خصره.

عندئذٍ، مع انتهاء «أخيل» من كلامه، دُفعَ باب الكوخ ليُفتح عن آخره وخرج «أخيل»، صمتٌ مُطبق في محل الهتافات المفترَضة، حلَّ الصمت، لا أظن أن الرجال فوجئوا، فقد كانوا يعلمون ما يحدُث، لكن تلك اللحظة، حين التقت نسختا «أخيل» ووقفتا وجهًا لوجه، تلك اللحظة كانت تثير القشعريرة، كما لو أن ظلًّا مر أمام الشمس وغطاها.

لقد عوضوا عن صمتهم لاحقًا بالهتاف وخبط الأقدام وقرْع السيوف على الدروع والطبول والمزامير والأبواق، غير أن ردة الفعل الأولى كانت الخوف، شعر الناس الساكنون الهادئون الراهبون بحضور العجائبية، بوقوفه هناك مطابقًا تمامًا لـ «أخيل» من كل النواحي، كان «فطرقل» قد تحوَّل إلى أحبولته، البديل الذي يظهر ليُعلن اقتراب موت رجل، «أخيل» كان يشعُر بهذا، أعلم ذلك، رأيت تعابيره تتغير، لكنه استدرك الأمر بسرعة، في الحقيقة كان أول الهاتفين، إذ ركض صاعدًا العتبات ليطوق «فطرقل» بذراعيه.

قطعا الفناء سويةً، وراح الحشد ينفرق ليفسح لهما، «فطرقل» يسير بطريقة «أخيل»، لعل الدرع فرضت ذلك التغيير عليه، فهي رغمَ كل شيء قد صُنِعَت لتناسب مقاس «أخيل»، أو ربما كانت تلك محاولة متعمَّدة لتقليد حركاته، لكنني أظن أن الأمر كان أكثر من كلا الاحتمالين، لقد أصبحَ «أخيل»، أليس ذلك هو الغاية الأسمى للحب؟ ليس تقاطع فكرين حرين اثنين، بل هوية واحدة منصهرة، تذكرتُ رؤيتي لهما على الشاطئ ليلةَ تبعتُ «فطرقل» إلى البحر، هذا كان ما لمحته آنذاك.

هيأ «أوتوميدون» - الذي كان يشغل محل «فطرقل» كحوذي - نفسَه ليثبت العربة، بينما يثب «فطرقل» إلى متنها، وبعد القليل من الحوار المقتضب - «فطرقل» ينحني ليستمع و«أخيل» يرفع نظره ليتحدث - جلدَ «أوتوميدون» أعناق الخيول بالأعنة فانطلقت العربة قدمًا، قُرِعَت الطبول، ودوَّت الأبواق،

وواكب الرجال الإيقاع بدقِّ سيوفهم على دروعهم، ثم تحرك الطابور ببطء، كان من المقرر أن يقود المرميديون الهجوم؛ لأن طاقتهم مُنتعشة، ولأن الجميع يعلم أن مرأى «أخيل» سيبث الرعب بين صفوف الطرواديين، كان بوسعي تخيُّل ذلك الارتياع والتنبه، حالما يتعرف «بريام» من على شرفة الحصن و«هكتور» من مكانه في الميدان إلى الخوذة الذهبية وزينة شعر الحصان المتراقصة فوقها، لم يكن «هكتور» جبانًا، ما كان منه أن يتوانى، كان ليشقَّ طريقه نحو الخوذة، وكل مقاتل طروادي لديه سمعة يصنعها أو يذود عنها سيحاول أن يصِل إلى هناك قبله؛ الرجل الذي يقتل «أخيل» سيضمن مجدًا خالدًا.

لكن «أخيل» لم يكن الشخص الذي داخل الدرع بل «فطرقل»، ذلك الصباح اكتشفتُ شعورَ أن يمتلك المرء ولاءات منقسمة، لم أجرؤ أن أصلي؛ لأنني لم أعرف ما أصلي من أجله.

بعد أن تلاشى قرع الطبول وضرب الدروع في المسافة، خيَّم صمتٌ مخيف على المعسكر، دعتني «إيفيس» - التي كانت قد شاهدت «فطرقل» يغادر هي أيضًا - لأشاركها دورَق نبيذ، لكنني رفضت، تحتَّم عليَّ أن أهِمَّ بالعودة، وبالفعل انطلقتُ على الفور، أسير بعزم في طريق بين صفين من الأكواخ، لكنني ما إن أيقنتُ ألا أحد يراقبني حتى أبطأتُ سيري.

كنت أريد بضع دقائق أخرى لأستمتع بالصمت وحَسب، ما من أحد يئنُّ، ما من أحد يصيح طلبًا للماء؛ لا صوت على الإطلاق عدا باب يصطفق منفلتًا حول مفاصله وصيحات النوارس وهي تحوم في الأعالي، كل الطرق هُجِرَت، الرجال ذهبوا، والنساء داخل الأكواخ، حيث كانت طقطقة الأنوال القوية بدأت تتعالى، أغمضتُ عيني للحظة، وأخذتُ أنصت إلى نقر أصابع الريح المستمر على حبال الأشرعة، ذلك الصوت الذي يُبلغ العقلَ ذروة استفزازه والذي كنت قد بدأت أبغضه، وحين فتحتهما مجدداً، كان هو هناك.

لم يكن قد رآني، كان واقفًا في الزاوية بين صفين من الأكواخ، ينظرُ إلى داخل

البر نحو ميدان المعركة، وللمرة الأولى منذ سمعتُ صدى صيحته القتالية يتردد بين أسوار ليرنيسوس، رأيته يبدُو نهبَ ضعفه، انسحبتُ إلى الخلف نحو الظلال، تساءلتُ كيف تراه يشعُر وهو الرجل الوحيد غير المصاب الذي بقي في المعسكر؛ لأنه كان الوحيد فعلًا، الآخرون جميعهم قد ذهبوا، حتى المسنُّون الذين يبقون عادةً لحراسة السفن، ظللتُ ساكنةً، بالكاد أجرُؤ على التنفس، وبعد مدة ابتعد يسير باتجاه كوخه.

تسللتُ إلى الشاطئ مُتحررةً من اضطهاد حضوره، وهناك ركلتُ صندلي على الفور، وبدأت أسير بمحاذاة البحر على غير هدى، أجرُّ قدمي عبر بُسُطٍ من الطحالب مُرسِلةً سحبًا من الذباب الرملي الصغير اللسَّاع مع كل خطوة، ورحتُ أنحني من حينٍ إلى آخر لألتقِط صدفة بطلينوس حادة، أو حقيبة حورية بحر، (12) أو جناح نورس ما يزال متماسكًا جزئيًّا: كل تلك المخلفات التي يفرغها البحر على اليابسة، وكنتُ أحيانًا ألتقِط بعض الحصى، لكن أيًّا منها لم يكن بجمال الحجر الأخضر حاد الحواف الذي اكتشفتُه في يومي الأول في المعسكر، كنتُ مُستغرقةً إلى درجة أنني لم أنتبِه إلى أين أذهب، حتى شعرتُ برعشَة مفاجئة فرفعتُ ناظري لأرى أولى السفن السوداء تشهق فوقي، القسم السفلي من بدنها القاتم مرصع بالبرنقيل رمادي اللون، سرتُ بمحاذاتها محاوِلَةً قلع إحدى المحارات بأظافري، لكنها كانت ملتصقة بشدة، ظل عميق بين السفن، رائحةٌ تحت مائية خضراء شديدة الرطوبة لم تلبَث حتى أصبحَت كريهة، وبدافع من رغبتي في الابتعاد عنها، بدأت أُسرِع في سيري، ثم حالما بلغتُ مؤخر السفينة، كان ينعطف من الزاوية بالسرعة الكاملة.

كدنا نتصادم، إلا أنه كبح نفسه في الوقت المناسب وتراجع خطوَة، لاحظت أن الشحوب قد اعتراه بشدة ولم أستطِع أن أفكر في السبب للوهلَة الأولى، ثم أدركتُ أنه في هذا الضوء تحت البحري الداجي كان قد ظنني «ثيتس»، إلا أنني لم أعرف السبب الذي قد يجعل للقاءٍ يجمعه بأمه ذلك التأثير عليه، الذي أعرفه أن الصدمَة جعلَته يغضب، لكن ذلك لم يكن مُفاجئًا؛ كل انفعالات «أخيل» كانت تبدُو تنويعاتٍ من درجات الغضب.

قال:

- «أنتِ، ما الذي تفعلينَه هنا بحق السماء؟»

قلتُ متراجعةً من أمامه: «جئتُ لأراهم وهم يذهبون»، ورغم إدراكي للغضب الذي يساوره، كنتُ مضطرة أن أسأل: «هل سيكون على ما يرام؟»

- «إن نفذَ ما قيل له، سيكون على ما يرام.»
- «لقد كان ذلك مذهلًا، سيظنون أنك أنت من يُهاجم.»
- «يجدر أن يكون أنا.»

كنتُ أرى أنه ما يزال غاضبًا، حاولتُ أن أتسحب لأتجاوَزه، لكنه أمسكني من ذراعي، وحُفِرَتْ أظافرُه عميقًا في جلدي: «آمل لو لم ألتقِ بك قط»، قال بهدوء شديد: «آمل لو أنك مت ذلك اليوم في ليرنيسوس.»

دفعني بقوة على جدار السفينة، ورفعتُ ذراعي لأحجب وجهي، لكنه اكتفى بالقبض على طرف سلم من الحبال، وتسلق إلى المتن ببضع خطوات قوية واسعة، انتظرتُ حتى تأكدتُّ أنه ذهب، ثم ركضتُّ باتجاه الأكواخ، حين التفتُّ لأنظر ورائي، وجدته هناك في مؤخر السفينة: ظل طويل أسود على خلفية من السحاب الرمادي المتحرك، لم يكن ينظُر إليَّ، بل ينظُر من فوق رأسي مباشرةً نحو ميدان القتال.

مع شعوري بأني نفذتُ بجلدي، أطرقتُ ببصري وركضتُّ طوال المسافة عائدةً إلى المستشفى وإلى «ريتسا» وإلى بر الأمان.

***

يترك «أخيل» لقاءه بالفتاة خلفَه، ويركز كامل انتباهه على ميدان القتال، الشمس

الآن فوق رأسه تمامًا قاسيَة وبيضاء، متركزة في رأس حربة تثقب جمجمته، وهو يُضطر لمسح العرق بشكل مستمر عن عينيه اللتين تلسعانه، يحاول تتبع تقدم خوذته المزينة عبر عُقَدٍ من الرجال المتصارعين، فتبدأ طمأنينته تتزعزَع من هذا التركيز الذي لا يرفُّ على ظل بعيد لا يمكن تفريقه عنه هو ذاته.

تحت مؤخر سفينته، المجمع مهجور: النساء يثرثرن خلف أبواب سقائف الحياكة المغلقة، والكلاب تدلي ألسِنتها الوردية وبؤسها متمددة في ظلال الأكواخ، ثمة إبريق ماء قربه، لكنه دافئ ومذاقه مُغثٍ، رغم أن الفتاة التي جاءت به أقسمت أنها جلبَته من البئر مباشرة، يعب جرعة منه، يخضخضها في فمه، ثم يبصقها على ظهر السفينة، حتى ذلك الانقطاع الصغير في تركيزه كفيل بتضليله، حين يرجع نظره إلى ميدان القتال، لا يستطيع رؤية الخوذة على الفور فيتوتَّر مُتوقعًا الأسوأ، لكن لا، ها هي ذي حمدًا للآلهة، «فطرقل» يشق طريقه بين صفوف الطرواديين نحو طروادة واللقاءِ الذي لا مناص منه بهكتور، ما الذي يفعله؟ السفن آمنة منذ ساعة على الأقل، «استدِرْ وعُدْ».

ينتبه إلى أنه قالها جهراً، لا شيء حوله إلا ظهر السفينة الخاوي والمعسكر الخاوي، ما من أحد ليسمع، ومع ذلك فالصمت الساخن المُهان يجعله يشعر بالخجل من نفسه، حسنًا، سحقًا لهذا، يصرخ بأعلى صوته: «استدِرْ وعُدْ أيها الأحمق الداعر، حبًّا بالآلهة.»

المقارعة الآن كثيفة وسريعة حول الخوذة، لا يستطيع تحمُّل المشاهدة، لكنه كذلك لا يستطيع أن يتوارى في كوخه فلا يعرف ما يحدُث، أربع ساعات ورأسه عارٍ تحت قيظ الشمس، أربع ثم خمس، وما زال العدُّ مستمراً.

يكون من السهل تجاهل الغرابة وانعدام الصواب في بادئ الأمر، حتى يصبح داخل الخوذة فجأة، ويأخذ رأسُه بالاهتزاز بين جوانبها البرونزية، بينما تنزل عليه ضربات سيف شديدة، للحظةٍ تصبح السماء سوداء، ثم ينهض عائدًا إلى ما كان عليه، ويصيح صيحته الحربية المهولة لدى رؤيته بوابة طروادة، الرجال الجرحى يملؤون الأرض حوله كالديدان، ثم إذ به يلمحه من خلال جدار من الظهور

المتزعزعة؛ هكتور، لكن الترس ثقيل إلى درجة يكاد معها أن يخلع ذراعه من مفصلها، وجسده زلق من العرق الذي يكسوه، وحين يحاول القبض على رمحه تزلُّ أصابعه.

يمسح «أخيل» عينيه ويُرْخِي منكبيه إلى الخلف، يُدير رأسَه بحذَر من جانبٍ إلى آخر، ويحمل نفسه على التركيز في التفاصيل: إبريق الماء عند قدميه، التشعب الدقيق لألياف الخشب في اللوح الذي تحت الإبريق، يحتاج إلى إعادة الاتصال بموجودات محيطه، والرجوع إلى العالم الواقعي، والتأقلم مع منظور لا تؤطره الحدود الحديدية لخوذة.

بالتدريج، ينتظم إيقاع تنفسه، لكنه رغم ذلك يظل غير حاضر بالكامل بالنسبة إلى نفسه، لا يفتأ ينظُر إلى يديه، يسترق نظرات سريعة، كما لو يظُن أنهما تخصان شخصًا آخر، بالتأكيد لا يمكن أن تكونا كبيرتين هكذا؟ يضيق قبضته على الإفريز أكثر - ثم أكثر بعدُ - محاولًا اعتصار الوهم من عقله، وببطء تعود يداه إلى حجمهما الطبيعي، لكن الأمر جعله يرتجف، لا شك في ذلك، يحتاج شربة من الماء البارد، البارد بحق، ليس هذا الروث الفاتر أو الأفضل حتى، ربما كوب من النبيذ البليل، وبينما يعتريه شعور بالوهن لا يتذكر له مثيلًا، ينزل نصف المسافة على سلم الحبال ثم يترك نفسه يهبط على الأرض، بضع دقائق بعيدًا عن الشمس القائظة، سيعود إلى حاله قريبًا.

سيعود إلى حاله قريبًا، يلاحظ كما لو كان يسمعه للمرة الأولى، غرابة ذلك التعبير، إلا أنه في محله تمامًا؛ فهو لم يكن على حاله طيلة اليوم، منذ الصباح الباكر حين أفاق ليجد «فطرقل» يقف عاريًا أمام المرآة البرونزية، كان قد انتهى من تجديل شعره وبَدَتْ الضفيرة الغزيرة الطويلة المتدلية على ظهره مثل عمود فقري ثانٍ.

ولدى انتباهه إلى حركة في المرآة، استدار نحو «أخيل» وابتسم.

سأله «أخيل»:

- «هل نمتَ؟»

- «في آخر الأمر».

- «أكنتُ أشخر؟»

- «ماذا تقصد بسؤالك بعد كل ما شربتَه؟»

«لم أشرب كثيراً»، وهذا صحيح، هو لا يفرط في الشراب أبدًا، ولا في الأكل كذلك، وبلا شك لا يفوت أبدًا جريه بالعتاد الكامل حول الخليج، إنه يتمتع بكل الفضائل الثانوية، إلى جانب رذيلة هائلة واحدة فقط: «كيف تشعُر؟»

استدار «فطرقل» إلى المرآة من جديد: «أنا بخير».

نُقِرَ على الباب ثم دخل «ألكيموس» حاملًا قطعتَي درع لوقاية الساقين مصقولتين بشدة تؤلم عينيك من النظر إليهما، دلى «أخيل» ساقيه عن طرف السرير، وأخبر «ألكيموس» ألا حاجة إلى وجوده، وأنه سيساعد «فطرقل» بنفسه على ارتداء الدرع، كان صوته ينمُّ عن الثقة، كما لو أنه هو وحده دون غيره من يعرف كيف يُهيئ درعه لاستخدام رجل آخر، رغم أن احتمال ارتداء شخص غيره لدرعه في الواقع لم يخطر له قط من قبل، الحقيقة أنه كان يحتاج إلى الانفراد بـ «فطرقل» هذه الدقائق القليلة.

راح يعمل بسرعة وصمت، وساعده على إيثاق أبازيم درع الصدر، لم يكن من الممكن عمل شيء للمفاصل، لكن أمكن على الأقل ضبط الأحزمة، إلا أن الناحية شديدة الأهمية تحت الذراع اليمنى تطلَّبت عدة محاولات قبل أن يتمكنا من إحكام تثبيتها:

- «هاك، كيف تشعر بها؟»

لوَّح «فطرقل» بذراعه في دائرة مجدداً: «جيد».

- «خذ، جرِّب الخوذة.»

مُحدِّقًا بصورته المنعكسة، أنزل «فطرقل» الخوذة على رأسه بحذَر شديد، ضبط قطعتَي الوجنتين، وعندها فقط استدار مشيحًا عن المرآة ليواجه «أخيل»، الآن بالقنزعة البرونزية وريش شعر الحصان يتمايَل حول رأسه، بَدَا طوله وقد ازداد قدمًا فجأة، ومع انحجاب جبهته وأنفه وقطعتَي الوجنتين الناتئتين على طول خط فكه، كاد وجهه يختفي تقريبًا.

- «إذًا، أتظنهم سيُصدقون أنني أنت؟»
- «أجل وحق الآلهة، أنا نفسي أُصدِّق.»

ضحك «أخيل» وهو يقول ذلك، لكنه كان يعلم أن صوته بَدَا متزعزعًا، أشاح جانبًا، ونظر إلى بقية الدرع: واقيَي الكتف وواقيات الذراع وواقي الرقبة وواقيَي الساقين، تظاهر أنه عثر على بقعة وسخ فوق أحد واقيَي الساقين وبدأ يدعكها بخرقة ناعمة، وأرجع رأسه ليتفقد المنطقة، ثم نفخ عليها وعاود فركها، مع كل مسحة بالخرقة، كان وجهه يظهر من جديد، بملامح أضفى عليها انحناءُ المعدن وحشية: «أتريد رمحي؟»

«لا، سآخذ رمحي، لن تجدهم ينظرون إلى الرمح، ليس إن كان مقحمًا فيهم على أية حال»، استدار إلى المرآة مجدداً، بَدَا مسمراً دهشةً من صورته المنعكسة، أم أنه كان ينظُر إلى صورة «أخيل»؟ «غير أنني سآخذ سيفك».

ذهب «أخيل» لإحضاره، لكنه بدل أن يسلمه إياه، بدأ يقطع الهواء، مقتربًا بثبات شيئًا فشيئًا من «فطرقل»، والنصل يومض بسرعة بَدَا «أخيل» معها يتلاعب بنصف دستة من السيوف، ظل «فطرقل» ثابتًا في مكانه، إلا أنه بَدَا وقد أُخِذَ على حين غِرَّة واستطاع «أخيل» أن يرى أول وميض واهٍ من الخوف في عينيه، في نهاية المطاف، أخفض «أخيل» السيف ضاحكًا ومد يده به، لكنه حتى حينذاك لم يستطع حمل نفسه على التخلي عنه، وبدلًا من ذلك، شهره على عنق «فطرقل» العاري، نصل حاد إلى درجة أن مجرد إرخائه بخفة على الجلد قد

يسبب جرحًا، كان رأس السيف يرتعش من النبض في يد «أخيل»: «أتتذكر ما قلته؟ مهما كانت الأمور تسير بشكل جيد، ستستدير وتعود لحظة تصبح السفن في أمان، ولن تقاتل «هكتور»، «هكتور» لي.»

«حسنًا»، ابتسم «فطرقل» يَبْدَ أن رغبته برفع رأس السيف كانت جليَّة: «قلت لك: حسنًا».

لبرهة طويلة، راحا يحدِّقان ببعضهما البعض، ثم - بانحناءة خفيفة يسخر بها من نفسه - سلمه «أخيل» السيف: «وتذكر، أتوقع عودتك على الغداء.»

ضحك «فطرقل»، لكنه لم يكن يُولي كثير انتباه، كان يتوق للانطلاق، ارتداء درع «أخيل» غيَّرَه، وغيَّر العلاقة بينهما، أصبح الآن نِدَّ «أخيل» - حسب تقديره هو على الأقل - وتجلَّت الثقة الزائدة في مشيته وإيماءاته وحتى في طريقة رفعه لرأسه، وجعله ذلك مقنِعًا إلى أبعد حد.

قال «أخيل»: «أتعلم؟ بدأت أرى أن هذا قد ينجح.»

كان «فطرقل» يُلوِّح بذراعه مجددًا، ممسكًا بالسيف هذه المرة: «سينجح».

- «أواثق أنه ليس ثمة بأس في هذا؟»
- «الأمور على ما يرام».
- «أتمنى لو تتوقف عن قول إن كل شيء على ما يرام.»

جذبه «فطرقل» وعانقَه:

- «لكن الأمور كذلك بالفعل».
- «سأتحدث إلى الرجال أولًا.»

تقدمه «فطرقل» إلى البهو المظلم، لكنه توقف قبل خروجه من الباب، تعانقا مجددًا، عناقًا خصوصيا، أكثر حميميةً من العناق العمومي الذي سيعقبه، إلا أن

«أخيل» استطاع حتى حينذاك أن يشعر بالتوتر في كتفي «فطرقل»، توقه للانطلاق.

هزه «أخيل»: «عُد وحسب».

ثم خطا خارجًا إلى الضوء المبهر مثبتًا على وجهه ابتسامة.

بعد ساعات، لدى دخوله من الضوء إلى عتمة البهو شبه الكاملة، يتوقف قليلًا ليعي محيطه، وحين يستعيد قدرته على الرؤية، يذهب إلى راقود الماء في زاوية البهو ويغمر رأسه تحت السطح، ممررًا أصابعه في شعره المبلل بالعرق، ويبقى تحت الماء وقتًا كافيًا لتبدأ رئتاه تؤلمانه، وعندما يرفع رأسه والماء يتقطر منه فتتبعثر القطرات مثل اللآلئ الرمادية فوق جلده، يجد نفسه يرتعد بشكل خارج عن السيطرة، لقد نالت الشمس منه دون شك، إلا أنه يشعر بحال أفضل فعلًا، ذهنه صافٍ على الأقل.

بحالٍ أفضل، لكنه غاضب، توقفْ في الدقيقة التي تُصبح فيها السفُن بأمان، لا تتابع الزحف إلى البوابة، لا تقاتل «هكتور»، «هكتور» لي أنا، أكان بوسعه أن يوضح كلامه أكثر؟ ومع ذلك - والحق يقال - «فطرقل» لم يقاتل «هكتور» - ليس بعدُ على أية حال - لكنه تجاهل بقية التعليمات ببساطة، «أخيل» يَذْرَع ذهابًا وإيابًا، يركل أي شيء يعترض طريقه، ويبدو أن كل شيء يعترضها، بالطبع ما عدا الكلبين، اللذين يعرفان الأفضل لهما فينسلَّان خلسةً إلى الفناء، ليس الأمر أنه لا يفهم لماذا عصى «فطرقل» أوامره، فأحيانًا في خضمِّ حماة المعركة، تحلُّ لحظة من السكون، إذ يتباطأ الزمن ويتلاشى الصياح والصخب فترى العروق الحمراء في بياض عيني العدو وتعلم - لا تعتقد أو تأمل - أنك لن تخطئ، نادرة تلك اللحظات، أما في الخمسة والتسعين بالمئة الأخرى من الوقت، تكون الحرب طحنًا داميًا مضجرًا فقط، يكونها الملل والرعب بمقدار متساوٍ، لكن حينها تعود من جديد؛ تلك اللحظة المشرقة، عندما يتلاشى ضجيج المعركة ويصير جسدك قصبةً تصل بين الأرض والسماء.

لا أحد في تلك الحالة يستطيع أن يتوقف ويستدير متراجعًا، وهو يظن أن

«فطرقل» كان في تلك الحالة - أو قريبًا منها - طيلة الصباح.

ومع ذلك، الأوامر أوامر وتجِب إطاعتها، هو سيهنئه، سيصفعه على ظهره أمام الرجال، ويصب له كوبًا من أفخر الأنبذة، ويخصه بأفضل قطع اللحم على العشاء، ويُغني مدائحه، ويُقدم الشكر للآلهة كل ذلك؛ لكن لاحقًا حين يكونان بمفردهما، سيُري ذلك الوغد الصغير حق حجمه، عليه ذلك، فلا يمكنه أن يترك الأمر يمر مرور الكرام أبدًا، غير أنه سينتظر ولا ريب حتى ينفرد به وعندها سيقول، ماذا سيقول؟

فجأة، يقطع «أخيل» ذَرعه المحموم للمكان ويحدق في المرآة البرونزية، حيث لا يبدي وجهُه الذي يرد له النظر أي غضب على الإطلاق، لكن الخوف فقط خوف ألا يقول أي شيء لـ «فطرقل» بعد الآن على الإطلاق، يكسره ذلك، يتكور على السرير حيث ما تزال المُلاء محتفظة برائحة جلد «فطرقل» ويُردد اسمه مرارًا وتكرارًا، كما لو أن مجرد التلفظ به قد يكون تعويذة ضد الكارثة، «فطرقل»، ومجددًا بصوت أعلى: «فطرقل».

في ميدان القتال، يسمع «فطرقل» «أخيل» ينادي اسمه ويترنح تركيزُه لثانية، كانت ثانية لكنها طويلة بما يكفي، فها هو «هكتور» ذا فجأةً أمامَه مباشرةً، يُحاول أن يرفع سيف «أخيل» لكن الوقت قد فات بالفعل، «هكتور» يُقحم الرمح بقوة في جنبه - يدخل بسهولة شديدة - وفجأة إذ به على الأرض، يتخبط مثل سمكة في بركة آخذة بالجفاف، تحتشد أخيلة قاتمة لمقاتلين طروادبين حوله حاجبةً الضوء، يصيح: «أخيل»، ومجددًا إذ ينبثق الدم الأحمر خارجًا منه وتبدأ روحه بالانفلات بعيدًا في الظلماء: «أخيل».

على بُعد ميل، يرفع «أخيل» رأسَه، للحظة وحسب كان قد ظن هناك أن «فطرقل» ينادي اسمه، حسنًا، لا يمكن هذا، هو صوت رجل مع ذلك، وهذا أمر غريب لأن الرجال جميعهم يقاتلون هناك، لم يتبقَّ في المعسكر سوى النساء، مرارة ذلك الإدراك تأكل طريقها إلى جوفه.

هو يعلم صوت مَنْ كان هذا، لكنه خائف من أن يسمح لنفسه بالتفكير فيما قد

يعنيه ذلك؛ لذا يقول لنفسه: لا، لقد كان نورسًا، فصرخاتها تبدو بشريةً على نحو يثير الدهشة أحيانًا.

يرفع نظره إلى العوارض الخشبية، ويحاول أن يصلي، لكن الصلاة لا تأتيه بسهولة، إنه ابن أمه، ويعرف عن الآلهة ما هو أكثر من اللازم، وبعد بضع كلمات متلعثِمة ينكفئ عن مسعاه، لا جدوى من الجلوس هنا، حان وقت عودته إلى السفينة، رغم أنهم إذا استمر التقدم بهذا المعدل سرعان ما سيخرجون عن مدى الرؤية.

بالكاد يبلغ الباب حين يسمع اسمه يُنادى مجددًا، وهذه المرة لا مجال للخطأ، إذًا فقد عادوا، بطريقةٍ أو بأخرى -يعلم الإله كيف-قد عادوا.

يدفع الباب ويخطُو إلى الشُّرْفة، متوقعًا أن يرى الفناء يغص بالرجال والخيول، لكن ما من أحد هناك، الصمت فقط، وفي مكان ما عبر المسافة يصطفق بابٌ منفلتًا حول مفاصله.

فليعد إلى السفينة، ويرى ما يحدُث، يتوقف في منتصف سلم الحبال؛ لأن شيئًا لفت نظره، حركة ما، ثم يراها: عربة تقاد بقوة وسرعة، الخيول تنبثق من غمامة غبار، بطريقة ما - يوقن ذلك على الفور - عليه أن يردع تلك العربة عن الوصول إلى هنا، فحين تفعل، سيسمع أسوأ كلمات سبق وسمعها، وعلى ذلك يبذل كامل قوة إرادته ليدفعها إلى الخلف، لكن حتى قوته لا تستطيع إيقاف الوقت أو تجميد الهواء.

يأخُذ نَفَسًا عميقًا، يترك نفسه يسقط فوق الأرض ويسير إلى مركز الفناء لينتظر ما يعلم أنه آتٍ، لا شيء يتحرك في الأكواخ حوله، لا نفَس حتى ولا ريح تُحرك ساكنًا.

شمس بيضاء وظلال سوداء حوافها حادة كحد السكين، صمت.

***

-٣٠-

جلستُ طيلة ذلك اليوم الطويل على المقعد أطحن الأعشاب بينما يتحرك صوت المعركة - الصاخب في بدايته - إلى بعيد بثبات حتى لم يعُد بحلول منتصف الأصيل أكثرَ من صليلٍ مكتوم عند الأفق، دخلت بعضُ شراذم الرجال الجرحى - دون إصابات بليغة - وكانت الأخبار التي عادوا بها جيدة، جيدة إن كنتَ إغريقيًّا، كان قد تم دحر الطروادين، وبلغ «فطرقل» والمرميديون بوابة طروادة، بَدَا من الممكن حتى إن تسقط المدينة ليلتئذ.

انتشرت الأخبار بسرعة من خيمة إلى خيمة ولم يلبَث أن انخرطَ الجميع ما عدا ذوي الإصابات الأشد بالضحك والغناء، أغانٍ عسكرية وأغانٍ وجدانية عن الأمهات والوطن، وأغانٍ رومنسية عن الزوجات والمحبوبات، وبشكل مُتزايد مع تقدم النهار؛ أغانٍ عن «هيلانة».

«العينان والشعر والثديان والشفتان

تلك التي أشرعت ألف سفينة حربية»

جميعهم كانوا يعتقدون أن «مينيلاوس» زوجها أخا «أجاممنون»، سيقتُلها حين يستعيدها، هو قال ذلك مرات كثيرة، كان بعضهم يميل لاعتقاد أن تلك خسارة؛ ضاجِعْها أولًا ثم اقتلها.

«ضاجِعْها واقفةً.

ضاجعها مُستلقيةً.

حُزَّ عنقَها وضاجِعْها وهي تحتضر.

وحين تصبح ميتة لكن غير منسية.

احفر وانتشلها ثم ضاجِعْها متعفنةً.»

غنُّوا حتى بُحَّت أصواتهم وهم يُنادون في طلب خمر أقوى، الأمر الذي

اضطررنا إلى رفضه وفقًا لتعليمات «ماشاون»، ثم حلَّ هدوء مُؤقت، دُرْتُ بأباريق ماء؛ كانت الحرارة في الخيمة خانِقَة، رائحةُ الدم الفاسد من الأضمدة والملاء حاجزٌ مادي كان عليك شق طريقك بجهد عبره، بحلول نهاية الأصيل، كانت أصوات المعركة قد بدأت ترتفع مجدداً، أخذ الرجال ينظُرون إلى بعضهم بعضًا، لماذا؟ هل كان يتم دحر الإغريق إلى الخلف؟ بعد ذلك بفترة قصيرة، حمل دفق من الرجال الجرحى نبأً مستجدًّا رهيبًا، «فطرقل» مات، قتله «هكتور»، كانوا يتقاتلون على جُثته الآن، الطرواديون يحاولون سحله إلى داخل أسوار طروادة، والإغريق يقفون فوق جُثته لردعهم، قال رجل: إنه رأى «هكتور» يجذب ساقَي «فطرقل»، بينما يتشبث «أوتوميدون» و«ألكيموس» بذراعيه: «ظننتُ أنهم سيمزقونه».

مات، لم أستطِع تصديق ذلك، رغم أنني علمتُ منذ لحظة خروجه من الكوخ مُرتديًا درع «أخيل» أن اليوم سينتهي بموته، شعرتُ أن عليَّ الذهاب إلى «إيفيس»، كان التفكير في أساها أسهل من التفكير في أساي، لكنني لم أرَ سبيلاً للفرار من المستشفى، مع كل هذا العدد المتدفق من الرجال الجرحى.

ولذلك لم أكن حاضرة حين تلقى «أخيل» النبأ، لكن «إيفيس» رأت وسمعت كل شيء وهي تراقب من مدخل أحد أكواخ النساء، كان «أنتيلوكوس» - ابن «نسطور» - الصبي الذي يعبُد «أخيل»، هو من أنبأه بموت «فطرقل»، وحالما خرجت الكلمات، أفلتَ «أخيل» صيحةً هائلة وخر أرضًا، يداه تغرسان أصابعهما في الرمل القذر، فيغرف منه ويُهيل فوق وجهه وشعره، خشيةَ أن يستلَّ خنجره فيحز عنقه، أمسك «أنتيلوكوس» بمعصميه وثبتهما، ولدى سماع النساء صرخته، خرجنَ يتدفقن من الأكواخ وحاوطنَه، حيث كان يرقد منهارًا على الأرض، فاقدًا الآن كل قوته.

فجأة، بدأت ريح عالية بالهبوب، جاءت من العدم كما قالت «إيفيس»، تصفر تحت الأبواب، ترفع أعراف الخيل وذيولها، وتخلق زوابع صغيرة من الرمل تدور كالدراويش ثم تخمد بالسرعة التي اندلعت بها، أظلمت السماء؛ غيوم سوداء كثيفة أطفأت الشمس.

راح «أنتيلوكوس» يُحدِّق من وجهٍ إلى آخر: «ما الذي يحدُث؟»

وحينها رأوها تقطع الشاطئ بخطوات واسعة، برقُ عاصفة فضي رمادي يرمي بوميض معدني فوق وجهها وشعرها، دارت همسةٌ بين الحشد: «ثيتس».

قفز الاسم من فم إلى فم فبدؤوا على الفور بالتراجُع، البعض سُجَّد، جباه تلامس الرمل الرطب، بينما انكمش آخرون مُرتعدين في المداخل أو فرُّوا إلى داخل الأكواخ وصفقُوا الأبواب، الجميع يتوقون للفرار، يتوقون لئلا يضطروا أن يشهدوا هذا اللقاء، حتى «أنتيلوكوس» ترك معصمي «أخيل»، وزحف مُبتعدًا ليلُوذ في ظل أحد الأكواخ.

خيَّمَ صمتٌ باقترابها، وأولئك الذين لم يزالوا في العراء خارجًا غطُّوا أعينهم وأشاحوا مُبتعدين، تاركين الإلهة وحدها مع ابنها.

***

-٣١-

ما الخطب؟

ما المشكلة؟

أين يُؤلمك؟

الأسئلة القديمة، تلك التي اعتادت أن تطرَحها كلما عاد إلى البيت يبكي مع سحجة على ركبته أو كدمة في رأسه، كل خدش طفيف بدا يذكِّرها أنه فانٍ، ليس الأمر أنه لم يتقبل ذلك برحابة صدر، بالطبع فعل؛ انشغالها المتواصل حتى بصغائر أموره، غناؤها الهامس ستقبِّل أمك موضِع الألم ليُشفى؛ إلا أنه كان يمقت ذلك أيضًا، فأي الأمهات تلك التي تبدأ بندب ابنها لحظة ميلاده؟ لقد ترعرع متشبعًا بأساها، كان قويًّا، كان وافر الصحة أو على الأقل كان كذلك حتى غادرت، لكن أيا من ذلك لم يُهِمَّ، لا شيء كان كافيًا لمواساتها عن ولادته الفانية.

ما الخطب؟

ذلك البكاء النادب، الرائحة السمكية لأناملها وهي تهدهد رأسَه في يديها، وهكذا خرج كل شيء منه كالطوفان: موت «فطرقل»، شعوره بالذنب؛ لأن شيئًا من ذلك ما كان يجب أن يحدُث، كان يجدر به هو أن يكون داخل تلك الدرع، وحتى في هذه الأثناء، رجال أقل مهارة منه في فن الحرب يقاتلون لمنع «هكتور» من سَحل جسد «فطرقل» إلى داخل بوابة طروادة، رجال آخرون يموتون لينقذوا صديقه من التمثيل بجثمانه والإساءة إليه، بينما ما يزال هو جالسًا هنا، وزنًا عديم الفائدة فوق الأرض الخضراء الطيبة.

لكن كفى من ذلك، ذلك ماضٍ، لا يمكن تغييره، الآن كل ما يهمّ هو العثور على «هكتور» وقتله.

لكنك إن قتلتَ «هكتور» لأعقب ذلك موتُك على الفور.

«أتظنينني أهتم؟ هذا هو الشيء الوحيد الذي يبقيني حيًّا، فكرة أن أقتُله، وحالما يموت، فليأتِ موتي بأسرع ما يستطيع.»

لا يمكنك القتال دون درع.

«لِمَ لا؟ إن كنت سأموتُ على أية حال؟»

لكنها محقة بالطبع، فدون دِرع لن يعيش ما يكفي لبلوغ «هكتور».

ابقَ بعيدًا عن ميدان القتال في الوقت الراهن، غدًا عند الفجر سأجيئك بدِرع تليق بإله.

وعلى ذلك تسير عائدة إلى البحر، تغوص خلف موجة متعاظمة، وينتشر شعرها على الماء مثل مروحة، تظل هناك للحظة ثم تختفي.

ينتظر ألمَ الفقد المألوف، لكن لا شيء يحدُث هذه المرة؛ لعل عذابات فقدان «فطرقل» ابتلعت كل أسًى أقل منها.

خلال الساعات القليلة التالية، يشعر بالخدر في الدرجة الأولى، والشعور بدَني، ينظر إلى يده المبسوطة على سطح الطاولة فلا يستطيع أن يحدد أين ينتهي اللحم ويبدأ الخشب، مرارًا وتكرارًا، نصف يتخيلُ ونصف يُهلوسُ باللحظة التي سيُقحم فيها سيفَه في حلق «هكتور»، يجر نفسه ليعود إلى الحاضر، وهو يهز رأسه مثل ثور ذاهل، لطالما كان يتمتع بذاكرة جيدة، منذ طفولته، لكن هذه الساعات الأولى التي تعقب مصرع «فطرقل» ستظل فارغةً لبقية حياته القصيرة.

من دون درِع، هو حلزون بلا قوقعة عديم الجدوى، إلا أنه سرعان ما يفكر أنْ ربما هناك فعلًا ما يمكنه القيام به، وبهذا ينطلق ويتسلق إلى المتراس فوق الخندق، يقف هناك وحدود جسمه مفصلةٌ أمام خلفية السماء، فيرسل صيحته الحربية المروعة لتتصادى في جنبات ميدان القتال وتقطع المسافة بالغةً بوابة طروادة، النساء خلف أنوالهنّ يتوقفن للاستماع، الرجال الجرحى الراقدون في خيام الاستشفاء ينظرون بعضهم إلى بعض بأمل، و«بريزيس» - الجالسة إلى المنضدة الطويلة تطحن الأعشاب - ترتعد متذكرةً أول مرة سمعت فيها تلك الصيحة، يوم سقوط ليرنيسوس.

في ميدان المعركة، يتعرف الإغريق الذين يقاتلون لإنقاذ جثمان «فطرقل» على الصيحة فيلتفتون نحوها، ماذا يرون؟ رجلًا طويلًا يقف فوق متراس وضوءُ أولِ المساءِ الذهبي ينير شَعرَه؟ لا، ليس ذلك ما يرونه بالطبع، يرون الإلهة «أثينا» تطوق كتفيه بدرعها المتألقة، يرون ألسنة لهب بارتفاع ثلاثين قدمًا تنبثق من هامة رأسه، لم يتم توثيق ما رآه الطرواديون، فالمهزوم يعبر التاريخَ ويختفي، وقصصه تموت معه، ثلاث مرات يصيح «أخيل» وثلاث مرات يتقهقر الطرواديون، وتكون المسافة في المرة الأخيرة طويلة بما يكفي ليسحب الإغريق جسد «فطرقل» إلى فسحةٍ ويحملونه عائدين به إلى معسكرهم.

الآن ثمة أخيراً ما يمكنه فعله، يمكنه أن يغسل الجسد - الجسد المسكين المُخرب - الذي شققته السيوف حتى بات معجزةً أن أوصاله تماسكت؛ يمكنه أن يصبَّ الزيت في الجراح، شخص ما يربط الفك بشريطة كتان فلا يروق له ذلك؛ لأنه يجعل «فطرقل» يبدُو ميتًا للغاية؛ إلا أنه لا يعترض، يعلم أن من الواجب

عمل ذلك، يأخذ «فطرقل» بين ذراعيه ويهدهده، متحسسًا آخر الدفء في عمق صدره وبطنه، رغم أن ذراعيه وساقيه قد بردت بالفعل، يصل كاهنٌ وينغم بترنيم الصلوات؛ النساء يبكينَ ويلطمن صدورهن؛ أصدقاؤه يحاولون وضع أذرعهم حوله، لكنه يدفعهم بعيدًا، لا شيء من ذلك يساعد.

وحين لا يعود قادرًا على تحمُّل الأمر أكثر، يمشي إلى البحر، لكنه - وربما للمرة الأولى في حياته - لا يدخل مخوضًا فيه، يريد أن يصون القذارة التي تكسوه، لن يغتسل ولن يمشط شعره، هو لن يقوم بدفن «فطرقل» حتى، ليس قبل أن يرى «هكتور» وقد خرَّ صريعًا عند قدميه. تلك الليلة يمضيها مع «فطرقل»، مُتكورًا عند جنبه، بينما هو يرقد ممددًا، باردًا ومتخشبًا فوق السرير.

قبل الفجر بكثير، ها هو مستيقظ ينتظر على المقعد، لا يعترف بالحرقة في عينيه على أنها تعب، ولا يميز الألم تحت ضلوعه على أنه جوع، هكذا هو الأمر الآن، يَذْرَع المكان جيئةً وذهابًا، هي تتأخر أحيانًا، وغالبًا ما تتأخر كثيراً؛ لم يكن بوسعه التعويل على قدومها قط، في بعض المرات - عندما كان طفلًا - وعدَتْه ثم لم تأتِ أصلًا، ولعل هذه تكون إحدى تلك المرات.

لكن حينذاك، فجأةً، إذ بها هناك، تخرُج من البحر بخُطى واسعة، حاملةً درعه الجديدة المتألقة، ثمة ترس يتدلَّى فوق إحدى ذراعيها النحيلتين، سيعاني «ألكيموس» و«أوتوميدون» - وكلاهما شابان قويان - ليرفعاه في وقتٍ لاحق من اليوم، يتظاهر من أجلها أنه معجب بالترس وكل قطع الدرع الأخرى، إلا أنه بالكاد يرى أيًّا من ذلك في الحقيقة، هو يحتاج هذه الدرع لينطلق إلى ميدان القتال، هذا كل شيء، لا يعني الأمر له أكثر من ذلك، تُعانقه وهي تنشج فيحمل نفسه على رد ضغط ذراعيها بمثله، لكن الحقيقة أنه لا يطيق الانتظار ليتملص منها، دموع النساء - حتى لو كانت دموع إلهة - لا تُجْدِيه نفعًا الآن.

الحرب، «هكتور»، هذا كل ما يهمُّه، لن يستريح بعد الآن حتى يموت «هكتور».

***

سمعتُه قبل أن أراه: جنبات المعسكر كانت ترجِّع أصداء صيحته للمعركة بينما يسير على الشاطئ بخطى واسعة يستدعي الرجال للحرب.

أخذ الجرحى في فرشهم المبللة بالعرق ينظُرون بعضهم إلى بعض، وأصر أولئك القادرون على المشي ولو بالكاد على أن ينهضوا ويعرجوا إلى ميدان المعسكر، انسللتُ من الطية المفتوحة في القسم الخلفي من الخيمة وركضتُ إلى البحر، حيث كان مئات من الرجال قد تجمعوا بالفعل ليشاهدوا «أخيل» وهو يسير نحوهم، كانت الشمس ساطعة، والريح ترفع عرف الشعر العظيم ذاك، وأجل، لقد بدا بالفعل للحظة وجيزة كأن النار مندلعة في رأسه.

سرعان ما أصبح المعسكر أجمعه مُتمركزًا في الميدان، ذهب الجميع، حتى الرجال الذين كانوا يتخلفون عادةً لحراسة السفن، «أوديسيوس» - الذي تعرَّض لإصابة أخرى في الساق هذه المرة - دخل يعرج ويتوكأ بثقل على رمحه، آخر الواصلين كان «أجاممنون»، ذراعه المصابة متخشبة عند جنبه، وما إن دخل حتى خيَّمَ الصمت.

كان أحد سفرائه قد رآني واقفة في الخلف وسط النساء الأخريات فجذبني من ذراعي - مُتبعًا الأوامر كما أعتقد - ودفعني بقسوَة إلى المقدمة، وقفتُ هناك مُرتعدة لأن ريح الفجر كانت باردة، ورحتُ أحدِّق في صندلي محاوِلَةً أن أحجب وعيي بالعيون المحملِقة، صهل حصان من مكان قريب، وفجأة فهمتُ ما كان يحدُث: كان «أجاممنون» يحاول أن يجمع الأغراض التي وعد «أخيل» بها بأفضل ما يتيحه هذا الإخطار المستعجل، ما زال يتعينَ الإيفاء بهذا الوعد، رغم أنه بدا واضحًا للجميع أن «أخيل» كان ليقاتل دون مقابل.

حاولتُ ألا أسمع أصواتهم، لكن ذلك كان مستحيلًا دون أن أَسُدَّ أذني بأصابعي، لقد خضع هؤلاء الرجال للتدريب على الخطابة منذ طفولتهم؛ كانت أصواتهم تصِل دون أي جهد ظاهر إلى كل جزء من الميدان، خاطرتُ باختلاس نظرة إلى

الخلف فرأيت «هيكاميد» تُشاهد من عتبات كوخ «نسطور»، رأيتها ترفع يدها لكنني لم أجرُؤ على رد التلويح لها، بالكاد تجرأتُ على التنفس، فقد كنت الآن بين براثن «أجاممنون».

نهض «أخيل» ووقف في مركز الحلقة، قال: إنه لا يشعُر إلا بالخزي؛ لأنه تشاجَر مع رفيقه العزيز «أجاممنون» على فتاة، وكادت الأمور تصل إلى الاشتباك بالأيدي بسببها تمامًا كما يحدث بين بحارة مخمورين في حانة، ليت الفتاة ماتت حين استحوذ على مدينتها، ليت سهمًا طائشًا أصابها حينذاك وأنهى حياتها، كم كان ذلك ليوفر أسًى ومعاناةً على الإغريق، كم كان ليحقن دماء الكثير من الرجال الشجعان الموتى الآن.

كان يلقي عليَّ اللوم فيما حدث لـ «فطرقل». حينذاك أيقنتُ أن ما مِن أمل.

لكن كفى من ذلك، تابع «أخيل» قائلًا: هذا ماضٍ، هو الآن مستعد - بل أكثر من مستعد - للقتال، وهذه المرة لن يتوقف قبل أن يعود برأس «هكتور» فوق نصل سنانه إلى المعسكر.

ضجيج هادر، الرجال جميعًا واقفون على أقدامهم يصيحون، مر وقت طويل حتى استطاع «أجاممنون» جعل صوته مسموعًا، وكان ما قاله بالكاد يستحق أن يُسمع، خطبة مسهبة طويلة مفككة في تبرير تصرفاته تلاها تعداد للأغراض التي ما يزال مهيأً لمنحها لـ «أخيل»، رغم أن ذلك لم يعُد ضروريًّا بالطبع إن تحرى الدقة، استرقتُ نظرةً نحو «أخيل» ورأيتُه يكدح لإخفاء نفاد صبره بينما يخوض «أجاممنون» في قائمته، وحين توقَّف عن الكلام أخيراً، كان رد «أخيل» جازمًا، يمكن أن تُسلم الأغراضُ التي وعد «أجاممنون» بها الآن أو لاحقًا، أو ألا تسلم على الإطلاق: الخيار لـ «أجاممنون»، ما كان له أن يقول ذلك بوضوح أكبر: الأمر لا يتعلَّق بالأشياء، الأشياء لا تهمُّ الآن.

ظننت أن هذا كان كل شيء، وأن الأمر انتهى، وبات بإمكاني الذهاب، إلا أن «أوديسيوس» وقف حينها وذكر «أجاممنون» بوعده أن يقسم بأغلظ الأيمان أنه لم يمسسني أبدًا، قال: إن من حق «أخيل» التيقن من أنه لم يتعرض للإساءة،

بَدَا «أوديسيوس» مرائيًا، بل متزمتًا بعض الشيء؛ كان عليك أن تنظُر عن كثب كي ترى ومضة النزوع إلى الأذى في عينيه.

تبع ذلك صمتٌ طويل شعرت خلاله بكل عين في الميدان تلتفت إليَّ، حمل «أجاممنون» نفسه إلى قدميه: أجل، بالطبع سيقسم بذلك، بالطبع، لِمَ لا؟ جُرَّ خنزير بري يزعق إلى داخل الحلقة، شممتُ الرائحة الكريهة لخراء خوفه وأغمضتُ عيني مترنمًا بصلاة لزيوس وجميع الآلهة، حز «أجاممنون» عنق الخنزير، وأقسم أنه لم يواقعني ولو مرة واحدة «كما يواقع الرجالُ النساء»، شعرتُ برغبة سخيفة بالقهقهة، كان ذلك قريبًا جدًّا من الحقيقة، تابع «أجاممنون» كلامه وقال: إنني عشت بلا مضايقات بين النساء الأخريات في أكواخه، ودعا الآلهة أن يعاقبوه إن كان يكذب.

ظل وجه «أخيل» الملطخ بالتراب خلوًا من التعابير، هل صدَّق «أجاممنون»؟ ليست لديَّ فكرة على الإطلاق، ربما فالكذب تحت القسم أمر مريع، لعلَّه شك أن يبدر ذلك حتى من «أجاممنون»، لكنني في الحقيقة لا أظنه كان آبهًا، «فطرقل» ميت؛ لا شيء آخر يهمُّ.

وبذلك القسم كانت الصفقة قد تمت، دعا «أجاممنون» بقية الملوك إلى وليمة عظيمة سيجلس فيها هو و«أخيل» مرةً أخرى ويأكلان كأخوين، وفي تلك الأثناء، سيجمع المرميديون الأغراض ويأخذونها إلى مجمع «أخيل».

بدؤوا بالعمل على الفور، تم حمل المناصب ثلاثية القوائم والمراجل وبالات الأقمشة الفاخرة المطرزة والأطباق والصحون الذهبية من أكواخ تخزين «أجاممنون» وتحميلها على عربات يجرُّها بغال، قُدِّمَت الصلوات وأُهْرِقَت الخمر لتماثيل الآلهة، ثم ضرب الحوذيون بسياطهم فانطلق الركب يسير ببطء، أربعة جياد عظيمة مُتبخترة تقدمت الطابور، تلاها صفٌّ طويل من العربات المثقلة بحمولاتها، تترجرج وتتمايل فوق المسارات الوعرة. وأنا سرتُ في المؤخرة، برفقة سبع فتيات من لسبوس، وكل الأغراض الأخرى.

***

-٣٣-

أول ما رأيتُه حين عدتُّ إلى مجمع «أخيل» كان جثمان «فطرقل» ممددًا فوق نعش، لقد كان رجلًا حيًّا حين غادرت، سقطتُّ على ركبتي وطوَّقت قدميه الباردتين بيدي، أظنني تلك اللحظة شعرت بوحدة أكبر، بهجران أكبر من أية لحظة سبقت، ندبتُ باكيَة دون تحفُّظ، وخرجت النساء الأخريات بسماعهنَّ بكائي راكضات من الأكواخ ليندبن معي.

أظن أننا جميعًا استخدمنا وفاة «فطرقل» إلى حد ما كذريعة لندب خساراتنا الخاصة، لقد فكرت في إخوتي بينما أبكي، فكرتُ حتى في «ماينز» الساذج المسكين، الذي كان ليشعُر بسعادة كاملة كما أظن مع زوجة أخرى، لكنني ما كنتُ لأود أن يُظن أن أسانا على «فطرقل» ملفَّق أو منافق بأي شكل، أمسكتُ قدميه الباردتين بيدي وتذكرتُ كيف طلبَ مني ذات مرة ألا أبكي، وأنه وعدَني بجعل «أخيل» يتزوجني.

لا شك لديَّ أنه في ميدان المعركة، في غمرة القتال، كان ضاريًا مثل البقية دون نقصان، لكنه هنا في المعسكر وسط النساء السبايا وأطفالهنَّ لطالما كان طيبًا.

أجل، أسمعك تقول: لكن هذه ليست الحقيقة الكاملة، أليس كذلك؟ أنتِ لم تتذكري وحسب أنه وعدكِ بجعل «أخيل» يتزوجك، بل حرصتِ بشدة على جعل الآخرين جميعهم يتذكرون الأمر كذلك وخاصة «أخيل»، فلأمنيات رجل ميت وزنها الضخم لدى الأحياء، وتحديدًا إذا كان الرجل الميت محبوبًا بشدة مثل «فطرقل»، هيا اعترفي، كنتِ تحاولين الترتيب لزواجك.

هيهات، فـ«أخيل» قد أخبر الجميع لتوِّه أنه يتمنى لو كنتُ ميتة!

أجل، لكنكِ قمتِ بتجربة، صحيح، كيف أمكنكِ فعل ذلك؟ هذا الرجل قتل إخوتكِ، لقد قتل زوجكِ، لقد أحرق مدينتكِ، لقد دمر كل شيء أحببتِهِ ذات يوم، ومع ذلك كنتِ مستعدة للزواج منه، لا أفهم كيف بوسعك القيام بذلك؟!

ربما كان هذا لأنه لم يسبق لك قط أن كنتَ عبدًا، لا، إن كنت تريد إثارة موضوع ما، فلِمَ لا تسألني لماذا أقص هذا كما لو كان حدثًا مشتركًا؟ أسانا نحن، خساراتنا نحن، لم يكن ثمة نحن، أنا ركعتُ عند قدمي «فطرقل» وعرفتُ أنني فقدتُ أحد أعز الأصدقاء الذين حظيتُ بهم ذات يوم.

أحيانًا في الليل، أستلقِي مُستيقظةً وأتشاجر مع الأصوات التي في رأسي.

***

-٣٤-

استمر الاحتفال في بهو «أجاممنون» إلى وقتٍ متأخر، لكن «أخيل» عاد قبل منتصف الليل، أمضى تلك الليلة مع «فطرقل» مُجددًا، متكورًا فوق الألواح العارية جانب نعشه.

كنتُ قد لاحظت بالفعل بلبلة معينة بين الرجال، يجدر أن يكون قد تم حرق «فطرقل» بحلول هذا الوقت، وانتشال عظامه من الرماد في محرقته الجنائزية لدفنها مشيعةً بالصلوات والترانيم وإهراق الخمر للآلهة، كان العُرْف بين الإغريق - وكذلك بين الطرواديين - أن تُقام مراسم الإحراق قبل مغيب الشمس في اليوم التالي للوفاة، لكن «أخيل» لسببٍ ما قرر أن على مراسم جنازة «فطرقل» أن تنتظر، لعله كان يأمل أنْ بعد قتله «هكتور» - ولا أظنه شك أنه سيفعل قط - سيجيء موته هو بسرعة بحيث يتسنى أن يُحرَق مع «فطرقل» في محرقةٍ واحدة، كان يود ذلك.

قبل فجر اليوم التالي، كان مستيقظًا ومسلحًا، الدرع الجديدة مطرقة بشكل عجائبي، تناسب مقاس جسمه تمامًا، إلى درجة أنه كان يتحرك كأنه لا يلبس شيئًا يُقيده أكثر مما قد يفعل رداء عادي، صادفته في الممر الضيق بين قسم معيشته والبهو، وكانت عيناه محتقنتين بالدم، إلا أنه هادئ تمامًا، رابط الجأش مثل صقر خلال الثواني القليلة الأخيرة التي تسبق انقضاضه على طريدته.

مرت لحظة واحدة فقط رأيته فيها يتردد، بينما كان يوشك على الصعود إلى العربة، نظر إلى أعلى ورأى «أوتوميدون» واقفًا هناك، في المكان الذي وقف فيه «فطرقل» لسنواتٍ عديدة، فتراجع خطوة إلى الخلف لاإراديًّا، لكنه استعاد زمام نفسه على الفور، مد أوتوميدون له يده، غير أن «أخيل» تجاهلها واثبًا إلى العربة دون مساعدة ثم استدار ليأخُذ ترسه من «ألكيموس»، الذي كان يرزح تحت ثقله.

وحينها رفع «أخيل» رُمحه مُطلقًا صيحَته الحربية العظيمة، ثم أوعز بالانطلاق.

وهكذا بدأت أعظم مقتلة في الحرب.

في حقيقة الأمر، أعرف أسماء كل الرجال الذين قتلهم ذلك اليوم، ويمكنني تعدادهم عليك، لو كنت أرى في الأمر أية جدوى.

حسنًا، لا أدري، ربما ثمة جدوى.

«إيفيتيون» كان في الثامنة عشرة حين مات، قتله «أخيل» بضربة سيف نزلت على منتصف رأسه فشجته، وانفصل جانباه ساقطين بسلاسة مثل جوزة مشطورة؛ ليكشفا عن تلافيف دماغه، فخرَّ أرضًا لتدكّه سنابك خيول «أخيل»، ثم تمر إطارات العربة فوقه وتدفنه عميقًا في الوحل.

ثم مات «ديموليون» برُمحٍ اخترق صدغه عبر قطعة الخوذة التي تحمي وجنَته - لم تكن درعه تقارب درع «أخيل» جودةً - ليثقب العظم ويحوِّل دماغه إلى عصيدة.

ثم مات «هيبوداماس» برمح بين لوحي الكتف بينما كان يحاول الفرار، فانقلب مُتدحرجًا وخبا الضوء في عينيه.

ثم مات «بوليدور» أصغر أبناء «بريام» في الخامسة عشر، أقل سنًّا من أن يقاتل، لكن في الأشهر والأسابيع الأخيرة من الحرب كان يتم إرسال الصبية تحت سن الرشد إلى الميدان بشكل رُوتيني، ضربة أخرى بالرمح، ومجددًا في الظهر،

إلا أن «بوليدور» لم يكُن يحاول الفرار، بل على العكس تمامًا في الحقيقة، لقد كان يتباهى، فيقتحم خطوط الإغريق دون أن ينظر ليرى من يجيء من خلفه، خرج رمح «أخيل» من تحت السُّرَّة، فصرخ «بوليدور» وخرَّ إلى الأمام على ركبتيه، والتقط أحشاءه المتدفقة بيديه المكورتين.

ثم تلقى «دريبوس» ضربةَ سيفٍ عنيفة إلى الرقبة كادت أن تطيح برأسه.

ثم ضُرِبَ «ديموخوس» برمح في ركبته اليمنى، وبينما كان يقف مكانه عاجزاً مُنتظراً، أجهز «أخيل» عليه بضربة أقحمَت السيف في عنقه.

ثم «لاوغونوس» و«داردانوس» أخَوَان، تشبثا بجانب عربتهما، لكن «أخيل» اقتلعهما من عليها بسهولة اقتلاع قواقع الونكة بدبوس، ثم قتلهما بسرُعة وكفاءة، أحدهما بضربَة رمح، والآخر بسيفه.

ثم مات «تروس» مُتشبثًا بركبتي «أخيل»، مُتوسلًا من أجل حياته، أغاص «أخيل» سيفه في أعلى بطنه، مُنْزِلًا به جرحًا عميقًا إلى درجة أن الكبد انزلق خارجًا من الفجوة، فانبثق الدم مُشكلًا بِرْكة عند قدميه.

ثم أخذ «موليوس» ضربةَ رُمح مُسدَّدة إلى الأذن بقوة جعلت رأس الرمح ينتأ من الأذن الأخرى.

ثم أخذ «إخكلوس» ضربة سيف إلى الرأس.

ثم أخذ «ديوكاليون» ضربة رمح، اخترقت مرفقه وقطعت أوتاره، فانتظر موته والذراع الذي يحمل سيفه متدلٍّ دون فائدة عند جنبه، لوَّح «أخيل» بسيفه، فطار رأس «ديوكاليون» وخوذته معًا ونزَّت السوائل من عموده الفقري المبتُور، بينما تمدد جسده متباعد الأطراف في التراب.

ثم ...

أنت ترى المشكلة، أليس كذلك؟ كيف لك بحق السماء أن تشعُر بأية شفَقة أو اكتراث أمام هذه القائمة من الأسماء المغمورة تمامًا؟

في حياتي اللاحقة، بتُّ أبحث دائماً أينما ذهبت عن نساء طروادة اللاتي تبعثرن في أنحاء العالم الإغريقي، تلك المرأة المُسِنَّة الناحلة التي تكسُو يديها بقع بنية وتجر قدميها لتجيب الطارق على باب سيدها، أيمكن لها أن تكون حقًّا الملكة «هيكوبا»، التي لطالما قادت الرقص في بهو الملك «بريام» حين كانت فتاة شابة وجميلة حديثة الزواج؟ أو تلك الفتاة في الثوب الممزَّق الخلق، التي تهرع لإحضار الماء من البئر؟ أيمكن أن تكون إحدى بنات «بريام»؟ أو تلك المحظية التي تظهر عليها علائم الهرم، ومساحيق التبرج على وجهها تتقشر فوق تجاعيد جلدها؟ أيمكنها حقًّا أن تكون «أندروماخي»، التي وقفَت ذات مرة - زوجةً لـ «هكتور» - بفخر على شرفات حصن طروادة وابنها الرضيع بين ذراعيها؟

التقيت الكثير من النساء، العديد منهنَّ نساء عوام ما كنت لتسمع بأسمائهن؛ ولذا يمكنني إخبارك أن الأخوين: «لاوغونوس» و«داردانوس» لم يكونا مُجرد أخوَين، بل توأمَين، حين كانا صغيرين، كان نُطق «داردانوس» سيئًا إلى درجة أن أمه حتى لم تكن تفهمه، كانت تسأل أخاه: «ماذا يقول؟» «يقول: إنه يريد قطعة خبز»، يجيب «لاوغونوس»، فتقول جدة الصبيين: «عليكِ أن تجعليه يتكلم، اجعليه يطلبها بنفسه»، «لكنني كنتُ مشغولة»، قالَت لي الأم: «كنتُ لأتعطل ساعات لو أنني أصغيت إليها.»

ودريبوس - الذي استمر مخاض أمه به يومين كاملين - «أرسلت أمي القابلةَ إلى الطابق السفلي في نهاية الأمر، اذهبي وأحضري لنفسك كوبًا من الخمر، قالت: سأهتم بها، وفي لحظة خروج القابلة من الغرفة، نزعت الأغطية ولا أعرف ماذا فعلت، لكن يا إلهي، يا للراحة! وبعد عشر دقائق كان قد وُلِدَ، قالت القابلة: لم أكن أظنها قد اقتربت إلى هذه الدرجة، فاكتفت أمي بالابتسام.»

ثم كان هناك «موليوس»، ذلك الذي خرج رأس رمح «أخيل» من أذُنه، «كان عمره ستة أشهر حين مشى، لم يحْبُ ولم يزحَف في الأنحاء على كَفَله أو ما شابه، وقف مُنتصبًا مباشرةً، اعتدتُ أن أمشيه من مكانٍ إلى آخر ممسكةً بيديه، منحنيةً لساعات وساعات، وما إن يقعد حتى يرغب بالوقوف مجدداً، لقد كسر ظهري.»

أو والدة «إيفيتيون»، وهي تتذكر أول مرة صحبه فيها والده لصيد السمك، وعبوس التكشير على وجهه وهو يحاول تثبيت الدودة على خطاف الصنارة، «ما إن كان يقف حتى تسقط مجدداً، وما كنت أجرؤ أن أضحك، يا للمسكين الصغير! لكن الحق يقال: فقد تابع المحاولة، تلك كانت عادته، ما كان ليستسلم.»

بعض النساء الأصغر سنًّا كُنَّ قد حظين بأطفال بعد ذلك من ملاكهنَّ الإغريق، وأنا واثقة أنهنَّ أحببن أولئك الأطفال أيضًا كما تفعل النساء، لكن حين أتحدث إليهنَّ، كان الأطفال الطرواديون هم من يتذكرنهم، الفتية الذين ماتوا وهم يقاتلون لإنقاذ طروادة.

ثم «ريغموس»؛ ضربَه رُمح «أخيل» في صدره فراحت فقاعات الدم تغرغر من رئته المثقوبة.

ثم «أريثوس»؛ قتلَه «أخيل» بضربة رمح في ظهره بينما كان يكافح للانعطاف بعربته، سقط على الأرض، فعدت الخيول المسعورة مبتعدة، والعربة الفارغة ترتج فوق الأرض المحفرة.

ثم ...

لكن لا يهمُّ حقًّا مَنْ كان بعد ذلك، فهو ينسى الرجال الذين يقتُلهم، حتى وهو يقتلع رُمحه، تراه يستدير بحثاً عن الرجل التالي والذي يليه، فلماذا إذاً من بين كل غباشة القتل الحمراء هذه قد تبرز مِيتة رجل واحد؟ هو يقول «رجل»، لكن كلمة «صبي» قد تكون مناسبة أكثر: ذقنه مكسوة بالزغب بدلاً من الشعر، وجوده في ميدان القتال دليل على يَأس الطرواديين، وإلا فعلى رغبته الخاصة بالقتال وإثبات نفسه كرجل، وفي الحالتين ها هو ذا، يزحف خارجًا من النهر.

«ليكاون» ابن «بريام»، الوحيد الذي لن يستطيع أن ينساه.

لا مراسم جنائزية لأي من هؤلاء الرجال، لا نار مطهرة، لن يتوقف عن القتال ليترك الطرواديين يدفنون موتاهم، بينما يتمدد «فطرقل» دون دفن في

معسكره، كما أنه لا يأخذ أسرى كذلك، ليس الآن، ليس بعد الآن، يقتل كل شخص يقع في طريقه، أجسادهم تسقط تحت إطارات عربته؛ الدم والخراء والأدمغة المهروسة تتطاير حتى تكتسي درعه بطبقة سميكة من القذارة، لا يتوقف لينظر إلى الأسفل أو الخلف، بل يحدِّق أمامه مباشرةً، حاثًّا خيوله على التقدم إلى الأمام دائمًا، كل مِيتة تقربه أكثر إلى بوابة طروادة، أكثر إلى اللحظة التي سينازل فيها «هكتور» ويقتُله.

دم وخراء وأدمغة، وها هو ذا ابن «بيليوس»، نصف وحش ونصف إله، يقود عربته نحو المجد.

***

-٣٥-

استمر هذا خمسة أيام، وبالكاد نام خلال ذلك الوقت كله، كان من الصعب النظر إليه، عيناه لا تبرآن من علائم البكاء، ووجهه تحت آثار التراب أبيض وذابل.

كل يوم يبدأ قبل الفجر بزيارة لنعش «فطرقل»؛ أقوم بفك قماشة الكتان التي لففناها بشدة حول رأسه لإبعاد الذباب، ثم أتراجع وأقف بعيدًا، بينما ينتابني غثيان في معدتي من رائحة اللحم الزنِخ، أريد أن أقول: أحرِقه، حبًّا بالآلهة، ولم أكن الوحيدة التي تريد قول هذا، لكن لم يبدُ على «أخيل» أنه يلاحظ أي تغير في «فطرقل» قبل المغادرة، ينحني دائمًا ويُقبِّله على فمه، مع أن الشفتين كان لونهما قد قتم وبدأتا تضمران، حتى بوجود شرائط الكتان الملفوفة حول رأسه، كان من الصعب إبقاء الفم مغلقًا، بعد مغادرة «أخيل»، تجتمع الغسالات حول النعش ويتمتِمن فيما بينهنَّ، لكنني لم أكن أتوقف لسماع ما كُنَّ يقُلنه.

بعد العشاء، يذهب ليرى «فطرقل» مجدداً، لكن في الليل لم يكُن يُسمح لأحد بدخول الغرفة معه، أظنني سمعته ذات مرة يقول: «ليس بعدُ»، وأظنه قصد أن

«هكتور» ما يزال حيًّا، كان «ألكيموس» يتلبَّث خارج الباب نصف المفتوح، ويختلس النظر منه بين الفينة والأخرى، ليرى «أخيل» واقفًا عند اللوح، رأسه المنحني متكئ على صدر «فطرقل»، ذات ليلةٍ في وقت متأخر، تأوَّه بصوتٍ عالٍ فوضع «ألكيموس» يده على الباب.

أمسكتُ بذراعه:

- «لا».
- «لا يجدر أن يُترْك وحيدًا.»
- «إنه وحيد.»

وبعد قليل، أومأ مُتراجعًا.

كان الطرواديون قد باتوا يُقاتلون الآن تحت أسوار طروادة تمامًا، وحالما يسير المرميديون مُنطلقين إلى ميدان القتال، أتسلق إلى مؤخر سفينة «أخيل» وأشاهد، كنت هناك عندما - صباحَ اليوم الخامس - اخترُقَ الخط الطروادي أخيراً، وحتى حينذاك توقعتُهم أن يعاودوا الاحتشاد، لكن البوابة الضخمة فُتِحَت وركض المقاتلون الطرواديون إلى الداخل، كان «بريام» مُنحنيًا فوق المتراس يشير إلى «هكتور» كي يلوذ داخل الأسوار، حتى إن هيكوبا عرَّت ضرعيها العجوزين المجعَّدين مناشِدةً ابنها أن ينقذ نفسه، لكن «هكتور» لم يفعَل، وبدلًا من ذلك، أدار ظهره للوطن والأمان وسار ليواجه «أخيل» وحده.

لم أحتمل متابعة المشاهدة، عدتُّ إلى الكوخ وأخبرتُ بقية النساء بما رأيته، كنا نعلم أننا نشهد آخر أيام طروادة، وأنه مع موت المدينة سيذهب أملنا الأخير في التحرر، ومع ذلك استمر روتين الحياكة الذي لا ينتهي، المكاكيك تطير جيئةً وذهابًا، والقماش يكبر إنشًا بعد إنش، ربما لأن النساء خشين إن توقَّفن أو قطعن الخيط أن ينقطع العالم كذلك ويجرفهنَّ بعيدًا معه.

لكننا حينذاك - فوق قعقعة المكاكيك التي لا تني - سمعنا صوتًا جديدًا، تعين

علينا إرهاف آذاننا كي نسمعه من فوق طقطقة الأنوال، ولا شك أن بعضنا استطاعت إقناع نفسها أن ما سمعناه كان صياح النوارس، النداء الهيستيري النابح الذي تصدره أحيانًا، لكن لا، كانت تلك أصوات نساء، واستمرت الجلبة بعد ويعد، بالتدريج، توقَّفت الأنوال واحدًا تلو الآخر، وسمعنا في الصمت الذي حلَّ علينا صيحةَ المناحة بوضوح أكبر من ذي قبل؛ فعلمنا أن «هكتور» - آخر وأعظم المدافعين عن طروادة - كان قد مات.

***

(8) جثوة القبر: كومة من التراب أو الأحجار توضع فوق قبر أو عدة قبور، انتشرت في حضارات كثيرة عبر التاريخ وما تزال موجودة في عدة مناطق من العالم. (المترجم)

(9) كان يتم صنع نوع بدائي من الشموع عن طريق نقع لب نبات الأسل المجفف بالدهن أو الشحم، واعتُبِرَ هذا لعدة قرون مصدرًا شائعًا للضوء الصناعي لدى الفقراء بسبب تكلفته الزهيدة. (المترجم)

(10) المرميديون أو المرامدة: من أقوى المقاتلين الإغريق، وهم مَنْ قادهم «أخيل»، وكان لهم دور كبير في حرب طروادة إلى درجة أنهم عندما انسحبوا مؤقتًا توالت الهزائم على جيوش الإغريق. (المترجم)

(11) الحجر: وحدة قياس وزن قديمة، تعادل ٦.٣٥ كغ، (المترجم).

(12) تسمية تُطْلَق أحيانًا على الغلاف الذي يحتوي مجموعة من بيوض أسماك القرش أو ما شابهها، وتتواجد بكثرة على الشواطئ في بعض المناطق. (المترجم)

الجزء الثالث

-٣٦-

في بادئ الأمر، لم أستطِع أن أفكر ما كان ذلك، وحين دخل «أخيل» أخيراً بعربته فناء الإسطبلات استطعتُ أن أرى شيئًا مربوطًا خلفها، يرتطم فوق الأرض المحفرة، لكن لا بد أن خمس دقائق مرت قبل أن أدرك أن الكتلة الدامية الممزقة كانت «هكتور»، كان المرميديون يضجُّون من الحماسة؛ لم يقتل «أخيل» «هكتور» وحسب، بل ساق العربة بجثته ثلاث مرات حول أسوار طروادة، بينما يقف «بريام» - والد «هكتور» - على شرفة الحصن وينظر إلى الأسفل مشاهدًا ابنه القوي الوسيم وقد اضمحلَّ إلى كيس من الأحشاء المندلقة.

تلك كانت لحظة انتصار الإغريق في الحرب، ولقد علم الجميع ذلك، توقعتُ الغناءَ والرقص، لكن «أخيل» بدلًا من ذلك طلب حمل نعش «فطرقل» إلى أرض التدريب، حيث أمر مرميديبه أن يقودوا عرباتهم ويدوروا حوله، انطلقوا أسرع فأسرع، الأحصنة تصهل، والسياط تطقطق، وسحُب من الغبار تتعالى من تحت الإطارات التي تدور بعنف، وعندما أُنهِكت الخيول وتصبَّب الرجال عرقًا نزل «أخيل» من عربته، وسار نحو النعش ثم وضع يديه المحمرتين بدم «هكتور» جنبًا إلى جنب على صدر «فطرقل»، «هكتور» مات، قال له: «لقد فعلتُ كل ما وعدتُك به، يمكنك أن تنام الآن.»

سادت لحظة مهيبة بعد معمعة المعركة، خيَّم الصمت على المرميديين وبكى العديد منهم.

لكن إذا كان «أخيل» قد قنع بأن يعلم لحظة انتصاره الأعظم بدفق متجدد من الأسى، فلم يكن ذلك أمر «أجاممنون» بالتأكيد، لم يكتفِ بالإعلان عن وليمة عظيمة على شرف «أخيل»، بل جاء شخصيًّا كي يصحب «أخيل» إلى مجمعه، يرافقه العديد من الملوك الآخرين، صحب سيرَهم في الفناء الكثيرُ من الشرب

وصفع الظهور والضحك، وبذل «أخيل» قصارى جهده كي يضحك مع البقية، لكنه بدا دائخًا، كأنه لا يعرف مَنْ هؤلاء الناس ولماذا يُتوقع منه التحدث إليهم.

رأيت أنه بَدَا خاوياً، كل ذلك القتل، كل ذلك الانتقام، لعله كان قد استطاع إقناع نفسه أنه إن فعل كل ذلك: قتْل «هكتور»، وهزيمة الجيش الطروادي، وتحطيم «بريام»؛ سَيَفي «فطرقل» بطرفه من الصفقة ويكفَّ عن كونه ميتًا، جميعنا نحاول عقد صفقات مجنونة مع الآلهة، وعادةً دون أن ندرك حقًّا أننا نفعل ذلك؛ ولذا فها هو ذا لقد فعل كل شيء، وأوفى بكل وعد، لكن جثة «فطرقل» ما تزال جثة فقط.

غير أن عليه الذهاب إلى الوليمة، إذ كان لأية «دعوة» من «أجاممنون» نفاذُ الأوامر، ناهيك عن أنهما كانا رسميًّا صديقين.

بعد مغادرة «أخيل» مع بقية الملوك، ركن المرميديون إلى احتفالهم الخاص، انشغلنا أنا و«إيفيس» بحمل أباريق الخمر والدوران بها، حتى أمرَنا «أوتوميدون» فجأة بالعودة إلى حرم أكواخ النساء وطلب منا إرتاج الأبواب، كان يعلم أن ثمة ليلة جامحة تنتظر.

لم أستطع النوم، وكان سبب ذلك جزئيًّا كما أظن هو الضجة والهتافات والغناء، لكن أيضًا فكرة وجود «هكتور» هناك ممددًا على الأرض الموحلة، مشوهًا ووحيدًا.

نهضتُ بعد فترة، انتقيتُ ملاءة من الكتان الأبيض الخالص، وتلفَّعتُ بعباءتي وشملت بها وجهي ثم تسللت إلى الإسطبلات، رغم أنني بالكاد أصدرت أي صوت، علمت الخيول بوجودي على الفور، رفس أحدها باب إسطبله، فبدأت الأخرى تتمايل وتتقلب؛ رأيت ومضات من بياض العيون هنا وهناك على طول صفوف الرؤوس المضطربة، الجثة ممددَة في وسط الفناء، مكسرة إلى درجة أنها بالكاد تحتفظ بشكل رجل، حملت نفسي على الاقتراب، كان الضوء بالكاد يكفي للرؤية، إلا أنني بعد لمحة واحدة سريعة سرَّني أن أشيح بوجهي، فردتُّ ملاءة الكتان برِفق فوق وجهه المسكين المخرب وابتعدت على رؤوس أصابعي،

تاركةً إياه وحيدًا تحت النجوم غير المبالية.

***

-٣٧-

المزيد من الخمر بعدُ؛ مع الكثير من خبط الأقدام والهتاف، والأكواب تُرْفَع مجددًا.

لماذا وُلِدَ بهذا الجمال؟

لماذا وُلِدَ من الأساس؟

إنه بائس لا فائدة لأحد منه.

لا فائدة تُرجى منه على الإطلاق.

الرجال الجالسون إلى الطاولات المحيطة يضربون على الألواح بالأكواب والقبضات، لكن أولئك الجالسين على مقربة يسايرون الإيقاع بالضرب عليه هو، وصفع ذراعيه وكتفيه ورأسه وفخذيه، أي جزء منه يستطيعون الوصول إليه، لا يمكنهم الاكتفاء منه، لا يمكنهم التوقف عن لمسه، لكن جسده بأكمله يوجعه من القتال، ما من إنش فيه إلا ويؤلمه.

وتبدو الوليمة مُستمرة إلى الأبد، يريد الذهاب إلى المنزل أو ما يُعتبر تجاوزًا منزلًا بعد أن لم يعُد «فطرقل» فيه، يحتاج إلى العتمة والصمت على الأقل، لكن أباريق الخمر القوي الضخمة ما زالت تُحْمَل من طاولة إلى طاولة، وكل بضع دقائق يقفز شخص آخر ناهضًا ويقترح نخبًا، يشرب «أخيل» ويشرب مجددًا؛ لأن عليه ذلك؛ لأنه ما من خيار، الوجوه الضاحكة المتعرقة تنحلُّ إلى غباشة، هناك مزحة من نوع ما تدور، الناس لا يكفُّون عن وكز بعضهم والتهامس، هل بإمكانهم إقناعه بالاستحمام؟ يبدو أن هذا جوهرها، انظروا إليه، انظروا إلى حالته، انظروا إلى شعره، يُجبر نفسه على الابتسام ليظهر أنه لا يمانع، وأنه يأخذ الأمر برحابة صدر، لكنه لا يلبث حتى يقف على نحو مُفاجئ،

يقول: «أحتاج أن أتبول» حين يسأله أحدهم إلى أين هو ذاهب، يَبْدَ أنه يُحاوَط طوال طريقه إلى الباب برجال يريدون أن يصفعوه على ظهره ويهنئوه، يطنُّون حوله كالدبابير، نازلين بلكمات مداعبة على ذراعيه وصدره، كل هذا مُؤلم، وعميقًا في داخله، حيث يجب أن تكون البهجة والضحك، لا توجد إلا حفرة لا تصلها الشمس.

في الخارج، يتكئ على جدار إسطبل ويراقب بوله يقطر فوق البلاط الحجري عند قدميه، البهو المضاء على مبعدة قليلة إلى يمينه، لكنه يعلم أنه لا يريد العودة إلى الداخل، يكاد الفجر يبزغ حبًّا بالآلهة، لا بد أنه فعل ما يكفي، على كل حال، جميعهم مخمورون إلى درجةٍ تجعل معها احتمالاً كبيراً ألا يفتقده أحد؛ لذا ينطلق ليسير عائدًا إلى مجمعه بمحاذاة الشاطئ، الأمواج تزبد وتتبدد عند قدميه، تنفس البحرِ الخشن الممزق يرجِّع صدى أنفاسه هو، باتجاه البر إلى الداخل، نيران السمر مندلعة في كل أنحاء منعطف الخليج، يعرف أنه سيكون موضعَ ترحاب عند أيٍّ من تلك النيران، ومع ذلك لم يسبق له طوال حياته أن شعر بأكثر من النبذ والوحشة اللذين يشعر بهما الآن.

«أجاممنون» - الآن فقط - يتظاهر بمشاركته أساه على «فطرقل»، لكن الوغد طاولت بهجتُه القمرَ حين قُتِلَ «فطرقل»؛ لأنه أيقن أن ذلك سيعيد «أخيل» إلى الحرب، لا شيء آخر كان ليتكفل بذلك، لا، إن كان يريد أن يكون بصحبة أحد الليلة، فهم مرميديوه، الذين يشاركونه شعوره بالفقد على الأقل، إلا أنه مع اقترابه من سفنه يدرك أنه لا يريدهم أيضًا، لا، إنه أفضل حالًا هنا في الخارج بمفرده، حتى إنه قد ينام هنا على الشاطئ، لِمَ لا؟ لقد سبق وفعل هذا.

يسبح أولًا، يبدو أن الجميع يرى أنه تأخر عن موعد استحمامه، ربما لديهم وجهة نظر، يرفع أصابعه إلى وجهه ويشم رائحة الدم الجاف التي لها زَنَخ حراشف الأسماك، ثم يرفع ذراعيه ويتشمم إبطيه، يا إلهي، أجل، لديهم وجهة نظر، ودون أن يتكلف عناء التعري، يدخل البحر مباشرة، تلطم الأمواج فخذيه ومغبنه وبطنه وصدره، كل موجة ترفعه ثم تتركه يسقط، حتى في آخر الأمر تحيط موجة أكبر من سواها برأسه، يتركها تسحبه إلى أسفل؛ أسفل وأسفل إلى

داخل العالم الأخضر الصامت، عالمه هو أو ربما كان عالمه، لولا الألم الحارق في رئتيه، لدى اختراقه سطح الماء مع صرخةٍ للهواء، ينقلب على ظهره ويطفو، تاركًا نفسه ينجرف جيئةً وذهابًا مع التيار.

ثمة رشة من النجوم، تتلاشى بسرعة بينما تبدأ طاقة الشمس بالتجمع عند حافة العالم، إنه يبكي، ماء مالح ينساب في ماء مالح، ويبول مجددًا كذلك، يشعر بالدفء الوجيز للتيار الدافق عند أصل فخذيه، كل شيء يتدفق منه: الأسى والألم والفقد، حتى يحقق في نهاية الأمر نوعًا من السلام الأجوف.

بالعودة إلى اليابسة، صوت قدميه وهما تَهِصَان الحصى يُسْكِتُ كل الأصوات الأخرى، يبدو كأنه يتمايل من جنبٍ إلى جنب، مخمور؟ أهو مخمور؟ ليسَت لديه فكرة، لا يستطيع تذكر كم شرب - لم يأكل بالتأكيد - لكن ثمة خطب ما، إنه يشعُر بشعورٍ غريب، كما لو يتم شدُّه حتى يصير متوترًا ورفيعًا جدًّا، لا يهمُّ، أيًّا كان ذلك فسيمر، «هكتور» ميت، هذا هو الشيء الأساسي، انتهى الأمر، يُكرر الكلمة كلما وطئت قدمه اليمنى الحصى، انـتـهى، «هكتور» ميت؛ لا يمكن لطروادة أن تنجُو دون «هكتور»، ولقد صدرت الضربة الحاسمة في الحرب كلها عنه هو.

ينبش في زوايا ذهنه عن بعض الصدى الواهن للمديح الذي أغدقه الملوك الآخرون عليه، لكنه ليس هناك، قتلُ «هكتور» ليس كافيًا، لقد علم ذلك لحظةَ فعله، ما كان يريده حقًّا هو أن يأكله، لا يوجد أشخاص كثر قد يقول ذلك لهم، لكنها الحقيقة، كان يرغب في اجتثاث حنجرة «هكتور» بأسنانه؛ ولهذا قام بسحل الجثة ثلاث مرات حول أسوار طروادة، مدركًا أن «بريام» يشاهد، وحتى ذلك لم يكن أكثر من بديل شاحب عن مذاق لحم «هكتور» على لسانه.

يقعد وهو يحس بملمس الرمل حريريًّا تحت رؤوس أصابعه، ثم قاسيًا - حين يغوص أعمق - ورطبًا وباردًا، عيناه مقروحتان، جفناه يكشطان القزحيتين على نحو أليم كلما رمش، حتى على هذا البعد من المعسكر، يمكنه سماع غناءٍ مخمور، رجاله هانئين بالًا حول نيران السمر، يحشون أنفسهم بالطعام

والشراب، ما زال بإمكانه الانضمام إليهم والشرب حتى لا يعود قادرًا على الوقوف وسط رجال يحبهم ويثق بهم، وإلا فثمة سرير ناعم ينتظره ونيران موقدة وخبز وزيتون على الطاولة وإبريق خمر جاهز للصب، لكن ما من «فطرقل»، لا، هو أفضل حالًا هنا في الخارج، مع لسعة الماء المالح الحادة على شفتيه المتشققتين وصدره الذي يعلو ويهبط في إيقاع البحر.

يستلقي على ظهره، ويُحرك لوحي كتفه ليصنع تجويفين في الرمل، أشواك قصب الرمال السوداء تخدش السماء مثل أوتار قيثارة مكسورة، فيذهب تفكيره على الفور إلى قيثارته التي ما عاد يستطيع العزف عليها، ولم يعزف عليها مرة مذ مات «فطرقل»، دعكَ من ذلك، دعكَ من ذلك، يرمش عدة مرات، طفل كبير يكافح ليبقى مُستيقظًا، ثم فجأةً يغطُّ في نوم مُتناثر ومُتهرئ مثل الضوء.

بعد بضع دقائق، ها هو مُتلعثم بفمٍ مفتوح عن آخره ولسان جاف، يكافح لينطق، يستيقظ مجددًا أم لا؟ يمكنه أن يرى المنحدرات المكسوة بالحصى وآجام قصب الرمال تلوح فوق رأسه، لكن الحلم لم يتوقف، «فطرقل» منحنٍ عليه، وليس مجرد شبح ذاوٍ حتى، بل الرجل لا غيره، قوي ونشيط كما كان في حياته، لكنه مخاصم وعدائي كما لم يكن يومًا في حياته.

أنت تهملني يا «أخيل».

لا، يحاول أن يقول، لكنه لا يستطيع، لا يستطيع أن ينطق، لا يستطيع حتى إن يتحرك، يحاول أن يمد يده نحو «فطرقل»، لكن يديه لا تعملان.

لم تهملني يومًا حين كنتُ حيًّا لكنك تفعل الآن.

يريد أن يقول: لقد قاتلتُ «هكتور» من أجلك.

أنتَ لم تدفني حتى! أتعرف كيف يكون شعورك حين يضع الذباب بيضه في جلدك؟

من الذي يتحدث هنا؟ أهو هذا الشيء الراكع قربه، هذه الصورة التي تبدو مثل

«فطرقل» على نحو مُؤلم؟ أم أن هذه الأفكار أفكاره هو؟ ومع هذا فـ «فطرقل» يبدُو حقيقيًّا جدًّا، حتى إنه يرتدي أحد الأثواب التي اعتاد ارتداءها، طويل وقوي، الضوء يتغير على وجهه، بينما تبدأ الشمس بالإشراق.

احرقني يا «أخيل»، الموتى لا يسمحون لي بالدخول، لا يسمحون لي بعبور النهر، يقولون: إنني لا أنتمي إلى هناك، لكنني لا أنتمي إلى هنا كذلك، قدِّم جسدي للنار، ادفن عظامي في الجرَّة الذهبية التي أعطتك والدتك إياها، إنها تتسع كفاية لاثنين، فلنرقُد معًا في الموت كما كنا نفعل في الحياة.

تبًّا لـ «الرقود معًا في الموت»، هو يريد «فطرقل» بين ذراعيه الآن تمامًا، يحاول أن يمدَّ يده من جديد، لكن يديه ما تزالان لا تتحركان.

أتتذكر كيف اعتدنا أن نجلس معًا بعد العشاء ونضع الخطط؟ لا أستطيع أن أفكر في ذلك الآن دون أن أبكي.

فلنبكِ معًا إذًا، يريد أن يقول: فلنجلس ونعوِ مثل ذئبين على كل ما خسرناه.

وفجأة، تسقط عنه القيود التي أخرسته وشلَّته، يمد يده صارخًا إلى الرجل الحي الذي يراه أمامه، لكن روح «فطرقل» تنساب من بين أصابعه وتتلاشى في الأرض مع صرخة قصيرة حادة.

لم يبقَ شيء، لا شيء على الإطلاق، لكنه كان هناك، حتى نهاية حياته، سيؤمن أن «فطرقل» عاد وتحدث إليه، ينقلب على ركبتيه، ويشرع سريعًا بحفر حفرة في الرمل الفضي، شاقًّا طريقه بمخالبه نحو الطبقة القاتمة الرطبة في الأسفل، ثم يعمل محمومًا بيديه كلتيهما، فيبني جثوة قبر مصغرة ليعلم المكان الذي كان فيه «فطرقل»، هو يعلم أنه حالما يُحرَق الجسد، لا تستطيع الروح أن تعود.

لكن «هكتور» ميت، يتشبث بذلك، ذلك إنجاز حقيقي ملموس، ومع هذا في هذه الفسحة الغريبة الحدية البين بين، عالقًا بين البحر والبر، بين الحياة والموت، يبدأ بالتشكيك في ذلك بالفعل، إن كان «فطرقل» حيًّا - وهو رآه للتو،

سمعه للتو يتحدث - فهل «هكتور» ميت حقًّا؟

هذا ما عليه فعله الآن: يرى «هكتور»، يبول على ما تبقى منه أيًّا كان، ثم يمنح «فطرقل» مباريات جنائزية(13) تليق بملك.

يسير ببُطء عائدًا إلى المعسكر، الظلام يتبدد بسرعة، لكن الاحتفال الولائمي ما يزال مستمرًّا، رجال بأعين مصقولة يترنحون في الأنحاء ثملين إلى درجة تمنعهم من التعرف على أمهاتهم، ينسلُّ بصمتٍ بين الأكواخ مُتلفعًا بعباءته الرطبة، ثم يقصد فناء الإسطبلات، حالما يصل؛ يتوقف، جثة «هكتور» متمددة في القذارة حيث تركه، غير أنها مغطاة الآن، أحدهم ألقى ملاءة عليها، لا يستطيع تصديق أن أحدًا من رجاله قد يُقْدِم على هذا، ومع ذلك فمَنْ غيرهم؟ الإماء ما كُنَّ ليجرؤن.

مع اقترابه، يغمره تيار متسارع من الانطباعات، ما تركه هنا كان كيسًا من العظام المحطمة، لكن للجسد الذي تحت الملاءة البيضاء طول رَجل وشكله، ترى عيناه التغير، لكن عقله لا يستطيع قبوله، ثمة من يمارس الألاعيب؛ هذه ليست جثة «هكتور»، لا يمكن أن تكون، ببطء شديد - يشعر بالخزي من مقدار الشجاعة الذي يتطلبه الأمر - ينحني ويميط الملاءة.

وجه «هكتور» سليم لا عيب فيه، كما لو أنه حي، يشخص إليه، العينان مفتوحتان، لكنه فيما خلا هذا التفصيل الوحيد يمكنه أن يكون نائمًا في بيته على سرير ملكي وزوجته «أندروماخي» إلى جانبه، لا يستطيع «أخيل» أن يكفَّ عن التحديق في العينين، تستحكه أصابعه توقًا لإسدال الجفنين، كيلا يتعين عليه متابعة النظر في هذا الخواء الشاغر، لكن إسدالهما سيكون علامة احترام، لن يفعل ذلك، بل يفضِّل أن يقتَلِعهما، في الحقيقة، لا يقوم لا بهذا ولا بذاك، بل ينتصب ناهضًا ببساطة وينظر في أنحاء الفناء كأنه يتوقع أن يرى الجاني مُختبئًا هناك.

لا أحد، الإسطبلات مهجورة، الجميع يحتفلون حول النيران، لكن على أية حال، إنه يتصرف بغباء، فلا يمكن لأي كائن بشري أن يكون مَنْ فعل هذا، لا بد أن

يكون هذا من عمَل الآلهة، حسنًا إذًا فليُضاجع الآلهة بعضهم، يرمي برأسه إلى الخلف ويصيح بتجديفه المستخف، في جنبات الفناء تتمايل رؤوس الخيول وتخبط حوافرها، وتطارد الظلال بعضها على الجدران، يصيح «أخيل» ويصيح مُجددًا، صيحته الحربية ترنُّ في الفناء، لن يقبل أن يُهزم، ولا حتى من قبَل الآلهة، حالما تعلو الشمس، سيوثق ربط جسم «هكتور» أكثر من المرة السابقة إلى عربته، ويدور بها بالسرعة القصوى حول المعسكر، وهذه المرة لن يتوقف قبل أن تتحطم كل عَظْمة من عظامه، ويتهشم كل ملمح من ملامحه، لن يغشَّه أحد ليردعه عن انتقامه، حتى لو كان إلهًا.

***

-٣٨-

لا تحضر النساء مراسم إحراق الموتى؛ لذا لم أكُن موجودة عندما تم إحراق «فطرقل»، إلا أنني سمعتُ عن ذلك لاحقًا من «ألكيموس»، كان «ألكيموس» قد بدأ يتكلم دون توقُّف مُتلعثمًا بالكلمات، كما لو كان لا يجرُؤ أن يتوقف عن الكلام مدةً تكفي ليفكر، كان يحب «أخيل» لكنه يخشاه أيضًا، إضافة إلى أنه - بشكل متزايد كما أظن - يخشى عليه.

لقد أوفى «أخيل» بكلامه، فعل كل شيء وعَدَ «فطرقل» به، حزَّ أعناق اثني عشر من الشبان الطرواديين، جرَّ رؤوسهم من شعرها وسحب خنجره على رقابهم بسرعة وسلاسة كأنهم معاز، كما قتل خيول «فطرقل» وألقى بها إلى النار، وأتبعها بكلبيَه المفضلين اللذين عاشا معهما في كوخهما، الكثير من الدماء، قال «ألكيموس»، وقد تعجَّب كيف سيجعلون المحرقة تشتعل، لكنها اشتعلت في نهاية المطاف.

من مداخل أكواخ النساء، رأينا ألسِنَة اللهب والشرر تتصاعد إلى كبد سماء الليل، طوقتُ «إيفيس» التي كانت واقفة إلى جانبي بذراعي، وعدتُّ بها إلى الداخل، ظلت تسأل: «ما الذي سيحل بي الآن؟» ولم أستطع أن أجيب؛ لأنني لم أكن

أعرف، كانت «إيفيس» حنونَةَ جدًّا عليَّ أول وصولي إلى المعسكر، والآن على الأقل يمكن لي أن أرد بعضًا من حنانها.

خلال المباريات الجنائزية، بقيَت النساء مُنشغلات خلف الكواليس، يحضِّرن الطعام والخمر، لكننا لم نقدم المشاريب على العشاء، فمن تقاليد الإغريق أن يقوم الرجال الشبان بالتخديِم على كبارهم في أوقاتٍ كهذه، كما أننا لم نكن حاضرات في المباريات بشكل رسمي، غير أننا كنا نتسلل من الأكواخ بين وقتٍ وآخر لنشاهد بعض المنافسات، كان «أخيل» يتولى كل شيء، يحكم السباقات ويقدم الجوائز ببراعة شديدة وخبرة كبيرة في حل النزاعات الثانوية قبل أن تتطور إلى شجارات كاملة، إلى درجةٍ بالكاد كنت أتعرَّف إليه معها، بدأ يتحول إلى «فطرقل»، بيْدَ أن العينين ظلتا عينَي «أخيل»، ملتهبتين ويصعب النظر فيهما.

بقيتُ في أكواخ النساء في مجمع «أخيل» معظم الوقت، وكنت أحيانًا أدعو بقية «الجوائز» لنتشارك في وجبة وإبريق من الخمر، أتذكر - في إحدى تلك المناسبات - أنني نظرت إلى طرف الغرفة فرأيت «تيكميسا» غارقةً في محادثة مع «إيفيس»، كان ليصعب عليك أن تتخيل تباينًا أكبر: «إيفيس» شديدة الشحوب والرقة، و«تيكميسا» ذات الوجه الأحمر تتعرق بغزارَة وهي تنقضُّ على طبق من لحم الضأن والأعشاب، ما كان يمكن لامرأتين أن تكونا أكثر اختلافًا، ومع ذلك فقد كانتا متشابهتين من ناحية واحدة حاسمة جدًّا: كلتاهما باتتا تحبان آسرَيهما، وقد أثار ذلك سؤالًا غير مريح فيَّ، سأكون صريحة: كنتُ أحتقر «تيكميسا»، غير أنه لم يخطر لي ولو لثانية واحدة أن أحتقر «إيفيس»، تساءلتُ ما إن كان ازدرائي لـ «تيكميسا» يزيد عن كونه تحاملًا أعمى على امرأة كانت كثيراً ما تتحيز إليَّ، لم أعتقد ذلك، لكنني لم أستطع أن أتأكد، كل ما كنت أعرفه أن «إيفيس» كانت تروق لي، بل كنت أحبها، ولعله كان سهلًا عليَّ أن أتفهم سبب حبها لـ «فطرقل»؛ إذ كنتُ قد بتُّ أحبه أنا أيضًا.

قلتُ: إن «أخيل» كان يقدم الجوائز، ويا لها من جوائز! لم يكن يستكثر تقديم أي شيء في ذكرى «فطرقل»: الدروع والمناصب ثلاثية القوائم والخيول

والكلاب والنساء، و«إيفيس» جعل منها الجائزة الأولى في سباق العربات، لم نتلقَّ أي إنذار حين جاء «أوتوميدون» لأخذها، كنا جالسات في أحد أكواخ النساء نَرْتُق الملابس، حاولت أن تتشبَّث بي، لكن «أوتوميدون» فكَّ أصابعها بقسوة وسحبها إلى الفناء، تبعتها كل النساء وشاهدنها وهي تقف هناك مرتعدة في ريح باردة تهبُّ من البحر، تنتظر كي تكتشف مَنْ سيكون مالكها الجديد.

كانت النهاية مثيرة، صاحَ كل الرجال وهتفوا بينما كان «ديوميديس» يقطع الخط ثم يشد قياد خيوله وهو يضحك مُنتصرًا، قفزَ وتراب المضمار يُعفِّر وجهه، وقطع الفناء ليحيِّي «أخيل»، الذي أشار إلى «إيفيس» على أنها الجائزة، أمال «ديوميديس» رأسها من جانب إلى جانب، تمامًا كما كان «أخيل» قد فعل بي، ثم أومأ راضيًا، واستدار ليُعانق «أخيل»، بقيا على ذلك وقتًا طويلًا، يدا أحدهما على كتفي الآخر، يتحدثان ويضحكان معًا، بينما في الخلفية أخذ أحد أعوان «ديوميديس» «إيفيس» من ذراعها واقتادها بعيدًا.

فيما كان الحشد يفسح الطريق أمامهما، استدارت ونظرت خلفها، نحوي مباشرةً: نظرةً واحدة أخيرةَ معذبة، ثم رحلت بعدها.

انتهت المباريات الجنائزية بسباق العربات، غادر القادة والملوك ورجع «أخيل» ليترأس العشاء وحده، ذات زمان كنت أتتبع كل حركة تصدُر عنه، وأسجِّل كل تغير دقيق يعتري تعابيره، أما الآن فقد أصبحتُ أخشى النظر إليه، كان هذا الرجل قد قال مرتين - إحداهما في وجهي والأخرى أمام الجيش قاطبةً -: إنه يتمنى لو كنتُ ميتة، لم أفكر أنه قد يقتُلني، لكنني فكرتُ أنه قد يبيعني إلى نخَّاس، أية أهمية كانت لي ذات زمان بوصفي جائزة شرفه قد اختفت منذ وقت طويل؛ ولذلك كنتُ أبقي رأسي مطأطئًا، أملأ الكوب ثم الآخر على امتداد الموائد الطويلة، إلى أن يسنح لي الفرار والخلود إلى السرير.

كان الرجال مقهورين؛ ألقى حزن «أخيل» حجابًا كئيبًا على الجمع، لم أشعُر بالأسى عليه، ورغم أنني حزنتُ على «فطرقل»، فحتى حُزني عليه كان منقوعًا بالمرارة، أجل، لقد كان رجلًا طيبًا، وكان لطيفًا معي، لكنه أُحرِق مشيَّعًا بكل

التكريم والإجلال الذي يليق بابن ملك، أما إخوتي فقد تُرِكُوا ليتعفنوا.

ورغم أنني - كما أسلَفت - كنت أتجنب النظر إلى «أخيل»، فقد كنتُ دائمة التيقظ له، جالسًا إلى الطاولة التي كان ذات مرة يتشاركها مع «فطرقل»، في هذا البهو المكتظ، محاطًا بالرجال الهائمين به، وحيدًا إلى أبعد حد.

مثل ما كان حالي أنا، بعد موت «فطرقل» ورحيل «إيفيس»، كنتُ وحيدة أكثر من أي وقت سبق، وحتى لحظة اقتياد «إيفيس» بعيدًا، كنت لأقول: إنني متعودة على الفقدان، لكن بَدَا أنني لم أكُن كذلك، إذ افتقدتُّها بشدة، كانت تربطني أواصر ود بمعظم النساء في مجمع «أخيل»، لكنني لم أكن قريبة من غيرها، أو لم أُرِدْ أن أتقرب إلى غيرها، رحتُ أجلس ببساطة خلف النَّوْل مشدوهة، وأقدِّم الخمر على العشاء، وأمشي مجهدةً الميل تلو الآخر على الشاطئ دون أن أنتظر شيئًا، وبعد كل وجبة، أعود إلى كوخ النساء، أعتلي السرير الذي تشاركته ذات مرة مع «إيفيس»، وأسحب الأغطية فوق رأسي.

ثم - وأظن أن أربع أو خمس ليالٍ كانت قد انقضت على انتهاء المباريات الجنائزية - وصلت فترة السلام الموحش هذه إلى نهايتها، على العشاء - حالما كنت قد أنهيت تقديم جولة الشراب الأولى - أشار لي «أوتوميدون» يستدعيني إليه وقال: «أخيل يريدك الليلة.»

تحولت ساقاي إلى رمل، لم أعرف إن كان يجدر بي متابعة تقديم الشراب أم ترك الإبريق والذهاب على الفور، «أوتوميدون» لم يقدم لي أي توجيه، وكان قد أشاح عني أساسًا، وإذ لم أعرف ماذا أفعل غير ذلك، تابعتُ صبَّ الخمر حتى انتهت الوجبة ثم انسللتُ خارجَةً من البهو، مشطتُّ شعري، عضضتُ شفتي، قرصت خدي وذهبت للجلوس في الخزانة حيث وُضِعْتُ في ليلتي الأولى في المعسكر، تذكرتُ كيف داعبتُ غطاء الفراش الصوفي متتبعةً النقوش برؤوس أصابعي، كأنني بهروبي إلى عُراها وحلقاتها قد لا أضطر إلى التفكير أو الشعور مجددًا، ثم كان «فطرقل» قد دخل وأعطاني كوب خمر، وفي الليلة التالية ومعظم الليالي التي تلتها كانت «إيفيس» هناك.

ما من مواساة كتلك الآن، جلستُ على الفراش أرتعد حتى سمعت أصواتًا من الممر في الخارج: «أوتوميدون» و«ألكيموس» في طريقهما ليشاركا «أخيل» كوب خمر أخير، استرقتُ النظر من صدع في الباب فرأيت كرسي «فطرقل» الشاغر، ما من كلاب، وذلك فاجأني، إذ كنت قد تعودت جدًّا على رؤية الكلبين متمددين قرب النار، لكنني تذكرتُ أن «أخيل» قدمهما أضحية على محرقة «فطرقل» الجنائزية، كان بإمكاني رؤية ذلك يحدث، استدعاهما إليه وهو يربِّت على فخذيه ويقول: «هنا يا فتى، تعال.» ثم زحفا إليه على بطنيهما وهما يهزَّان ذَنَبيهما ويَلْعَقان شفاههما بتوتر، مدركَين أن شيئًا سيئًا سيحدث، لكنهما مُجْبَرَان على الذهاب إليه في كل حال، ربما - رغم كل شيء - كان الحظ قد حالف «إيفيس» إذ قُدِّمت بوصفها الجائزة الأولى في سباق عربات، لقد حزَّ عنقَي الكلبين.

انتهت المحادثة في الغرفة الأخرى أخيراً، كان «أوتوميدون» و«ألكيموس» يستأذنان بالانصراف، بعد ذهابهما، خَيَّمَ صمتٌ طويل، أو أنه بَدَا لي طويلًا، ثم اقترب وقْع أقدام ثقيل إلى الباب، دفعه «أخيل» ببطء، وراح شق الضوء يتوسع ليغطي الأرضية، نظر إليَّ وهز رأسه باتجاه الغرفة الأخرى.

تبعتُه واتخذتُ مقعدًا أبعد المستطاع عنه، كان كرسي «فطرقل» الشاغر يَسُودُ الغرفة، وبالمقارنة مع ذلك الغياب المُخضِع حتى «أخيل» بَدَا غير جوهري، القيثارة في غطائها المصنوع من القماش المشمع مُستلقية على المنضدة قرب كرسيه، لكنه لم يلتقطها، لم أكن قد سمعته يعزف مرة منذ رجعت إلى مجمعه.

كان الصمت يخنق في أنفاسي، وحين لم أعُد أستطيع احتماله قلت:

- «لماذا لا تعزِف؟»

- «لا أستطيع، لن ينفع.»

في السرير وسط الظلام، كنتُ أنا القيثارة، راح يتلمس جسدي متلعثمًا، استمر ذلك بضع دقائق، دون أن يتمكّنَ مني. كنت خائفة مما قد يعنيه الإخفاق، ليس

له بل لي، وحين اتضح ألا شيء سيحدُث، تأوَّه وانقلب على ظهره مستسلمًا لعجزه، حاولت إيقاظ رجولته بكل كدٍ دون نتيجة تذكر، فتبعته بعد مدة واستلقيت قربه على ظهري، كنت أعلم أن أي شيء أقوله قد يكون خطيراً؛ لذا لم أقُل شيئًا، كان هادئًا جدًّا كأنه نائم، لكنني عرفتُ أنه لم يكن كذلك من تنفُّسه، قلتُ: «أتود مني أن أذهب؟»

ردَّ بالانقلاب على جنبه مبتعدًا عني، فانسللتُ من السرير أتلمس بحثًا عن ملابسي، كانت النار تقارب أن تنخمد، والقناديل كلها ذَوَتْ، عثرت على ردائي ولبسته بسرعة - بالمقلوب كما اكتشفتُ لاحقًا - ثم تحسستُ طريقي إلى الباب، لم أستطِع أن أتذكر أين كنت قد وضعتُ صندلي ولم يسمح لي خوفي بالبقاء للبحث عنه، على الشرفة، وقفتُ للحظة آخذ أنفاسًا طويلة عميقة، العودة إلى أكواخ النساء مبكراً هكذا قد تجعل الجميع يعرفن أنني فقدت امتيازي، إن كُنَّ لم يعرفن أصلًا، لن تتصرف أيٌّ منهنَّ بشكل بغيض، لكنهنَّ سيلاحظن جميعًا، كان بإمكاني التفكير على الأقل في فتاتين ستتفاءلان بفرصتهما لأخذ مكاني.

ما كنتُ لأهتمَّ إن أصبحتْ فتاةٌ أخرى المفضلة، غير أنني اعتقدتُّ أن سوق النخاسة قد اقترب خطوة أخرى للتو، وذلك ما كان يهمني كثيراً، قلتُ لنفسي: إن الأمر ليس بالغ السوء، لم يكن قد ضربني، لم يجلدني بدافع من إحباطه، لم يفعل في الحقيقة أيًّا من الأشياء التي كان بوسعه فعلها؛ لذا طوقتُ نفسي بذراعي طلبًا للمواساة، ورحت أتمايل مُهدهدةً نفسي من جنبٍ إلى جنب، وحين استعدتُّ مقدارًا ما من الهدوء انطلقتُ فوق الرمل الصلب إلى أكواخ النساء، حافيَةً في الظلام.

***

-٣٩-

لا يستطيع النوم، لا يستطيع الأكل، لا يستطيع العزف على القيثارة، والآن - على ما يبدُو - لا يستطيع المضاجعة، عديم الجدوى يتقلب إلى جهَة ثم إلى

الأخرى، يشد ملاء السرير إلى ذقنه، ثم يدفعها إلى الأسفل مجدداً، يرمي ذراعيه وساقيه على كامل عرض السرير، يلتم على نفسه مثل كرة، وطوال الوقت يفكر في «فطرقل»، ليس تفكيراً بل تَوْقًا، شكل رأسه، الانبعاج الصغير أسفل جسر أنفه، الابتسامة المائلة والكتفان العريضان والخصر الضيق والرائحة السمراء الشاحبة لجلده والطريقة التي كانا عليها معًا.

ما كان يعرف أن أسى الفقد سيكون هكذا، يشبه الألم الجسماني إلى هذه الدرجة، لا يستطيع البقاء ساكنًا، يُفترض به أن يكون قد أصبح الآن أفضل حالًا من هذا بالتأكيد، لقد فعل كل ما وعد به، قتلَ «هكتور»، حزَّ أعناق اثني عشر شابًّا طرواديًّا واستخدم جثثهم ضِرامًا لمحرقة «فطرقل» الجنائزية، نقب في الرماد الساخن وجمع عظام صديقه المتفحمة، وصولاً إلى البراجم وعظام القدمين الصغيرة، ودفنها في جرة ذهبية كبيرة بما يكفي لتضمَّ عظمه هو أيضًا حين يأتي الوقت الذي - بعون الآلهة - لن يتأخر كثيراً.

الآن يستطيع أن يرى ما كان يحاول فعله: أن يساوم الأسى، خلف كل هذا النشاط المسعور كان ثمة أملٌ في أنه إن أوفى بوعوده لن يكون هناك المزيد من الألَم، لكنه بدأ يفهم أن الأسى لا يعقد المساومات، ما من سبيل لتجنب العذاب ولا حتى عبوره بشكل أسرع، لقد أمسكه بين براثنه ولن يفلته قبل أن يتعلم كل درس يريد أن يعلمه إياه.

حين ينام في نهاية المطاف، ينزلق لفوره إلى الحلم نفسه، الحلم الذي يراه كل ليلة، إنه في نفق مظلم، وبينما يتلمس طريقه عبره، يتعثر مرارًا بأشكال جسيمة بالكاد تُرى في العتمة، ما إن يطأ أحدَها حتى يصدر عن بطن الشكل المنتفخ صوت خضخضة ماء تحت قدميه، وبما أنه لا يستطيع رؤية الأشكال، لا سبيل لديه ليجزم إذا ما كانت الوجوه التي يطؤها طروادية أم إغريقية، وفي هذا المكان، هذا المكان الجنائزي، المحروم من الضوء واللون، بالكاد يبدو ذلك مهمًّا، يود أن يعتقد أنه في أقبية قصر - قصر «بريام» ربما - مما يعني أنهم استحوذوا على طروادة، وبغضِّ النظر عن كل تحذيرات أمه المُلحَّة، فقد عاش ليرى ذلك، ليكون جزءًا من ذلك، وها هو الآن تحت في الأقبية يبحث عن نساء

خائفات خبأن أنفسهنَّ عن الأنظار، هو يعلم أنهنَّ هنا، ويظن أنه بين الفينة والفينة يسمع حفيف إزار، ويستطيع تشمُّم خوفهنَّ.

يرغب بشدة أن يصدِّق هذا، إلا أن كل شعرة منتصبة برأسه في الوقت نفسه تقول له: إن هذا المكان هو «هاديس»، وإن الأشكال التي تحيط به هي الموتى.

لذا يمعن في التركيز على الحياة التي داخل جسمه، يختبر ذراعيه ويثني عضلاته، يأخُذ أنفاسًا عميقة، عميقة بشكل مؤلم، وبالتدريج - مع اقترابه إلى الأمام إنشًا إنشًا - تبدأ الظلمة بالانفساح، سرعان ما يكون ضوءٌ كافٍ ليجعل الإقفار مرئيًّا، الموتى مُستلقون مثل حزم بُسُطٍ قديمة، منتفخون داخل قمصانهم القتالية، طرواديون أم إغريق؟ ما زال لا يستطيع أن يجزم، ينظر عن كثب أكثر، يسحب طيات من العباءات والدثر، بل يبدأ حتى بهزِّ الأكتف والأذرع، محاولًا جعلهم يستيقظون؛ لأن المكان موحش هنا في الأسفل، من الموحش أن يكون الرجلَ الأخير الذي تُرِكَ حيًّا، ما من استجابة، وجوه مسودة تشخص إليه، أعين كليلة مثل أسماك ميتة في محاجرها عديمة الأجفان، إنهم يحتاجون النار، النار المطهرة، وكان ليمنحهم إياها لو استطاع، طرواديين كانوا أم إغريق، لا يجدُر أن يُتْرَكَ أحدٌ ليتعفن هكذا، دون دفن ولا حداد، ثم - وبينما هو يجس الأشكال - يقفز أحدها منتصبًا ويحدِّق بعينين ثابتتين فيهما إدراك يُرثى له.

يقول الشكل: صديق.

وعلى الفور يعرف مَنْ هو، إنه «ليكاون» ابن «بريام»، الوحيد الذي لم يكن يستطيع أن ينساه.

يحاول أن يقول: أنا لا أعرفك، فيوقظه الجهد الذي يبذله ليحرك شفتيه.

ينتصب جالسًا ويُحدِّق حوله بهيجان، فزِعًا من أن يكون قد أعاد ذلك الشيء غير الميت وغير الطاهر معه، وحينما يتيقن أن ما من شيء يكمن في الظلال، يترك نفسه يرتمي على الوسائد مجددًا، يمكنه تشمُّم عرق خوفه الخاص، مغبنه صار مستنقعًا، للحظة رهيبة يظن أنه قد يكون بلَّل فراشه، كما اعتاد أن يفعل بعض

الأحيان، في ذلك الشتاء الأول المُفزِع الذي أعقب رحيل أمه، لكنه يتحسس الملاءة تحته، فيجد كل شيء على ما يرام، ما هو إلا عرق، يرمي عنه الأغطية، ويترك الهواء يصل إلى جلده.

لماذا «ليكاون»؟ لقد قتل عشرات الرجال منذ مصرع «فطرقل»، مئات منذ بدء الحرب، لماذا إذًا من بين كل حمام الدم والمذابح تلك، يبرز هذا الرجل تحديدًا؟ إنها تلك الكلمة «صديق»، لقد أثارت سخطه حينها وظلت تؤرقه مُذاك، بالتأكيد لم يكن ثمة شيء بارز في «ليكاون» ذاته، الذي بَدَا كجرذ غارق أول ما رآه «أخيل»، وهو يزحف خارجًا من النهر، درعه منزوعة عنه في معمعة كفاحه للبقاء عائمًا، كان النهر في أوج فيضانه، يتلقف كل جثة يرميها «أخيل» فيه بشراهَة ويقهقه وهو يجرفها بعيدًا.

بالنسبة إلى «أخيل»، تلك الدقائق الوجيزة كانت استراحة مقتضبة من المعركة، بالكاد تكفي ليستجمع أنفاسه، لكن سواء أطالت أم قصرت، كانت الاستراحة قد انتهَت الآن، فهناك كان هو، أو هناك كان هذا الشيءُ، هذه الدودة أو اليرقة، هذا الجرذ الغارق الذي هو رجل بلا خوذة وبلا ترس وبلا رمح؛ لأنه كان قد رماها جميعًا في خضمِّ نزاعه اليائس من أجل الحياة، هو - ذلك الشيء - كان يزحف فوق الضفة الموحلة على يديه وركبتيه، لم يقُل «أخيل» شيئًا، انتظر فقط باتزانٍ وحشي خليقٍ بمفترسٍ حتى يتعرف البائسُ الوغد إليه فيخاف.

«ليكاون» لم يُحاول الهرب والحق يقال، لكنه أيضًا لم يكن يملك مكانًا يهرب إليه، النهر خلفه و«أخيل» في الأمام، بدلًا من ذلك، ركض إلى الأمام، طوَّق ركبتيه وبدأ يتوسل من أجل حياته، نظر «أخيل» واستمع، لم يشعُر بشيء، ما من ومضَة إدراك بأنه هو وهذا الشيء كانا رجلين يتنفسان الهواء نفسه، ويا للإله كم تكلم ذلك الشيء، خائنًا كل شيء في توقه اليائس للهرب من الموت، لم يكن هذا الشيء أخا «هكتور» كما قال، ليس حقًّا كما يعرف الجميع، أجل، الأب نفسه، لكن ليست الأم نفسها، أما بالنسبة إلى «هكتور» بالكاد كان يعرفه، ولم تكن له أية علاقة بمصرع «فطرقل»، تحلَّ بالرحمة يا «أخيل»، فكِّرْ فيما كان صديقك ليفعله، صديقك الطيب الكريم المقدام الدمث.

تلك الكلمة.

كان قد قال: مُتْ إذًا أيها الصديق، لماذا تثير كل هذه الجلبة حول الأمر؟ «فطرقل» ميت وهو كان رجلًا أفضل منك إلى حد بعيد.

رفعَ سيفَه، وطعن العنق الفتي الغَضّ قرب الترقوة تمامًا، ثم غاص بالنصل قدر ما طاوعه، سقط «ليكاون» إلى الأمام، دمه القاني يتدفق ويتجمع بِرْكةً فوق الأرض الموحلة، حتى قبل أن تنتهي ارتعاشات نزعه، رفعه «أخيل» من كاحله وقذف به إلى النهر، حيث طفا لبضع دقائق، وقميصه القتالي ينتفخ مثل البالون حوله، قبل أن يتمكن التيار منه ويجرفه بعيدًا، وقف «أخيل» على الضفة يشاهده حتى اختفى الجسد من نطاق الرؤية، لا بد أن الأسماك أتخمت نفسها بشحم كليته المتلألئ قبل بلوغه البحر بكثير، لا مراسم جنائزية له، لا نار مطهرة، لا رحمة بالطرواديين على الإطلاق الآن.

والآن يحلم باللقيط كل ليلة؛ لأنه قد حُكِمَ عليه كما يبدو بقضاء لياليه مع الأموات، لا يحلم بـ «فطرقل» أبدًا، يدفع الأغطية جانبًا ويرفع نفسه مُنتصبًا إلى طوله الكامل ويروح يخطُو إلى المرآة، حيث يُحدِّق طويلًا وبإمعان إلى انعكاسه، بينما - في الغرفة خلفه - روح «فطرقل» تبدأ بالاحتشاد، يشعر بحضورها، لكنه لا يكلف نفسه عناء الاستدارة؛ لأنه يعلم من الخيبات المتكررة أن لن يكون شيء هناك، لا شيء ليراه، على أية حال وبالتأكيد لا جسد حيًّا دافئًا ليحضنه.

يميل نحو انعكاسه أكثر، يقترب حتى يغبش نفَسُه المرآة.

مُتْ إذًا أيها الصديق، لماذا تثير كل هذه الجلبة حول الأمر؟ «فطرقل» ميت وهو كان رجلًا أفضل منك إلى حد بعيد.

لا شيء ولا أحد يُجيب، مهزومًا يمشي بتثاقل عائدًا إلى السرير، أجل، «أخيل» خفيف الساق، الذي كان يبدو ذات زمان مصنوعًا من الهواء والنار، الآن يمشي بتثاقل، يتهادى ويتعثر ويسير مجهدًا لجسمه المثقل بالموت الذي في داخله وزن ثقيل فوق الأرض.

لا بد أن الفجر أوشك، مُتخليًا عن أي فكرة في النوم، يلبس رداءه ويغادر الكوخ، متجهًا مباشرةً إلى الإسطبلات حيث يرقد «هكتور» على وجهه في التراب، لا أحد يجرُؤ على تغطيته أو إظهار أية علامة احترام أخرى، ذلك التصرف المتمرد الوحيد الصغير - إلقاء ملاءة فوق جثته - لم يتكرر قط، يقطع «أخيل» الفناء ثقيلَ الساق، أصابع قدميه تنزلق داخل صندله، رغم برد ما قبل الفجر، ما يزال جسده أملَس من العرق، بالكاد يبدُو بشريًّا حتى لنفسه؛ لذا ما من مفاجأة حين تروح الخيول تتقلب من جنب إلى جنب بقلق.

يأخذ أنفاسًا طويلة عميقة تجريبية، لماذا تؤلمه رئتاه حين يتنفس؟ لعلهما قررتا أن تتغلقا قبل بقيته بأسبوع أو اثنين؟ أم تراه بدأ يطور خياشيم؟ هذا أحد الأشياء التي يقولها الرجال عنه خلف ظهره، خياشيم وقدمان بأصابع ملتحمة، حسنًا، بما أن أمه إلهة بحر، فماذا تتوقعون؟ في الحقيقة، أصابع قدميه ملتحمة بالفعل، كحال أصابع قدمي أمه طبعًا، إلا أن الجلد الإضافي نصف شفاف في حالتها، أما لديه فالجلد سميك وأصفر وهو يخجل منه، شيء آخر كان «فطرقل» يعرفه عنه دون غيره: أنه يخجل من قدميه، الكثير منه ذهب في النار مع «فطرقل»؛ لأن ما لا يُشارَك لا يعود يبدُو حقيقيًّا كثيراً، بل ربما يتوقف عن أن يكون حقيقيًّا.

يرفع ساسة الخيول أنظارهم بينما يقترب، يتنحنحون مسلكين حناجرهم، يومئون باحترام، لكن دون أية مسحة من التذلل، هكذا هم المرميديون، يشتهرون عبر العالم بشجاعتهم، وإخلاصهم للواجب وطاعتهم التي لا تسائل، حسنًا، الشجاعة والإخلاص حقيقيان بما يكفي، أما الطاعة التي لا تسائل، انسَ الأمر، لا تثير الدماء الملكية إعجابهم ولا حتى الدماء الإلهية، يجب أن يُكتسب احترامهم اكتساباً، هو يعلم أنه اكتسبه ألف مرة خلال السنوات التسع الأخيرة، ومع ذلك فقد لاحظ مؤخراً فقط، ليس انسحابًا بالضبط، لكن درجة من الحذر، ليس غضبه ما يزعجهم، فتحت هيكلِهم الخارجي الصموت عمومًا، غالبًا ما يكون هؤلاء الرجال غاضبين، لا، بل قدرته على حمل الحقد، حسنًا، كانوا يريدون أن يقولوا غالبًا، لقد أخذ فتاتك، جائزة شرفك، لقد أهانك، إذًا فانقلع

إلى الوطن بحق الفحشاء، لم يفهموا قط لماذا كان يبقيهم هنا، في حفرة الخراء التي تُحتسَب شاطئًا هذه، مُكتفين بالجلوس كحفنة من الجدات، بينما - على بُعْدِ أقل من ميل - يقاتل رجالٌ كانوا رفاقَهم ذات زمان ويموتون.

لكن ذلك هو الماضي، يجدر أن يكونوا قد نسوه الآن، ربما نسوه وربما كان ما يفعله الآن كل صباح هو ما يَعْلَق في حلوقهم.

يضع يده على سياج العربة، حيث كان «فطرقل» يقف لسنوات عديدة والأعنَّة معقودة حول خصره، كل صباح الذكرى نفسها؛ كل صباح طعنة الألم نفسها، حادة بما يكفي لجعله يحبس أنفاسه، لكن إخفاء كل علائم الضعف طبيعةٌ ثانية مُكتسبة فيه؛ لذا يسير حول العربة ماسحًا كل إنش فيها، وينحني من آنٍ إلى آخر ليفحص الجانب السفلي من المركبة، بحلول نهاية يوم عصيب من القتال، يكون ثمة من الدم والقذارة ما يعيق إطارات عربته، والساسة كسالى - إن ظنوا أن بإمكانهم التملص باختصار جهدهم سيفعلون ذلك، بَيْدَ أنهم لا يهملون الخيول، يطعمون الخيول قبل أن يطعموا أنفسهم - لكنهم يمتلكون قدرة ممتازة على الانطلاق برشاقة إلى الشاطئ لملء دلائهم بماء البحر، رغم أنهم يعلمون ولا بد أن الملح مع مرور السنين يُتلِف أفخر المعادن، لا ينفك يقول لهم: ماء من البئر، وليس ماء بحر، يجثُو ويلعق إصبعه، يمرره على طول أحد مكابح العربة ثم يختبر الطعم بلسانه، لا، الأمور على ما يرام.

يشعر بالإنهاك لدى وقوفه، تبدُو كل شذرة من الطاقة وكأنها تُستنزف منه، ربما ليس هذا الصباح، ربما يمكنه أن يفوت الأمر هذه المرة فقط ويعود إلى سريره وينام، لكن لا، غضبه يجلده ويستحثه، الغضب الذي لا يمكن إشباعه والذي عليه أن يستمر في محاولة إشباعه، مثل متسول تغطيه القروح ويحكها حتى تريق أظافرُه الدماء دون أن يستطيع العثور على موضع الحكة.

الرجال لا ينظرون إليه، يتشاغلون طوال وقت تواجده هنا، يحملون دلاءً من الماء، يلمِّعون المعدن ويدعكونه وينفخُون عليه، يتفقدون البريق ويدعكون مجددًا، هم متوترون لأنه يراقبهم، يقترفون الأخطاء لأنه يراقبهم؛ لذا يحمل

نفسه على أن يشيح عنهم، ما عاد أحد ينظر إلى وجهه الآن، كما لو أن أساه يُخيفهم، ممَّ يخافون؟ من أن يضطروا ذات يوم لتحمُّل ألَم كهذا؟ أم من ألا يفعلوا أبدًا، ألا يكونوا قادرين على ذلك؛ لأن الأسى لا يكون إلا بالعمقِ الذي بلغهُ الحب قبلَه.

يسير العمل أسرَع بكثير ما إن يدير ظهره؛ لذا يغادر الفناء كله، تاركًا إياهم ينهمكون فيه، وحين يعود بعد عشر دقائق يكون كل شيء قد أُنجِز، سياج العربة البرونزي يتألق، شعر الخيول يبرق، يظل الرجال متوترِين حتى يختبر العمل، إنهم يتوقعون في أفضل الأحوال إيماءة مقتضبة، أو غمغمة استحسان مبهمة، لكنه يفاجئهم فيومض لهم بابتسامة، وينظُر إليهم في أعينهم، ويشكرهم فردًا فردًا قبل أن يأخُذ القياد، يومئون ويغمغمون ثم يتراجعون، الناس يتراجعون دائمًا في حضرته، يفعلون هذا مذ كان في السابعة عشر، ربما كان ذلك تعبيراً عن التقدير لجسارته الفائقة في ساح الوغى، أو خوفًا من غضبه، أو لسببٍ ما أكثر قتامة لا يريد أن يضطر للتفكير فيه، عوضًا عن ذلك، يريح جبينه فوق خطم حصان، مُتحسسًا دفء أنفاسه على بشرَته، ويجعله هذا الاتصال بمخلوق غير بشري يكاد يستعيد شعوره ببشريته.

والآن إلى «هكتور»، كاحلاه ما زالا مربوطين بحبل معًا ومثبتين إلى قضيب المحور، يتفقد العُقَد، يهزها ويشدها ثم يركل الجثة ليقلبها على ظهرها، الليلة الماضية، كان قد ألقى كومةً ممزقة ودامية من العظام المتهشمة في قذارة فناء الإسطبلات، وهذا الصباح مرةً أخرى أيضًا، يبدو «هكتور» كما لو كان نائمًا نومًا عميقًا هادئًا مسالماً، النوم الذي يفوت «أخيل» كل ليلة، لَيود لو يلقي رأسه إلى الخلف ويعوي، لكنه يتسلق العربة بدلًا من ذلك ويهمُّ بفتل الأحصنة، خلفه جسد «هكتور» يتخبط على الأرض المتحفرة، ببطء في البداية ثم أسرع، بينما هو يقود إلى خارج الفناء إلى خارج المجمع، بعيدًا عن الشاطئ، بعيدًا عن ميدان القتال، فوق الطريق الحجري الذي يقود إلى اللسان الصخري حيث يُحرَق الموتى.

كم ارتفعت ألسنة اللهب في السماء ليلةَ إحراقه «فطرقل»، كم تطايرت دماء

الأسرى الطرواديين وطقطقَت فوق قطع الحطب المشتعلة، كان قد وعد «فطرقل» باثني عشر شابًّا وأحضر اثني عشر: رجال شبان طوال أقوياء، مصدر فخر عائلاتهم، لكنهم كانوا مُستسلمين في النهاية ومذعنين كما تكون الثيران أحيانًا قبل التضحية.

في اللحظة الأخيرة تمامًا - قبل إضرام النار - كان قد قصَّ شعره؛ راح يعمل في الجدائل السميكة تقطيعًا ثم يلفها حول أصابع «فطرقل»، قبل الإقلاع بحرًا إلى طروادة، كان قد نذرَ ألا يقصَّ شعره حتى يعود إلى الوطن، وقف على اللسان الصخري الذي تلفحه الريح وراح يشاهد حبال الشعر الثخينة وهي تذبل، تبدُو تكاد تذُوب قبل أن تتبخر في اندلاع لهب أزرق، لقد تخلى بخرقه ذلك النذر عن كل أمل في رؤية أبيه مجدداً، كما قالت أمه؛ موته سيتبع موت «هكتور» سريعًا، هو يشعُر بذلك، يعلم أنه لن يعُود إلى الوطن، بضعة أيام أو أسابيع على الأقصى ثم لا شيء.

الجرة مخفية تحت الجثوة العظيمة التي عمرها المرميديون لـ «فطرقل»، إلا أنها حاضرة وجليَّة في ذهنه كيوم وضع عظام «فطرقل» واحدةً واحدة داخلها، عظام البراجم تستحضر إلى الذهن ألعاب النرد التي لعباها طفلين، عظما الفخذ الطويلان يستدعيان ذكريات أخرى لليالٍ صيفية على هذا الشاطئ، قبل تسع سنوات أول مجيئهما إلى طروادة؛ وأخيراً الجمجمة، لقد مرر رؤوس أصابعه المسفوعة فوق القحف وحول المحجرين الخاويين، مُتذكراً اللحم والشعر.

والآن بصيحة مهيبة، يصفع أعناق الخيول بسيور الألجمة وينطلق بالسرعة الكاملة حول القبر.

تحته في المعسكر، يتوقف رجالٌ يلمعون الدروع عما يفعلونه ويرفعون أبصارهم، يحدِّق ساسةٌ ببعضهم مفكرين في الحالة التي ستكون الخيول عليها عند عودتها، مركزين على ذلك؛ لأن خوفهم يمنعهم من التفكير في أي شيء آخر، مرارًا وتكرارًا تتدفق صيحة «أخيل» الحربية في جنبات المعسكر، بينما

يقود خيوله التي تتصبَّب عرقًا أسرع وأسرع حول جثوة القبر.

مع عودته، كان جسد «هكتور» قد اضمحلَّ إلى كُتلةٍ من عصيدة حمراء وعظام متشظية، الوجه مسلوخ يتعذر تمييزه، يقفز «أخيل» إلى الأرض، يُلقي بالقياد إلى سائس مزموم الشفتين، ويوسع خطاه عبر الممر الضيق الذي يقود من الإسطبلات إلى كوخه، «بريزيس» قادمة نحوه، رؤيتها تجفله، تبدو في الضوء الجزئي مثل «ثيتس»، يشم خوفها وهي تلصق نفسها بالحائط.

حالما يصير داخل قسم معيشته يعود إلى المرآة، بات يفعل هذا كل صباح الآن، أصبح هذا جزءًا من الروتين، هو يعرف ما سيراه، لكنه يحتاج أن يجعل نفسه يراه، ليبرهن أنه ليس خائفًا، منعكسةً عن المعدن البراق، تتمدد الإصابات - التي أنزلها بـ «هكتور» لتوه - مثل الظلال على جلده هو، ألهذا لا ينظر إليه الساسة الذين يهرعون لأخذ القياد عنه؟

لكنه بعد ذلك يتحرك قليلًا إلى اليمين، فترتفع الظلال، وإذ بوجهه هو يرد النظر إليه مجددًا، هي أوهام، تلك العلامات على جلده، لكنه يراها كل صباح وكل ليلة فيصعب ألا يصدق بحقيقيتها.

يذهب للتفتيش عن الشمس مُرتعدًا، يقف على الشرفة ويجول نظره حوله في المعسكر الآخذ بالاستيقاظ، النيران مُضرمة، التحضير لعشائه جارٍ على قدمٍ وساق منذ الآن، الأعشاب تُطْحَن لتنكيه اللحم له، الأنوال تُقعقع، تُصْنَع الثياب له والأغطية لسريره، وعند الزاوية في فناء الإسطبلات، الرجال يسوسون خيوله ويُلمعون عربته وقريبًا سيصل «ألكيموس» ليضع اللمسات الأخيرة على درعه، في يده زمام كل شيء يراه.

لكن كل صباح، يكون مُجبراً على قيادة عربته مرارًا حول قبر «فطرقل»، ليُشوِّه جسد «هكتور»، وكذلك - كما يُفْهَم بوضوح تام - ليهين نفسه خلال العملية، وليسَت لديه أدنى فكرة عن كيفية إيقاف أي من ذلك.

***

-٤٠-

عقبَ تلك الليلة الكارثية، لم أتوقع أن يُرسل «أخيل» في طلبي مجدداً، لكنه فعل، وبعد ليلتين فقط في الحقيقة.

دخل قسم المعيشة - وهو بالكاد قد تناول شيئًا على العشاء - ونادى طالبًا المزيد من الخمر، ليجلس فقط محدقًا في النار، دون أن يشرب من الكوب الذي صببتُه، راح «أوتوميدون» و«ألكيموس» يتنحنحَان ويتقلبان ذات اليمين وذات الشمال فوق كرسيهما، وكرسي «فطرقل» الشاغر مستمر في سيادة الغرفة.

تركهما «أخيل» يذهبان مبكرًا، لكنه لم يصرفِني، جلستُ على السرير مُتهيبة من الليل وانتظرت، غير أنه حين نهض في نهاية المطاف لم يفعل ذلك كي ينضو ملابسه، بل ليجلب مقصًّا من صندوق محفور في زاوية الغرفة، أدار كرسيه وجرَّه إلى المرآة، أعطاني المقص ورفع نهايات شعره المتقطعة، «هاك»، قال: «انظري ما يمكنك فعله بهذا».

لم يكن ذلك مُتوقعًا، أخذتُ المقص وبحثتُ حولي عن شيء أضعه على كتفيه، كان قد رمى قميصه القتالي على الأرضية عند السرير فاستخدمته، ثم سحبت خصلة من شعره وشددتُها على طولها بين أصابعي وبدأتُ أقص، شعور غريب في ملامسته على هذا النحو، أكثر حميمية من الجنس بطريقة ما، لم يَرُق لي، لكن بعد اللمسات المتلعثمة القليلة الأولى كنتُ بدأت أقوم بعمل جيد جدًّا مع شعره، ساعدني أن المقص كان حادًّا جدًّا، مررتُ أصابعي خلال شعره لأتوثق أن الأطراف متساوية، وفجأة - دون سابق إنذار - رأيتُه ممدداً على الأرضية في بِركَة دم والمقص مغروز في عنقه، الرؤيا - إن كان هذا هو الأمر - كبحتني، وقفتُ هناك دون حراك أشعُر بغثيان طفيف، وحين رفعتُ رأسي، رأيته يراقبني.

قال:

- «تابعي، لماذا لا تفعلين؟»

رحنا نحدِّق في بعضنا، أو بالأحرى نُحدِّق في انعكاسينا على المرآة، أردتُّ أن أقول: لأن مرميديك الأعزاء سيعذبونني حتى الموت إن فعلت، لكنني علمتُ أن قول أي شيء سيكون خطيراً؛ لذا اكتفيت بإخفاض رأسي وتابعت القصَّ، محاذرةً هذه المرة أن أتوقف قبل الانتهاء.

منذ ذلك اليوم، صار يطلب مني أن أمكُث كل مساء بعد العشاء، إلا أنه لم يكرر سؤاله إياي مبيتَ الليل أبدًا، أقول سؤاله، بحكم العادة لم يكن ثمة أي شكل من السؤال.

عادةً يكون «أوتوميدون» و«ألكيموس» موجودين أيضًا، بَيْدَ أنه لم يستبْقِهما طويلًا قط، وفي وقت ما بين مغادرتهما وموعد النوم، كان يأخُذ مشعلًا ويطلُب مني جلب آخر، ويخرج إلى حيث يتمدد جسد «هكتور» وسط القذارة، يركله عادةً ليقلبه على ظهره، ثم يخفض المشعل ويتفحص الوجه، خلال الساعات الاثنتي عشرة التي تمضي منذ آخر مرة سحله فيها حول قبر «فطرقل»، تكون الملامح قد استُعيدت بالكامل، حتى العينان تكونان قد عادتا إلى محجريهما، كان دائمًا يدفع الجفنين إلى أعلى كي يتأكد، وحين ينتصب ناهضًا - وتلك كانت أكثر لحظة أخافها - تكون الإصابات التي أنزلها بـ «هكتور» قد انطبعت على وجهه هو.

أحيانًا ينتهي الأمر على ذلك، وفي أحيان أخرى يتوثق من الحبل الذي يربط كاحليَ «هكتور» إلى عربته ثم ينطلِق مجدداً، يقود في حلقات متتالية حول جثوة قبر «فطرقل» في الظلام، في تلك الليالي، اعتدتُّ أن أنكمِش مُرتعدةً في قسم المعيشة، أترقَّب إيابه مُنصتة، وأنا في حالة من الهلع التام، ليس خوفاً على نفسي تحديدًا، لكن لأنه لم تتبقَّ فيه أية إنسانية على الإطلاق كما بَدَا، كنت سأقول: إنه قد صار موضعًا للشفقة والرعب، لكنه لم يكن يوحي بالشفقة قط، وبالتأكيد لم يشعُر بها، أما الرعب فلم أكن الوحيدة التي تشعُر بذلك؛ «أوتوميدون» و«ألكيموس» اللذان يحبانه ولن يترددا في مساعدته لو استطاعا، حتى هما كانا خائفين.

لكنهما كانا عالِقَين مثله تمامًا في دائرة لا تنتهي من الضغينة والثأر، وإذا لم يكن بمقدورهما تحرير نفسيهما منها، مع كل ما يمتلكانه من مزايا، فأي أملٍ كان لي أنا؟

***

-٤١-

كل ليلة على العشاء يجلِس وحده إلى الطاولة التي اعتاد أن يتشاركها مع «فطرقل»، أوقات الوجبات عصيبة؛ لأن أحدًا لا يستطيع أن يأكُل شيئًا قبله، وشهيته هجرته، لكنه يبذل قصارى جهده، فيرغم نفسه على المضغ بحماسَة ظاهرة، إلا أنه لا يتمكن دائمًا من بلع ما يمضغه، بدلًا من ذلك، يبصق كرات صغيرة من اللحم المهروس في راحته بتحفظ ويخفيها تحت حافة صحنه، «ألكيموس» و«أوتوميدون» يخدمان عليه ثم يتناولان شرابًا معه بعد ذلك، يَبْدَ أنه يستشعر شيئًا من نفاد الصبر مع تقدم المساء، لا شك أنهما يرغبان أن ينهيا الأمر كي يتسنى لهما تناول شراب مع أصدقائهما أو الخلود إلى السرير برفقة فتاة أثيرة، هل يملك أي منهما فتاة أثيرة؟ لا فكرة لديه، كان «فطرقل» ليعلم.

حالما يُقدم الطبقُ الأخير، يشيح بيده صارفًا «أوتوميدون» و«ألكيموس»، حيصهما المستمر يبدأ بإثارة أعصابه، غير أن أيًّا منهما - تحريًا للإنصاف - لا تشُوبه شائبة، فيما خلا العيب الوحيد العظيم الذي لا سبيل إلى إصلاحه: أنهما ليسا «فطرقل»، «ألكيموس» على وجه التحديد رجل جيد طيب القلب، مخلص وشجاع ومقاتل جيد كذلك، مغفل بعض الشيء ربما، لكن الوقت كفيل بإصلاح ذلك، «أوتوميدون» مسألة مختلفة: طويل ونحيل، حوذي عربة من الطراز الأول، لكنه مزموم الشفتين قليل الكلام، يفتقر إلى حس الدعابة، موفور الحصافة والوعي، كان موجودًا حين مات «فطرقل»، هو - وليس «أخيل» - من احتضن الرجلَ المحتضر بين ذراعيه، هو من شهد زفره آخر أنفاسه، هو - وليس «أخيل» - مَنْ قاتل وردع الطروادييـن الذين كانوا يحاولون سحب الجثمان والعودة به إلى طروادة؛ ولهذا السبب على «أخيل» أن يكون مُمتنًّا إلى الأبد لـ

«أوتوميدون» ولا يتركه يشتبه ولو للحظة بمرارة غيظه منه، لماذا هو؟ لماذا ليس أنا؟ يطرح الأسئلة مرارًا وتكرارًا، كما لو أنها قد تحظى ذات يوم بإجابة مختلفة، فينزاح حمل الذنب عن كاهله أخيراً.

«ألكيموس» و«أوتوميدون» هما أقرب رفاقه إليه الآن، بفضلهما لا يكون وحده أبدًا، ولأنهما ليسا «فطرقل»، لم يسبق أن كان وحده أكثر مما يكون وهو برفقتهما.

يشد أصابعه على ذراعي كرسيه المحفورين - رأسا أَسَدَي جبال مزمجران شُكِّلا على نحو دقيق ممتاز - ويحاول أن ينفض عنه تبلدَه، أن يحمل نفسه على النهوض فيمنح بذلك الإذن للآخرين جميعهم بالانصراف، لكنه حالما يوشك على الوقوف، يلاحظ - ليس جلبةً تمامًا - اضطرابًا من نوع ما عند الطرف القصي من البهو، أحدٌ ما فتح الباب الخارجي فسمح لتيار من هواء الليل بالدخول، تتهدج المشاعل، يتصاعد الدخان مدومًا، ويشعر هو بهواء ألطف على جفنيه، وفجأة يظهر رجل عجوز، أشيَب لكن ليس محني القامة، يتوكأ على عصا ويسير نحوه، يقول لنفسه: أبي، غير أن السبب الذي قد يدفع أباه ليواجه رحلة بحرية خطرة كي يزوره هنا مُتعذرٌ على الاستيعاب؛ لم يسبق أن فعل هذا، وعلى أية حال، مع اقتراب الشيخ أكثر يتضح أنه لا يشبه «بيليوس» في شيء.

لا يظهر أن أحدًا آخر قد انتبَه إليه، مما يجعل اللحظة تبدُو غريبة وعجيبة بعض الشيء خارجةً عن الترتيب الطبيعي للأشياء.

يستغرق الشيخ وقتًا طويلًا ليصل إليه، واضحٌ لرؤية من جاء: عيناه مثبتتان على «أخيل»، مُزارع فلاح، بناءً على قماش ردائه الخشن والعصا رديئة التنجير التي يتوكأ عليها، بَيْدَ أنه دون شك لا يتصرف مثل فلاح، بدأ بعض الريب يتشكل بالفعل في مؤخر ذهن «أخيل»، لكن على نحوٍ واهن؛ لأن الأمر أقل احتمالًا حتى من وصول أبيه دون إشعار مسبق، لا، ليس قليل الاحتمال بل مستحيلًا.

يصل الرجل إليه، إنه الآن على بُعْدِ قدمين أو ثلاث فقط، ثم يُنزل نفسه إلى الأرضية بطقطقة مسموعة من المفاصل الملتهبة، ويشبك يديه حول ركبتي

«أخيل»، وضعية متضرع، يظل كل شيء ساكنًا لبرهة، عدا واحد أو اثنين من الرجال بدآ بتبادل النظرات الحائرة، عندئذ يتكلم الشيخ وجهًا لوجه دون أن يرفع صوته، كما لو لم يكن في الغرفة أحد آخر سواه هو و«أخيل»، وربما لا أحد آخر في العالم، يحس «أخيل» بالشعر المجزوز فوق مؤخر عنقه ينتصب، الأمر كما لو كان ينظر إلى الخلف من وقتٍ ما في المستقبل البعيد الذي لا يمكن تخيُّله فيرى نفسه يقتعد كرسيًّا شبيهًا بالعرش وعند قدميه يركع رجل أشيَب طويل، ها هما ثابتان، ليس لهذه اللحظة وحسب بل طوال الوقت.

يهزُّه صوتٌ يعيده إلى الحاضر.

«أخيل»، يلهث الشيخ طلبًا للهواء، كأن التلفظ بالاسم ينهكه: «أخيل».

الاسم مجردًا - يلاحظ «أخيل» - بلا لقب، رغم هذا الركوع الذليل عند قدميه، ثمة افتراض بالمساواة هنا، يشعر بيديه تتكوران إلى قبضتين، لكن هذا محض منعكَس، هو لا يشعر بالتهديد، يمكنه تمزيق هذا الشيخ إربًا بيديه العاريتين، بسهولة تمزيقه دجاجةً بُولغ في طهوها، ومع ذلك هو خائف.

«بريام».

يهمس بالاسم، كيلا يسمع الرجالُ حوله، وبطريقة ما يُصلبُ مجردُ التلفظِ بالكلمة الريبَ محيلاً إياه حقيقة، غضب عارم فوري: «كيف دخلت بحق الجحيم ؟»

بحلول هذا، يكون أقرب أعوانه قد انتصبوا على أقدامهم، الذنب والارتياع يظللان كل الوجوه بوضوح، ما زالوا لا يعرفون من يكون هذا، لكنهم يعرفون أنه لا يجدر به أن يكون هنا، ما كان يجدر أن يتمكن من دخول المجمع، ناهيك عن قطعه البهو بخط مستقيم وبلوغه «أخيل» دون عقبات على مقربة كافية للمسه، على مقربة كافية لقتله إن كان ولا بد. يرفع «أخيل» يده، فيتراجعون على مضَض، مُدمدمين مثل كلاب تحوم في حلقة.

«بريام» يبكي الآن، دموعٌ سريعة صامتة تنثال على وجنتيه وتختفي داخل

اللحية البيضاء: «أخيل».

«لا حاجة بك إلى الاستمرار في قول هذا، أنا أعرف من أكون»، هل يعرف؟ إنه مشدوه من هذا إلى درجة أنه لم يعُد متأكدًا إن كان يعرف:

- «سألتك سؤالًا، كيف دخلت؟»
- «لا أدري، أظنني أُرشِدت.»
- «من قِبل إله؟»
- «أعتقد ذلك».
- «حقًّا؟ لم ترشُ الحراس؟»

«لا، لا شيء من ذلك القبيل»، يبدو «بريام» متفاجئًا من أن يخطر له ذلك حتى: «لقد سمعتُ ما قلتَه حين دخلت.»

- «لم أقل شيئًا.»
- «بلى، قلتَ: أبي.»

يحاول «أخيل» أن يفكر، إلا أن ذهنه فرغ تمامًا، لقد قال أبي في قرارته بالتأكيد، لكنه متأكد عمليًّا أنه لم يقلها جهراً؛ وأن يكون «بريام» يقرأ أفكاره فذلك يؤكد فقط غرابة هذا اللقاء.

- «سيكون رجلًا عجوزًا الآن، والدك لا يمكن أن يكون أصغر سنًّا مني بكثير.»
- «إنه لا يشبهك بشيء فهو قوي.»
- «أنت بعيد عنه منذ تسع سنوات يا «أخيل»، سترى اختلافًا حين تعود.»

لن أعُود.

يتعين عليه منع نفسه من نطق الكلمات جهراً، وللغرابة، ليس حضور الشيخ -

عدوه - هو ما يكبحه، بل الوجوه المحتشدة حولهما، حمراء ومتعرقة في ضوء المشاعل: وجوه أصدقائه، لا يستطيع حمل نفسه على قول الحقيقة لهم.

- «سيكون مشتاقًا إليك، غير أنه على الأقل يحظى بمواساة معرفته أنك ما تزال حيًّا، ابني ميت.»
- «أخيل» يتلوى على كرسيه: «ماذا تريد؟»
- «أريد أخذ جسد «هكتور» إلى المنزل.»

تسقط الكلمات كأحجار في بئر عميق بحيث يمكنك قضاء بقية حياتك تُنصت منتظرًا صوتها عندما تضرب الماء، ليس الأمر متعمدًا؛ لو كان بمقدور «أخيل» أن يتكلم لفعل.

«لقد أحضرتُ فدية»، يبذل «بريام» جهدًا مرئيًّا ليضغط على جدار صمت «أخيل»: «يمكنك أن ترى بنفسك، إنها بالخارج في العربة، أو أرسِلْ أحد رجالك، ينقل «بريام» نظره في حلقة الوجوه العدائية فيتلعثم صوته للحظة، لكنه يعود ويرفع رأسه: «أعطني ابني يا «أخيل»، فكِّرْ في أبيك، الذي هو شيخ مسنٌ مثلي، أكرمِ الآلهة.»

الصمت ما يزال مخيمًا.

«أنت لديك ابن يا «أخيل»، كم عمره؟»

- «خمس عشرة».
- «إذًا فهو على وشك أن يبلغ سنًّا تكفي للقتال؟»
- «ليس بعدُ، إنه في الوطن مع والد أمه.»
- «أراهن أنه لا يطيق الانتظار حتى يصل إلى طروادة، ليقاتل إلى جانب أبيه، ويثبت جدارته، سيكون هنا عما قريب، كيف ستشعر يا «أخيل» إن كان جسد ابنك أنت ملقًى بلا دفن خلف بوابتي أنا؟»

يهز «أخيل» رأسه، «بريام» يتشبث بركبتيه بقوة أكبر، أصابعه تغوص فيهما: «أنا أفعل ما لم يفعله رجل قبلي قط، أقبِّل يدَي الرجل الذي قتل ابني.»

يحس «أخيل» بالشفتين الرقيقتين الجافتين تلامسان ظهر يده، فيحرض الإحساسُ فيه سَوْرة غضب عارم فورية، يريد أن يفلت العنان لبطشه، أن يدفع كيس العظام الهَرِمة هذا ويمسح به الأرض، جسمه يرتعش ويتمعج بأكمله، كل العضلات متوترة، لكنه يتمكن من إبقاء يديه ساكنتين، إلا أنه حين يخفض بصره يرى أن ثمة خطبًا فيهما، هما كبيرتان في أفضل حالاتهما، يدا مقاتل، مدربتان منذ الطفولة على تطويع السيوف والأسنَّة، لكنهما لم يسبق أن كانتا كبيرتين هكذا بالتأكيد، يتذكر أن الشيء نفسه حدث يوم وفاة «فطرقل»، يحاول ثني أصابعه، لكن ذلك لا يزيد الطين إلا بلة، كل ظفر فيهما مغروز في قشرة حمراء من الجلد الميت، لمَ لا يتحرك الدم؟

ثم فجأة تنتمي يداه إليه من جديد، يدفع «بريام» بعيدًا، لكن برفق، شاعراً بحدة ترقوتيه تحت الرداء الرقيق، وبعدها يغطِّي وجهه ويبكي على أبيه وعلى «فطرقل»، على الأحياء والأموات، و«بريام» - وهو ما يزال متمسكًا بذراع كرسي «أخيل» - يبكي على «هكتور»، وعلى كل أبنائه الآخرين الذين قضوا في هذه الحرب المديدة.

إنهما قريبان، هذان الرجلان، قريبان حتى يكادا يتلامسان، لكن حُزنيهما متوازيان وليسا مشتركَين.

الرجال المحيطون بهما من كل صوب يبدلون أقدامهم التي يرتكزون عليها ويسعلون، بحلول هذا الوقت، اتضح للجميع مَنْ يكون هذا الشيخ، ولكن ذلك لا يجعل الأمر أكثر معقولية، يذهب «أوتوميدون» إلى الباب، واثقًا من أنه سيجد فرقة من الحراس الطروادين في الخارج؛ لأنه لا يمكن ببساطة أن يكون «بريام» هنا أعزَل وبمفرده، ملك طروادة يقود تحت جنح الظلام إلى قلب المعسكر الإغريقي، لا راية هدنة ولا ضمانة بمعبر آمن! لا، هذا غير ممكن، سيكون على الأقل قد جلبَ حراسًا معه.

لكن «أوتوميدون» يرجع بعد برهة وهو يهز رأسه، ما من أحد هناك في الخارج، لا شيء إلا عربة زراعية مغطاة وزوج من البغال.

تتضيق حلقة الرجال حول «أخيل» أكثر، لكن «أخيل» حينها يرمق «أوتوميدون» ويهز رأسه، قاصدًا أن أبقِهم متراجعين، على الفور، يفرد «أوتوميدون» ذراعيه، دافعًا الجميع بعيدًا، و«ألكيموس» الذي ظل مسمرًا بأرضه حتى الآن فاغرًا فاه من الصدمة، يفعل الشيء نفسه، وبذلك يُخْليان فسحة حول «أخيل» و«بريام»، الآخرون جميعهم يتراجعون إلى دائرة من الوجوه المدمدمة، وضوء المشاعل يلقي بظلالهم على الجدران والسقف، لكن هذا لا يكفي بعدُ، يحرك «أخيل» يديه دفعًا، وعلى الفور يفرق «أوتوميدون» الدائرة ويبدأ بتوجيه الجميع إلى الخارج، «الأمر على ما يرام»، يقول مرارًا بينما يحدوهم نحو الباب: «الأمر على ما يرام كما ترون»، يتباطأ بعضهم وينظرون إلى الخلف، وهم ما يزالون غير قادرين على قبول ما رأوه، لكن «أوتوميدون» مرة يحثهم ومرة يدفعهم إلى خارج العتبة في الخارج، بينما يبدؤون بالتفرق، يُسمع صوت يسأل: «أيكون هو؟» ثم أصوات أخرى: «أجل، يَبْدَ أن الأمر على ما يرام، أليس كذلك؟ كان يمكن أن تكون في حوزته سكين، ما زال ذلك ممكنًا، لم يقم أحد بتفتيش الوغد، ما الذي كان الحرس يفعلونه بحق الفاحشة؟ لا بد أنهم تلقوا رشوَة».

وبالتدريج، تتلاشى الأصوات بعيدًا. داخل البهو، صمْت، يمد «أخيل» يديه وينْهِض «بريام» برفِق على قدمَيه، تطقطق ركبتا «بريام» وهو يكدح من أجل الوقوف، ويبتسم كما يفعل الرجال المسنُّون، متقبلًا المذلة الطفيفة بشكل محزن. يجرُّ «أخيل» كرسيًّا:

- «هيا اجلس، لا بأس، يمكنك أن تأخذ ابنك، لكن غدًا وليس الآن.»

لكن «بريام» لا يريد أن يجلس، وفجأة يبلغ نهايةَ صبره، يصير خارجًا عن السيطرة ونكدًا كطفل تأخر عن موعد نومه، يريد أن يرى جثة «هكتور» الآن وليس غدًا، يريد أن يلمسه، أن يلحفه بحب بأي غطاء يجده ويأخذه إلى المنزل،

يريد أن يمنح أم «هكتور» العزاء الوحيد الذي يمكنها الحصول عليه الآن: أن تُعِدَّ جسد ابنها للإحراق، ثمة حُمرة محمومة تعلو وجنتيه، إنه مزهو بنفسه بل أرعن لأنه نجا، لقد دخل معسكر العدو، وسار إلى داخل بهو «أخيل» ونجا، لم يتوقع ذلك أبدًا، أجل، قوانين الضيافة مقدسة، لكنها لا تشمله، فهو متطفل وليس ضيفًا، لكن حتى لو كان ضيفًا، ماذا عساها تعني قوانين الضيافة لرجل مثل «أخيل» الذي سبق وخرق كل قانونٍ آخر؟

في مكان ما في مؤخر ذهن «بريام»، ثمة الخوف من أن تكون جثة «هكتور» قد ذهبت منذ وقتٍ طويل طعامًا للكلاب، ويكون «أخيل» يعبث معه لغاية وحشية في نفسه؛ لذا لن يجلس، لماذا عساه يجلس ويدردش مع قاتل ابنه، بينما ترقد جثة «هكتور» في مكان ما من هذا المجمع، مُهانةً على أفضل تقدير، وعلى أسوئه مضمحلةً إلى كومة عظام تتحلق حولها كلاب تلعق ريَشَ اللحم؟ «لا تطلب مني الجلوس يا «أخيل»، وابني هناك في الخارج بلا دفن، ولا أضمن ألا يكون الآن طعامًا لكلابك.»

للمرة الأولى، يشي صوتُه في شكسه بما هو عليه: رجل عجوز ضعيف.

غضب عارم، «قلتُ: اجلس»، ينفر عِرق في صدغ «أخيل» مثل دودة تحت جلده: «لو أنني أطعمتُه للكلاب لما كان قد تبقى لك ما تأخذه إلى المنزل، ولكنتُ معذورًا تمامًا؛ لأن هذا ما كان قد خططه لـ «فطرقل»، وكنتَ ستضطر أن تتركه يفعل ذلك، لا تقُل لي لا، فأنا أعلم أنك كنتَ ستفعل.»

حتى الرجلان الشابان اللذان يبدو أنهما أقرب رفاق «أخيل» ينفضّان من حوله الآن، يهوي «بريام» مرتعدًا على الكرسي، وفي تلك الأثناء، «أخيل» يَذْرَع المكان جيئة وذهابًا بخطاه الواسعة، يلكم راحة يده بقبضته الأخرى المشدودة، مُستعيدًا بالتدريج وفي وتيرة بطيئة زمام نفسه، يتوقف آخر الأمر عن مراوحته وينظر إلى الأسفل نحو «بريام»: «هيا فلندخل إلى هناك ونتناول شرابًا، ثمة خصوصية أكبر، فقد يدخل أي أحد إلى هنا»، يبتسم ابتسامةً غير متوقعة: «حسنًا، لا حاجة بي أن أقول لك ذلك، صحيح؟»

يعبران إلى قسم المعيشة، «أخيل» يقود الطريق، وثمة نار متقدة، وإبريق خمر جاهز للصب، أطباق من شرائح التين والجبن والخبز والعسل موضوعة على المنضدة.

يقول «أخيل»: «اجلس».

يجلس «بريام»، وهو ما يزال يرتعد، على ما لا يعلم أنه كرسي «أخيل».

«يصيح «أخيل» بعالي صوته: «بريزيس»، ثم يقول لـ «أوتوميدون»: «قل لها أن تحضِر شيئًا أقوى، فهذا الشيء أشبه ببول العذارى»، ويلتفت إلى «بريام» قائلًا: «ستتناول كوبًا من الخمر؟»

يضغط «بريام» بإحدى يديه على فمه ليثبت شفتيه، يبدو مثل شيخ مذعور، لكن هذا على السطح، أما تحت، حيث يهم حقًّا، فهو لا يُقهر، «أخيل» يرى الخوف والشجاعة كليهما، و«بريام» يحظى باحترامه الخالص.

ما يزال «ألكيموس» و«أوتوميدون» يحومان، «يمكنكما الانصراف الآن»، يقول «أخيل»:

- «سأكون على ما يرام».

يهز «أوتوميدون» رأسَه لا إراديًّا.

- «أبقيا الرجال صامتين، لا يهمني ما تضطران إلى فعله، أخرِسوهم وحسب، لا نريد أن ينتشر هذا في أنحاء المعسكر.»

ينحني «أوتوميدون» ويتراجع على مضَض، ثم يتبعه «ألكيموس» وهو ما يزال يحدِّق في «بريام» فاغرًا فاه.

«بريام» يُحملق في النار، ساكنًا بلا حراك كفَأر تحت قائمة قط، إنه يفكر: حسنًا، ما أسوأ ما يمكن أن يحدُث؟ هو سيموت قريبًا على أية حال، وحتى دون الحرب،

من يدري؟ في مكان ما قريب من النهاية، أَفَلا يكون موته الآن - بضربة واحدة سريعة من خنجر «أخيل» - أفضل من اضطراره تحمُّل أسابيع أخرى من العذاب؟ ومع ذلك يريد أن يعيش، يريد أن يقبِّل «هيكوبا» مجدداً ويُخبرها أنه أحضر ابنهما إلى المنزل.

تدخل فتاةٌ حاملةً إبريق خمر، وتتردد عند مدخل الباب، واضح أنها محتارة لمن تُقدم الخمر أولاً، يشير «أخيل» إلى «بريام»، وحين يمتلئ الكوبان تنسحب الفتاة بصمتٍ إلى الظلال، لكن ليس قبل أن يكون «بريام» قد لاحظ مدى جمالها، حتى هنا في نهاية الحياة في حضرة عدوه، لا يمكنه منع نفسه من أن يتساءل كيف قد يكون شعور أن يعود شابًّا ويحضن تلك الفتاة بين ذراعيه؟

يجلس «أخيل» ويرتشف رشفة من الخمر، لكنه يبدُو قلقًا وسرعان ما يثب ناهضًا من جديد: «لديَّ بعض الأشياء التي عليَّ أن أُعنى بها، إن أردت أي شيء اطلبه من «بريزيس»، لن أتأخر.»

أعرف هذا الاسم، يقول «بريام» لنفسه، هو واثق جدًّا أنه رأى الفتاة من قبل، ليست فتاةً من النوع الذي تُنْسَى رؤيته، لكنه لا يستطيع مهما حاول أن يتذكر أين.

تسأله:

- «أترغب بالمزيد من الخمر يا سيدي؟»

فيفكر: أجل، لمَ لا؟ يعود «أخيل» بعد بضع دقائق، كان على الأغلب يتوثق من كون الفدية كبيرة بما يكفي، أو شيء من هذا القبيل، يتجه نحو النار مباشرةً وهو يفرك يديه:

- «طلبت منهم أن يجلبوا لنا بعض الطعام.»
- «لستُ جائعًا.»

- «لا، لكنك ستتناول شيئًا، متى أكلتَ آخر مرة؟»

يلتفتِ «أخيل» إلى «بريزيس»، لكنها سبقَته بخطوة؛ المائدة ممدودة بالفعل.

***

-٤٢-

بمُجرد أن أُدْخِلَت أطباق اللحم المشوي ووُضِعَت على الطاولة، طُلِبَ من «أوتوميدون» و«ألكيموس» الانصراف مجدداً، كان «أوتوميدون» مُهتاجًا كما بدا لي جليًّا؛ بصفته معاون «أخيل» الرئيس فهو عادةً الشخص الذي يخدم على الضيوف الملكيين، وكان واضحًا أنه يجد فكرة حلُولي محله لا تطاق، لم يكن ثمة داعٍ لقلقه؛ فقد خدم «أخيل» على «بريام» بنفسه، إذ راح ينتقي قطع اللحم الأدسم وينقلها بأناقة إلى طبقه.

كنتُ قد وضعتُ قنديلًا على المائدة فراح الضوء يتألق على الأكواب والأطباق الذهبية، عادةً لدى استقباله ملكًا، يرتدي «أخيل» واحدًا من أكثر أثوابه بذخًا، لكنه الليلة كان قد اختار أكثر ثوب يملكه بساطةً وخشونة، يريد من ذلك ألا يفوق ضيفه بريقًا كما كان واضحًا، ما كان شيء ليبهجني أكثر من أن أستطيع التفكير في «أخيل» على أنه سفاح لا يملك مزايا تشفع له أو كياسة في السلوك؛ لكنه لم يكن كذلك أبدًا. وضعت إبريق خمر آخر على المائدة قرب مرفقه وانسحبتُ إلى الظلال.

مشكلة أولى: لم يكن ثمة سكين في حوزة «بريام»، عولجتْ بسرعة؛ إذ لمع «أخيل» خنجره ببساطة مستخدمًا قطعة من الكتان ثم سلَّمه من فوق الطاولة، في حين هرعتُ أبحث له عن بديل في الأنحاء، يبدو الأمر هامشيًّا، أعرف ذلك غير أن هذا الحدث الصغير التافه غَيَّرَ كل شيء، كانت الصدمة قد أرخت ملامح وجه «أخيل»، علم أن «بريام» لم يكن مسلحًا، لا سيف ولا رمح ولا جماعة من المقاتلين الطرواديين تنتظر خارج الباب، لكن أن يدخُل بهو ألدِّ أعدائه دون خنجر حتى، لم يكن أحد يغادر منزله بلا سكين ولا حتى العبيد، «أخيل» كان

خبيراً بالشجاعة في ميدان القتال، لكن هذا كان نوعًا من الشجاعة لم يسبق أن صادفه قط، ولأنه كان شديد الولع بالتنافُس، بل مجنونًا به تقريبًا، علمتُ أنه لا بد يتساءل: أكان يمكن لي أن أفعل ذلك؟ أكان يمكن أن أفعل ما فعله «بريام» لتوه؟

أكل «أخيل» جيدًا على نحوٍ لافت، بالنظر إلى أن ذلك كان عشاءه الثاني ذلك المساء، لكنه في الوقت نفسه لم يكن قد تناول شيئًا تقريبًا على عشائه الأول، سالَت العصارة والدماء متلألئة على معصميه وهو يقطع اللحم ويمزقه، أما «بريام» فاكتفى بالتنقير بطعامه، إلا أنه حرص على تذوق كل صنف والثناء عليه، لكنني استطعتُ أن أشعر بالفرج الذي أحسه حين تسنى له أن يُبعد الطبق بعد أن أنهى واجبه كضيف.

لم أستطع سماع الكثير من الحديث، ولم يتكلما في الحقيقة إلا قليلًا، إذ ظهر عليهما أنهما قانعان بالتحديق إلى بعضهما مثل عاشقين، أو أم ورضيعها الوليد، التحديقة التي لا ترمش عمومًا، ولا سيما عندما تُوَجَّه من رجل إلى آخر، تُعتبر بمثابة تهديد، لكن أيًّا منهما لم يَبْدُ غير مرتاح للتحديقة، كان ذلك لقاؤهما الأول، حين جاء «أخيل» إلى طروادة قبل تسع سنوات، كان «بريام» أساسًا أكبر سنًّا من أن يُقاتل، وبشكلٍ يومي منذ ذلك الحين تقريبًا، بات يشاهد «أخيل» في ميدان القتال، ولا شك أن «أخيل» من وقتٍ إلى آخر نظر إلى أعلى ورأى شيخًا أشيب ينظر إلى أسفل، فعلم أو خمن أنه «بريام»، لكن - وهذا جوهري - لم يسبق أن اختبر أحدهما قوة الآخر في القتال؛ لذا فربما كان هذا التفحص المطول بديلًا عن ذلك، بَيْدَ أنني أظن أن الأمر اتخذ منحى أعمق، بدا كأنهما يقفان على الطرفين المتقابلين لنفَق زمني: «بريام» يرى المحارب الشاب الذي كانه ذات مرة، و«أخيل» يرى الملكَ العجوز الموقر الذي لن يكونه أبدًا.

أنا واثقة أن «أخيل» نظر إلى اللقاء على أنه لقاء بين نِدَّين، لكنني لم أره كذلك، لأكثر من أربعين عامًا، كان «بريام» يحكم مدينة عظيمة مزدهرة، بينما كان «أخيل» قائد قطيع ذئاب، غير أن ذلك لم يزد إلا من غرابة رؤية الاثنين يغمسان الخبز في الصحن نفسه، في الحقيقة، كل ما في تلك الأمسية بدا غير حقيقي

شبيهًا بالأحلام، وهشًّا إلى أبعد حد، مثل الفقاعات التي تتشكل على موجة متكسرة، تبقى للحظة ثم تختفي إلى الأبد.

مع مشارفة الوجبة على النهاية، أحضرتُ قصعة من شرائح التين المحلاة بالعسل، وسرَّني أن أرى «بريام» يتناول شيئًا منها، لعله كان قد بلغ مرحلة الإنهاك التي يكون فيها المذاق الحلو هو كل ما تشتهيه، وحين ظننته انتهى، قدمت له سلطانية من الماء الدافئ المعطر بعصير الليمون والأعشاب فغسل أصابعه ثم جففها بقطعة من الكتان الفاخر.

بعد الوجبة، عاد إلى كرسي «أخيل» وجلس يُحدِّق في خمره، لم يكن شيء قد تغير، ومع ذلك فقد عاد الجو إلى التوتر من جديد.

قال «بريام»:

- «أرجوك، أريد أن أرى «هكتور» الآن.»

كان بوسعي أن أرى ذهن «أخيل» يدُور بسرعة: لا شك أنه يُفكر في جثة «هكتور» المستلقية فوق أرضية فناء الإسطبلات المرصوفة، عاريةً ومكسوة بالخراء، لو رأى «بريام» ذلك، فمن المحتمل جدًّا أن يشتعل حزنه مُتحولًا إلى غضب وذلك بدوره سيُعيد إيقاد حزن «أخيل» على «فطرقل» ومعه غضبه العارم هو الآخر، كنتَ لتستطيع أن ترى «أخيل» يهدئ جموح نفسه ويتمالك زمامها، مثل فارس على حصان مروضٍ جزئيًّا، تحت الدماثة - والوميض العرَضي لشيء بالكاد يشبه الشفقة - لا أظن أن كان يفصله أكثر من نفَسٍ واحد عن قتل «بريام».

قال ناهضًا:

- «بالطبع يمكنك ذلك، لكن ليس الليلة، غدًا قبل أي شيء آخر، أعدك».

أعاد ملء كوب «بريام» وأشار إليَّ أن أتبعه، كان «ألكيموس» و«أوتوميدون» ينتظران على الشرفة، حملتُ مشعلاً فيما راحا يفرغان حمولة عربة «بريام» من الفدية ويحملانها إلى أكواخ التخزين، الكثير منها كان أنسجة وملابس وأغطية سرير مصنوعة من القماش المطرز الباذخ الذي اشتهرت به طروادة، انتقى «أخيل» رداءً بارز الفخامة بعينه ليلبس جثة «هكتور» إياه، ثم طلب مني أن أعدَّ سريراً لـ «بريام» على الشرفة، لكن قرب طرف البناء، بحيث لا يُرى من المدخل الرئيسي، وأن أجعله دافئًا ووثيراً قدر المستطاع.

- «خذي أي شيء تحتاجينه»، قال: «خذي الفراء عن سريري إن أردتِّ، لا أريده أن يبرد.»

ذهبتُ إلى أحد أكواخ التخزين وأخذتُ بُسُطًا من جلد الثور لأشكِّل قاعدة السرير، ليست رائحة جلد الثور سارَّةً مهما عولج بعناية، وعادةً ما كنت أدخل إلى هناك وأسارع بالخروج قدر الإمكان، لكنني كنت بحاجة إلى هذه الدقائق القليلة وحدي، مثل أي شخص آخر، هزَّني ظهور «بريام» المفاجئ في بهو «أخيل»، شعرتُ بالانشداه والتيقظ الفائق في الوقت نفسه، كان ما يزال بوسعي سماعه يناشد «أخيل»، يتوسل إليه أن يتذكر أباه ثم الصمت، بينما يحني رأسه ويقبِّل يدَي «أخيل».

أنا أفعل ما لم يفعله رجل قبلي قط، أقبِّل يدَي الرجل الذي قتلَ ابني. ترددت أصداء تلك الكلمات من حولي، وأنا واقفة في كوخ التخزين محاطة من كل صوب بالثروة التي نهبها «أخيل» من مدن تحترق، قلتُ لنفسي: وأنا أفعل ما أُرغِم عددٌ لا يُحْصَى من النساء على فعله قبلي، أفتح ساقيَّ للرجل الذي قتلَ زوجي وإخوتي.

تلك كانت أكثر لحظة شعرتُ فيها بالضعة، أكثر مما كان وقت وقفتُ في ميدان المعسكر نصفَ عارية أمام غوغاء نابحين، أكثر حتى من الساعات التي قضيتُها في سرير «أجاممنون»، ومع ذلك فقد شدتْ لحظةُ اليأس تلك من عزيمتي، كنتُ

أعلم أن عليَّ انتهاز هذه الفرصة مهما كانت ضئيلة، كان عليَّ الهروب؛ لذا - وبطريقة تكاد تكون عشوائية - انتقيتُ بضع جلود الأخرى وطلبت من «ألكيموس» أن يحملها إلى كوخ «أخيل»، كانت جلودًا جيدة متينة سميكة، أثقل بكثير من أن أستطيع حملها.

لم يستغرق مني إعداد السرير وقتًا طويلًا، ولم أستخدم إلا أجود الملاء الكتانية وأطرى الوسائد وأدفأ الدُّثُر، وفردتُّ فوق كل ذلك غطاءً من الصوف الأرجواني سخي التطريز بالخيوط الذهبية والفضية، ثم وضعتُ كوبًا من الخمر المخفف جدًّا على منضدة قرب السرير، ودلوًا مغطًّى بإحكام على بُعْدِ بضع ياردات، اعتدتُّ في صباي أن أساعد أمي على الاعتناء بجدي؛ ولذا فقد كنتُ مُلِمَّةً بأحوال الشيوخ في الليل، لدى انتهائي، بَدَا السرير ملكيًّا بحق، وأمَّلت أن يوفر الراحة لـ «بريام» هنا وسط أعدائه، وأن يكون على قدر التشريف الذي يليق بملك.

حين عدتُّ إلى قسم المعيشة، وجدتُّ «بريام» منهكًا بعد رحلته الخطرة، كابيًا فوق خمره، إلا أنه انتفض مستيقظًا بعد دقيقة حين دخل «أخيل»، قال «بريام» مجددًا: «أريد أن أرى «هكتور»»، بدا قد نسي أنه سبق وطلب هذا.

قال «أخيل»:

- «غدًا، نَمْ أولًا».

مرر «بريام» يده فوق عينيه:

- «أجل، سيسرني أن أخلد إلى السرير.»

تمنى لـ «أخيل» ليلة سعيدة بكياسة واستطاع أن يسير حتى الباب دون تعثر، لكنه ما إن بلغ الشرفة حتى راح يتمايل من جنب إلى جنب، رافقتُه حول زاوية الكوخ وكاد يرتمي على السرير ارتماءً، جلس على الطرف لبرهة، يسوي الغطاء

بيديه الاثنتين مقدرًا جمال القماش، ثم أفلت تنهيدة صغيرة تنمُّ عن القناعة: «لا أظن أن سبق وكنت مسرورًا هكذا لرؤية سرير في حياتي.»

سألته إن كان يحتاج أي شيء آخر، فرفع نظره إليَّ ثم قال:

- «ألا أعرفك؟»

- «لقد سبق والتقينا يا سيدي، لكن ذلك كان منذ زمن طويل.»

- «أين؟»

- «في طروادة، عشتُ هناك لعامين، اعتادت «هيلانة» أن تحضرني معها إلى شرفات الحصن.»

«أجل، كنت أعلم أنني سبق ورأيتكِ، أنتِ صديقة «هيلانة» الصغيرة»، طفح وجهه بمسرَّة تليق بشيخ تعرف إلى عنصر من الماضي: «حسنًا، من كان يظن أنكِ ستكبرين لتصيري حسناء؟»

- «لم أعُد صديقة «هيلانة»، أنا أمَة «أخيل».»

تغير التعبير على وجهه:

- «أجل، سمعتُ بذلك، يكون الأمر عصيبًا على النساء عندما تسقط مدينة ما.»

علمتُ أنه كان يفكر في بناته هو، اللاتي سيتم اقتسامهنَّ بين الغزاة حين تسقط طروادة، وكانت ستسقط، نظرت إلى الشيخ الهش جالسًا هناك - لم يبقَ لديه أبناء أقوياء يدافعون عنه - وأيقنتُ أن لم يكن هنالك أمل.

عندما رجعت إلى الداخل، كان «أخيل» واقفًا قرب الطاولة يحدق - أقرب إلى السهوم كما تراءى لي - إلى الأطباق الفارغة، نظر حوله حين دخلت:

- «هل خلد إلى السرير؟»

- «أجل».

- «نام؟»

- «ليس بعدُ، لكنني لا أظن أن ذلك سيستغرق طويلًا.»

كان ينقر بأصابعه على الطاولة، ومن الواضح أنه يمعن في التفكير، «أي شيء ذلك الذي أقدم عليه، هل لاحظتِ؟ لم تكن في حوزته سكين»، هز رأسه: «هيا، يجب أن تُغسَل الجثة، وليس أمامنا الكثير من الوقت، لا بد أن يخرج من هنا قبل الفجر، إن عثروا عليه هنا سيقتلونه.»

***

-٤٣-

أخذ «أخيل» مشعلًا عن حاملٍ قرب الباب، وقاد الطريق إلى الإسطبلات يتبعه «أوتوميدون» و«ألكيموس»، كنتُ أستطيع أن أرى جسد «هكتور» متسخًا مفرود الأطراف فوق الأرض القذرة، كل إنش منه مكسو بالوحل والخراء، لكنه ما يزال يحتفظ بطول وشكل رجل، اعترتني رعدة ارتياح، إذ كان قد خطر لي أن الآلهة ربما يقومون بحيلة أخيرة فيجد «أخيل» ما كان يجده لا بد طوال الأسبوع الأخير على الأقل: كومة من العظام الزهِمة بالكاد تربطها مفاصل.

نظر إلى الأسفل وأومَأ مُتجهمًا، ثم جثَا ودسَّ يديه تحت الجثة، ودون حاجة إلى الأوامر، جثا «ألكيموس» في الطرف المقابل وفعل الشيء نفسه، رفعا «هكتور» ببطء شديد حتى بلغ ارتفاع الأكتف، بينما «أوتوميدون» يثبت الساقين، وحولنا الخيول تخبط بقوائمها وتصهل من كل صوب، رفعتُ المشعل عاليًا، فيما يجرُّ الرجال الثلاثة أقدامهم ببطء إلى خارج الفناء وعبر الممر الضيق الذي يقود إلى كوخ الغسيل، حيث كان يتم تجهيز الموتى للإحراق.

حين وصلوا إلى الباب، غَيَّرَ «أوتوميدون» موضعه، مثبتًا رأس «هكتور» بين يديه ليضمن عبوره العتبَة بسلامة، ومن حيث لا أدري، ألفيتُ نفسي أرغب بالضحك:

كانت العناية التي يُولونها الآن هزلية للغاية بعد كل الإهانة التي أنزلها «أخيل» بذلك الجسد يومًا تلو يوم، تبعتهم إلى الداخل وعثرت على حامل للمشعل، أنزلوا «هكتور» فوق لوح وهم ينخرون من الجهد ثم تراجعوا.

كنتُ أقف قبالة «أخيل» على الطرف الآخر من اللوح، كما حدث قبل ثلاثة أشهر حين مات «مايرون»، يومذاك كان «أخيل» مُترددًا بالمغادرة، يُثْبت سلطته على الغسالات، إماؤه اللاتي تسمَّرن في أرضهن يُثبتن سلطتهنَّ بصمت، حقهنَّ بتجهيز الموتى، وفي النهاية وللدهشة - دون أن تُنطق كلمة - كُنَّ قد أجبرنه على التراجع، شعرتُ بحضورهنَّ المبهم في الفراغ خلفي، لكن سلطتهنَّ التي لا اسم لها لم تكن ذات فائدة لي الآن.

كان «أخيل» قد شرع يزيل بعض القش العالق بجلد «هكتور»، ويضطر أن يكشط بقوة ليحرر القش، فتوترتُ متوقعةً أن أرى مزقًا من الجلد تنسلخ مع القش المُزال، كنتُ ما أزال أجد صعوبة في تصديق المصونية العجائبية التي تمتع بها جسد «هكتور»، انحنيتُ فوق اللوح أتشمَّم، متوقعةً الرائحة القاتمة الزنِخة للحم المتفسخ التي ما إن تواجهها مرة حتى لا تعود تنساها، لكن لم يكن ثمة شيء من هذا القبيل، لا شيء سوى الرائحة النافذة للصوف المبتل التي تصدر عن المراجل الضخمة حيث تُتْرَك الملابس الملطخة بالدماء منقوعة طوال الليل، «هكتور» يرقُد مُتمددًا كما لو كان نائمًا، حتى بياض العينين - كنت تستطيع رؤيتهما تحت الأجفان نصف المغمضة - كان صافيًا، وبالتدريج أخذ أنفي يُعْلِم دماغي أن يصدق الدليل الذي تقدمه عيناي.

كان الصمت قد استمر طويلًا للغاية، مرر «أخيل» بصرَه على كامل طول الجثة وأصدر أصوات طقطقة متقززة خافتة من لسانه: «أترون كيف يتحداني الآلهة؟»

- يتحداك الآلهة؟

للحظة رهيبة، ظننت أنني سأنطق العبارة جهرًا، لكنني بالطبع لم أفعل، أدركتُ فجأةً الصمت في المعسكر، لا بد أن المقاتلين المخمورين كبوا وناموا جالسين،

والحراس على المتاريس يُكافحون ليبقوا مستيقظين وهم يُحدِّقون في الظلام المتقلب حيث تأخذ جذوع الأشجار أشكال رجال وتبدأ بالزحف مقتربةً منهم، لا صوت في هذه الغرفة كذلك، عدا عن تصاعد أنفاسنا وهبوطها، نظرت إلى «هكتور» - حي للغاية وحاضر للغاية - وتوقعت أن أرى صدره يعلو ويهبط بالتزامن مع صدري.

دون سابق إنذار، أمر «أخيل» «أوتوميدون» و«ألكيموس» بالخروج من الغرفة، بدَت المفاجأة عليهما، بل أكثر من مفاجأة في الحقيقة؛ صدمة، حتى إن «أوتوميدون» استدار حين بلغ الباب، كما لو ليتوثق من أن «أخيل» قصد ما قاله، كنتُ أعتقد أن الثلاثة سيغادرون ويتركون الأمر لي، رغم أنني لم أكن أملك فكرة كيف يُفْتَرَض بي أن أقلب الجسد بمفردي، بدلًا من ذلك، هناك كان «أخيل»، واقفًا قبالتي على طرف اللوح.

قلت:

- «يمكنني أن أحضر النساء.»
- «ويَذيع الخبر في أنحاء المعسكر؟ لا أظن ذلك.»

كان واضحًا بطريقة ما أنه لن يكتفي بالوقوف متفرجًا؛ لذا ملأت دلوَين بالماء وأعطيته خرقة، عملتُ أنا على الجانب الأيسر، و«أخيل» على الأيمن، مع كل مسحة من أيدينا، تظهر مناطق من البشرة البيضاء، كأننا نبثُّ الحياة في «هكتور» تقريبًا نخلقه، بعد فترة، أعدتُّ ملء الدلوين وعثرت على المزيد من الخرق النظيفة، فتابعنا العمل، من فوق إلى تحت، من جنب إلى جنب، كأننا نؤدي رقصة صامتةً من نوع ما حول اللوح، في مرحلة ما، كنت أغسل قدمَي «هكتور»، وأفرك بالخرقة بين أصابعهما الطويلة المستقيمة، بينما يعمل «أخيل» على يديه، إصبعًا تلو الآخر، مستخدمًا رأس خنجره لينظف تحت الأظافر.

علمت أنه لن يستطيع أن ينظف الوجه؛ لذا جلبت إبريقًا من الماء ودلقته على

الرأس، وأنا أُعمِل أصابعي خلال الشعر لأفكَّ الخُصَل المتشابكة وأزيل كتل التراب، أتذكر أنني احتجتُ ثمانية أباريق قبل أن يسيل الماء عنه نظيفًا، وحينها فقط بدأت أعمل على الوجه، عندما مسحتُ القذارة عن عينَي «هكتور» وفتحتَي أنفه ونظفت داخل أذنيه، تراجعتُ ونظرت إليه، هذا هو الرجل الذي كان ليصبح ملك طروادة بعد وفاة «بريام»، ومع ذلك ها هو ذا، لحمه أبيض ومتراص مثل سمك القد النافق.

كنت أكافح كيلا أبكي، وحين شعرتُ أن دموعي بدأت تصبح ظاهرة أكثر من اللازم، انحنيتُ وتظاهرت أنني أغسل الخرقة، وعندما نهضتُ مجددًا، رأيت «أخيل» يراقبني.

- «لستُ مضطرًا إلى رده كما تعلمين.»

خفق قلبي بشدة:

- «لكنك أخذتَ الفدية.»

- «ليس «هكتور»، بل «بريام».»

خفتُ أن أتكلم، مذعورة على «بريام» وعلى نفسي، إن لم يترك «بريام» يذهب، فأنا ...

- «كم تظنين أن الطرواديين سيدفعون لاستعادة ملكهم؟»

اكتفيتُ بهز رأسي.

- «أي شيء، سيدفعون أي شيء على الإطلاق.»

- «لكنك بالفعل حصلت ...»

انتظر ثم قال:

- «لا، تابعي».
- «حصلت بالفعل على فدية ملك مقابل «هكتور».»
- «لا، أنتِ لا تفهمين، يمكنني أن أطالب بـ «هيلانة».»
- «هيلانة»!
- «حسنًا، لِمَ لا؟ هم لا يطيقون الانتظار حتى يتخلصوا من هذه القحبة.»

كان على حق بالطبع، فالطرواديون كانوا ليقايضوا «هيلانة» بـ «بريام» في أي وقت، دون أن يفكروا مرتين، وحينها كانت أفكاري تتسارع، إن أُعِيدت «هيلانة» إلى زوجها، لا حاجة للاستمرار في القتال، لا داعي لنهب طروادة، ستنتهي الحرب وسيستطيع الجميع العودة إلى الوطن، حسنًا، ذلك لا يشملني بالطبع، ولا يشمل أيًا من بقية الإماء كذلك، لكن الآخرين وهم الجيوش، سيكون بوسع الجيوش العودة إلى الوطن، كانت الاحتمالات هائلة، تسبِّب الدوار.

إلا أنني عدتُ ونظرتُ إليه:

- «لن تفعلها».
- «إنه ضيف».
- «لم يُدعَ».
- «لا، لكنه استُقْبِل».

قد تقول لنفسك: إنها محادثة يُستغرب حدوثها بين سيد وأمة، لكن تذكر أن ظُلْمة الليل كانت محيطة بنا، ولم يكن ثمة شهود سوى الميت.

بعد ذلك، استؤنف العمل في صمت، لكن نوعية الصمت كانت قد تغيرت. عندما حان وقت سد الفتحات، تراجع «أخيل» تاركًا إياي أعمل وحدي، قمتُ بلفِّ قماش من الكتان الفاخر حول الرأس لتثبيت الفك، وبحثت حولي عن

قطعتين نقديتين لأضعهما فوق أجفان «هكتور»، لم يكن ثمة قِطع نقدية تحت النظر، لكنني وجدتُّ وعاءً مليئًا بالحصى الصغير المسطح، احتُفِظَ به لهذه الغاية، اخترت اثنتين - أتذكر أنهما كانتا بلون رمادي مزرق شاحب تشوبه خطوط بيضاء رفيعة - وشعرت بخفتهما وملاستهما، اعتاد إخوتي على قذف أحجار كهذه على سطح ماء النهر، ولا شك أن «هكتور» فعل هذا حين كان صبيًّا، وضعتُ الحصاتين على جفنيه، ثم رفعت رأسه بحذر - المرء دائمًا ينسى كم هو ثقيل رأس الإنسان، مهما كنتَ معتادًا على رفع الرؤوس سيأتيك الأمر صادمًا كل مرة - ولففتُ شريطة من القماش فوق عينيه لتثبيت الحجرين في مكانهما، ثم تراجعت، كان «هكتور» قد رحل الآن، شعرتُ بطريقةٍ ما أنه لم يكن قد مات قبل تلك اللحظة.

ألبسناه الرداء الذي وضعه «أخيل» جانبًا، ثم لففناه بملاءة من الكتان الفاخر، وضعتُ أعوادًا من الصعتر وإكليل الجبل بين كل طبقتين من القماش: أردتُّ أن تعلم النساء اللاتي سيحللن القماش عنه؛ أمه وزوجته، أنه قد تم بذل بعض العناية والتوقير في هذا العمل، ولم يتم سد فتحات الرجل وحزمه كيفما اتفق بأيدٍ لا مبالية، في النهاية، فردتُّ قماشة من الكتان رقيقة إلى درجة تقارب الشفافية فوق وجهه.

ثم قام «أخيل» برفعه عن اللوح، بينما هرعتُ قبله لأفتح الباب، وعلى الفور، صار «ألكيموس» و«أوتوميدون» إلى جانبه، متأهبين للمساعدة، إلا أن «أخيل» أصر على حمل «هكتور» إلى العربة بنفسه، وذلك عمل يدل على القوة جدير بالاعتبار حتى وفق معاييره، وثب «ألكيموس» إلى العربة ليتلقى الرأس والكتفين، وصعد «أخيل» خلفه ثم بدؤوا بتثبيت الجثمان إلى الجوانب بأربطة صوفية سميكة لتجنب الانزلاقات والتقلقل غير المستحب حين تترجرج الإطارات فوق الأرض الوعرة، وبانتهائهم من العمل، كان ثلاثتهم منقطعي الأنفاس.

قفز «أخيل» عن العربة ووقف ساندًا إحدى يديه على بابها الخلفي، رأيتُ أنه بَدَا كئيبًا، غير أنني كنت أحكم على مزاجه من وقفته أكثر من تعابيره؛ لأنني لم أكن أستطيع رؤية وجهه، في نهاية المطاف، قال ملتفتًا نحو «أوتوميدون»: «آمل

فقط أن يتفهم «فطرقل».»

كنتُ أعتقد - ومن يعلم، ربما كان لـ «أوتوميدون» مثل رأيي - أن «فطرقل» ما كان ليريد أبدًا أن تُهان جثة «هكتور» منذ البداية، لا شيء إلا رحمة الآلهة منع أن يخرج «بريام» هذا الصباح ليجد كومة من اليرقات الزاحفة في عربته، وحينها كان أساه وذعره سيعيدان إيقاد غضب «أخيل» العارم، وإلامَ كان سينتهي ذلك؟ من المحتمل جدًّا أنه كان سينتهي إلى سقوط «بريام» صريعًا في العربة إلى جانب ابنه.

قال «أخيل»: «أظننا نحتاج شرابًا».

فتبعناه ثلاثتنا عبر البهو إلى قسم معيشته، حيث طفقت أمزج دوارق من الخمر القوي، أفرغ «أخيل» - على غير عادته - كوبه في ثوانٍ، أما «ألكيموس» - الذي كان شابًّا لا يظهر عليه الوزن مهما أكل - راح يرمق قطع لحم الضأن المشوية الباردة التي تُرِكَتْ ملقاةً فوق قصعة.

قال «أخيل» وهو يأخذ كوب خمر آخر مني: «لا تتردد، خُذ راحتك»، ثم سأل: «أين كوبك؟»

لذا صببت لنفسي كوبًا وجلستُ على السرير، من حينٍ إلى آخر، يتوارد صوت شخير «بريام» وبالكاد يمكن تمييزه عن حركة أمواج البحر، كان تواردُه يبعث السلام وأنا أحدِّق في النار، إلا أنني شعرتُ بالخدر في وجهي، بعد أن انتهوا من الخمر - وأتى «ألكيموس» على كمية هائلة من اللحم في وقت قصير - وقف «أخيل» وتمنى لهما ليلة سعيدة.

كان بوسعي أن أرى ألا أحد منهما راغب في الذهاب، فوفقًا لنظرتهما، كانا يتركان «أخيل» وحده برفقة طروادي، هو رجل عجوز وأعزل كما اتضح، لكنه طروادي مع ذلك.

«لم يكن في حوزته سكين حتى»، قال «أخيل» متبرمًا: «تعين عليَّ أن أعيره سكيني».

قال «أوتوميدون»:

- «والفتاة؟»
- «ستبقى».

كان صوت «أخيل» ينمُّ عن اللهو أكثر من الغضب، لكن «أوتوميدون» أوعى من أن يقدح زناده، نظر «ألكيموس» - وشفتاه تلمعان من الدهن - جانبًا إليَّ وهما يتراجعان، وحين نظرت حولي، كان «أخيل» يبتسم، وقال: «يظنانِ أنكِ مصطفة مع «بريام»، يظنانِ أنكِ ستقتلينني وأنا نائم.»

بدا أن مزاجه قد راق، بدا أنه نسي تلك اللحظة الوجيزة من الكآبة التي تساءل فيها عما قد يكون رأي «فطرقل»، وحركاته أصبحت أكثر خفة أيضًا، كنت قد لاحظت ذلك سابقًا عندما قفز من العربة وحط دون جلبة مثل قِط، لكنني ظننتُ حينها أنني ربما أتخيل ذلك، هنا - في ضوء النار - لم يكن للمرء أن يخطئ التغيير، شاهدته وهو يركل صندله، فردةً ثم الثانية، ويمسك بهما وهما في الهواء.

شد رداءه فوق رأسه لينزعه، هممتُ بنضو ثيابي عني أيضًا، بما أنني سأبقى كما اتضح، وحقًّا، كان هذا آخر ما أحتاج إليه، كنتُ أحتاج أن أكون في الخارج أتحدث إلى «بريام»، لكن لم يكن ثمة من سبيل إلى تجنب ذلك، استلقيتُ على ظهري مُغمضة عيني، وانتظرتُ أن ينخفض الفراش تحت وزنه، كنت أصلي أن يغطَّ في النوم سريعًا، لكنه كان ممتلئًا بالطاقة إلى درجة لم أعهدها فيه من قبل، وشيء آخر أيضًا، مرت أوقات بَدَا فيها مترددًا تقريبًا، ليس غير واثق من نفسه، إذ لم يكن كذلك قط، بل بالأحرى كما لو أنه يريد استجابة ما، وحين أغمض عينيه أخيراً، أصبح نفَسه مُتسارعًا، خفيفًا وسطحيًّا، والأسوأ أنه كان قد ألقى بذراعه فوق صدري فسمّرني وزنها مكاني، شعرتُ بعرَقه يرطب حرارة بشرتي، لكنني علمتُ أنني لا أجرُؤ على الحراك، ليس بعدُ.

***

-٤٤-

أظنني كبوتُ دون شك؛ لأنني حين فطنتُ مجددًا لما يحيط بي، وجدتٌّ نفسي أحدِّق في الظلام، وأشعر بالدوار وفقدان الحس بالمكان والزمان، بالتدريج مع انقشاع غشاوة النوم، تذكرت أن «بريام» كان في الخارج على الشرفة - «بريام» هنا - على الجانب الآخر من ذلك الباب، كان عليَّ أن أصل إليه، استلقيتُ مُصغيةً، وحين توثقت من أن «أخيل» نائم، زفرت الهواء ومددتٌّ نفسي على السرير ثم حاولت أن أتملص من تحت ذراعه، لكنها كانت ثقيلة للغاية، كنت مسمرة في مكاني.

قناديل الزيت تكاد تنطفئ، الظلال التي تلقيها آخر ألسنة اللهب المتهدجة بدت تتجمع حول السرير، مفرخةً المزيد من الظلال لدى انطفاء الضوء، نظرت إلى الفرجة تحت الباب وحاولتُ أن أقدِّر مدى اقتراب حلول الفجر.

كان جسم «أخيل» ساخنًا وثقيلًا، حركت فخذي بحذَر، فتقشر جلدي عن جلده، شعرتُ بالدبق، وبامتلائي بـ«أخيل»، في أية ليلة أخرى، كنت لأتوق إلى صفعة الموج الباردة وأنا أسير مخوضة في البحر، لكن ليس الليلة، كان فمي جافًّا، وفيه مذاق كريه، الأثر المقيت الذي يلي شرب كوبين من الخمر القوي، وكان لعرق «أخيل» رائحة الخمر بالفعل، حيث إنه شرب أكثر مني.

في مكان ما في الخارج، نبح كلب أو ربما ثعلب - كان ثمة دائمًا ثعالب على الشاطئ، تطوف قرب خط المد خلسةً للبحث عن النوارس النافقة - ولا بد أن الصوت بلغه لأنه دمدم في نومه وانقلب على جنبه مبتعدًا عني، انزاح وزن ذراعه، لكنني حتى آنذاك لم أجرُؤ على الانزلاق إلى مؤخر السرير، ليس بعدُ، فلأدعه يستقر أولًا.

دفعتُ الأغطية عني، ونظرت إلى جسدي، وضعتُ كلتا يدي على بطني ورحت أفكر كيف أن هذا الجلد وهذا الهيكل المعقد من العظم والأعصاب والعضلات

يعود لي أنا بالكامل، بغضِّ النظر عن «أخيل»، بغضِّ النظر عن الألم في وركي وفخذي، اقشعرَّ جلدي في التيار القادم من الباب، لكنني لم أُعِد رفع الأغطية، كنت أحتاج إلى تحسس البرد، وصدمة العالم الخارجي.

بحذَر شديد، إنشًا تلوَ الآخر، بدأتُ أشق طريقي إلى أسفل السرير، كنتُ أعلم أنني لن أجرُؤ على الزحف من فوقه، كلما أصدر السرير صريراً، أرقد ساكنةً وأصغي من جديد، في إحدى المرات، راح يتحرك وبدا على وشك الاستيقاظ فتجمدتُ لبضع دقائق، خائفةً حتى من التفكير تحسبًا من أن توقظه أفكاري، أوصلتني المحاولة الثالثة إلى طرف السرير السفلي، حيث جلستُ لدقيقة أثني أصابع قدمي فوق بساط جلد الخروف، كم كنت قد نمت؟ ربما عشر دقائق أو نصف ساعة، ليس طويلًا، أصغيت مترقبةً ضجيجًا أو أصواتًا، أي شيء من شأنه أن يعلمني بالوقت، لكن لا، كان المعسكر ساكنًا تمامًا، حتى البحر هادئ إلى درجة بالكاد أسمع معها أنفاسه، كانت النار قد انخفضت، وقِطع الحطب تحولت إلى كومة من الخشب المسود والرماد الأبيض، مددتُّ يدي إلى عباءتي ولففتُها حولي بإحكام، «أخيل» نائم بعمق الآن، شفتاه تهتزان مع كل نفس يخرج منهما، ببطء شديد محاذرةً أن أسبِّب أية حركة في السرير، نهضتُّ واقفة، وبَدَا أن الحركة حلَّت عقدة الخوف داخلي، فكرتُ في قرارتي ما الذي هناك كي أخاف منه حقًّا؟ إن استيقظ ووجدني رحلت، يمكنني دائمًا أن أقول: إنني ظننت «بريام» ينادي، ما كان ليستطيع لومي على تخديم ضيفه الملكي.

رفعت المزلاج وشققتُ الباب، فضرب هواء الليل البارد وجهي، وبدأت العين الأقرب إلى الفرجة تدمع، أخذتُ نَفَسًا عميقًا وانسللتُ إلى الخارج، حريصةً أن يسقط المزلاج في مكانه خلفي دون ضجة، كان الليل عميقًا؛ لا شيء يتحرك، سرتُ على حافة الشرفة، كنتُ أعرف كل لوح يُصْدِر صريراً، سبق وسرتُ في هذا الطريق مرات عديدة، هاربةً من أجل دقائقي القليلة العزيزة المعهودة قرب البحر.

كان «بريام» نائمًا، متمددًا باستقامة وسكون -حتى كاحلاه ليسا متقاطعين - مثل جثة في محرقة جنائزية، عدا أنه كان يصدر أصواتًا من أنفه لدى تنفسه، أقرب

إلى أن تكون لطيفة، مثل حصان داخل مِخلاته،(14) استطعتُ أن أرى قدمَيه بارزتين، نتوءان توأمان، وعلى جانبيهما تنسدل طيات من القماش الأرجواني، بَدَا شديد الشبه بجدي وهو نائم، علمتُ أنني لن أستطيع هزَّه حتى يستيقظ ببساطة؛ لذا جلبتُ وعاءً وذهبت أبحث عن ماء دافئ كي يغتسل.

كان ثمة نار تُبقى مغذاة ومشتعلَة في الفناء كي يتسنى لـ «أخيل» أن يحظى بمغطس ساخن كل صباح؛ رغم أنه كثيراً ما اختار السباحة عوضًا عن هذا، لكن كان يجب تحضير ذلك المغطس على أية حال، دلقتُ مياهًا جديدة داخل وعاء معدني، ثبته بين الجمر وجلستُ القرفصاء أنتظر، وتحت أقرب الأكواخ، استطعتُ أن أرى ظلالًا متكومة على بعضها لنساء أكبر سنًّا أو أقبح من أن يُخصص لهنَّ سريراً في الداخل، كانت كل الأبواب مغلقة، حتى الكلاب نائمة، إلا أنني كنتُ أرى بين حينٍ وآخر جرذًا يعدُو من كوخ إلى كوخ، جارًّا وراءه ذيله العاري فوق الأرض، أجل، الجرذان عادت، لكن بأعداد أقل بكثير من السابق، أخذ الماءُ يسخن ببطء، لكنني لم أمانع، كنتُ أحتاج وقتًا للتفكير، لتخطيط ما سأقوله، لكنني حينذاك سمعتُ وَقْعَ أقدام خلفي فاستدرتُ أتوقع - بل أخشى - أن أرى «أخيل»، إلا أنه كان «ألكيموس»، ووراءه على الفور «أوتوميدون»، ما كان ليغمض جفنُ أيٍّ منهما ولو ثانيةً واحدةً وهما يعلمان أن «أخيل» نائم في كوخه وثمة طروادي على بعد بضع ياردات منه، حتى لو كان شيخًا وأعزل كما يُزعم.

انحنى «ألكيموس» وقال شيئًا، لكنني كنتُ مجفلةً أكثر من أن أستوعب، فقلت: «إنني أحضر الماء كي يغتسل «بريام».»

سأل «أوتوميدون»:

- «هل استيقظ؟»
- «ظننتُ أنني سمعته.»
- «وأخيل؟»

- «نائم».

منحنيًا قربي، غمسَ «ألكيموس» إصبعه في الوعاء: «إنه دافئ كفاية».

لففتُ يدي بحاشية عباءتي تحسبًا من أن يكون المقبضان ساخنين، ورفعت الوعاء عن النار ثم هممت بالوقوف.

قال «ألكيموس»:

- «سأحمله أنا».

حدَّقتُ إليه، واحد من كبار أعوان «أخيل»، يحمل الماء عن أَمَة؟ لا، ليس من أجلي - بالطبع ليس من أجلي - بل من أجل «بريام»، الذي رغم كونه عدوًّا - بل العدو بعينه - ما يزال ملكًا ويجب معاملته بإكرام يليق بضيف ملكي، لكنني حينها رأيتُ تعبير وجه «ألكيموس» فقلتُ في قرارتي: بلى، من أجلي.

جاء العرض مُزعجًا، كنت أحتاج أن أنفرد بـ «بريام»، دون أن تحيط به حفاوة عناية أعوان «أخيل»، لعله كان بإمكاني إقناع «ألكيموس» أن ينصرف ويتركني أتكفل بالأمر، غير أن «أوتوميدون» مسألة مختلفة، في الحقيقة، هو مَنْ قاد الطريق، مُتصدرًا بخطاه الواسعة تملؤه الثقة، بتهيؤ وتنبه ممتازين بعد ليلته المسهدة كأنه استيقظ لتوه من نوم شديد العمق.

حين بلغنا العتبات، قلتُ بأكبر حزم استطعتُه: «سآخذه إليه أنا»، ونظرتُ في عيني «أوتوميدون» مباشرةً: «هو يعرفني، أختي متزوجة من أحد أبنائه.»

رفَّ «أوتوميدون» بعينيه، مرغَمًا للحظة - وأظن ذلك كان للمرة الأولى صدقًا - أن يراني ككائن بشري، شخص لديه أخت، بل أخت تكون علاوة عن ذلك كنَّة الملك «بريام»، تردد، ثم أومأ، وأخذ الاثنان يراقبانني أعبر الشرفة، أحسستُ بهما - أكثر من رؤيتي لهما - يستقران جالسين على العتبات، منتظرين استيقاظ «أخيل»، ولمرة ظننتُ أنني سمعته يتحرك داخل الكوخ فتوقفتُ كي أصغي، لكن

ذلك لم يكن سوى صرير لوح، كانت الجدران والأرضية تصر طوال الوقت، ومع ذلك، كان الأمر صادمًا، لم يكن أمامي سوى فرصة ضئيلة، وبَدَا أنها تضيق أكثر فأكثر مع مرور الوقت.

ما زال «بريام» يرقد مُتمددًا على ظهره، وضعيته لم تتغير، إلا أنني انتبهتُ مع اقترابي إلى انقباض في العضلات الصغيرة المحيطة بعينيه لم يكن موجودًا من قبل؛ لذا لم أُفاجأ عندما اقتربت من السرير فارتفع جفناه فجأة، عيناه - اللتان ربما كان لهما ذات يوم لون أزرق حيوي - مبيضّتان من الشيخوخة، وثمة حافة من اللون الرمادي الفضي حول القزحية تذكرتُ أنني كنت أراها في عيني جدي، بَدَا مذعورًا لبرهة فقط، ثم أدركت أنه لا يستطيع رؤيتي، فتقدمتُ إلى دائرة الضوء حول القنديل، وعلى الفور استرخى، كان قد ظنني «أخيل».

قلتُ بلطف مؤكدةً على كلمة السيد:

- «أيها السيد «بريام»، جلبتُ لك بعض الماء كي تغتسِل.»
- «حسنًا يا عزيزتي، هذا لُطف كبير.»

انقلب معتمدًا على مرفقيه، فغرَّقْتُ خرقةً بالماء الدافئ وناولتُه إياها، مررها على وجهه وداخل أذنيه، ثم رفع شعره ولحيَته وفركَ من عنقه وصدره ما استطاع بلوغه، رأيتُ - بشيء من الحب والشفقة - أنه كان منهمكًا في مهمته تمامًا، مثل صبي صغير أُولِيَتْ إليه الثقة ليغتسل بنفسه للمرة الأولى، خلال تلك الدقائق القليلة، نسي الحرب والسنوات التسع الأخيرة الرهيبة، نسي حتى موت «هكتور»، كل ذلك سقط من ذهنه، العمر الذي قضاه في حكم طروادة، خمسون عامًا من الزواج السعيد، كل ذلك اختفى، مُسِحَ بقطعة قماش دافئة مبللة، بَدَا طبيعيًّا تمامًا لي، بعد أن شهدت التحول، أن أمرر أصابعي المبللة في شعره، أمشطه عن جبينه وأعقص الخصل الفالتة خلف أذنيه، راح يراقبني، ثم قال فجأة: «أجل، هذا صحيح، «بريزيس»، أليس هذا اسمكِ؟ صديقة «هيلانة» الصغيرة.»

أمكنني أن أراه يتمالك زمام نفسه، متظاهرًا بصعوبةِ استحضارِ الذاكرة، كان الصبي الصغير هائئ البال قد اختفى، وحلَّ محله شيخ عجوز، شيخ عجوز رأى وعانى الكثير؛ لكنه ما يزال ملكًا، دفع عنه الأغطية، ودلى ساقيه عن طرف السرير ثم سكن هناك لبرهة، من الواضح أن النهوض كان يُشكِّل شيئًا من التحدي، حاول أن يفرد ركبتيه المؤلمتين عدة مرات، ثم شبكتُ ذراعي بذراعه وأمسكت يده، حين كان قد نهض وبَدَا أن أسوأ مراحل الألم قد همدت، لم أستطع أن أنتظر أكثر، قلت:

- «خذني معك».

بدا مدهُوشًا.

- «أختي في طروادة، أتتذكرها؟ إنها متزوجة من لياندر، وهي فقط ما تبقى لي من عائلتي.»

- «أجل، أتذكر، لقد قُتِلَ زوجكِ، أليس كذلك؟»

- «وإخوتي الأربعة كلهم، لم يعُد لديَّ غيرها.»

- «أنا آسف».

- «لقد قتَل «أخيل» إخوتي وأنا الآن أنام في سريره.»

- «حسنًا، إذًا فأنتِ تعلمين ما يحدُث للنساء حين تسقط مدينة ما، لا يمر يوم دون أن أفكر في ذلك، أنظر إلى بناتي، هز رأسَه كأنه يحاول طرد الصور التي تجمعت فيه: «على الأقل لن أعيش حتى أرى ذلك، إن حالفني الحظ فسأكون قد مِتُّ حتى ذلك الوقت».

- «أرجوك».

وضع يده على كتفي:

- «عزيزتي، أنتِ لا تفكرين بشكلٍ منطقي، أجل، ستمنحك أختكِ بيتًا، أنا واثق

أن ذلك سيسرها هي «وولياندر»، لكن ماذا بعد ذلك؟ بضعة أسابيع من الحرية ثم تسقط طروادة فتصبحين أَمَة من جديد، وربما لشخصٍ أسوأ من «أخيل».»

- «أسوأ»!

- «لماذا؟ أيعاملكِ بقسوة؟»

- «لقد قتل عائلتي.»

«لكن هذه هي الحرب»، كان قد انتصب في وقفته من جديد الآن، «بريامر» الملك، لقد نسيَ الضعف الذي احتاج إلى مساعدتي: «لا، لا يمكنني فعل ذلك، كيف تظنين أن «أخيل» سيشعر إن سرقتُ امرأته؟ ابني «باريس» أغوى «هيلانة» حين كان ضيفًا على زوجها، وانظري إلامَ قادنا ذلك.»

- «إن كان ذلك يساعد، فلا أظنه سيمانع».

- «هل أنتِ متأكدة؟ لقد خاصم «أجاممنون» بسببكِ.»

- «أجل، لكن سبب ذلك كان جرح الكبرياء لا غير.»

- «أوَلن يَجْرَحَ هذا كبرياءه بعد أن استقبلني، ورحَّب بي كضيف؟ كان بوسعه أن يقتُلني، لا، أنا آسف»، هز رأسه: «لا أستطيع».

سمعتُ حركة خلفي فاستدرت لأرى «أخيل» واقفًا في الظلال، قفز قلبي من محله وفوت نبضة، منذ متى هو هناك؟

- «أرى أن «بريزيس» تعتني بك.»

منذ وقت طويل كفاية.

- «أجل، لقد تكرمَتْ عليَّ كثيراً.»

لمس «بريامر» وجهي، مرخيًا راحة يده بحنو على خدي، لكنني لم أستطع تحمل النظر إليه. قال «أخيل»:

- «حان وقت الذهاب، سينبلج الضوء قريبًا ولا يمكننا المخاطرة بأن يجدك «أجاممنون» هنا.»

- «ماذا تظنه قد يفعل؟»

رفع «أخيل» كتفيه:

- «أظنني أفضِّل ألا أكتشف.»

- «لكنك ستقاتل من أجلي، أليس كذلك؟»

- «أجل، سأقاتل، لا أحتاج أن يعلمني طروادي واجبي تجاه الضيوف.»

أفلت «بريام» الخرقة التي كان يمسكها فأصدرَت صوتًا خفيضًا لدى ارتطامها بماء الوعاء:

- «حسنًا، أنا جاهز.»

لم يكن «أخيل» قد ارتدى ملابسه وحسب، بل تسلَّح، يداه المتشابكتان تتكئان على مقبض سيفه، بَدَا واضحًا أنه كان يعني كلامه حين قال: إنه مستعد للقتال، من خشيتي النظر إلى وجهه، نظرت عوضًا عن ذلك إلى يديه ولاحظت أن «بريام» يحدِّق فيهما أيضًا، تراجع «أخيل» خطوة إلى الخلف، وشمل نفسه بعباءته أكثر، حتى اختفت يداه، تانك اليدان المريعتان المتمرستان في ذبح الرجال، داخل طياتها، لا أظنه كان يشعر بالخزي من أي شيء اقترفته تانك اليدان - بل بالفخر في الحقيقة - لكنهما كانتا مشكلة مع ذلك؛ لأنهما شكَّلتا مفاهيم الآخرين عنه بطرق لا يستطيع السيطرة عليها.

التقطتُ عباءة «بريام» وتبعتُهما على الشرفة، لم أعُد مرئية؛ الروابط بين المضيف والضيف، الروابط التي تربط الرجال، كانت قد أعادت توكيد نفسها، إلا أنني لاحظتُ حينذاك أن عزيمة «بريام» تثبطت عند العتبات، قدم «أخيل»

ذراعه لكن «بريام» أزاحها جانبًا، إحدى نوبات الغضب المفاجئة تلك التي كانت قد ميزت هذا اللقاء، استطعت أن أرى «بريام» يندم لفوره على لحظة الانقباض اللاإرادي تلك، ويحاول حمل نفسه على أخذ ذراع «أخيل»، غير أن «أخيل» هو من تنحى وأشار إليَّ أن أساعد «بريام»، أسند «بريام» يده على كتفي وتجاوز العتبات بيسر كبير، دون أن يجفل إلا قليلًا عند بلوغه الأرض، كان «أخيل» قد تقدم وراح يتحدث إلى «أوتوميدون»، ربما رغبةً منه ألا يثير الانتباه إلى التباين بين ضعف «بريام» وقوته هو، فكرتُ بحكمة «بريام» عندما استرحم «أخيل» من خلال أبيه، فلطالما أظهر «أخيل» لباقَةً ورقةً عظيمتين في تعامله مع الشيوخ، وما كان يمكن لتلك الحساسية أن تكون نابعةً إلا من حبه لأبيه.

كان «بريام» الآن يُرْخِي بكامل وزنه عليَّ، بَدَا كأنه شاخ عشر سنين خلال الليل، وانتقل في غضون بضع ساعات قصيرة من الشيخوخة النشيطة إلى الهشاشَة، أحسستُ بعروقه تنبض تحت يدي مثل نبض قلب فرخ توقن أنه لا يمكن أن ينجُو، كان «أخيل» ينتظر أن نلحق به، قال: «كل شيء جاهز، سأرافقك حتى البوابة».

ببلوغنا فناء الإسطبلات، كان «أوتوميدون» و«ألكيموس» بدآ بالفعل يربطان البغلين بالعربة، شعرت بـ «بريام» يرتجف مع اقترابنا، كان قد تمالك زمام نفسه حتى تلك اللحظة، لكنه الآن - بينما يمضغ البغلان شكيمتيهما وترنُّ أجراسهما - استدار نحو العربة.

بإيماءة من «أخيل»، رفع «ألكيموس» المشعل أكثر كي تطال دائرةُ الضوء جسدَ «هكتور»، أزحتُ قماش الكتان ليتسنى لـ «بريام» رؤية وجه ابنه، فصدرت عن «بريام» حشرجة خافتة من عمق حلقه، ثم مدَّ يده بما يكاد يكون جبنًا ولمس شعر ابنه، «ولدي، ولدي المسكين»، كان قد بدأ يبكي الآن، رفع يده ووضعها على فمه محاولًا تثبيت شفتيه، لكن لم يكن ممكنًا حبس تنهدات النشيج.

ظللنا ننتظر، وفي النهاية التفتَ إلى «أخيل».

سأله «أخيل»:

- «كمْ من الوقت تحتاج حتى تدفنه؟»

ارتجَّت وحشيةُ السؤال، لكنني فهمتُ حينها أن «أخيل» بتركيزه على الجوانب العملية تلافى ما كان يسهل أن يتحول إلى مواجهة، كان الأسى هو ما يجمعهما، غير أنه يفرق بينهما كذلك.

بأنفاسٍ منقطعة الآن، تمسك «بريامْ» بجانب العربة مُحاولاً التفكير:

- «إنها رحلة طويلة إلى الغابة من أجل الحصول على الخشب؛ فقد قُطِعَت كل أشجارنا لبناء أكواخكمْ، والناس يخشون الذهاب، سنحتاج وقف قتال مؤقت.»
- «سأحرص أن تحصلوا على ذلك.»
- «إذاً فأظن، أننا نحتاج أحد عشر يومًا من أجل المباريات الجنائزية، ثمْ في اليومْ الثاني عشر سنتقاتل من جديد، إن كان القتال محتومًا.»

كان ذلك بمثابة سؤال، ولمَ لا؟ قلتُ في قرارتي: لمَ لا؟ إن كان بوسعه هو و«أخيل» أن يتفقا بهذه السهولة على وقف قتالٍ مؤقت، فلِمَ لا يتابعان ويقيمان سلامًا دائمًا؟

قال «أخيل»:

- «سأرافقك إلى البوابة».

وعلى غير المتوقع، بدا «بريامْ» مرحًا: «هل أنت متأكد ما الذي قد يقوله الحرس عن ذلك؟ «أخيل» العظيمْ، «أخيل» الإلهي، يرافق عربة فلاح؟»

رفع «أخيل» كتفيه: «لا يهمُّ رأيهمْ ما داموا يفعلون ما يُؤمرون، لكنني أتفق مع وجهة نظرك، إننا لا نريد طبعًا موكب حراسة تشريفي»، والتفتَ إلى

«أوتوميدون» و«ألكيموس»: «ابقيًا هنا، انتظراني في الكوخ.»

قال «بريام»:

- «أظن أنه سيكون أفضل لو تودعنا هنا.»
- «لا، إلى أن تعبر تلك البوابة تظل ضيفي، لن يكون خير لو تم التعرف إليك.»

أومأ «بريام» موافقًا، كنت أستطيع أن أرى رغبته في انتهاء كل هذا كي يتمكن من النظر إلى «هكتور» مجددًا.

قال «أخيل»:

- «لكن أولًا دعنا نشرب كوب الفراق».

كانت قشرة الكياسة التي تخفي الغضب الآخذ بالاتقاد تحتها رقيقةً إلى درجة ظننتُ معها أن «بريام» قد يرفُض، لكن لا، فقد وافق بسرورٍ كافٍ، حتى إنه أخذ ذراع «أخيل» وهما يسيران عائدين إلى الكوخ، رمق «أوتوميدون» و«ألكيموس» أحدهما الآخر، ساخطين كما يظهر من التأخير، لكنهما سارا خلفهما، أنا أيضًا لم أفهم ذلك، بعد كل الحديث عن الحاجة إلى إخراج «بريام» من المعسكر بأسرع ما يمكن، بَيْدَ أن ذلك ناسبني كفاية، لم ينتبه أحد إلى ما كنت أفعله، بادئ الأمر، تابعت ببساطة وقوفي قرب العربة، أكتفي بالتسحب قليلًا إلى يساري كي تحجبني جدران العربة المرتفعة إن لم يصادف أن ينظر أحد في الأنحاء.

كانت رياح الفجر مُنعشة، المشاعل على حواملها حول الفناء تتهدج ويذوي اتقادها، أسندتُّ يدي على الباب الخلفي للعربة، وانتظرتُ حتى يتلاشى وَقْع أقدامهم، إما الآن أو فلا، كنتُ أعلم أنه لن تسنح لي فرصة كهذه مجددًا، لم يكن ثمة وقت للتفكير، ولا وقت للتساؤل إذا ما كنت أقوم بالشيء الصائب، حالما تيقنتُ أن ما من أحد يراقبني، تسلقتُ إلى داخل العربة ورقدتُّ إلى جانب «هكتور»، مسطحةً جسدي الساخن مقابل جنبه البارد، حررتُ ملاءة الكتان قليلًا

كي تغطيني طياتها، أحسستُ بجسده رطبًا على بشرتي، روائح الصعتر وإكليل الجبل ليست قوية كفاية لتخفي نفحة العفونة، لم يكن مظهره قد تغيرَّ على الإطلاق، لكن أنفي أخبرني أن عملية التحلل التي لا مناص منها كانت قد بدأت، لم أنظر إلى الخارج لأترقب عودتهم، بل ظللتُ أضغط وجهي بقوة على ذراع «هكتور»؛ لئلا تؤثر أيةُ حركة تنتج عن تنفسي بالقماش، ما كان الأمر يتطلب إلا أن يتوقف «بريام» من أجل نظرة واحدة أخرى على جثة ابنه - وما الذي عساه يكون طبيعيًّا أكثر من ذلك؟ - حتى تنفتح أبواب الجحيم عليَّ أنا، وربما أيضًا على «بريام»، الذي قد لا يكون تعهُّده بأنه لم يعرف بوجودي هنا محل تصديق.

انقبضتُ لدى سماعي وَقْع أقدامهم يعود، كان «أخيل» و«بريام» يتحادثان بصوتٍ خفيض، لم أستطِع سماع الكلام، وبعد قليلٍ حطَّ الصمت عليهما، وكان ذلك الصمت مُرعبًا أكثر من الحديث، ظننت أنني سمعتُ «بريام» قادمًا ليُلْقِي نظرة أخرى على جثة «هكتور»، لكنني شعرتُ حينها بالعربة تميل مع تسلقه إلى مقعد القيادة، رنين أجراس، صفعة الجلد على عنق بغل، ثم أخذنا نتمايل قُدُمًا، ولحم «هكتور» البارد يحتك بخدي.

أخاديد في فناء الإسطبلات؛ حتى عندما صرنا على الطريق في الخارج ظلت الإطارات ترتجُّ فوق حُفَرٍ في الأرض، تمسكت بجسد «هكتور»، الذي بقي مُستقرًّا إلى حد ما بفضل الأربطة التي تثبته إلى جدران العربة، كنت أشعُر بالبرودة الآن، برودة تكاد تماثل برودة الجثة، وكل عضلة من عضلاتي تتشنج من الخوف، لكن ذهني كان يتسارع، رأيت أختي وصهري ودفء منزلهما وأمانه، وفوق كل هذا وتحته، جائزة الحرية العظيمة، أنا نفسي من جديد، شخص له عائلة، له أصدقاء، له دور في الحياة، امرأة وليس شيئًا، أما كانت تلك جائزة تستحق المخاطرة بكل شيء في سبيلها، مهما قصُر الوقتُ الذي قد يتسنى لي فيه أن أستمتع بها؟

لكنني كلما فكرتُ في الأمر بَدَا هذا السعي إلى الحرية أكثر جنونًا، إن اكتشفني «بريام» قبل وصولنا إلى طروادة، من المحتمل جدًّا أن يلقي بي خارج عربته،

حتى أثناء قطعنا لميدان القتال، ربما بضع ذكريات وجدانية مرتبطة بفتاة صغيرة سلاها ذات مرة بخدع شعوذة قد لا تساوي شيئًا مقابل الواجب الذي يدين به لـ «أخيل» بصِفَته مضيفه، ما كان ليخاطر بوقف قتال الأحد عشر يومًا ذلك من أجلي.

وحتى لو تمكنتُ من بلوغ طروادة ونجحت بالوصول إلى أختي، ما الذي سيخبئه المستقبل؟ بضعة أسابيع من السعادة يظللها الخوف، وبعدها سأختبئ في قلعة أخرى، محاطةً بمجموعة أخرى من النسوة المرتاعات، بانتظار سقوط مدينة أخرى، بانتظار أن يُفلت «أجاممنون» أعنَّة آلاف من المقاتلين المخمورين في الشوارع، كنت قد سمعتُ خططه من أجل طروادة، خططه هو و«نسطور»، سيُقتل كل رجل وصبي - وذلك يتضمن صهري - وستخترق الأسنَّة بطون النساء الحوامل درءًا لاحتمال أن تكون الأجنة ذكورًا، وبالنسبة إلى النساء الأخريات؛ اغتصاب جماعي وضرب مُبرح وتشويه وعبودية، نساء قليلات - أو بالأحرى قلة من الفتيات الشابات جدًّا ذوات مولد ملكي أو أرستقراطي بالدرجة الأولى - سيتم تقسيمهنَّ بين الملوك، لكنني بصفتي أَمَة سابقة لن أحظى بتلك المنزلة، يمكن أن ينتهي مطافي بسهولة إلى عيش حياة النساء العوام، أتفادى الضربات نهارًا وأنام تحت الأكواخ ليلًا، أو الأسوأ من ذلك حتى، أن أتقابل مع «أخيل» وجهًا لوجه فأتحمل العقوبات التي كانت تَنْزِل دون هوادة بالإماء الهاربات، ما من أمل بالرحمة هنالك، سبق ورأيت كم يستطيع «أخيل» أن يكون انتقاميًّا.

«بريام» على حق، قلتُ لنفسي: هذا جنون.

مغمضةً عيني بشدة، حاولتُ أن أفكر، كنتُ عالقة، كل ما أستطيع فعله الآن هو الاستلقاء جانب جثة «هكتور» وانتظار أن تتوقف العربة إن توقفت، كان الاحتمال قائمًا دائمًا بأن يلوِّح لها الحرسُ بالعبور لدى تعرُّفهم إلى «أخيل»، لم يكن يتم عادةً إيقاف العربات التي تغادر المعسكر وتفتيشها على أية حال.

أخيرًا، توقف التمايل، كنت قد شعرتُ بحضور «أخيل» يسير قرب العربة طوال الوقت، لكن حسه زال الآن، وبعد بضع دقائق سمعتُه يتحدث إلى الحرس، رنت

أجراس البغال، تنهَّد «بريام» وسعل من التوتر كما أفترض، أردتُّ أن أسعل أيضًا بيأس، تخيلت المذاق الحاد لليمون، ورحتُ أجمع اللعاب وأبلعه بقوة لكي أخفف الوخز المدغدغ في حلقي، ثم سمعتُ «أخيل» والحراس يضحكون معًا.

قد تستأنف العربة سيرها قُدُمًا في أية لحظة، يجب أن يحدُث ذلك الآن، حررتُ نفسي من الملاءة، وتملصت مُتسحبةً إلى طرف العربة ثم انسللت إلى الأرض، بدأت أسير على الفور، أشعر بالبرد والخوف والكآبة واليأس، وجلدي يضوع برائحة جلد «هكتور»، أحسست بتحديقة «أخيل» تنغرز في ظهري، بَيْدَ أنني لم أجرُؤ أن أستدير لأرى إذا ما كان يراقبني حقًّا، أشارت لي غريزتي أن أركض، لكنني علمتُ أن ذلك قد يلفت الكثير من الانتباه؛ لذا اكتفيتُ بشد عباءتي حولي وانطلقت في خطو سريع لكنه ثابت، لم أكن أنظر إلى أين أذهب، ظللتُ أتعثر بحاشية ردائي، وفي كل لحظة، كنت أتوقع سماع اسمي يُنادَى.

كان المعسكر حولي آخذًا بالاستيقاظ: رجال ثملوا في الليلة السابقة يتثاءبون ويصيحون طلبًا للطعام؛ نساء يحملن الضرام ليُعِدْن إذكاء نيران الأمس، أخذَت ريح الفجر تقلب إزاري وشعري، تقدمتُ مباشرةً نحو مجموعة من النساء وحاولتُ أن أختلط بهنَّ، حتى إنني التقطت دلوًا فارغًا حملته ومِلْت إلى جانبي قليلًا أتظاهر أنه مليء، أخيراً، استجمعتُ شجاعتي كي أنظُر ورائي فأدركتُ أن أيًّا من هذا التمثيل لم يكن ضروريًّا، كانت عربة «بريام» قد بدأت بالفعل تتدحرَج عبر البوابة، وبقي «أخيل» ليشاهدها تذهب رافعًا إحدى يديه في تحية أخيرة، ثم عاد يوسع خطاه بسرعة مبتعدًا في اتجاه كوخه.

حينها فقط أخذت نَفَسًا عميقًا، انتظرتُ بضع دقائق أخرى ثم تبعته، ذهني يمتلئ بخليط من المشاغل الروتينية، كان سيرغب بماء ساخن للاستحمام، تحدثت إلى النساء المكلفات بتحضير حمامه ثم دخلت إلى الكوخ، وجدته يجلس إلى الطاولة محدقًا في الفراغ، لكنه انتبه لدى دخولي، رأيت أنه بدا متفاجئًا.

سألته:

- «أتود أن تأكل شيئًا؟»

أومأ وظل جالسًا في صمتٍ بينما حضَّرت الخبز والزيتون وجبنة ماعز بيضاء سهلة التفتت من التي اعتادوا صنعها في ليرنيسوس، لطالما أعادتني الرائحة إلى طفولتي، كانت المفضلة لدى أمي؛ اعتادت أن تتناولها مع بعض المشمش الصغير القاسي الذي كان ينمُو على شجرة خلف منزلنا، قسمتُ بعض الفتات ووضعته على لساني، فأعادها المذاق الحاد الحامض إليَّ، وخزت الدموع عيني، لكنني لم أَدَعْ نفسي أبكي، وضعتُ الطبق على الطاولة أمام «أخيل» وتراجعت.

اتضح أنه جائع، أخذ يمزق قطعًا من الخبز ويغمسها بالزيت، ويغرس رأس خنجره في مكعبات الجبن ثم يقذفها إلى فمه، صببتُ خمراً مخففًا في كوبه ووضعته جانب طبقه.

ثم قال بشكل عَرَضي، عدا أنه لم يكن عَرَضيًّا: «لماذا عُدتِّ؟»

إذًا فقد كان يعلم منذ البداية، انتشر الجفاف في فمي، ثم قلت لنفسي: لا، إنه فقط يظن أنني ذهبت إلى كوخ النساء ويتساءل لماذا عدت دون أن أنتظر استدعائي؛ لذا التفتُّ لأواجهه ورأيت أنني كنت محقة في المرة الأولى، لقد كان يعلم، للحظة، أفرغت الصدمةُ ذهني، لكنني فكرت بعدها: إن كنت تعلم أنني في العربة، لماذا لم توقفني؟

قلتُ ببطء: «لا أدري».

دفع طبق الخبز والجبنة نحوي، وإذ ظننت أنه انتهى، هممتُ برفعه، لكنني أوقفتُ نفسي، لقد كان يقدم لي الطعام، لم تكن تلك دعوة مهذبة تمامًا: أشار ببساطة إلى صدري ثم إلى كرسي؛ لذا جلست قبالته، وأكلنا وشربنا سوية.

كنت قد قلت لا أدري؛ لأنني لم أستطع التفكير في أي شيء آخر أقوله، كل ما قيل عن سقوط طروادة وعودتي إلى العبودية وجري أمام «أخيل»، كل ذلك كان صحيحًا بالكامل، لكنني كنت أعرف كل ذلك قبل أن أركب العربة، شيء آخر،

شيء لا أستطيع الإشارة إليه بالبنان، جعلني أرجع على عقبيَّ، ربما ليس أكثر من إحساس أن هذا كان مكاني الآن، وأن عليَّ جعل حياتي تسير هنا.

تابعنا الأكل والشرب في صمت، لكنني شعرت أن الجو تغير، كنت قد حاولت الهرب، غير أنني بعد ذلك - أيًّا كان السبب - رجعت، كان يعلم أنني في العربة وكان - مجدداً أيًّا كان السبب - مستعدًّا لتركي أذهب؛ لذا لم يعد هذا - بشكل صريح تام - اجتماعًا بين سيد وأَمَة، كان ثمة عنصر اختيار، أم لا؟ لستُ أدري، ربما كان معظم الأمر تفكيراً مبنيًّا على التمنيات، ولا أظن أن أيًّا من هذا خطر في ذهنه ولو لثانية.

فجأة، دفع الطبق بعيدًا ونهض واقفًا:

- «عليَّ أن أرى «أجاممنون».»
- «لن يكون قد استيقظ بعدُ.»

بدا مرحًا:

- «أجل، هذا صحيح.»

وهكذا عاد إلى الجلوس وأكملنا الخمر.

***

-٤٥-

بعد تسع سنوات طوال من الدم والصراع، جاءت هذه الأيام الأحد عشر المشرقة من السلام.

أتذكرها كزمنٍ غريب؛ زمن خارج الزمن، بَدَوْنَا نعيش في جوف موجة تتكسر، الصراخ والهتافات من داخل أسوار طروادة كانت سمةً تميزُ كل هذه الأيام، مع

فوز مقاتل آخر في سباق وتلقيه جائزة من مخازن «بريام» المستنزَفة، رغم أنه لن يتسنى لأحد منهم أن يستمتع بجائزته وقتًا طويلاً.

في اليوم الثاني، جاء «أجاكس» إلى العشاء، مصطحبًا معه «تيكميسا» وابنهما الصغير، جلسنا نحن النساء على الشرفة نأكل صينية من الحلويات التي كانت «تيكميسا» تحبها، أو بالأحرى هي التي أكلتها، وأنا شاهدت، كان الطفل يلعب بحصان خشبي نحته له والده، ويُطقطق بلسانه بينما يعدُو به على طول الشرفة، جلستُ مظللةً عينيَّ أراقب «أخيل» و«أجاكس» يلعبان النرد، كانا جالسين إلى طاولة في منتصف الفناء، يضحكان ويغيظان بعضهما متحررين من الكلفة بسبب عهدهما الطويل معًا، يهمهمان بصخب ويلطمان جبهتيهما كلما خذلهما النرد، بَدَتْ كل حركاتهما مبالَغًا بها بعض الشيء، مثل شخصين يمثلان لعب النرد بالإيماء.

فجأة، هبَّ «أجاكس» واقفًا على قدميه، وإذ ظننت أنه رأى شخصًا داخل الكوخ التفتُّ لأتعقب تحديقته، لكن لم يكن ثمة أحد، وحين عاودتُّ النظر كان «أجاكس» على الأرض، رقد مكانه هناك ساحبًا ركبتيه إلى ذقنه ينتحب مثل رضيع حديث الولادة، وجلس «أخيل» بلا حراك تاركًا للجَيَشَان أن يأخذ مساره، حتى استعاد «أجاكس» آخر الأمر سيطرته على نفسه وعاد إلى الجلوس، لم يتكلم أيٌّ منهما، فقط تابعا لعبتهما كأن شيئًا لم يكُن، لا أظن أن الحادثة بأكملها - من البداية إلى النهاية - استغرقت أكثر من عشر دقائق.

«تيكميسا» التي كانت قد همَّت بالنهوض، استقرت من جديد على كرسيها ومدت يدها نحو قطعة أخرى من المكسرات المغطسة بالعسل.

قالت:

- «إنه لا ينام، تراوده تلك الكوابيس المريعة، لقد حلم منذ ليالٍ أن عنكبوتًا يأكله، كان بوسعه سماع فكيه يتحركان وكل شيء، واستيقظ يصرخ، وإن سألتُه ما خطبه ...»

- «ألا يخبركِ؟»

- «بالطبع لا يفعل وحق اللعنة، يُفترض بي فقط أن أتقبَّل الأمر ولا أقول شيئًا، وإن حاولت أن أتكلم عن ذلك، يكون رده: الصمت زينةُ المرأة.»

كل امرأة عرفتها في حياتي نشأت على تلك المقولة، جلسنا على الشرفة الظليلة نتأمل ذلك للحظة ثم انفجرنا بالضحك فجأة، كلتانا معًا ليس ضحكًا وحسب، بل شهيقًا حثيثًا، صراخًا حادًّا، لهاثًا من أجل الهواء، حتى في نهاية الأمر التفت الرجلان ليُحدِّقا فينا فأقحمت «تيكميسا» طرف ردائها في فمها لتكمم نفسها، وانتهى الضحك فجأة مثل ما بدأ، جلسنا نجفف أعيننا ونمسح أنفينا بظهور أيدينا، ثم التقطتُ الصينية وقدمتُ لها قطعة أخرى، في الظاهر، كنا قد عدنا إلى طبيعة حالنا - فيما عدا حازوقة مهدمة من آن إلى آخر - لكن شيئًا ما كان قد تغير، لم تكن «تيكميسا» تروق لي كثيراً، غير أننا بعد تلك اللحظة من الضحك المتشارك أصبحنا صديقتين.

قلتُ:

- «في أية مرحلة يمكن للمرأة أن تعرف أنها حامل؟»

حدَّقَتْ فيَّ:

- «هذا يختلف، بالنسبة إليَّ، فأنا أعرف على الفور، أُصَاب بالغثيان كالكلاب منذ اليوم الأول، لكن كما تعرفين، الأمر يختلف من امرأة إلى أخرى، بعض النساء يقلن: إنهن لا يعلمن قبل بلوغهنَّ المخاض، غير أنني لا أعرف كيف يمكن ألا يعلمن؛ أعني، حتى لو ظللتِ ترين دماء الحيض، قد تظنين أن شعوركِ بتلقي نطحة في مثانتك كل خمس دقائق يمكن أن يُعتبر دليلًا».

طوال هذا الوقت، رغم أنها حرصت أن تتحدث بالعموميات، كانت تنظر إليَّ بدهاء:

- «أهو طفله؟»

قلت:

- «أجل».
- «هل أنتِ متأكدة؟»
- «أجل».
- «ليس طفل «أجاممنون»؟»
- «غير ممكن، الباب الخلفي، أتتذكرين؟»

غمرتها البهجة وفرحت لي أكثر بكثير مما كنت فرحة لنفسي.

كانت الظلال تتطاول، بعد قليل سينهض الرجلان ويدخلان لبدء العشاء، لكن خلال هذه الدقائق القليلة الأخيرة - بينما الشمس معلقة على شفا الأفق - لم يحرك أحد ساكنًا، كان «أجاكس» قد التوى على كرسيه وبات ينظر في اتجاهنا، في بادئ الأمر ظننته يشاهد الصبي الصغير، الذي كان الآن يقفز على عتبات الشرفة ويصيح: «انظري إليَّ يا أمي، انظري إليَّ»، لكنني بعد ذلك رأيت أن عينيه كانتا فارغتين تمامًا فاعترتني رعدة، تقلَّب «أخيل» فوق كرسيه؛ بَدَا يتوق إلى إلهاء «أجاكس» بشراب آخر، بجولة لعب أخرى، بأي شيء، إلا أن تلك التحديقة الفارغة الرهيبة استمرت تتقدم أكثر فأكثر تخترق الكوخ، تخترق فناء الإسطبلات ثم تخرج لتقطع ميدان القتال إلى بوابة طروادة وبعيدًا وراءها، لم يكن ينظر إلى أي شيء بالتحديد، كان يحدِّق إلى اللاشيء، وربما داخل اللاشيء.

بعد العشاء، استمر الشرب والموسيقى في قسم معيشة «أخيل»، عزف «ألكيموس» على القيثارة، وكشف «أوتوميدون» عن موهبة غير متوقَّعة في المزمار المزدوج، بَيْدَ أنه حين حاول الغناء جاء صوته مشابهًا لصوت عِجل فُصِل حديثًا عن أمه إلى درجة أن الجميع توسَّل إليه كي يتوقف، كل الأغاني كانت عن المعارك، عن مآثر الرجال العظام، هذه هي الأغاني التي أحبها «أخيل»، الأغاني

التي صنعته، كان ليلتئذٍ أسعد مما رأيته في أي وقتٍ منذ موت «فطرقل».

في وقتٍ لاحق من ذلك المساء، أصبح الصبي الصغير شَكِسًا، حملته «تيكميسا» وذهبَت به إلى الخارج، حيث راحت تسير في الفناء جيئةً وذهابًا والطفل الثقيل بين ذراعيها، وهي تغنِّي له كي ينام، كانت تهويدةً أتذكرها من طفولتي، اعتادت أمي أن تغنيها لأخي الأصغر بينما أندسُّ أنا متغلغلةً في جنبها، ويُسمح لي خلال تلك اللحظات القليلة الثمينة أن أعود طفلة رضيعة أنا نفسي، بينما استمرت «تيكميسا» في الغناء، حطَّ الصمت تدريجيًّا على الرجال وراحوا يُصْغُون، كان لديها صوت عذب، رحتُ أقلِّب بصري في المجموعة، وهناك كانوا: مقاتلون قستهم المعارك، يُصْغُون إلى أَمَةٍ وهي تغنِّي تهويدةً طروادية لرضيعها الإغريقي، وفجأةً فهمتُ شيئًا بل لمحته بالأحرى؛ إذ لا أظن أنني فهمته حتى وقت متأخر لاحقًا، قلت لنفسي: إننا سننجو، أغانينا وقصصنا لن يتمكنوا من نسياننا أبدًا، بعد عقود من موت آخر رجل قاتل في طروادة، سيتذكر أبناؤهم الأغاني التي غنَّتها لهم أمهاتهم الطرواديات، سنكون موجودين في أحلامهم وفي أسوأ كوابيسهم كذلك.

انتهت الأغنية في هَبَّة من الهديل صادرة عن «تيكميسا» وتنهيدة عميقة تنمُّ عن الرضا من الطفل النائم.

قال «أجاكس» صافعًا فخذيه: «حسنًا إذًا، من الأفضل أن نهمَّ بالانصراف».

تعانق هو و«أخيل» طويلًا وبشدة، لكن دون كلام، ثم وقفنا معًا على الشرفة نشاهد الأسرة الصغيرة تختفي داخل الليل.

دخلتُ إلى الكوخ رفقة «أخيل» مجددًا واتخذنا موضعًا عند النار، الوقت القصير الذي كان قد انقضى منذ زيارة «بريام» أكد لي انطباعي الأول عن تغيير بيننا، لم يعد «أخيل» يرسل في طلبي، كان يفترض ببساطة أنني سأكون هناك، فكرتُ كثيراً في تلك الليلة، وحين أعدتُّ النظر بَدَا لي أنني لم أكن أحاول أن أهرب من المعسكر وحسب، بل من قصة «أخيل»، وكنت قد فشلت، فلا يلتبسنَّ الأمر عليكم، كانت هذه قصته؛ غضبته هو وأساه هو وقصته هو، أنا كنت

غاضبة، أنا كنت أشعر بالأسى، لكن ذلك لم يكن مهمًّا بطريقة ما، ها أنا ذي هنا من جديد، أنتظر حتى يقرر «أخيل» متى يحين موعد الخلود إلى السرير، ما زلتُ محاصَرة، ما زلت عالقِة داخل قصته، ومع ذلك لم يكن لي دور حقيقي ألعبه فيها.

بَيْدَ أن ذلك ربما كان يوشك أن يتغير، رحتُ أحدِّق في النار وأنا أعلم أن عليَّ إخباره، لا أعرف ما الذي أبقاني صامتة، كانت كل النساء الأخريات يقلن: هيا، أخبريه، حبًّا بالآلهة، ما الذي تنتظرينه؟ تلك كانت فرصتي للحصول على الأمان، أو أقرب ما كان يمكنني أن أحصل عليه يومًا إلى الأمان، تذكرت ما كانت «ريتسا» قد قالته عن «كريزيس»: أنها لو منحَت «أجاممنون» ابنًا لأمَّنت مستقبلها، ومع ذلك فقد ترددتُ؛ لأنني كنتُ أعرف أن حياتي ستتغير مرةً أخرى من اللحظة التي أنطق فيها بالكلمات، سأصبح الأم - الأم المتوقعة - لطفل يكون طرواديًّا وإغريقيًّا في آن واحد، والولاءات القديمة والثوابت القديمة - القليل الذي كان قد تبقى لديَّ منها - ستسقط عني؛ لذا جلستُ قرب النار أرتشِف خمري، ولم أقُل شيئًا.

***

-٤٦-

اضطر أن يُكافح طويلًا ومَريرًا ليحصل على وقف القتال الذي أراده «بريام»، كان التفاوض عملًا مُعقدًا يستنزف الوقت، إذ لم يتعيَّن عليه إقناع «أجاممنون» وحده، بل بقية الملوك جميعهم أيضًا، وفي الحقيقة، كانت حجةُ متابعة الضغط بالهجوم الآن بما أن موت «هكتور» قد قصم ظهر طروادة حجةً مفحمة، لكنه بطريقة ما، استطاع أن يقنعهم بالموافقة في نهاية المطاف، وكان «فطرقل» ليفخر به، حتى «أوديسيوس» الذي كان قد اعترضه في كل إنشٍ من طريقه، قال: «حسنًا، كان هذا مفاجئًا، ربما نعيِّنك دبلوماسيًّا ذات يوم.»

اكتفى «أخيل» بالضحك وهز رأسه.

ما من «ذات يوم».

كل صباح، يذهب ليقف على الشاطئ، على شريط الرمل المتصلب، ويزم عينيه مُترقبًا أول لمحة من أمه.

في البدء، لا تبدُو أكثرَ من بقعة داكنة على غشاوَة الضباب البيضاء، لكن ما إن تخوض عبر المياه الضحلة نحوه حتى تلتقط عيناه وميض بشرتها الفضي، هو يتوق إلى تلك اللحظة ويرهبها في آنٍ معًا؛ لأن كل لقاء بات الآن وداعًا مطولًا، لقد سئم من هذا، يريد له أن ينتهي، فقد أمضى كل حياته مشبعًا بدمعها؛ لذلك حين تختفي آخر المطاف داخل موجة متعاظمة، يشعر بالانفراج سرًّا، يبدأ الضباب الذي تجلبه معها على الفور بالانقشاع، وها هو البحر يمتد أمامه، شفافية رقيقة متلألئة مثل أول طبقة من البشرة فوق جرح آخذ بالتعافي.

لدى عودته إلى الكوخ، تكون الشمس قد أذابت آخر شراذم الغشاوة وبدأت الحياة تدبُّ في أوصال المعسكر، امرأة راكعة قرب نار، تنفخ على الوجه السفلي لقرمة حطب وتلقم اللهب حفنة من العشب الجاف، خيول تتنشق بصوتٍ مسموع داخل أكياس علفها ورجال ينحنون عليها، مُمرِّرين أيادٍ حانية متموتة البشرة على كل قائمةٍ من قوائمها، يرفعون الحوافر ليتأكدوا من خلوها من الأحجار، لا شيء جديد، لا شيء مميز، إنه يرى هذا كل صباح منذ تسع سنوات، لكن لم يسبق له أن رآه بهذا الجلاء، لم يسبق أن أحبه كما يستحق أن يُحَبَّ قبل الآن.

كل صباح، يجلس «ألكيموس» على عتبات الشرفة يُلمِّع درعه، أحيانًا يلتقط «أخيل» خرقة وينضم إلى «ألكيموس» في هذه المهمة، متجاهلًا تعبير وجه «أوتوميدون» المصدوم كما لو كان أمام فضيحة، لا يفترض بـ «أخيل» العظيم، «أخيل» الإلهي، أن يلمع درعه بنفسه، لكنه يستمتع بالعمل: إيقاع المسحات، تحدي انتشال قطعة تراب عصيَّة بعينها، مكافأة البرونز البراق البسيطة القابلة للتحقيق، حين أعطته أمه هذه الدرع، بالكاد كلَّف نفسه أن ينظر إليها، كان يحصر تركيزه على إيجاد «هكتور» وقتله، الآن لديه كل الوقت في

العالم ليقدر جمال الترس حق قدره: قطعان من الثيران ترعى قرب نهر، شبان وفتيات يتحلقون حول حلقة رقص، شمس وقمر ونجوم وأرض وسماء، شجار ودعوى قضائية ووليمة زواج، يَبْدَ أنه لا يستطيع منع نفسه من التساؤل عما قصدته أمه بالهدية، هذا هو الترس الأقوى، الأفخر صناعة، الأكثر جمالًا في العالم، لكنه لا يستطيع إنقاذه، موته مقدَّرٌ من قِبَل الآلهة، عوضًا من ذلك، يذكره كل صباح بغنى الحياة التي يوشك أن يفقدها.

كثيراً ما يُفكر في أمه بينما يلمع الترس بطريقة ما، هنا عند نهاية الحياة، يبدو من الطبيعي أن تعود إلى البداية، أن تُغْلِقَ الدائرةَ إن استطعت، حين كان صبيًّا صغيراً، يُسمح له بالسهر إلى وقتٍ متأخر في البهو بعد العشاء، مقروحَ الجفن، يقاوم النعاس، اعتاد أن ينظرُ إليها فيلاحظ كم كانت عيناها مُلتهبتين، «إنها النار»، كانت تقول: «الدخان»، لكنه كان يعلم أن ذلك ليس السبب، كانت في بعض الليالي بالكاد تقدر على التنفس، وحينها تبدأ بشرتها بالتشقق - دائمًا تكون البداية في زاويتي فمها - ثم تتعمق التشققات وتنتشر حتى تأخذ تنتح، وقبل مُضِيِّ الكثير من الوقت، تكون قد اختفت وتُرِكَ هو ليهيم بتوانٍ وشعورٍ بالحرمان على طول الشاطئ حتى تعود فجأة، وتُلِمُّه بين ذراعيها مُقبِّلَةً إياه، عيناها صافيتان، بشرتها متألقة، وشعرها الأسود اللامع يعبق بالملح.

لكن الفترات السيئة صارت أكثر تواتراً، كان والده عادةً يمد يده ويداعب ذراعها وهي تتركه يفعل ذلك دائمًا، لم تنكمش وتسحب ذراعها مرة، إلا أن «أخيل» المندس في جنبها كان يشعر بعُنف انكماشها المكبوح، أمه كانت امرأةً غاضبة، غاضبة على الآلهة الذين حكموا عليها بمشاركة سرير الزوجية مع فانٍ، وكم كانت تكرَه ذلك: العفن اللزج للتسافد والولادة البشريين، وحتى إرضاع طفلها من ثدييها، إنه يتخيل - أهو خيال أم ذكرى؟ - كل عضلة في عنقها تنقبض، وهي تحاول ألا تنكمش من الفم الصغير الشبيه بشقائق النعمان البحرية الملتصق بحلمتها، يمص الحليب، يمص الدم والأمل والحياة، محكمًا تقييدها بالبر أكثر فأكثر، لقد ترك ذلك أثره عليه، ذلك الاشمئزاز المتخيل أو المتذكر، لم يجد يومًا الكثير من المتعة في الجنس، سواءً مع رجل أم امرأة، راحة جسمانية، أجل،

لكن لا أكثر من ذلك، حتى «فطرقل» كان مرغماً على دفع ثمن كبير مقابل متعة كهذه حين يمنحها أو يتلقاها.

كل حبه وكل حنانه مخصص لأبيه، فهو أولاً وقبل كل شيء ابن بيليوس؛ الاسم الذي يُعْرَف به بين كل صفوف الجيش؛ لقبه الأصلي والأهم دائماً، لكن هذا عن النسخة العمومية من نفسه، أما حين يكون وحيدًا، وخاصةً في تلك الزيارات الصباحية الباكرة إلى البحر، يعرف نفسه على أنه ابن أمه ولا مفر من ذلك، لقد غادَرَتْ ولماً يبلغ السابعة، السن التي يهجر الصبي فيها قسم النساء ويدخل عالم الرجال، ربما لهذا السبب لم يستطِع إتمام الانتقال تمامًا، مع أن سماعه يقول ذلك سيدهش الرجال الذين قاتلوا إلى جانبه، لكنه لا يقوله بالطبع، إنه عيب وضعف، وهو يعرف كيف يبقيه مخفيًّا بشكل جيد عن العالم، فقط في الليل، وهو يتمايل بين النوم واليقظة، يجد نفسه قد عاد إلى ظلمة رحمها البحرية، فيمحي خطأ الحياة الفانية الطويل أخيراً.

حتى أساه على «فطرقل» يصبح أهون مع اقتراب موته، لم يعد عذابَ البتر الممزق الشاق الذي كانه، بل صار شعوراً بالسلام تقريبًا، كما لو أن «فطرقل» سبقه إلى الغرفة المجاورة، كثيراً ما يتحدث عنه، فيخبر «ألكيموس» و«أوتوميدون» - اللذين هما أصغر سنًّا من أن يتذكرا أولى سنوات الحرب - عن المعارك والرحلات البحرية في ذلك الزمان الذي بات بعيدًا، لكن حين يكون بمفرده مع «بريزيس»، يعود إلى ما قبل المعارك، ما قبل طروادة، إلى الطفولة التي شاطره «فطرقل» إياها، وصولاً إلى لقائهما الأول، «لم يكن قد سبق لي أن رأيته في حياتي، ومع ذلك حين نظرتُ إليه كانت فكرتي الأولى: «أنا أعرفك».

- «كانت تلك ضربة حظ، أليس كذلك؟ أقصد لقاءه.»

- «بالنسبة إليَّ، كانت كذلك، لا أعرف كم كان ذلك حظًّا سعيدًا بالنسبة إليه، لنواجه الحقيقة، لو أنه لم يلتقِ بي، لكان ما يزال حيًّا على الأغلب.»

- «لا أظنه كان ليختار حياة مختلفة.»

«لا، لكنني كنتُ لأختار له»، رفع «أخيل» كتفيه: «كان يملك الكثير من الصبر، لأمكنه أن يكون مزارعًا جيدًا، ملكًا جيدًا، لكان بوسعه أن يبرع في الأمور المملة بحق، التحكيم في القضايا وكل ذلك.»

كلما يكون بمفرده مع «بريزيس»، يكون ثمة إحساس بحضور «فطرقل»، قوي في بعض الأحيان إلى درجة يصعب معها كثيراً ألا يتحدث إليه، لم يسأل «بريزيس» قط إن كانت تشعر بذلك؛ لأنه يعلم أنها تفعل، هكذا كان الأمر منذ البدء، علاقتهما - إن أمكن تسميتها بالعلاقة - نُقِّيَت من خلال حبهما المتشارَك لـ «فطرقل».

«أخيل» يعيش في الحاضر، هو يتذكر الماضي وليس دون ندم، لكن السخط يتناقص بشكلٍ مُطرد، نادرًا ما يفكر في المستقبل إن فعل ذلك أصلًا؛ لأنه ما من مستقبل، السهولة التي توصل بها إلى تقبُّل ذلك مدهشة، حياته تمثُل مثل زهرة هندباء برية في راحة يده المفتوحة، شيء يبلغ من الخفة أن تجرفه أقل نسمة ريح بعيدًا، يبدو أنه قد اكتسب قبولَ موتٍ يليق بشيخ من مكان ما ربما من «بريام»، يعلم أنه ما من مستقبل ولا يمانع حقًّا.

ثم ذات صباح، يستيقِظ ليجِد السرير خاويًا، لقد نمَتْ فيه ألفة لوجود «بريزيس» هناك دائمًا؛ لذا ينهض ويذهب للبحث عنها، يجدها في الخارج، مُنحنية بجذعها، تتقيأ على الرمل.

- «ما المشكلة؟»
- «لا شيء».
- «حسنًا، ثمة شيء ما.»
- «أنا حبلى».

يستغرق لحظةً ليستوعب الأمر، يقول: «هل أنتِ متأكدة؟» لديه ذكرى غير واضحة عن قول أحدهم: إن المرأة لا تعلم أنها حبلى قبل أن يبدأ الجنين بالركل، هل ذلك صحيح؟ هو لا يعرف شيئًا عن أمور كهذه.

تنظر في عينه بثبات:

- «أجل».

يصدقها، هي ليست امرأة تروي الأكاذيب، إنها لم تكذب وتقول: إن «أجاممنون» لم يَنَمْ معها حتى عندما كان من مصلحتها تمامًا أن تفعل؛ لذا على الفور وفي غضون بضع ثوانٍ يصير هناك مستقبل، بَيْدَ أنه ليس مستقبلًا يمكنه هو أن يكون جزءًا منه، لكن مع ذلك، مستقبل عليه أن يتفكر فيه مليًّا.

فكرة هذه الحياة الجديدة تحفر طريقها إلى داخل ذهنه، ويرافقها خوف متجدد من الموت، يستيقظ في الظلام، غارقًا في العرق، ويتساءل كيف ستنتهي حياته بالضبط، لا يوجد الكثير مما لا يعرفه عن الموت في المعركة: سبق ورأى الأسوأ؛ لأنه سبق وأنزل الأسوأ بغيره، ثم - بعد ذلك - أن يكون عاريًا وعاجزًا بين أيدي نساء، غير أن الآلهة وحدهم من يعرفون لماذا يقلق من ذلك، ليس الأمر كأنه سيكون هناك، بأي معنى ذا مغزى.

لكنه يقلق من ذلك بالفعل خلال ساعات الظلام الطويلة، ثم في الصباح ينسى ضعف الليل.

طوال هذا الوقت، كانت قيثارته مُغلفة بالقماش المشمع وموضبة في صندوق محفور من السنديان، يُخْرِجها من آن إلى آخر ويلمس الأوتار، بَيْدَ أن المطاف ينتهي به كل مرة إلى وضعها جانبًا.

لكن ذات ليلة، مع مشارفة هدنة الأحد عشر يومًا على الانتهاء، يقبض على نفسه مُتلبسًا بالتفكير: ما أدراني أنني لا أستطيع فعلها؟ الحقيقة أنه لا يدري؛ لا يمكنه أن يدري قبل أن يجرب؛ لذا يجلس ويحتضن الآلة بين ذراعيه ثم يختار أبسط لحن يعرفه: تهويدة أطفال، بعد عزفها عدة مرات، يهبُّ واقفًا على قدميه ويروح يَذْرَع المكان جيئةً وذهابًا، تمنعه حماسته من أن يجلس ساكنًا.

بعد ذلك، لا تنزل القيثارة من يديه أبدًا، في الليلة التالية في البهو، بعد العشاء، يعزف ثنائيات برفقة «ألكيموس»، أغنية تتبع أغنية، وتزداد الكلمات فحشًا باطراد مع تقدم المساء، حتى يعجز الجميع آخر الأمر عن مقاومة الضحك، لاحقًا - في قسمه الخاص - يعزف الموسيقى التي أحبها صبيًّا، أغاني معارك ورحلات بحرية ومُغامرات وميتات الأبطال المجيدة، يا لها من متعة أن يكون قادرًا على العزف من جديد، فلا يكتفي بالجلوس خاوي اليدين يستمع إلى الآخرين وهم يعزفون.

ها هي «بريزيس» تراقبه من السرير، الوقت متأخر، متأخر جدًّا، «لقد تذكرت للتو، ثمة شيء عليَّ أن أفعله»، يقول ذلك ثم ينهض ويخرج إلى البهو.

على عتبات الشرفة، يصيح مناديًا «ألكيموس»، فيأتي الأخير راكضًا بوجه ممتقع وأنفاس منقطعة، خائفًا كما هو واضح من أن يكون قد اقترف خطأً ما، وأن يكون شيء فاجع قد حدث، كأن يعثر «أخيل» على بقعة وسخ على الترس العجائبي، يصبُّ للرجل شرابًا، ويُجْلِسه في البهو؛ لأنه لن يكون لطيفًا أن يفعل هذا أمام «بريزيس»، ويحاول أن يشرح، ويا للفرج الذي يشعر «ألكيموس» به حين يعلم أنه ليس في ورطة، فيكتفي بالحملقة إلى «أخيل» ببساطة، ويكون واضحًا أنه لا يستوعب كلمة!

يقول «أخيل» مجددًا:

- «إذا مِتُّ ...»

تبدُو هذه الجزئية على الأقل قد بلغَته، غير أن «ألكيموس» لا يقول شيئًا بادئ الأمر، ويكتفي بحركات مشوحة من كلتا يديه، كما لو كانت تلك أسوأ كلمات سبق وسمعها، حسنًا، إن استطعت أنا أن أواجه ذلك، فأنت تستطيع بلا شك، يقول «أخيل» ذلك لنفسه وقد بدأ صبره ينفد: «إذا مِتُّ، لستُ أقول: إن ذلك سيحدث، أقول إذا»، يبدو الارتياع على «ألكيموس»: «اسمع، لم يراودني هاجس أو أي شيء من ذلك القبيل»، ليس هاجسًا، بل هو اطلاع: «كل ما أريده هو

وضع بعض الخطط العقلانية للمستقبل.»

يُحدق «ألكيموس» إليه فاغراً فاه.

«بريزيس حُبلى» استوعبَ هذه الجزئية بالتأكيد: «إذا مِتُّ، أريدك أن تتزوجها، أريدك أن تأخذها إلى أبي، أريد للطفل أن يترعرع في بيت أبي»، صمت، «هل هذا مقبول؟»

يقول «ألكيموس» على نحو يثير الشفقة:

- «إنه شرف لستُ أهلًا له.»
- «لكنك ستفعل ذلك؟»
- «أجل».
- «أتُقسِم؟»
- «أجل، بالطبع أقسم، فهل تعلم هي؟»

يهز «أخيل» رأسه:

- «لا، ما من حاجة إلى إخبارها منذ الآن، ما دمنا أنا وأنت نعلم ما يحدث.»

يتمنى له ليلة سعيدة ويعود إلى قسم معيشته، حيث يجد «بريزيس» جالسةً في السرير تنتظره، للحظة، يغريه أن يلين وينضم إليها، لكن مزاجه كان قد تغير الآن، وأخذ يُظْلِم مع ارتماء الظلال.

لذا يجلس قرب النار ويلتقط القيثارة مجدداً، متذكراً الأغنية التي كان يعمل عليها قبل موت «فطرقل»، لقد شكّلت جزءًا كبيراً من أمسياتهما الأخيرة سويةً إلى درجة لا يثق معها أنه يستطيع تحمُّل عزفها، الآن حتى، وبالطبع تحيله النوتات القليلة الأولى دموعًا، لكنه يحاول من جديد بعد بضع دقائق فيعزفها هذه المرة إلى النهاية، غير أنه ما من نهاية، أجل، إنه يتذكر الآن، لطالما كانت

هذه هي المشكلة، أليس كذلك؟ لم يقدر يومًا على إنهاء هذا الشيء اللعين، ولم يكن «فطرقل» عونًا له: «لا أرى مشكلةً فيها، تبدو لي جيدة.»

يعزفها كاملة من جديد، واعيًا بمشاهدة «بريزيس» له، وواعيًا كذلك - واعيًا بشكل قوي لا سبيل إلى إنكاره - بجلوس «فطرقل» على كُرسيه قرب النار؛ لأن «فطرقل» قد رق خلال الأيام القليلة الأخيرة، منذ بدأ «أخيل» يعزف على القيثارة من جديد، وصار يجيء الآن كل مساء، من الصعب حقًّا أن يسأله عن رأيه، لكنه يعرف رأي «فطرقل»، لطالما كان يعرفه، «حبًّا بالآلهة، ألا يمكنك أن تعزف شيئًا أكثر بهجة بقليل؟ إنها مرثية لعينة.»

مبتسمًا للذكرى، يعيد «أخيل» عزف الأغنية فقط ليصل إلى سلسلة النوتات المعذبة نفسها، الأثر اللاحق لعاصفة عظيمة: قطرات مطر تقطر من غصن متدلٍّ، ويُسمع نقرها في النهر المدوم تحت، أجل، لكن ماذا بعد ذلك؟

وفجأة يدرك: لا شيء، لا شيء بعد ذلك؛ لأن هذا هو كل شيء، هذه هي النهاية، كانت هناك منذ البدء، غير أنه فقط لم يكن جاهزًا لرؤيتها، ورغبةً في التوثق - لأن الأمر برمته يبدو بسيطًا ومريحًا أكثر من اللازم بقليل - يعزف الأغنية مرة أخرى، من البداية حتى النهاية، لا، إنه على حق، هذا هو كل شيء، هذه هي النهاية، ينظر إلى «بريزيس»: «هذا هو كل شيء»، يقول وهو يربِّت على الأوتار التي ما تزال تهتز: «انتهى».

-٤٧-

تلاشَت النوتات الختامية إلى صمت، أعاد «أخيل» لفَّ القيثارة في قماشها المشمع ووضعها جانبًا برفق، بَدَا الزمن كأنه تعطَّل خلال هذه اللحظات القليلة، وأن الموجة التي تخيِّم فوقنا قد لا تتكسر أبدًا.

محض وهم بالطبع، كان المستقبل يندفع بعنف نحونا، باتت حياة «أخيل» الآن تُقاس بالأيام وليس الأسابيع.

صبيحة اليوم الذي عاد فيه إلى الحرب، وقف «أخيل» على عتبات الشرفة وصاح ينادي «ألكيموس»، الذي هرع إليه راكضًا كما يفعل دائمًا، وجهه المستدير الصادق يلتمع من العرق، وهو يبدو مرتاعًا، كنت ما أزال في السرير، أمضغ كسرة من الخبز الجاف، كانت «ريتسا» قد قالت لي: إنني لو عملت على أكل شيء ما قبل أن أحرك رأسي حتى، فذلك يمنع تطور الغثيان الصباحي، حسنًا، لم يكن يمنعه، لكن بَدَا أنه يساعد قليلًا بالفعل؛ لذا صرتُ الآن أحتفِظ بكسرة خبز تحت الوسادة، لم أعتقد أن ما أراده «أخيل» من «ألكيموس» أيًّا كان يمكن أن يخصني؛ لذا أرغمت نفسي على ابتلاع اللقمة الأخيرة، ثم انقلبتُ بحذر على جنبي مشيحةً عنهما.

في تلك اللحظة، فُتِحَ الباب ودخل كاهن، دون سابق إنذار، دون مراسم تشريفية أعظم من ذلك، ما كان يمكن لعروس أن تكون أخس أو أردأ ملبسًا، واقفة هناك وما أزال شعثاء من سرير «أخيل»، متلفعة بملاءة ملطخة بالمني، وفتات الخبز في شعري، ظل «ألكيموس» - واللطخ الحمراء تكسو أنحاء وجهه وعنقه - يسدِّد إليَّ نظرات معذبة، أتراه سئل حتى إذا ما كان يريد هذا؟ حين انتهت المراسم المقتضبة، تراجع منسحبًا من الغرفة، تاركًا إياي وحدي مع «أخيل»، الذي قال بجفاء: «هذا هو التصرف الأفضل، إنه رجل جيد»، وربما لأنه لاحظ كم كنتُ مصدومة؛ رقَّ بعض الشيء، فأخذ ذقني بين إبهامه وسبَّابته مميلًا رأسي: «سيكون لطيفًا معكِ، وسيعتني بالطفل.»

بعد ساعات: نبأ موت «أخيل»، وهدير الغياب المهول في غرفه الخاوية.

ما كان «أخيل» ليستسيغ طريقة موته: سهم بين لوحي الكتف، أطلقه «باريس» - زوج «هيلانة» - ثأرًا لموت «هكتور»، ثمة نسخة أكثر بذاءةً حتى من القصة: أن السهم كان مسمومًا، وآخرون يقولون: إن «باريس» أطلق عليه في عقبه، المكان الوحيد من جسده الذي كان مكشوفًا عرضةً للجروح، عاجزًا ومسمرًا بالأرض، قُطِّعَ إربًا حتى الموت، وفي كلتا الحالتين، سلاحُ جبانٍ في يَدَي جبان: كان «أخيل» ليرى الأمر بتلك الطريقة، مع أنني أعتقد أنه لربما وجد شيئًا من العزاء في حقيقة كونه مات دون هزيمة في قتال فردي وجهًا لوجه.

عَقِبُ «أخيل»؛ من بين كل الأساطير التي نشأت حوله كانت تلك أسخفها حتى ذاك، يُفترض أن أمه - في سعي حثيث بائس منها لجعله خالدًا - قد غطسته في مياه نهر ليثي،(15) لكنها أمسكته من عقبه؛ مما جعله الجزء الوحيد من جسده غير المنيع على الجراح المميتة، لقد كان جسده برمته كتلة من الندبات، صدقني، فأنا أعلم.

أسطورة أخرى: أن خيوله كانت خالدة، هدية من الآلهة في مناسبة زواج أمه من «بيليوس»، تكفيراً عن الذنب كما يمكنك أن تقول، يُفترض أن تكون الخيول قد تبخرت بعد موته، أفكر فيها أحيانًا، وهي تجز العشب بكسل في حقل أخضر، بعيدًا عن حمأة المعركة، تتلقى الرعاية من سائس ذاهل في حواسه أكثر من أن يعجَب لماذا لا تشيخ خيوله أبدًا، أحب تلك القصة.

أمضيت الأيام الأولى التي تلت موته جالسةً في قسم معيشته أُصْغِي إلى صيحات المتفرجين على مبارياته الجنائزية، كانت الغرفة هادئة: كرسيان شاغران يواجهان بعضهما على طرفي الموقد الفارغ، دون أن أستدير، كنت واعيةً بالمرآة البرونزية ورائي، وواعيةً - كما تكون أنت أحيانًا - بكوني مراقَبَة من قِبَل شخص لا أستطيع رؤيته، ثمة اعتقاد فحواه أن المرايا عتبة بين عالمنا وأرض الموتى؛ لهذا تُبقى عادةً مغطاة في الفترة الفاصلة بين موت شخص وإحراق جثته، أكثر من مرة، شعرت بإغراء يدفعني إلى النهوض وإلقاء ملاءة على المرآة؛ لأنه إن قُيِّضَ لروحٍ ما أن تكون قوية بما يكفي للإقدام على رحلة العودة من هاديس فستكون روح «أخيل»، لكنني قررت في النهاية أن أتركها مكشوفة، فحتى لو عاد بالفعل، كنت أعلم أنه لن يؤذيني.

ليلةَ أضرموا النار بطروادة أخيراً - كان تجريد المدينة من محتوياتها قد استغرق ثلاثة أيام كاملة من النهب - أقام «أجاممنون» وليمة، أحد ضيوف الشرف كان ابن «أخيل»: «بيرهوس»، الذي كان قد قَتَلَ «بريام» أو ذبحه بالأحرى، وصل إلى المعسكر توَّاقًا للمحاربة إلى جانب أبيه: اللحظة التي دُرِّبَ عليها منذ أن بلغ سنًّا تكفي ليرفع سيفًا، لكن لدى بلوغه طروادة كان «أخيل» قد مات بالفعل،

جثوة قبر، كوخ فارغ، لكن ما من أبٍ حي يرحب به، على العشاء في البهو، رحتُ أراقبه يترنَّح فوق الأرضية، وجهه الشاب اليانع متبلد من الإسراف في السُّكْر والصدمة، يحدق من رجل إلى آخر، وهو يتوق إلى أن يقول هؤلاء الرجال الذين عرفوا أباه، الذين قاتلوا إلى جانب أبيه، كم كان يشبه «أخيل»، أليس يشبهه؟ وحق الآلهة، لتظننَّ أن «أخيل» قد عاد من جديد، لكن أحدًا لم يقُل ذلك.

خلال الوليمة، سكر «أجاممنون» إلى درجة أنه سقط مرتين، وبدا أن السقوط الثاني قد هزَّ شيئًا ما داخل دماغه المخمور فحرره من مكانه، «ألكيموس» الذي كان قد دُعِيَ ليجلس على رأس الطاولة - بما أنه أبلى حسنًا في القتال، أيًّا كان معنى حُسن البلاء في مدينة منهوبة - سمعَه يتحدث دون ترابط إلى «أوديسيوس»: «أخيل»، ظل يقول: «أخيل».

«ماذا بشأنه؟» كان «أوديسيوس» مخمورًا أيضًا، لكنه حادُّ الذكاء كعهده.

- «أتذكُرُ حين أرسلتك لتراه؟»
- «أجل».
- «لقد وعدتُّه بأجمل عشرين امرأة في طروادة.»

انتظر «أوديسيوس» توضيحًا:

- «أجل».
- «حسنًا، ألا ترى؟ يجب أن يحظى بهنَّ، أليس كذلك؟»
- «لا، ليس حقًّا، إنه ميت، وبالتأكيد ليس بحاجة إلى عشرين امرأة، حتى واحدة ستكون شيئًا من الهدر.»

لكن «أجاممنون» كان عنيدًا كالصخر: يجب أن ينال «أخيل» حصته بالطبع، لقد كان «أجاممنون» خائفًا، وكدتُ لا أستطيع أن ألومه على ذلك، إذ كنت قد جلست وظهري إلى المرآة البرونزية، وشعرت مع ذلك بمدى قوة السطوة التي

ما زال «أخيل» يمتلكها، لكن خوف «أجاممنون» تجاوز المنطق، كان يميل باتجاه «أوديسيوس» ويهز كتفه، انظر إلى المشكلة التي أثارها «أخيل» بسبب تلك الفتاة؛ فتاة واحدة، وامتنع عن الاستمرار بالقتال؛ لأنه لم يستطع أن يحظى بها، «بحق اللعنة، كاد أن يكلفنا خسارة الحرب».

أشاح «أوديسيوس» بيده صارفًا النظر: «حسنًا، لم يعُد قادرًا على تكليفك خسارة الحرب الآن، أليس كذلك؟ فقد انتصرت.»

- «لا، لكنه يستطيع منعنا من الوصول إلى الوطن.»

«لا أستطيع حقًّا أن أرى كيف ذلك»، كان «أوديسيوس» قد بدأ بالفعل يتطلع قُدُمًا إلى رؤية زوجته من جديد: «كل ما نحتاجه هو تغير اتجاه الريح، ثم لا يعود يفصلنا سوى ثلاثة أيام، هذا كل شيء.»

لكن بالتدريج مع تقدم المساء، تطور اهتياج «أجاممنون» العصبي إلى يقين، كان يجب أن يحظى «أخيل» بفتاة، وليس بأية فتاة حتى، بل الأفضل تمامًا؛ صفوة القطاف.

وبذلك اختيرت «بوليكسينا» - ابنة «بريام» العذراء، البالغة خمسة عشر ربيعًا - لتُقَدَّم أضحية، كنت أتذكرها من فترة سكناي في طروادة، بنت صغيرة متينة، لها بنية مهرة جبلية، ساقان قصيرتان، وعرف من الشعر البني الداكن، كانت أصغر أفراد عائلة «هيكوبا» الكبيرة، دائمًا تركض لتستدرك خطو أخواتها، منتحبةً تُطلق تلك الصرخة المهولة المعهودة لدى أصغر الأبناء في كل مكان: «انتظرني، انتظرني».

ظللتُ أستيقظ خلال تلك الليلة وأنا أفكر فيها، في الصباح جررتُ نفسي خارج السرير، وكنت أشعُر بشيء من فزعها من اليوم القادم، غير أنني دون شك لم أتوقع أن أتورط في قدرها.

قبل الفطور، جاءت الفتاة الصغيرة التي كانت مرسالَ «هيكاميد» ودخلت الفناء

دامعةً، قالت بأنفاس متقطعة: «هيكاميد تريدك، وتسأل أيمكنك القدوم على الفور؟» ظننت أن «هيكاميد» ربما تكون قد توعكت، لم يخطر لي شيء آخر؛ ولذا جريت طوال الطريق إلى كوخ «نسطور»، أو سرتُ بأقرب ما استطعت آنذاك من الجري، كان حَبَلي قد بدأ يظهر للتو، لا أحد من الرجال الذين مررت بهم كان قد استيقظ تمامًا، جميعهم ما زالوا نائمين ليتخلصوا من سُكْر الليلة السابقة ومن ضمنهم حراس «نسطور»، بَيْدَ أن «نسطور» ذاته كان مُستيقظًا ومتهندمًا، أشارت «هيكاميد» لي كي أتبعها إلى البهو.

- «هل سمعتِ عن «بوليكسينا»؟»

أومأتُ أن نعم، ولم أزد أي شيء: لم يكن ثمة جدوى؛ لذا اكتفينا بالوقوف في الظلمة الجزئية والنظر إلى بعضنا، ثم قالت «هيكاميد»: «يريدني «نسطور» أن أذهب معها، يقول: إنه لن يُسمح لأمها وأخواتها بالذهاب، حسنًا، لا يمكنها أن تذهب وحدها»، كانت تفتل طرف خمارها بين أصابعها: «أتأتين معي؟»

حدّقتُ إليها، رأيتُ كم كانت تبدُو شاحبَة ومرعوبة ومصابة بالغثيان، وهذه كانت امرأة لطالما عاملتني بلُطف حينما احتجتُ ذلك حقًّا، قلت: «أجل، بالطبع سآتي».

أومأت برأسها، ثم التفتت إلى الطاولة قربها وبدأت تصف قطعًا صغيرة من كعك العسل على صينية، «لم يتناولن شيئًا»، كان صوتها يرتجف، كانت تحاول شغل نفسها كيلا يتسنى لها وقت للتفكير، ساعدتها على تجهيز الكعك، ثم سلمتْ الصواني لاثنتين من خادمات «نسطور» كي تأخذانها إلى ميدان المعسكر، شككتُ كثيراً في أن يؤكل شيء منها، لكنني تفهّمت أنها احتاجت أن تفعل شيئًا ما، انتهينا من صف دُفعة ثانية من الكعك، ثم هيأنا نفسينا لما كنا نعلم أن علينا مواجهته.

كانت نساء البيت الملكي - أرملة «بريام» وبناته وكنائنه - محتجزات في نفس الكوخ الصغير الذي وُضِعْتُ فيه ليلة وصولي، كان مكتظًّا بشكلٍ مريع، أسوأ

منه آنذاك، وبعض النساء كُنَّ قد خرجن وجلسن أو استلقين على الرمل، الشعور مُتلبدة والوجوه مكدومة والأعين محتقنة بالدماء والأردية ممزقة: حتى عائلاتهنَّ لتجد صعوبة في التعرف إليهنَّ، كانت «هيلانة» قد مُنِحَت كوخًا لها وحدها، وعلى الأغلب كان ذلك خيراً لها، فلو حُشِرَت مع النساء الطرواديات، أشك أنها كانت لتجتاز الليل، ما زال «مينيلاوس» يقول: إنه سيقتلها، إلا أنه كان قد نقَّح الخطة، الآن صار سيخص أبناء بلده بالتكفل بقتلها - رجمًا كما يُفترض - لكن بعد أن يعيدها إلى الوطن، لم يُصدق أحد كلمةً من ذلك، جميعهم ظنوا أنها ستحفر طريقها إلى سريره من جديد، قبل ذلك بكثير.

شققنا طريقنا بحذر بين جمع النساء هنا وهناك، كنت ترى رضيعةً تُلْقَمُ ثدياً، أو فتاة صغيرة تلعب في الرمل بتوانٍ، وبحكم العادة، رحت أنقل نظري بين الوجوه، مع أنني لم أكن عدتُّ أتوقع أن أجد أختي، كنت قد فتشتُ عنها بين النسوة اللاتي رأيتهنَّ يُدْفَعْنَ على الطريق الموحل الذي يقود من ميدان القتال إلى المعسكر، وهنَّ يزللن وينزلقن مثل قطيع يُساق إلى الذبح، ومن سقطن منهنَّ كُنَّ يُشجعن على النهوض من جديد بضربات من كعوب الرماح، لاحظت أنه لا توجد نساء حبالى بينهنَّ، ولا أمهات يقدن فتيانًا صغارًا من أيديهم، لقد كان «أجاممنون» على قدر وعده، رحتُ أحدِّق من وجه مرتاع إلى الذي يليه، لكن الخوف جعل الوجوه تتشابه، فاستغرقت وقتًا طويلًا لأوقن أنها لم تكن هناك، فيما بعدُ، أخبرني أحد أن مجموعة صغيرة من النساء كُنَّ قد رمين أنفسهنَّ من القلعة حين رأوا المقاتلين الإغريق يتدفقون من البوابة، لم يكن لي سبيل لأوقن، لكنني اعتقدتُّ على الفور أن أختي كانت بينهنَّ لا شك، كان من طبيعة «إيانثي» أن تفعل ذلك مثل ما لم يكن من طبيعتي.

داخل الكوخ، وجدنا «هيكوبا» و«بوليكسينا» راكعة عند قدميها، وإلى جانبهما جلست «أندروماخي» - أرملة «هكتور» - تُحدِّق في الفراغ، قالت المرأة الواقفة بجانبي: إن «أندروماخي» كانت قد أُخبِرَت لتوها أنه تم شملها ضمن حصة «بيرهوس»، ابن «أخيل»، الفتى الذي قتل «بريام»، بالنظر إلى وجهها، كنت لترى أن ذلك لم يهمها كثيراً، قبل أقل من ساعة، التقط «أوديسيوس» ابنَها

الصغير من إحدى ساقيه المكتنزتين وقذفه من شرفة حصن طروادة، مات طفلها الوحيد، والليلة يُتوقع منها أن تفتح ساقيها لمالكها الجديد، صبي مراهق تكسوه البثور، ابن الرجل الذي قتل زوجها.

بينما كنت أنظر إليها، سمعتُ مجدداً - كما كنت أسمع طوال شهور - النوتات الأخير من مرثية «أخيل»، بَدَا أن الكلمات علقت داخل دماغي، اجتياح أكثر مما هي أغنية، وكنت أمقتها، أجل، موت الرجال الشبان في المعارك مأساة، كنتُ قد فقدتُّ أربعة إخوة، ولم أحتج أن يقول لي أحد ذلك، مأساة لا يفيها أي عدد من المراثي حقها، لكن مصيرهم ليس المصير الأسوأ، نظرتُ إلى أندروماخي، التي سيتعينَ عليها أن تعيش بقية حياتها المبتورةِ أمةً، وقلت لنفسي: نحتاج أغنية جديدة.

لا شيء أسوأ يمكن أن يحدث لـ «أندروماخي» الآن، لكن هناك عند قدمي «هيكوبا» كانت «بوليكسينا» - في عمر خمسة عشر، وحياتها كلها أمامها - وكانت في الحقيقة تحاول مواساة أمها، تتوسل إليها ألا تحزن، سمعتها تقول: «لأن أموت على جثوة «أخيل» أفضل من أن أعيش أَمَةً».

يا لهؤلاء النساء الشابات الجبارات!

شقت «هيكاميد» طريقها إلى المقدمة وتحدثت إلى «هيكوبا» باقتضاب، ثم ذهبنا لنجلس في الزاوية، في الظلال، لم يكن ثمة حاجة إلينا بعدُ.

بينما هي تتجول قرب أطراف الحشد، كانت «كاساندرا» - وهي واحدة أخرى من بنات «بريام» - تكشّر وتدمدم وتفلت زعقةً عرَضية من آنٍ إلى آخر، ظننتُ أن إحدى أخواتها قد تحاول كبحها، لكن بَدَا أن قريباتها حتى يتجنبنها، كانت كاهنة عذراء من كاهنات أبولو، الذي قبَّلها ذات مرة ليمنحها موهبة النبوة الحقيقية، ثم حين بقيت ترفض ممارسة الجنس معه، بصق في فمها وتأكد ألا تلقى نبوءاتها التصديق أبدًا، كان أمرًا لا يُصدَّق أن «أجاممنون» اختارها جائزة لنفسه، ووحدهم الآلهة يعرفون السبب، لعله شعر أنه لم يكن قد أساء إلى أبولو كفاية، كانت طيفًا ممزقًا قلِقًا؛ ما تزال ترتدي أوشحة الإله القرمزية، غير أن

أكاليل الزهر حول عنقها ذابلة، ظلت تَذْرَع الكوخ جيئةً وذهابًا، وتدفع أي أحد يعترض طريقها، في نهاية المطاف، تشبثت بأمها وأخذت تثرثر شيئًا عن الشباك والفؤوس، متنبئةً أنها و«أجاممنون» سيموتان معًا، وأنه باختياره لها اختار الموت، لم يُصدقها أحد؛ لذا تركت نفسها تُساق بعيدًا وهي ما تزال تهذي، ولعنة الإله تتبعها حتى النهاية.

بمرورهم قُربي، سمعت أحد الحارسين يقول: «يا للجحيم، ما كنت لأريد هذا في سريري»، فيجيبه الآخر: «لا، فلن تجرؤ أن تنام أبدًا.»

بعد ذلك، جاء دور «أندروماخي» لتؤخَذ بعيدًا، كان الأسى يدوخها أكثر من أن تحس بالفراق، إلا أن تلك كانت لحظة سيئة لي؛ لأن «ألكيموس» هو من جاء لأخذها، أظن أنه كان يجدر بي توقُّع ذلك، فبما أنه خدم «أخيل»، صار الآن يخدم ابن «أخيل»، بالطبع سيرُسَل لإحضارها، لم أكن أرى «ألكيموس» كثيراً في الآونة الأخيرة، والحقيقة أنني كنت أتجنبه خلال الأيام القليلة السابقة قدر ما استطعت، كان عليَّ أن أقضي بقية حياتي مع هذا الرجل، ولن تهون معرفتي بما فعله في آخر أيام وساعات طروادة ذلك علي بأي مقدار، والآن عرفت - أو على الأقل عرفت شيئًا واحدًا - أنه الرجل الذي اقتاد «أندروماخي» بعيدًا.

توقف قربي ممسكًا بها من ذراعها، فهمستُ: «هل اقتربت مغادرتنا؟»

«ليس كثيراً، لم يستيقظ أحد بعدُ»، رمى رأسه باتجاه «بوليكسينا»: «وما زال أمامنا ذلك».

أجل، قلت في قرارتي، ما زال أمامنا ذلك.

مرت الساعات ببطء، بينما أخذ المعسكر الإغريقي يعود إلى الحياة على مهل شديد من حولنا، كان قد قيل كل ما يجب قوله، والأسى والخوف يهرئان الجميع، أردن أن ينتهي الأمر، لكنهنَّ كُنَّ في الوقت نفسه خَجِلات بإرادتهنَّ ذلك؛ لأن هذه كانت الدقائق الأخيرة القليلة الثمينة في حياة «بوليكسينا».

قالت «هيكاميد»: «قد يغير رأيه».

كنت أعلم أنه لن يفعل، إلا بالطبع إن نسي ما كان قد قاله، وذلك كان ممكنًا، نظرًا إلى كم كان مخمورًا حينها، غير أنه إن حدث، فثمة آخرون يذكرونه: «أوديسيوس»، الذي كان قد حاج بفصاحة جديدة لصالح أن يُقْتَل ابن «هكتور» الصغير، وإلى جانب ذلك، كان «أجاممنون» خائفًا بحق من «أخيل»، خائفًا الآن على الأغلب أكثر مما كان في أثناء حياته، حين كان حيًّا، كنت لتستطيع على الأقل أن ترشو الوغد أو تحاول ذلك، مع أنني رأيت أن موت «بوليكسينا» يمكن أن يُعتبر رشوة، لا، سيتابع الأمر ويتمه على أكمل وجه، سيفعل كل ما يتطلبه إبقاء تلك الروح العنيفة تحت الأرض.

كان الوقت قد تجاوز الظهيرة حين جاء الرجال، حاولوا أن يخضِعوا «بوليكسينا» من ذراعيها ويجروها خارجًا، لكن «هيكوبا» وقفَت وواجهتهم، تُحدِّق في عيني أحد الرجال ثم الآخر، حتى نكَّسوا أنظارهم إما بدافع الخوف أو الخزي، في ردائها المجعد الملطخ بالوحل، كانت ما تزال «هيكوبا» الملكة، وفي الواقع لم يكُن ثمة ضرورة للقوة: كانت «بوليكسينا» على أُهْبَة الاستعداد للذهاب، مُرتديةً رداءً أبيض نظيفًا كان يخص «كاساندرا»، شعرها ممشط ومجدول، بَدَتْ أصغر حتى من سنها، لكنها كانت رصينة وهي تُعانق أمها وأخواتها لآخر مرة، أخذتُ أنا و«هيكاميد» مكانينا بجانبها، وجررنا أقدامنا نحو الباب ببطء يتقدمنا الحراس.

حالما غادرنا الكوخ، سمعنا «هيكوبا» تعوي مثل ذئبة رأت لتوها آخر جرائها يُقتل، ومع الصوت حاولت «بوليكسينا» أن تستدير، فأمسكها أحد الرجال بخشونة من ذراعها، تقدمت إلى أمامه وقلت: «لا داعي لهذا»؛ فأفلتها، وعليَّ الاعتراف أن ذلك فاجأني.

كان الطريق صعودًا طويلًا إلى اللسان الصخري، أخذنا موضعًا خلفها بخطوة، مستعدتين لمساندتها إن احتاجت ذلك، لم أستطع أن أتوقف عن تذكر الفتاة الصغيرة القصيرة الممتلئة التي كانت تحث الخطو خلف أخواتها الكبيرات وتصيح: «انتظرنني»،

ثمة جيش بأكمله ينتظرها الآن.

تابعت السير بثبات حتى بلغتْ سفح جثوة القبر حيث وقف «أجاممنون» وبجانبه «بيرهوس»، كان «بيرهوس» - وهو ما يزال الأثير بوضوح لأنه قتل «بريام» - قد كوفئ بشرف التضحية بها على قبر أبيه، بَيْدَ أنك ما كنت لتُلام إن تساءلت كم يستحق صبي مراهق من التكريمات لقاء تمزيقه شيخًا هرِمًا ضعيفًا حتى الموت، حين رأتهما «بوليكسينا» واقفين هناك كليهما، ترددت في مشيتها.

تقدم «نسطور» وهمس بشيء لـ «هيكاميد» وسلَّمها مقصًّا، ثم - ودون أن ينظر في عيني - أعطاني سكينًا، بدأت «هيكاميد» - وارتجاف يديها خارج عن السيطرة - تحاول قص جدائل الفتاة؛ لكن المقص لم يكن حادًّا كفاية ونصلاه بالكاد يؤثران في جدائل الشعر السميكة؛ لذا تعينَّ علينا أن نتوقف لنحلَّ الجدائل، عمل مُمِض تحت قيظ الشمس ونظرات آلاف المقاتلين، أخيراً، انفلت شعرها - مجعدًا من حبسه الطويل - مُغطيًا كامل ظهرها وصولًا إلى خصرها، بطريقة ما، ونحن نمسك الخصل السميكة بأيدينا، استطعنا أن نقصَّه، غير أن فمي كان قد جفَّ بانتهائنا، ورحت أرتعد بما يضاهي ارتعاد «بوليكسينا» نفسها، اضطررتُ أن أبلع ريقي مرارًا لأمنع الغثيان عن نفسي، أتذكر ظلالًا سوداء على التربة التي مهَّدها الوطء، والحرارة البيضاء السافعة للشمس على مؤخر عنقي، بعد ذلك - ومن دون تمهيد - نهضت «بوليكسينا»، وتقدمت بضع خطوات مُترنحة ثم بدأت تتحدث، ساد الرعب على الفور، لعلهم ظنوا أنها ستلعنهم - ولعنة شخص موشك على الموت تكون ذات سطوة دائمًا - لأنها لم تكن قد قالت أكثر من اسم «أجاممنون» حين أمسك بها حارس وثبتها، بينما أقحم آخر شريطًا من القماش الأسود بالقوة بين أسنانها وعقده بشدة عند مؤخر رأسها، ثم شُدَّت ذراعاها خلفها وقُيِّد معصماها، مجزوزةَ الشعر ومكبلةً هكذا، غير قادرة على الكلام، بدأت تصرُخ من أعماق حنجرتها، بصوتٍ تُصدره الثيران أحيانًا قبل التضحية.

أمامنا مباشرةً، بدأ الكهنة الذين يرتدون أزياءً قرمزية وسوداء ويقفون في صفَّين طويلين خلف «أجاممنون» بترتيل الترانيم للآلهة.

جُرَّت «بوليكسينا» إلى الأمام وأُرْغِمَت أن تركع على ركبتيها في ظل الجثوة، تقدم «بيرهوس» والاخضرار والغثيان باديَان عليه، وراح يصيح باسم أبيه: «أخيل، أخيل»، ثم بدأ صوته يتقلقل: «أبي»، وبدا لي كصبي صغير خائف من الظلام، أمسك «بوليكسينا» من الشعر القليل الذي بقي لها، وشدَّ رأسها إلى الخلف ثم رفع السكين.

ضربة واحدة سريعة متقنة - أعتقد حقًّا أنها ماتت قبل أن ترتطم بالأرض، أو ذلك ما رجوته على الأقل - غير أنه تعين علينا رغم ذلك أن نشهد تشنجات جسدها وارتعاشاته بعد الموت.

لا مزيد من المراسم، كان الجميع - ومن بينهم «أجاممنون»، ربما «أجاممنون» على الأخص - يتوقون إلى الذهاب، غير أنني حين أعدتُّ التفكير في الأمر شككتُ أن يكون موت «بوليكسينا» أثَّر فيه كثيراً؛ كان هذا رجلًا سبق وضحى بابنته هو استجداءً لرياح تأخذه إلى طروادة، نظرت إليه وهو يستدير ويسير مبتعدًا فرأيت رجلًا لم يتعلم شيئًا ولا نسي شيئًا، رعديدًا بلا كرامة ولا شرف ولا احترام، أظن أنني رأيته كما كان «أخيل» يراه.

تنحيت أنا و«هيكاميد» ووقفنا جانبًا، ننتظر انفضاض الرجال، قبل أن نسير في طريق النزول معًا، لم نتكلم كثيراً، أظننا كنا كلتانا نحاول تمالك نفسينا، مصممتين ألا نشعُر بشيء، في لحظةٍ ما، توقفنا ونظرنا خلفنا إلى المدينة المحترقة، كرة ضخمة من الدخان الأسود، تحتقن بانفجارات من اللهب الأحمر والبرتقالي، وتتلاطم صاعدةً إلى السماء التي تعلُو القلعة، كنتُ أرتجف الآن أكثر مما فعلت حين ماتت «بوليكسينا»، لماذا شاهدتُّ ذلك؟ كان بوسعي أن أشيح بوجهي أو أُطْرِقَ إلى الأرض فلا أرى اللحظة الفعلية لموتها، لكنني أردتُّ أن أستطيع القول: إنني كنت معها حتى النهاية، أردت أن أكون شاهدة.

توقفنا عند نهاية السفح، كان يمكننا أن نعود إلى كوخ «نسطور»، فنغزو مخازن نبيذه ونقضي بقية اليوم ونحن نثمل عن عمد، لا أظن أن أحدًا كان ليلومنا، لكن عوضًا عن ذلك، ودون حاجة إلى التشاور حتى، رجعنا إلى الكوخ الذي كانت

النساء الطرواديات محتجزات فيه، كان الداخل الآن أكثر حرارة وأقوى رائحة من السابق، تلك الرائحة الأنثوية المميزة للأمهات المرضعات والفتيات الحوائض، بدت «هيكوبا» مبهورة، ركعنا أمامها وأخبرناها كم كان موت «بوليكسينا» شجاعًا وسريعًا ونظيفًا وسهلًا، فأومأت وهي تعبث بخرقة قماش في حجرها، لا أعرف كمية ما استوعبتْه من كلامنا، إحدى النساء كانت تحاول إقناعها أن تشرب، لكن «هيكوبا» بعد أن رطبت شفتيها لوَّحت بيدها صارفةً الكوب.

بعد حوالي الساعة داخل الكوخ المكتظ، بدأت أشعُر بالوهن والدوار وتعينَّ عليَّ الخروج إلى الميدان، حتى هنا كان للهواء رائحة الغبار ولذعته ومذاقه، وكانت صفوف السفن السوداء الطويلة تومض في الحرارة من بعيد، رأيت رجلًا يخرج من السديم ويسير باتجاهي، وظله يتهدَّج مع اقترابه: «ألكيموس»، كان يحمل ترسًا ضخمًا متألقًا - ليس ترسه - وعلى مرفق ذراعه الأخرى شيء بدا للوهلة الأولى كحزمة من الدثُر، لكن ما إن اقترب حتى رأيت أنه طفل ميت، تراجعت وأنا أفكر أن عليَّ أن أهرع إلى الكوخ وأحذرهنَّ؛ لأنني علمت لفوري أن هذا لا بد أن يكون ابن «هكتور» الصغير، لم يخطر ببالي احتمال آخر، لكن بدلًا من ذلك، انتظرتُ «ألكيموس» قرب الباب.

التقينا على جثة طفلٍ ميت، رجل وامرأة، إغريقي وطروادية، وأخبرني بما كان قد حدث، كانت «أندروماخي» ما إن أصبحت وجهًا لوجه أمام «بيرهوس» - الفتى الذي صار الآن سيدها - قد خرَّت على ركبتيها وتوسلت إليه ألا يترك جثة ابنها تتعفن تحت شرفات حصن طروادة، ويسمح بدفنه إلى جانب «هكتور» فوق ترس أبيه، كان طلبها كبيراً، ليس الدفن في حد ذاته، الذي سيتطلب بضعة رجال وأقل من ساعة، بل تقديم الترس، لقد كان هذا هو الترس الذي أخذه «أخيل» من «هكتور» يوم قَتَلَه، ومن المحتمل أن يكون أغلى ما ورثه «بيرهوس» عن أبيه، كان ترس «هكتور» ليحتل موضعًا مشرفًا في بهو «بيليوس» لأجيالٍ قادمة.

ومع ذلك، تحريًا لإنصاف «أبيرهوس»، فقد وافق، إلا أنه ما كان ليسمح لـ «أندروماخي» أن تعدَّ الطفل للدفن بنفسها، أرادها أن تصعد إلى المتن على

الفور؛ إذ كان يخطط للإبحار حالما يتغير اتجاه الريح.

«لذا قال «ألكيموس»: «ها هو ذا، لقد غسلته في النهر في طريق صعودي، لن يتسنى لهنَّ الوقت لفعل ذلك.»

جثا على ركبتيه، ونقل الجسد الصغير من ذراعيه إلى داخل الترس ثم حمله ودخل به إلى الكوخ.

للوهلة الأولى، لم يُعرِهْ أحد اهتمامًا، لم يكن أكثر من مقاتل إغريقي آخر يشق طريقه بدفع كتفيه بين الحشد، غير أن إحداهنَّ لمحت ما كان يحمله، انتقل الخبر من لسان إلى آخر، لتتبعه على الفور أول ولولة أسى، ارتفع الصوت تدريجيًّا، ثم أخذ يتلاشى شيئًا فشيئًا، حين وضع «ألكيموس» حمولته عند قدمي «هيكوبا».

ما كان شيء ليهيئ «هيكوبا» لهذا، كانت تعرف بالطبع أن حفيدها مات، لكن المعرفة شيء، ورؤية جثته الصغيرة ممددة على الأرض أمامها وذراعيه وساقيه محطمة مع جرح في رأسه عميق بما يكفي ليكشف عن الدماغ؛ شيء آخر تمامًا، خرَّت على ركبتيها قربه وبدأت تلمس كل أجزائه، بَدَتْ توشك على حمله في مرحلة ما، لكنها تراجعت وتركته مُستلقيًا حيث كان، في تجويف ترس أبيه، حين أستعيد الذكرى بعض الأحيان، لا أظنها كانت تعرف على من تبكي، أكثر من مرة نادته «بُني»، كما لو ظنت أن «هكتور» هو الراقد هناك، «هكتور» كما كان في البداية أولَ مرة حملته فيها بين ذراعيها.

همس «ألكيموس»: «سأذهب لأحفر القبر، نحن مستعدون للإبحار تقريبًا، إنه ينتظر الرياح وحسب، أعلم أن الأمر صعب، لكن عليهنَّ أن يسرعنَ في العمل.»

انطلقت «هيكاميد» عبر الميدان لتحضر قماشة كتان نظيفة من كوخ «نسطور»، ثم ساعدنا كلتانا في تحضير الطفل للدفن، أخرجت واحدة أو اثنتان من النساء حليًّا صغيرة كانتا قد تمكنتا من إنقاذها - شيء لم ينتزعه الحراس من عنقيهما - ووضعتاها حول عنق الطفل كي يحظى على الأقل بأثر واهٍ لدفن ملكي.

أصبحت «هيكوبا» أكثر هدوءًا مع اقتراب الانتهاء، غير أن الجرح في فروة رأس الطفل أرّقها، وظلت تقول: «لا أستطيع إخفاء هذا»، قامت «هيكاميد» بطيِّ طرف القماش لتستر رأس الطفل، لكن ذلك لم يشكل فرقًا، واستمرت «هيكوبا» تردد: «لا أستطيع إخفاء هذا، لا أستطيع إخفاء هذا»، كانت تشدُّ على طيات من ردائها بيديها وتحدِّق بلا تعابير من وجه إلى آخر: «لا أستطيع إخفاء هذا».

قلت في قرارتي: لا أحد منا يستطيع. دون تمهيد، جلست على عقبيها، وبَدَتْ فجأةً غير مبالية تقريبًا، وراحت تقول: إننا فعلنا كل ما نستطيع وعلينا أن نترك الطفل الآن، وسيعتني «هكتور» به في العالم الآخر، نَدَّت تنهيدة ارتياح جماعية حين تركته، ولم أعلم إلى ذلك الحين أنني كنت أحبس نفَسي.

عاد «ألكيموس» برفقة «أوتوميدون»، الذي كان قد ساعده في حفر القبر، ومعًا حملا الجثة الصغيرة بعيدًا.

ظلت «هيكوبا» جاثيةً، تهتز أمامًا وخلفًا، وتفرك فخذيها بيديها الفارغتين صعودًا ونزولًا، «الأمر غير مهم بالنسبة إليهم»، قالت تقصد الموتى: «لا يهمهم إن حظوا بجنازة كبيرة أم لا، هذا من أجل الأحياء فقط لا أكثر، الموتى لا يبالون.»

ثم صمتت بعد ذلك، جميعنا صمتنا، إلا أن المزاج تغير حالما عاد «ألكيموس» و«أوتوميدون».

قال لها «أوتوميدون» - مُتحدثًا بصوتٍ عالٍ وواضح جدًّا، كأنه ظنها قد تكون صمَّاء أو مخبولة -: «عليكِ الذهاب الآن، «أوديسيوس» جاهز للإبحار.»

«أوديسيوس» قتلَ حفيدها، والآن أصبحَت أَمَة «أوديسيوس»، رحتُ أشاهد بينما ساعدتها اثنتان من النساء للنهوض على قدميها، بدت هشة جدًّا، وناحلةً جدًّا مثل ورقة شجر في الشتاء تناهبتها العواصف حتى لم يظل منها سوى عروقها الذابلة، ظننت حقًّا أنها قد لا تعيش لتبلغ السفن، بل تمنيت ذلك من أجلها.

وصل المزيد من الحراس، لا رفق الآن، لا اعتبار للسن والضعف، سِيقت النساء

بخشونة إلى الميدان، وصُفِفْنَ من أجل المسير إلى السفن، بدأت أسير في الاتجاه الآخر، عازمةً على إلقاء نظرة أخيرة على جثوة القبر، لكن أحد الحراس رفع رمحه فاضطررت إلى التراجع.

قال أحدهم: «أنت، ما الذي تظن أنك تفعله؟ هذه زوجة «ألكيموس»»، فأُخفِض الرمح على الفور.

وهكذا كانت لي حرية العودة إلى الجثوة، كان ثمة شيء واحد بعدُ أعلم أن عليَّ فعله، جثة «بوليكسينا» راقدَة حيث سقطت، وعباءتها البيضاء تخفق حولها بفعل الريح التي ستحملنا بعيدًا عن طروادة، استجمعتُ عزمي وقلبتها على ظهرها، الجرح الغائر في عنقها جعلها تبدو كأنها تملك فمين، صامتين كليهما.

الصمتُ زينةُ المرأة.

ببطء - لأن العقدة خلف رأسها كانت متشابكة بشعرها - حللتُ الشريط وأخرجته من فمها، شخصت عيناها إليَّ غير مبصرتين، مع انتهائي، كانت أسناني تصطك وتحتم عليَّ أن أشيح.

نظرت إلى الأسفل ورأيت - بعيدًا تحتي - رجالًا مثل طوابير من النمل الأسود يحملون الحمولات على المعابر إلى السفن، ستكون الأكواخ خاوية الآن، تخيلت المعسكر كما سيبدو في الشتاء القادم، كيف ستصفر الرياح العاتية عبر الغرف المهجورة، بحلول الربيع القادم أو الربيع الذي يليه، ستضرب الشجيرات جذورها في الطين، وتصبح الحارس الطليعي لغابة ستدَّعيها ذات يوم لنفسها، وعلى الشاطئ بحد ذاته، لن يبقى شيء، فقط بعض البقايا المعدنية المحطمة هنا وهناك والتي ابيضَّت وصارت بلون العظام بفعل الشمس، ومع ذلك، ستظل أبراج طروادة المسودة المتهدمة منتصبة.

نظرت إلى جثوة القبر وحاولت أن أقول وداعًا لـ «فطرقل» الذي لطالما كان لطيفًا، ولـ«أخيل» لم أشعر بالحزن على «أخيل» آنذاك، ولا أفعل الآن، لكنني كثيراً ما أفكر فيه، وكيف لا وهو والد طفلي الأول! غير أن توديعه ذلك اليوم

كان صعبًا، تذكرت كيف أمسك ذقني بيده، مُقلبًا رأسي في هذا الاتجاه وذلك، قبل أن يسير إلى مركز الميدان، ويرفع ذراعه ويقول: «مرحى يا رفاق، هذه ستفي بالغرض»، ومجددًا - في النهاية - حين أمسك ذقني وأمال رأسي: «إنه رجل جيد، سيكون لطيفًا معكِ، وسيعتني بالطفل»، ذلك الصوت الذي لطالما كان مسيطرًا يطغى على كل صوت آخر.

لكن الفتيات هُنَّ أكثر من أتذكر: «أريانا» وهي تمد يدها لي على سطح القلعة قبل أن تستدير وتندفع إلى حتفها، أو «بوليكسينا» منذ بضع ساعات لا أكثر: «لَأَن أموت على جثوة «أخيل» أفضل من أن أعيش أَمَةً»، وقفتُ هناك - في الرياح الباردة - أشعر بالرداءة والتبلُّد والانحطاط مقارنةً مع طهارتهما الجبارة، لكنني آنذاك أحسستُ بطفلي يركل، فضغطت يدي بشدة على بطني وسرَّني أنني اخترت الحياة.

كان «ألكيموس» يصعد التلة نحوي ويشير لي بإلحاح، من الواضح أن السفن جاهزة للإبحار، استدرتُ من أجل نظرة أخير إلى الجثوة، في مكان ما تحت كل أطنان التراب التي عمرها المرميديون إجلالًا لقائدهم الفقيد، يرقد «أخيل» مع «فطرقل»، وعظامهما المتفحمة مختلطة داخل جرة ذهبية، حتى بعد أن ابتعدنا في البحر، كانت الجثوة ما تزال مرئية، والشمس تقمر ترابها الأحمر، ولا بد أنها ما تزال هناك، رغم أن العشب ينمو أخضر فوقها.

كاد «ألكيموس» يبلغ قمة التلة وأنا لم أفلح بعدُ في إيجاد طريقة كي أقول وداعًا، قلت في قرارتي: لو افترضنا مرة واحدة، خلال كل هذه القرون، أن يفي الآلهة المراوغون بوعدهم فيُمنح «أخيل» المجد الأبدي مقابل موته المبكر تحت أسوار طروادة، ماذا سيصنع أناس تلك الحقب البعيدة التي لا يمكن تخيلها بنا نحن؟ شيء واحد أعرفه بالفعل: لن يرغبوا بالواقع الوحشي للغزو والعبودية، لن يرغبوا أن يتم إخبارهم عن مجازر الرجال والفتيان، واستعباد النساء والفتيات، لن يرغبوا أن يعلموا أننا كنا نعيش في معسكر اغتصاب، لا، سيميلون إلى شيء أكثر نعومة بالإجمال، ربما قصة حب، لا آمل إلا أن يستطيعوا استيعاب مَنْ كان العشاق.

قصته، قصته هو لا أنا، إنها تنتهي بأساه.

«ألكيموس» هنا الآن، عليَّ الذهاب، «ألكيموس» زوجي مُغفل بعض الشيء، ربما لكن كما قال «أخيل»: رجل جيد، وعلى كل حال، ثمة أشياء أسوأ من الزواج بمغفل؛ لذا أدير ظهري لجثوة القبر، وأتركه يقودني إلى السفن، ذات مرة - ليست منذ وقت طويل - حاولتُ أن أخرج من قصة «أخيل» وفشَلت، والآن يمكن لقصتي الخاصة أن تبدأ.

(13) المباريات الجنائزية: منافسات رياضية كانت تقام على شرف المتوفين حديثًا، عُرِفَت في عدة حضارات قديمة. (المترجم)

(14) المِخلاة: كيس يوضع فيه العلف ويُعلَّق في عنق الدابة لتعتلفه. (المترجم)

(15) نهر ليثي في الميثولوجيا الإغريقية: هو أحد الأنهار الخمسة في العالم السفلي أو أنهار هاديس، والكلمة يونانية تعني النسيان، وتحكي الأساطير الرومانية والإغريقية أن الشرب من هذا النهر يجعل أرواح الموتى تتقمص أجسادًا جديدة تجعلها تنسى ما حدث لها في حيواتها الدنيوية، ومن ثم فإن هذه الأنهار الخمسة تشكِّل حدودًا فاصلة بين أرض الأحياء وأرض الأموات. (المترجم)

ملاحظة الكاتبة

أود أن أتقدم بالشكر إلى كلير ألكساندر على سنواتٍ طويلة من التشجيع والنصح السديد، في البدء بصفتها مُحررتي في فايكينغ بينغوين، ومؤخراً بصفتها وكيلتي في إيتكين ألكساندر أسوشييتس، كما أن سيمون بروسر من هاميش هاميلتون كان مُحرراً وناشراً مُتحمسًا ومساندًا للغاية طوال فترة العمل، ما كان لكاتب أن يحظى بفريق أفضل وأعلم كم أنا محظوظة.

وشكر خاص أيضًا للمحررة الطباعة التي تعمل معي: سارا كاورد، والتي تستطيع دائمًا أن تكون دقيقة ولبقَة في آن معًا.

وأخيراً، أود أن أشكر ابنتي: آنا باركر؛ لكونها قارئة أولى موضوعية بشكلٍ مُرعب.